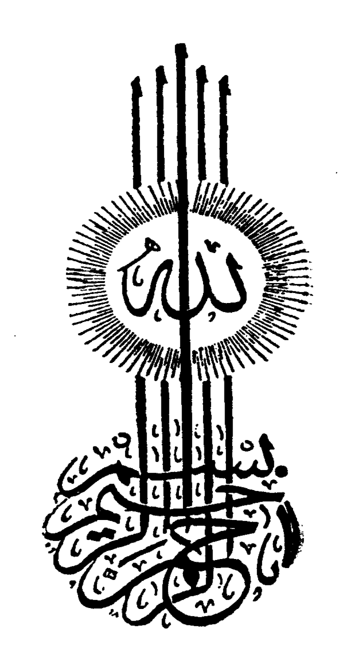
بلاغة القرآن

في أدب الرافعي

تأليف

د. فتحي عبد القادر فريد

دار المنار للنشر والتوزيع
٣ د شارع الباب البحري الازبكية



دار المنـــار للنشر والتوزيع بالقاهرة
٣ د شـــارع الباب البحرى بالازبكية
ت : ٩١٠٢٢٠   ص.ب ٦١ هليوبولس

اهـــــداء

الى من حفظنى كتاب الله الكريم حرفا حرفا الشيخ/عبد الله فرج حمودة عليه رحمة الله ورضوانه — والى والدى الكريم الشـــيخ/عبد القادر فريد عامر الذى احسن توجيهى الى دراســـة علوم الدين واللغة العربية ، ثم الى من درست البلاغة العربية على يديه حتى اضـــحيت من عشـــاقها ، اســـتاذ البلاغة الفاضل استاذى الدكتور/احمد موسى .

الى هؤلاء الثلاثة اهـــدى هـــذا البحث راجيا الله عـــز وجل ان يجعله خالصـــا لوجهه وان ينفع به دينـــه ولغـــة قرآنه ..

د . فتحي فريد

المقدمة

الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله ، والصلاة والسلام على أبلغ النبيين ، وأفصح العرب سيدنا محمد النبى الكريم وعلى آله وصحبه .

وبعد :

فقد حظيت قضية الاعجاز القرآنى بجهود العلماء والباحثين قديما وحديثا ، واتفق جمهور هؤلاء الباحثين على انا البلاغة هى الوجه الاساسى فى اعجاز القرآن . ومن هنا كانت تلك المؤلفات التى لا يحصرها العد فى شرح بلاغة القرآن وكشف أسرارها ، وتنوعت مسالك تلك الكتب وتعددت مناهجها تبعا لتباين ثقافات أصحابها ، وتغاير مشاربهم واتجاهاتهم .

ولقد قرات معظم ما ورد بهذه الكتب عن القرآن وبلاغته ، كما قرات ما كتبه المرحوم « مصطفى صادق الرافعى » حديثا ، فادركت فى صنع الرافعى خصائص تلك البلاغة ووقفت على اسرارها ، ولمست بطريقة عملية علو كعب البلاغة القرآنية .

ولا ينكر ما فى مؤلفات السابقين من معارف قيمة وجهود مثمرة ، تلك المعارف التى تأسس عليها عمل الرافعى حول النظم القرآنى ، غير أن كثيرا من هذه الجهود وتلك النفائس التى ملئت بها كتب السابقين قد غطى على بهائها وحجبها عن الأنظار المسلك الجدلى والطابع المنطقى الذى حشدت به تلك المؤلفات .

ولئن ناسب هذا المسلك ولاءم ذلك الطابع أذواق أهل تلك العصور المتقدمة فانه لا يناسب أذواق عصرنا ولا يلائم روح أهله .

ومن تلك الناحية كتب لعمل الرافعى الخلود ونال الاكبار والاعجاب لتجرده من هذا الصبغ الجدلى الذى حفلت به مؤلفات السابقين .

وهذا العمل يضع الرافعى فى مصاف كبار البلاغيين ، لانه اعتمد فيه على الأصول التى أرساها المتقدمون فلقد درس الرافعى علوم البلاغة ، وقرأ ما كتبه المتقدمون والمتاخرون عن البلاغة القرآنية قراءة واعية ، وورد عمله مجردا عن العناية بالألقاب والاهتمام بالمصطلحات وخاليا من القواعد التى حفلت بها كتب البلاغة مما جعل صنعه أقرب الى الاذواق والصق

بالقلوب وأدعى الى التأثير فى النفوس من كل ما كتبه البلاغيون والمتخصصون فى دراسة الاعجاز القرآنى .

وقد جاء هـذا البحث ليملأ فراغا ملموسا فى مكتبة البلاغة واعجاز القرآن ، لعلم من أعلام الدراسات القرآنية جاد به العصر الحديث ، ولم يلق من الدارسين الاهتمام اللائق به ، والتقدير الذى يلائم جهوده المضنية : دفاعا عن القرآن والدين واللغة العربية .

وتنوعت مصادر هـذا البحث ، وتشعبت مناهله ، وتتمثل تلك الموارد فيما يلى :

اولا — كتب الرافعى : اذا كانت تلك الكتب مصادرى الاولى فى هـذا البحث ، حيث انتفعت بكثير مما جاء فيها ، وكان لابد أن أستوعبها كلها ، فما من كتاب منها الا حوى فى تضاعيفه كلاما للرافعى عن القرآن واللغة وهما القطبـان اللذان دار أدبه حولهما .

ثانيا — مقالات الرافعى : وتعد مقالات الرافعى فى الصحف والمجلات التى عاصرته وكان يكتب فيها المصدر الثانى لهـذا البحث ، فقد قضيت مع تلك الدوريات فترة ممتعة ، أفدت منها افادة بالغة ، وخرجت منها بكثير عن الرافعى ، وأضاءت الطريق أمامى ، كما وجدت فيها الاجابة عن كثير من التساؤلات التى كانت تدور فى ذهنى ، ولا غنى لمن يتناول أى جانب من جوانب الرافعى بالبحث والكتابة عن الرجوع الى ما كتبه الرافعى وما كتب عنه فى تلك الصحف والمجلات ، والا جاءت كتابته ناقصة ، وكان بحثه غير واف ، كشأن تلك الأبحاث النادرة التى كتبت عن الرافعى ، ولم تصدر عن هـذه الناحية ، لذلك جاءت عديمة الجدوى وضئيلة القيمة .

ثالثا — رسائل الرافعى : أما ما كتبه الأستاذ « محمد سعيد العريان » فى « حياة الرافعى » وما نشره الأستاذ : « محمود أبو رية » من الرسائل التى كان يتبادلها مع الرافعى فأعاننى كثيرا فى كشف عديد من جوانب هـذا البحث ، وأفادنى فى التعرف على ملامح شخصية الرافعى .

رابعا — كتابات المعاصرين عن الرافعى : وهى نادرة ومحدودة ، ولم تقدم شيئا ذا بال عنه ، بل ان ما كتبه هؤلاء المعاصرون يكاد فى معظمه يكون تلخيصا لمـا ذكره العريان وأبو رية ، هـذا باستثناء ما كتبه الدكتور : « مصطفى الشكعة » عن الرافعى فى كتابه « مصطفى صـادق الرافعى أديبا عربيا ومفكرا اسلاميا » اذ اعتمد الى حد كبير فيما ذكره على ما كتبه الرافعى نفسه ، لذا جاء عمله جديرا بالتقدير .

خامسا — الرسائل العلمية عن الرافعى : ولم يلق الرافعى حتى هـذه اللحظة من المتخصصين فى الدراسـات اللغوية والأدبية تقدرا يسـتحق الذكر ، والأبحاث التى تناولته على قلتها لم تقدم جديدا ، ولم تضف شيئا ذا بال ، بل كانت فى معظمها تلخيصا لبعض كتب الرافعى .

سادسا — كتب الاعجاز والبلاغة والنقد : وكانت تلك الكتب فى القديم والحديث ، مرجعى فى فهم كثير مما كتبه الرافعى ، وافادتنى فى الوقوف على المصادر التى صدر عنها الرافعى ، وما فى كتابته من موافقة أو مخالفة لتلك المصـادر .

كانت تلك هى الموارد التى استقيت منها مادة هـذا البحث .

وبعد أن طوفت فى تلك الآفاق ، وتنقلت بين هـذه الآثار ، عكفت على ما جمعت من معلومات ،وأخـذت فى تصنيفها ،وبعد أن هضمت ما بهـا ، شرعت فى كتابة هـذا البحث الذى جاء فى مقدمة وخمسة أبواب وخاتمة .

فتناولت فى الباب الأول : حياة الرافعى فى ستة فصول هى : الرافعى وعصره — نشأة الرافعى وثاقفته — وأدب الرافعى الدينى والاجتمـاعى ودفاعه عن القرآن واللغة العربية — والجوانب الوجدانية فى حياته وأثرها فى الأدب العربى —والرافعى الشاعر والكاتب — والرافعى الناقد .

وناقشت فى الباب الثانى : اعجاز القرآن فى فصول ستة كانت على الترتيب : معنى الاعجاز ودليله — وأوجه الاعجـاز — ومذهب الصرفة — والمذهب الغيبى فى الاعجاز — والاعجاز الروحى — والاعجاز فى القصص القـرآنى .

وتحدثت فى الباب الثالث عن : الرافعى والاعجاز فى : أربعة فصول هى : الرافعى والاعجاز العلمى — الرافعى والاعجاز اللغوى والادبى الرافعى والاعجاز النفسى — الرافعى والاعجاز فى أسلوب القرآن .

وتحدثت فى الباب الرابع عن : الرافعى وبلاغة القرآن فى ثلاثة فصول هى : انسـجام الحروف فى القرآن الكريم — انسـجام الكلم فى القرآن الكريم — الانسجام التركيبى فى القرآن الكريم .

وتحدثت فى الباب الخامس عن : الرافعى بين علماء البلاغة والاعجاز فى ثلاثة فصـول هى :

الرافعى بين دارسى الاعجـاز — ومنهج الرافعى فى بحث البلاغة القرآنية — واعجاز القرآن للرافعى بين التقريظ والنقد .

اما الخاتمة فقـد تناولت فيها أهم النتـائج التى انتهيت اليها مع تلخيص واف للبحث .

والله ادعو ان أكون قد وفقت فيما قصـدت ، فهو الهـادى الى سـواء السـبيل ..

الباب الأول
حياة الرافعي

الفصـــل الأول

الرافعى وعصره

ان مدة حياة الرافعى هى سبعة وخمسون عاما ، منذ كانت ولادته فى قرية « بهتيم » بمحافظة القليوبية عام ١٨٨٠م الى ان وافاه القدر فجاة فى العاشر من مايو عام ١٩٣٧م بمدينة طنطا .

اما عمره فى الكتابة والتاليف فيبلغ سبعا وثلاثين سنة منذ بدا يكتب مع مطلع هـــذا القرن الى أن لحق بربه فى التاريخ المذكور .

واذا كان ادب كل امة هو المرآة الناصعة التى تعكس حياتها وتصور أحوال شعبها ، فان ادب الرافعى يعد تعبيرا واضحا وتصـــويرا ناطقا لمـــا كان يعانيه الشعب المصرى وما كان يدور بالمجتمع العربى فى هـــذه الآونة .

نقرا ادب الرافعى المنثور منه والمنظوم ما طبع منه وما لم يشـــأ له القدر ان يطبع فنراه فى معظمه يدور فى اطارين :

الاطار الأول : تصوير الحالة السيئة التى انتهت اليها احوال هـــذا الشعب من النواحى : الاجتماعية والسياسية والثقافية والاقتصادية بفعل الاستعمار الذى بذر الجهل ونشر الفوضى وأحدث الفرقة بين صـــفوف هـــذه الأمة[1] .

فزخر ادب الرافعى بأعداد لا حصر لها من تلك المقالات التى تقف فى وجه الاستعمار وتصد مؤامراته ، وما من حادثة الم بهـــذا الشعب بتأثر من صنع الاستعمار الا لمحنا صداها على وجه السرعة فى أدب الرافعى .

اما الاطار الثانى الذى دار فى نطاقه أدب الرافعى ، فهو المحـــافظة على عروبة هـــذا الشعب والعمل على احياء الدين الاســـلامى والتقاليد

---

(١) اقرا ذلك فى : تطور الأدب الحديث فى مصر . د . احمد هيكل ص٨٥ وما بعدها و ٢٥١ وما بعدها وعباس العقاد ناقدا ، د . عبد الحى دياب ص٦١ وما بعدها .

الشرقية ، والوقوف فى وجه هـذه التيـارات الزاحفة من الغرب ممثلة فى مجموعة من المصريين كتب لها أن تقف على أدب الغرب فعادت تشيد بكل ما هو أوربى وتلهج السنتها بالثناء على كل ما هو غربى ، وتشـكك فى العروبة والدين والأخلاق .

فقد وقف الرافعى فى وجه هؤلاء المستغربين زمانا طويلا ، وشـغل كثيرا بالرد على افترائهم ، ونقض أحلامهم حتى حال بينهم وبين ما يريدون(١) .

فمن المقالات التى تدور فى اطار النطاق الأول ، هـذه المجموعة من المقالات التى تفيض لوما وزجرا لهـذه الفئة التى تعاونت مع الاستعمار وحازت المـال والثروة على حساب طبقات الشعب الكادحة ، فيتوجه الرافعى لهـذه الطبقة بالتأنيب والتعنيف وينفى عنها الوطنية فى مقالات : أحلام فى الشـارع — أحلام فى قصر — بنت الباشا(٢) .

كما يندد الرافعى باستبداد الطبقة الحاكمة ، وينادى باشتراك الشعب مع الحكومة فى ادارة البلاد ، ويرى أن ذلك سبيل الاصلاح ، وبه يملأ الفراغ الخـاوى بين الشعب والحكومة(٣) .

ويشارك الرافعى بقلمه فى التنديد بالانجليز عقب حادثة دنشـواى ويقول فى ذلك شعرا ، كما يشارك كذلك فى أحداث ثورة ١٩١٩م ويختص زعيمها سـعد زغلول بجانب كبير من مقالاته(٤) .

ويتحدث كذلك عن أهداف الاستعمار من اقامة الاحزاب السـياسية وتعددها ، وعن لجنة « ملنر » ويحيى الشعب على مقاطعته لها(٥) .

---

(١) اقرأ تفصيل ذلك فى : الاتجاهات الوطنية فى الأدب المعـاصر ، محمد حسين جـ٢ ص١٧٧ وما بعدها .

(٢) أنظر : وحى القلم : جـ١ ص٨٦ وما بعدها .

(٣) أنظر : المرجع السابق ص٣٢٧ وما بعدها .

(٤) أنظر : المرجع السابق جـ١ ص٣٣٩ .

(٥) أنظر : المرجع السابق ص٣١٥ وما بعدها .

ويندد الرافعي بالامتيازات الأجنبية ، ويحذر الشعب من عواقبها ويحثه على التخلص منها ويرى أنها مضرة ومعرة وظلم وقسـوة(١) .

كما ينتقد الرافعي هـذه الألقاب التي يعمل بها الاستعمار على بث التفرقة بين طوائف الشعب وغرس روح الحقد والكراهية في نفوسهم(٢) .

كما يشارك الرافعي في محنة فلسـطين ، ويرى أنها ليست محنـة فلسطين ، وانما هي محنة الاسلام ، يريدون الا تثبت شخصيته العزيزة الحرة ، ويدعو المسلمين في كل أنحاء العالم الى التبرع لتخليصها من براثن الاسـتعمار والصـهيونية(٣) .

الى غير ذلك من عشرات المقالات التي شنها الرافعي على الاستعمار فاضحا فيها جرائمه ومنددا بغدره وأساليبه الوحشـية .

أما الطـائفة الثانية من مقالاته فانه قذف بها في وجه هؤلاء المتغربين الذين أرادوا أن يجعلوا مصر امتدادا لأوربا في لغتها وعاداتها وأفكارها ، بالتشكيك في حضارتنا ومبادئنا وتقاليدنا واتهامها بالجمود والتأخر ، والاشادة بحضـارة الغرب والثنـاء على مدنيتهم .

فقد وقف الرافعي في وجه هؤلاء واخذ يلفت الأذهان الى خطورة هـذه المزاعم ، ويبين أن الهدف منها خدمة الاستعمار بتحقيق أهدافه التي يعمل جاهدا للوصول اليها وهي : القضـاء على اللغة العربية والدين الاسلامي .

ومن تلك الزاوية كان صدام الرافعي وعراكه مع كثير من رجالات هـذا العصر : كالدكتور : محمد حسين هيكل ومنصور فهمي وسلامة موسى وأحمد لطفي السـيد والدكتور طه حسين(٤) .

---

(١) أنظر : المرجع السابق ص٣٠٠ وما بعدها .
(٢) أنظر : المرجع السابق ص٢٨٣ وما بعدها .
(٣) أنظر : المرجع السابق ص٢٦٠ وما بعدها .
(٤) أنظر : مصطفى صادق الرافعي ، د . مصطفى الشكعة ص٣٢ وما بعـدها .

نعم وقف فى وجه هؤلاء كثير غير الرافعى ، لكن الرافعى كان المدافع الاول عن : حمى الدين واللغة العربية .

ومن تلك المقالات مقال كتبه الرافعى عن : اللغة والدين والعـــادات باعتبارها من مقومات الاســـتقلال بين فيه أن لغة الامة هى الهـــدف الاول للمستعمرين ، وانه ما ذلت لغة شعب الا ذل ، ولا انحطت الا كان أمره فى ذهاب وادبار ، وأن الدين هو حقيقـــة الخلق الاجتمـــاعى فى الأمة ، وأن ينحصر الشـــعب فى ذاته الســـامية بخصـــائصها العـــادات هى المـــاضى الذى يعيش فى الحاضر وباللغة والدين ومقـــوماتها فلا يسهل انتزاعها منه ولا انتســـاقه من تاريخه(١) .

ويذكر الرافعى كذلك فى مقال : نهضة الاقطار العربية — أن نهضة هـــذا الشرق العربى لا تعتبر قائمة على اســـاس وطيد الا اذا نهض بها الركنان الخالدان :الدين الاســـلامى واللغة العربية ، وما عداهما فعسى الا تكون له قيمة فى حـــكم الزمن الذى لا يقطع بحكمه على شىء الا بشاهدين من المبدأ والنهـــاية(٢) .

وفى هـــذا المجال وفى مقام الرد على من ينسبون كل جميل مستظرف الى المدنية الاوربية فان الرافعى يوضح ما ينبغى أن يكون عليه موقفنا من هـــذه المدنية ، فيدعونا الى التريث فى النقل منها ، وأن يقتصر ذلك النقل على ما يفيدنا دون ما يضرنا ، ففى الجانب السياسى نأخذ ما يتفق مع الأصل الراسخ فى آدابنا من الشورى والحرية الاجتماعية عند الحد الذى لا يجور على أخلاق الأمة ولا يفســـد مزاجها ولا يضعف قوتها ، وفى الأدب والشعر ندع خرافاتهم وســـخافاتهم الروائية الى لب الفكر وروائع الخيال وصميم الحكمة ، ونتتبع طريقهم فى الاستقصاء والتحقق وأسلوبهم فى النقد والجدل ، وأما فى العادات الاجتماعية ، فلنذكر أن الشرق شرق والغرب غرب ، والقوم

---

(١) انظر : وحى القلم جـ٣ ص٣٥ وما بعدها .
(٢) انظر المرجع السابق ص١٩٨ وما بعدها .

فى نصف الارض ونحن فى نصـــفها الآخر ، ولهم مزاج واقليم وطبيعة وميراثه من كل ذلك ولنا ما يتفق وما يختلف(١) .

ويشن الرافعى فى مقدمة كتابه : « تحت راية القرآن » حربا شعواء على هؤلاء السابقين الذى يتهمون اللغة العربيـــة بالجمود والتأخر وعدم نهوضها بمسايرة ركب الحضـــارة الحديثة ، فيعلن انهم بذلك يخـــدمون الاستعمار الذى يسعى جاهدا للقضاء على القرآن الكريم من ناحية القضاء على اللغة العربية ، ويذكر أن فصاحة القرآن يجب أن تبقى مفهومة ، ولا يدنو الفهم منها الا بالمران والمزاولة ودرس الاساليب الفصحى والاحتذاء عليها واحكام اللغة والبصر بدقائقها وفنون بلاغتها والحرص على ســـلامة الذوق فيها ، وكل هـــذا مما يجعل الترخص فى هـــذه اللغة واساليبها ضربا من الفســـاد والجهل(٢) .

كما وقف الرافعى فى وجه دعاة « التمصير » وانصار العلمية من امثال : احمد لطفى السيد وسلامة موسى وغيرهم ، وبين أن فى ذلك قضاء على اللغة العربية وحكما عليها بالفناء ، وانه لو حدث ذلك فيوشـــك ان يأتى يوم تكون فيه تلك اللغة الفصحى فى كتابها الكريم ضربا من اللغات الأثرية(٣) .

وبعد : فهـــذه نماذج مما كتبه الرافعى عن اهم احـــداث الفترة التى عاشها ، ونرى أنها فضلا عن كونها مرآة صادقة لمـــا كان يمر به المجتمع المصرى آنذاك ، فانها كانت ايضا فى معظمها دفاعا عن حمى الدين وكيان العربية وصدا لمؤامرات الاستعمار ومن سار فى ركابه .

ولقد آتت جهود الرافعى ثمارها وحققت مقالاته اهدافها ، وقطعت الطريق على المتغربين الذين عادوا فى أخريات حياتهم اكثر انصافا واقوى ايمـــانا ونسوا كل ما كانوا يقولون ، وصدق الله اذ يقول :

« انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون » .

(١) انظر : المرجع السابق .
(٢) أنظر : تحت راية القرآن ص٩ وما بعدها .
(٣) انظر : المرجع السابق ص٥١ وما بعدها .

الفصـــل الثـــانى

نشأة الرافعى وثقافته

نشــــأته :

لأسرة الرافعى اثر كبير فى صبغ ادبه وكتابته بالصبغة الدينية ، اذ هو سليل اسرة اخذ فرادها من الدين بحظ وافر وتزودوا منه بزاد طيب — كما اوشكت وظائف القضاء والفتوى ان تكون مقصــورة عليهم ، فكان منهم فى وقت ما اربعون قاضيا فى مختلف المحاكم المصرية — وتتصل الاسرة فى نصبها بعمر بن عبد الله بن عمر بن الخطاب امير المؤمنين رضى الله عنه — أما الشيخ : عبد الرازق الرافعى والد الرافعى فكان رئيسا للمحاكم الشرعية فى كثير من الاقاليم ، وهو واحد من احد عشر اخا اشتغلوا كلهم بالقضــاء من ولد المرحوم الشــيخ : سعيد الرافعى(١) .

واصل اسرة الرافيعى لبنانى — وقد هاجر كثير من افرادها الى مصر ومنهم : والد الرافعى وافراد الأسرة ســواء منهم هؤلاء الذين عاشــوا ويعيشون فى مصر ، أو اولئك الذين عاشوا ويعيشون فى طرابلس لبنان معروفون بحب العلم وتنشئة ابنائهم عليه ، ومن أعلام الرافعيين المصريين غير مصطفى صادق أمين الرافعى الزعيم الصحفى المجاهد واحد عمد الحزب الوطنى وزميل مصطفى كامل ومحمد فريد وعبد الرحمن الرافعى شــيخ المؤرخين المعــاصرين وواحد من أشــهر من كتبوا تاريخ مصر فى العصر الجديث ومن اعلام أسرة الرافعى الطرابلسيين العالم الكبير : الشـــيخ عبد القادر الرافعى رأس الأسرة والشاعر المبدع عبد الحميد بن عبد الغنى ابن أحمد الرافعى(٢) .

---

(١) أنظر : حياة الرافعى محمد ســعيد العريان ص١٢ وما بعدها ، ط . أولى .

(٢) أنظر : مصطفى صادق الرافعى اديبا عربيا ومفكرا اســلاميا : د . مصطفى الشكعة ، ص١٧ وما بعدها ، ط . بيروت .

وفى قرية (بهتيم) احدى قرى محافظة القلوبية ولد الرافعى حيث كان يقيم بها جده والد امه وذلك فى يناير سـنة ١٨٨٠م ، اذ آثرت أمه أن تكون ولادتها فى دار أبيها ، أما اقامته حتى وفاته فكانت فى طنطا حيث دفن والده وكان رئيسا للمحكمة الشرعية بها(٢) .

و (مصطفى صادق) هو الاسم المعروف الذى سمى به الرافعى واشتهر به ، ونادرا ما كان يقتصر فى ندائه « بمصطفى » فقط(١) .

وطنيتـــــه :

ولد الرافعى اذن فى مصر — ودرج على أرضها الطيبـــة . شرب من نيلها ، واستلهم شعره وادبه من جوها الساحر ، وما كان نقده مظــاهر الانحلال وتنديده بصـــور العبث والفوضى مما فاض به أدبه وحفلت به كتابته الا تقديرا لهـــذا الوطن وحبا لشــــعبه — فكثيرا ما تحدث الرافعى يطلب الاصلاح وينشد التغيير — ولطالمـــا وضع قلمه فى خدمة المنكوبين والمضـــطهدين من هـــذا الشعب — وكثيرا ما وقف فى وجه هؤلاء الذين اندفعوا فى تيار الغرب وســـاروا فى ركاب الأوربيين مناديا بأن يظل لمصر كيانها ، وتبقى لها عاداتها وتقاليدها ولغتها وتفكيرها .

فأدب الرافعى يحكى روح مصر ، ويصور جوها ، وكتابته تعبر عن حب مصر وتقديرها ومن غريب الأمر ما يقرره بعض المعاصرين من : عدم صدق الرافعى فى هـــذا الحب ، وان هواه لم يكن خالصا مع مصر ، وذلك اعتمادا على أن أسرته ليست أصلا من مصر ، وعلى بعض عبـــارات قالها أثناء غضـــبه فى ذم مصر مثل : « هـــذه أمة لا تســـتحق أكثر مما هى فيه — وشعب لا يكافىء ولا يميز — الا يجوز للانبيــــان أن يلعن هـــذه البقعـــة وأهلها » — وأيضـــا لأنه اتجه الى جامعة بيروت منهلا للعلم يورده ولده

---

(٢) انظر : حياة الرافعى : محمد سعيد العريان ص١٣ وما بعدها .

(١) انظر : الامام مصطفى صادق الرافعى : مصطفى نعمان حسين البـــدرى ص٢١٣ .

متجاهلا الجامعة المصرية ، وكانت قد قام لها بناء — وهى وقتئذ جديرة بالتشجيع العملى .

فيرى هؤلاء أن حنين الرافعى الى موطنه الاصلى دفعه الى هذا المظهر من مظاهر الاعتزاز بالأوطان(٢) .

ولا يرى الباحث اساسا من الصواب ولا أصلا من الصحة ما يذهب اليه هؤلاء : فموضوع الشكوى من الازمان والأوطان أمر يكاد معظم الناس وغالبيتهم يشتركون فيه — واذا كانت مثل هذه الشكوى تخرج الشاكى من وطنيته ، فان شاعر مصر الكبير « حافظ ابراهيم » يكون ولا ريب أول الخارجين على مصر ، وذلك فى قوله من قصيدة له :

حطمت السيراع فلا تعجبى — وعفت البيان فلا تعتبى

فما انت يا مصر دار الأديب — ولا انت بالبلد الطيب(١)

كما ان الرافعى ليس فى حاجة الى من يدفع عنه هذه التهمة ، فقد كتب عن مصر شعرا لم يكتبه غيره فى اناشيده الرائعة العديدة الشهيرة مثل نشيد :

حماة الحمى يا حماة الحمى — هلموا هلموا لمجد الزمن

فقد صرخت فى العروق الدما — نموت نموت ويحيا الوطن

ونشيد :

اسلمى يا مصر اننى الفدا — ذى يدى ان مدت الدنيا يدا

ونشيد :

الى الصلا الى العلا بنى الوطن — الى العلا كل فتاة وفتى(٢)

---

(٢) انظر : دراسة فى ادب الرافعى : د . نعمات أحمد فؤاد ص٣٤ ط . ثانية وقضية السفود بين العقاد وخصومه : العوضى الوكيل ص٩٦ .

(١) انر : من رسائل الرافعى : محمود أبو رية ص٢٠ .

وليقرأ هؤلاء الذين يدعون عدم صدق الرافعى فى وطنيته ، وعــدم خلوص هواه لمصر ما كتبه الرافعى فى الجزء الاول من ديوانه ليروا بأعينهم فســاد ما ذهبوا اليه ، وليعــرفوا الى أى حــد كان الرافعى يحب مصر ويقــدرها(٣) .

أفبعد هــذا يصح القول : بأن الرافعى لم يكن صادقا فى وطنيتــه ، ولا مخلصا فى حب مصر ؟ ما أحسب ذلك الا لغوا من القول وزورا من الكلام .

ثقــــافته :

نظام الرافعى اذا‍ا قصرناه على صنف معين من العام ، أو خصصناه بطائفة محــددة من الثقافة ، فلم تقف كتابته عند لون بعينه ، ولم تقتصر قراءته على جهة محددة . بل أحاط الرافعى بكل ما وقعت عليه عينه — وقرأ وحفظ معظم ما وجد تحت يده فى شتى أرجاء العلم وسائر صنوف الثقافة — فجاءت كتابته على هــذا النمط جولات فى دنيا العلم ورحلات فى عالم الأدب والثقــافة والفكر .

فلقد تثقف الرافعى ثقافة عميقة ، وأتاحت له تلك الثقافة الواسعة أن يسهم فى كل فن من فنون القول العربى بنصيب ، وكل لمحة من لمحات الفكر الاسلامى بقدر ذى قيمة وخطر وأثر ، فقد كان الرافعى شاعرا مبدعا وكاتبا بارعا ، وكان مؤرخا عميق الفهم لفلسفة التاريخ وقضايا الأدب ، كما كان ناقدا غلبت عليه حدة القول وعنفوان التناول ، ولكنه فى نفس الوقت كان ثاقب النظرة لمــاح الخاطر وافر الانتاج — ثم هو لغوى يفهم سر العربية التى اسلست له قيــادها طوعا وحبا ، فكانت جملته فصــيحة محتوى الألفاظ ، مشرقة سبك الديباجة ، ثرية مناهل المعانى — رشــيقة فصائل المضــمون .

---

(٢) أنظر : مصطفى صادق الرافعى أديبا عربيا ومفكرا اســلاميا مصطفى الشكعة ص٢٣ .

(٣) أنظر : ديوان الرافعى ٢٣/١ .

وصاحب تلك الثقافة العريضة المتبحرة حظه من الشهادات والدرجات العلمية لا يتجاوز الشهادة الابتدائية ، ومعظم ثقافته قد حصلها من مدرسته الخاصة التى أنشأها لنفسه وأعد مناهجها بنفسه ، وكان فيها المعلم والتلميذ ، هذه المدرسة الخاصة هى مكتبة والده التى أقبل عليها يلتهم كل ما فيها من علم ، عقب المرض الشديد الذى ذهب بسمعه أثر حصوله على الشهادة الابتدائية ، فى هذه المكتبة الحافلة التى كانت تجمع أشتاتا من نوادر كتب الفقه والدين والعربية : اكب الرافعى عليها أكباب النهم على الطعام الذى يشتهيه ، فما مضى الا قليل حتى استوعبها وأحاط بكل ما فيها وراح يطلب المزيد ، وكان له من علته سبب يباعد بينه وبين الناس فما يجد لذة ولا راحة فى مجالسة أحد — وكان ضجيج الحياة بعيدا عن أذنيه ، وكا يحس فى نفسه نقصا فى ناحية يجهد جهده ليداريه بمحاولة الكمال فى ناحية أخرى ، وكان يعجزه أن يسمع فراح يلتمس أسباب القدرة على أن يتحدث وكان مشتقا الى السمع ليعرف ماذا فى دنيا الناس فمضى يلتمس المعرفة فى قراءة أخبار الناس ، بذلك اجتمعت للرافعى كل أسباب المعرفة والاطلاع ، وكانت علته خيرا عليه وبركة كما كانت مكتبته هى دنياه التى يعيش فيها : ناسها ناسه وجوها جوه وأهلها صحابته وخلانه ، وعلماؤها رواته ، وأدباؤها سماره ، فأخذ عنها العلم كما كان يأخذ المتقدمون من علماء هذه الأمة عن العلماء والرواة ، فنشأ بذلك نشأة السلف ، يرى رأيهم ، ويفكر معهم ، ويتحدث بلغتهم ، وتستخفه أفراحهم ، وتترامى له أحلامهم ومنامهم(١) .

هذه الرحلة الى هذا العالم الزاخر بأصناف الثقافة الحافل بألوان العلوم والمعارف بدأها الرافعى بحفظ القرآن وتعلم مبادىء الدين كبقية أفراد أسرته ، ثم بحصوله على الشهادة الابتدائية ، وانقطاعه عن الدراسة بعد ذلك عقب صممه وعكوفه فى مكتبة والده يستوعب ما فيها ، ويأتى على كل ما ضمت من علم وما حوت من ثقافة وفكر .

---

(١) أنظر : حياة الرافعى ص١٩ .

لم يذهب الرافعى الى الأزهر ، فقد كان فى أزهر من قومه ، اذ كان آباؤه شيوخ الحنفية فى مصر ، تولوا قضاءها وافتاءها واقراءها حقبة طويلة من الدهر ، فدرج هذا الناشىء الصالح فى حجر أربعين قاضيا من قضاة الشريعة كانوا من أهل بيته وكان أبوه الشيخ عبد الرازق الرافعى قد جرى على أعراق هذه الأسرة الكريمة من ورع القلب وصحة الدين وسلامة الضمير ، ثم تميز فى قضائه ببرارة الحق وصلابة الرأى وثبات العقيدة ، فجاء مصطفى فى كل ذلك صورة أسرته وسر أبيه ، بذلك عملت فى الرافعى عوامل الوراثة والبيئة والدراسة والعاهة ، واتفق له من كل أولئك ما لم يتفق لغيره فكان أفقه العلماء فى دينه ، وأعلم الأدباء بلغته ، وواحد الآحاد فى فنه والدين واللغة والأدب هى عناصر شخصيته وروافد عقليته وطوابع وجوده . فالرافعى أمة وحده لها وجودها المستقل وعالمها المنفرد ومزاجها الخاص(١) .

ثقافته الأدبية :

أخذ الرافعى يقرأ كل ما وقع تحت يده ، ودفعه صممه الى الانقطاع عن الناس وادمان القراءة ، ولم يحصر نفسه فى مادة بعينها ، بل قرأ كل ما وقع تحت بصره من أدب ونحو وصرف وبلاغة وتفسير وحديث وتصوف وتاريخ وفلسفة وغير ذلك من أنواع العلوم .

فكان يقرأ على طريقة الجاحظ ، وهى الطريقة التى طلب من صديقه أبى رية أن يسير عليها فى قراءته فى قوله : « اقرأ كل ما تصل اليه يدك فهى طريقة شيخنا الجاحظ وليكن غرضك من القراءة اكتساب قريحة مستقلة وفكر واسع وملكة تقوى على الابتكار ، فكل كتاب يرمى الى احدى هذه الثلاث فاقرأه »(٢) .

---

(١) أنظر : مجلة الرسالة عدد : ٢٠٢ فى ١٧ مايو سنة ١٩٣٧ .
(٢) من رسائل الرافعى : محمود أبو رية ص٣٤ ط . ثانية .

فقرأ الرافعى كل كتب الأدب التى تشحذ القرائح وتربى ملكة النقد والتذوق ، اذ قرأ الاغانى ورسائل الجاحظ وكتاب الحيوان والبيان والتبيين له ، والمثل السائر لابن الأثير وأوصى بهـذا الكتاب أبا رية قائلا له : « وتفقه فى البلاغة بكتاب المثل السائر ، وهـذا الكتاب وحده يكفل لك ملكة حسنة فى الانتقاد الأدبى وقد كنت شديد الولوع به »(٣) .

كما قرأ كتاب تحفة الرائد لليازجى والالفاظ الكتابية للهمذانى ويتيمة الدهر للثعالبى والعقد الفريد لابن عبد ربه ، وزهر الآداب وشرح ديوان الحماسة ونهج البلاغة الى غير ذلك من الكتب والدواوين .

وهـذه الكتب السابق ذكرها هتى التى تكون الأديب وتربى ملكة النقد والتذوق ، والرافعى يوصى كل من يريد تعلم الانشاء واجادة الكتابة بادمان القراءة فيها فيقول لأبى رية : « الانشاء لا تكون القوة فيه الا عن تعب طويل فى الدرس وممارسة الكتابة والتقلب فى مناحيها والتبصر بأوضاع اللغة ، وهـذا عمل كان المرحوم الشيخ محمد عبده يقدر أنه لا يتم للانسان فى أقل من عشرين سنة ، فالكاتب لا يبلغ أن يكون كاتبا حتى قطع هـذا العمر فى الدرس وطلب الكتابة ،فاذا أوصيتك أن تكثر من قراءة القرآن ، ومراجعة الكشاف (تفسير الزمخشرى) ثم ادمان النظر فى كتاب من كتب الحديث كالبخارى أو غيره ، ثم قطع النفس فى قراءة آثار ابن المقفع (كليلة ودمنة واليتيمة والأدب الصغير) ثم رسائل الجاحظ وكتاب البخلاء ، ثم نهج البلاغة ، ثم اطالة النظر فى كتاب الصناعتين للعسكرى والمثل السائر لابن الأثير ، ثم الاكثار من مراجعة أساس البلاغة للزمخشرى ، فان نالت يدك مع ذلك الاغانى أو أجزاء منه ، والعقد الفريد — وتاريخ الطبرى ، فقد تمت لك كتب الأسلوب البليغ »(١) .

---

(٣) المرجع السابق ص٢٧ .
(١) المرجع السابق : ص٥٢ وما بعدها .

ثقـــافته اللغـــوية :

ولا تستبد بنا الدهشة ، ولا يذهب بنا العجب مذهبه حين نرى للرافعى هـــذه المباحث الفياضة فى اللغة والنحو والصرف ، حيث نجد له اجتهادا وابتكارا فى ذلك لا يقل عن اجتهاد وابتكار أهل اللغة فى عصور النهضـــة اللغوية والأدبية ، وذلك لاطلاعه الواسع واحاطته الشـــاملة بكتب اللغة وعلومها ، ولم يكن كتابه : (تاريخ آداب العرب) الا ثمرة لهـــذا الاطلاع ونتيجة لتلك الاحاطة .

وللرافعى مكانته اللغوية ، وله فى اللغة وعلومها آراء ومواقف يجب أو تفرد لها أبحاث .

ولقـــد وقف الرافعى من كتب اللغة على : القاموس المحيط وشرحه المسمى بتاج العروس وأساس البلاغة ولم تسد تلك الكتب على وفرة موادها بغيته فكان يتمنى لو يتفرغ أديب من الأدباء المسلمين لاخراج قاموس يضم جميع كتب اللغة المطبوعة والمخطوطة مرتبا على شكل سهل التناول(١) .

ولقد حاول الرافعى نفسه القيام بهـــذه المهمة الجليلة — وحثـــه الدكتور « يعقوب » على النهوض بها ، وأعد الرافعى لها وبدأ فيها ، لكن لم يكتب لها التمـــام .

كما قرأ للرضى أيضا فى الصرف شرحه على الشـــافية ، وقرأ متن التوضـــيح وشرحه لابن هشـــام وللرافعى آراء ومواقف نحوية وصرفية تســـتحق الذكر وتســـتأهل البحث لتقويمهـــا وموازنتها بآراء النحـــاة والصرفيين(٢) .

---

(١) أنظر : من رسائل الرافعى : محمود أبو رية ص٢٤١ .
(٢) أنظر : المرجع السابق ص١٦٣ .
(٣) المرجع الســـابق : ص٢٩١ .

ثقـــافته الدينيـــة :

وقرأ الرافعى كثيرا من أصول كتب التفســـير والحـــديث ، وحينما طلب منه أن يكتب مقالا فى البلاغة النبوية قرأ تجريد البخارى كله(٣) .

كما قرأ فى التصوف كتاب : « لطائف المنن للشيخ الشعرانى » وكانت غايته من قراءة كتب التصوف : تهذيب النفس وأخذها بالحقائق المخلصـــة فى أمور الدنيا والآخرة(٤) .

وليست الكتب السابقة هى تلك التى قرأها الرافعى فقط ، فان ما قراه لا يعد وما هـــذه الا نماذج لمـــا قراه ، كمـــا لم تقف قراءته عنـــد العلوم والمعارف الســـابقة ، بل انه قرأ كثيرا غيرها من علوم النفس والفلســـفة والاجتمـــاع والتاريخ(٥) .

ثقافتـــه الاجنبيـــة :

وعظمة الرافعى مردها الى : اتصاله الوثيق بتراثنا الأدبى القـــديم دون غيره فنهل من شرابه العذب ، وتغذى من خلاصاته القوية الصـــالحة ، فاذا بها تتمثل فى أسلوبه ، وتتغلغل فى أدبه وتهذيبه ، وتندمج فى تقـــديره وتدبيره ، فاستطاع أن يشـــق للأدب القديم التليد ، سبيله فى الأدب الحديث العتيـــد(٦) .

ولكن على الرغم من عدم اجادته اللغة الفرنســـية أو غيرها من اللغات الأجنبيـــة ، فلم يمنعـــه ذلك من الوقوف على طرق الغربيين فى كتاباتهم وتفكيرهم ، وهو لذلك يقرأ كل ما يترجم الى اللغة العربية وعلى الأخص الكتب التى تتصل بالفلسفة وعلم النفس والاجتماع ، ككتاب : الفلســـفة

---

(٤) المرجع الســـابق : ص٦٦ .

(٥) أنظر : تطور النقد والتفكير الأدبى الحـــديث فى مصر ص٣٩٢ ط . أولى .

(٦) أنظر : مجلة الرسالة عدد : ٢٠٢ مايو سنة ١٩٣٧م .

النظرية وتاريخ التمدن لكيزو — وسر تقدم الانجليز — وسر تطور الأمم — واميل القرن التاسع عشر — والتربية الحديثة — ومجلة المقتبس — وكتاب : الواجب — تعريب الدكتور : طه حسين — والسلطة والحرية لتولستوى(١) .

قرأ الرافعى هـــذه الكتب المترجمة وغيرها ، وكان يعارض ما ورد فيها من أفكار بكتابته فى نفس موضوعاتها ، فيعلو ما يكتبه على ما فى تلك الكتب .

وبعد : فهـــذه ثقافة الرافعى وتلك وسائله الى المعرفة ، وقد ظل على هـــذا الدأب فى القراءة والاطلاع الى آخر يوم من عمره ، يقرأ كل يوم ثمانى ساعات متواصلة لا يمل ولا ينشد الراحة لجسده وأعصابه ، كأنه من التعليم فى أوله لا يرى أنه وصل منه الى غاية — وكان اذا زاره زائر فى مكتبه جلس قليلا يحييه ويستمع لمـــا يقوله ثم لا يلبث أن يتناول كتابا مما بين يديه ويقول لمحـــدثه : « تعال نقرأ » وتعال نقرأ هـــذه معناها أن يقرأ الرافعى ويستمع الضيف ، فلا يكف عن القراءة حتى يرى فى عينى محـــدثه معنى ليس منه أن يستمر فى القراءة ، وفى القهوة ، وفى القطار ، وفى الديوان ، لا تجد الرافعى وحده الا وفى يده كتاب ، وكان فى أول عهده بالوظيفة كاتبا بمحكمة طلخا ، وكان يسافر من طنطا كل يوم ويعود ، فيأخذ معه فى الذهاب وفى الايام (ملازم) من كتاب أى كتاب ليقرأها فى الطريق ، وفى القطار بين طنطا وطلخا (وبالعكس) استظهر كتاب نهج البلاغة فى خطب الامام على ، وكان لم يبلغ العشرين بعد(٢) .

فالرافعى كما رأينا لم ينهل ثقافته من مورد محدد ، ولم يجمعها من مصدر بعينه ، بل كثرت موارده وتفرعت مناهله ، وكانت نتيجة ذلك : هـــذه المجهود العلمى الضخم ، وتلك الطاقة الفكرية الجبارة التى أودعها كتبه ومؤلفاته ومقالاته وجاءت خدمة للقرآن وعلومه وبعثـــا وتجديدا للغة وفروعهـــا .

---

(١) أنظر : من رسائل الرافعى ص٣٤ .
(٢) أنظر : حياة الرافعى ص٢٠ .

(الفصـــل الثـــالث)
ادب الرافعى الدينى والاجتمـــاعى
ودفاعه عن القـــرآن واللغـــة العربيـــة

فى الفترة التى بدأ الرافعى فيها يباشر نشـــاطه ويبدأ حياته فى عالم الكتابة كان الاسلام يعانى من مؤامرات الاستعمار معاناة مريرة ، ويتلفت يمينا وشمالا باحثا عن واحد من اتباعه يدفع عنه هـــذه الهجمات ويصد تلك الغارات التى وجهت الى مبادئه وشنت على القرآن ولغته ، وكانت ارادة الله عز وجل أن يكون الرافعى هو الذى يقوم بذلك : اذ حمل راية الكفاح وتولى مهمة النضال والدفاع عن ديننا الاسلامى وآدابه الســـامية .

وشجع الرافعى على نهوضـــه بتلك المهمـــة الجســـيمة ونجاحه فى الاضطلاع بأعبائها تنشئته الدينية ، وثقافته التى تأسست على حفظ القرآن الكريم والتفقه فى علوم الدين والتمكن من علوم اللغة والنفـــاذ الى فهم أصولها ، والاحاطة بأسرارها ، فهـــذه الثقافة العربية الأصـــيلة مكنت الرافعى من صد هجمات الحاقدين على الاسلام وردهم على أعقـــابهم خـــاسرين .

ولم يخل كتاب من كتب الرافعى حتى تلك التى كتبها فى فلسفة الحب والجمال من تغن بقيم الاسلام ، وانتصار لمبادئه،ومالون من الوان أدبه الا كان للاسلام والقرآن واللغة العربية فيه نصيب وافر وحظ ملموس .

فالرافعى قد أحسن صنعا حينما استخدم ادبه وملكاته التى زوده بها الله عز وجل فى الذود عن حياض القرآن الكريم ولغته ، وفى تجلية مبادىء الاسلام ومن هنا كتب لهـــذا الأدب البقاء والخلود . وصدق الله اذ يقول : « انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون » .

وبهـــذا وحده يكون الرد على هؤلاء الذين يعجبون من تعدد طبعات

كتب الرافعى وزيادة اقبال الناس على مؤلفاته على ما بها من غموض وعلى الرغم من ارتفاع أثمانها(١) .

فكان الرافعى عصرا بتمامه من عصور الأدب ، وجيلا بناسه فى تاريخ العرب ، وفصلا بعنوانه فى مجد الاسلام ، وكان له هدف عاش يسعى جاهدا لتحقيقه هو أن يبعث الحمية الاسلامية فى نفس كل مسلم ، ويوقظ النخـــوة العربية فى قلب كل عربى ، فكان بذلك رسول العروبة والاسلام الى كل مسلم وكل عربى ، فلا جرم كان بذلك احب كتاب العربية الى كل مسلم وكل عربى ، حياته الأدبية كلها تدور حول هـــذا المحور ، ونشأته الأدبية كلها يسعى بها الى هـــذا الهدف ، ومعاركه الطاحنة كلها تنشب فى هـــذا المعترك ، وما عادى عدوا قط من ادباء العربية الا للدين أو اللغة أو القرآن وما اتخذ صديقا من رجال الأدب أو الســـياسة الا للدين أو اللغة أو القـــرآن(١) .

ولقد نظر الرافعى أمامه فوجد مجموعة من الكتـــاب والأدباء يناصـــبون العربية والاسلام العداء ، وانتهى باستنتاجه الملهم الى أن هناك مؤامرة متعددة الاطراف متباينة الاساليب تنتهى الى هدف واحد هو اعلان الحرب على اللغة العربية واشـــاعة التفتيت بين جسم الأمة العربية ، والنيل من قدسية المبـــادىء الاســـلامية فكانت هناك فئة تنادى بالعامية وتتحمس لها وتطالب بجعلها لغة للكتابة وكان هنـــاك من ينادى بالفرعونية مذهبا وقومية محـــاولا أن يقطع كل صلة بين مصر العربية لغة ودما وحضـــارة وفكرا وبين بقية جسم الأمة العربيـــة التى تمثل مصر منها مكان القلب من الجســـد ، وكان هؤلاء « المتفرعنون » يعملون لحساب الاســـتعمار الذى

---

(١) انظر : دراسة فى ادب الرافعى . د . نعمات أحمد فؤاد ص٦٥ وما بعـــدها ط . ثانيـــة .

(١) انظر : مجلة الرســـالة : الرافعى فى ذكراه الأولى عدد : ٢٥٣ الســـنة السادسة مايو سنة ١٩٣٨م .

قطع أوصال الأرض العربية ، وخلق حدودا مصـــطنعة فى أرض الوطن الكبير وقسم الأمة العربية احزابا وشيعا ، وكان هناك أيضـــا من يحاول صرف الأمة عن تراثها وأمجادها ، ويتجمس للتراث الأوربى قديمة وحديثه ، وكانت هـــذه الطائفة امعـــانا فى عداوتها للأدب العربى تنسب كل جميل مستطرف الى الأدب الأوربى وتنسب كل جمود وقبح الى الأدب العربى ، وكان هناك فريق آخر أشد خطرا على الناشئة من ابناء ذلك الجيل ، وهو فريق المجاهرين بالالحاد المنـــكرين رسالات الأنبياء والمرسلين ، وفى هـــذه البيئة الأدبية التى جمعت بين الضدين فى ميدان التدين والمجاهرة بالالحاد ، والعروبة والفرعونية ، عاش الرافعى المؤمن بعقيدته ولغته وحضـــارته ومن ثم فقد هيأ نفســـه ليكون الذائد عن حمى دينه المنافح عن أمجاد لغة القرآن ، والرافعى يعبر بقلمه عن هـــذا الاتجاه السامى فى نفســـه حين يقول : « والقبلة التى اتجه اليها فى الأدب انما هى النفس الشرقية فى دينها وفضائلها ، فلا أكتب الا ما يبقيها حية ويزيد فى حياتها وسمو غايتها ، ويمكن لفضائلها وخصائصها فى الحياة ولذا لا أمس من الآداب كلها الا نواحيها العليا ، ثم انه يخيل الى دائما اننى رسول لغوى بعثت للدفاع عن القرآن ولغته وبيانه ، فأنا دائما فى موقف الجيش (تحت السلاح) له ما يعانيه وما يحاوله ويفى به ما يتحفظ فيه وتاريخ نصره وهزيمته فى أعماله دون سواها[١] .

فالرافعى كان أديب الفكرة الاسلامية دون منازع ، فى فترة زمنيـــة كان النيل من العقيدة دربا يستهوى كثيرا من أدباء العصر كى يسيروا فيه ، وكان التحامل على اللغة العربية ومحاولة طمس معالمها ظاهرة من مظاهر التجديد حسبما تخيل بعض المتأدبين وكان الرافعى بحـــكم نشأته وتربيته وثقافته واقتنـــاعه يرى فى هـــذه الاتجاهات معاول هدم وبوادر نقض فى جسم الأمة يجب أن توقف عند حد ، وأن يضرب عليها بشـــدة ، ومن ثم

---

(١) أنظر : مصطفى صـــادق الرافعى أديبا عربيا ومفكرا اسـلاميا د . مصطفى الشكعة ص٣٢ وما بعدها .

فرضت عليه طبيعـــة الأمور أن يخوض معركة قلمية فكرية ضـــارية أمام أعلام الكتاب آنذاك أمثال الدكتور : طه حسين وأحمد لطفى السيد ومحمد حسين هيكل وعباس العقاد وسلامة موسى وغيرهم ، وكان الرافعى وحده فى جانب الا فى حالات قليلة ، وكان هؤلاء الكتاب جميعا فى الجانب الآخر ، فقسا عليهم كل القسوة واستعمل معهم الوانا من القول الشـــديد ضمنها أفكاره البناءة الناقدة حينا والموجهة المجادلة حينا آخر ، وشـــكل معركة بيانية اسلامية فريدة لم تتكرر كثيرا فى مسيرة تاريخ أدبنا وفكرنا منذ عهـــد بعيـــد .

وكانت معركة الرافعى مع خصومه وخصوم لغتنا وعقيدتنا خيرا وبركة على التراث العربى أدبا وفكرا اذ اثمرت هـــذه الآثار النفيسة وتلك الذخائر القيمة من :

تاريخ آداب العـــرب :

هـــذا الكتاب الذى ألفه الرافعى بسبب انشـــاء الجامعة المصرية ، ويراه أكثر الأدباء كتاب الرافعى الذى لا يعرفونه الا به ، ولم يؤلف الرافعى هـــذا الكتاب ليكون صـــورة مما ألف قبله فى تاريخ الأدب العربى ، وانما ليكون عملا جـــديدا ، اذ رأى أن المنهج الذى درج عليه هو المنهج الأمثل والذى يجب اقتفاؤه فى دراسة تاريخ الأدب العربى ، حيث أن المناهج السابقة من صنع المستشرقين ، ولذلك جاءت كتب الأدبيات محشوة بتاريخ العلوم الدينية والدنيوية وبالتراجم الكثيرة التى تخرج بشطر الكتاب الى أن يكون سجل وفاة .. وأتهم الرافعى المستشرقين بأنهم لم يختاروا ذلك الوضـــع الا لمكان العجمـــة منهم ، اذ لا سليقة لهم فى العربيـــة وآدابها ، ثم لأنهم يتعجلون الفائدة كيف أصابوها ثم هم يكتبون لأنفسهم ولأقوامهم فلا يبالون بما تفتق عليهم هـــذه الطريقة التى يستمرون عليها(١) .

---

(١) أنظر : تاريخ آداب العرب جـ١ ص٦ وما بعدها والأدب العربى بين الجاهلية والاسلام د . عبد الحميد المسلوت ص٩٢ وما بعدها والتراث النقدى قبل مدرسة الجيل الجديد د . عبد الحى دياب ص٧٥ وما بعدها ونشأة النقد الأدبى الحديث فى مصر د . عز الدين الأمين ص١٣٧ وما بعدها .

ويعد هــذا الكتاب نقطة تحول فى حياة الرافعى من الشــعر الى الكتابة ، اذ لم يكن له فى الأدب قبل هــذا الكتاب رأى ذو خطر أو دراسة ذات أثر أو جولان فى باب من أبواب الكتابة ، وانما كان مقصورا على الشعر معنيا به مؤملا أن يكون له فيه منزلة تخمل ذكر فلان وفلان من شعراء عصره ، وقد بلغ فى ذلك مبلغا ، لذلك كان عجبا أن يبلغ وهو فى أول الطريق ما بلغ بهــذا الكتــاب .

وقد أبدى كثير من الأدباء اعجابهم بمنهج الرافعى فى هــذا الكتاب ، فكتب أمير البيان فى جريدة المؤيد يقرظ الرافعى ويوازن بين صنعه وصــنع الســابقين(٢) وفعل مثل ذلك الاســتاذ : محمد سعيد العريان والاستاذ : أحمد لطفى الســيد(٣) .

والحق أن كتــاب الرافعى فى تاريخ أداب العرب لا يزال عملا علميا جليلا قليل النظير فى شموله حتى اليوم ، وهــدف الرافعى منه هــدف دينى اســلامى ، ولذلك فانه يقف بنا فى كتابه هــذا وقفة طويلة حول الرواية والاسناد وعلوم الحديث ، احتلت من الكتاب حجما كبيرا ، واذا كان الكتاب لا يعطى مادة كافية للقارى المتخصص فانه يعين على الفهم الذى ينتهى به الى غايات بعيدة من التحصيل ، ويفتح أبوابا ربما كانت موصدة أو غير ملتفت اليها ، فأماط الرافعى عنها اللثام .

اعجــاز القــرآن :

هــذا هو الكتاب الثانى من كتب الرافعى التى ألفها دفاعا عن لغــة القرآن وبلاغته ، وكان ذلك الكتاب الجزء الثانى من « تاريخ آداب العرب » لأن اعجاز القرآن باب فى تاريخ الأدب ، ثم سمى بعد ذلك باعجاز القرآن .

---

(٢) عدد : ١٩ فبراير سنة ١٩١٢م .
(٣) أنظر : تاريخ آداب العرب جـ١ تصــدير .

ويعد هـذا الكتاب سيد أعمال الرافعى : اذ تحدث فيه عن اعجاز القرآن بأسـلوب يساير العصر ، ورد الاعجاز فيه الى الجوانب : العلمية واللغوية والأدبية والنفسـية والأسلوبية وغير ذلك ولكنه ركز على الجهة البلاغية التى يعدها الوجه الاصيل فى الاعجاز ، فوقف عند هـذه البلاغة محللا ومفسرا بأسـلوب سلس وبخطة محـكمة جعلته يحقق ما لم يتمكن السـابقون من تحقيقه .

وبقراءة ما كتبه « السيد محمد رشـيد رضا » فى مقـدمة الطبعـة الثانية للكتاب ندرك الهدف الذى ألف الرافعى من أجله ذلك الكتاب وأنه هدف دينى اصـيل مقصـود به خدمة القرآن والدفاع عن لغتـه وكشف أسرارها وابراز بلاغتها أما مجملات المشككين والملحدين[1] .

أسرار الاعجـاز :

لمـا كانت معظم الانتقادات التى وجهت الى الرافعى حول اعجـاز القرآن تركزت على خلوه من الناحية التطبيقية ، وقد شعر الرافعى نفسه واعترف بنقص الكتاب من هـذه الجهة ، فانه أخذ فعلا فى سـد هـذه الثغرة بالكتـابة فى « أسرار الاعجاز » الذى توفى ولم يكتب منه الا أجزاء يسيرة ، ويذكر العريان أن منهجه فيه كان يدور حول النقاط التالية :

١ — يتحدث فى صدر الكتاب عن البلاغة العربية ، فيردها الى أصول غير الأصول التى اصطلح عليها علماؤها منذ كانت ويضع لها قواعد جديدة وأصـولا أخرى .

٢ — ويتحدث فى الفصل الثانى عن : بلاغة القرآن وأسرار اعجازه .

٣ — ويتناول فى الفصل الاخير من الكتـاب : آيات من القرآن على أسلوب من التفسير يبين سر اعجازها فى اللفظ والمعنى والفكرة العامة ، ويعتبر هـذا الفصل الأخير صلب الكتاب وأساسه[2] .

---

(١) أنظر : اعجاز القرآن لرافعى ص١٥ ط . ثانية .

(٢) أنظر : حياة الرافعى ص٢٨٩ وما بعدها .

ولقد وقفنا على نماذج من هـــذا الكتاب من خلال الدوريات التى كان يكتب الرافعى فيها .

تحت راية القـــرآن :

وهـــذا هو الكتـــاب الرابع من الكتب التى ألفها الرافعى دفاعا عن الدين والقرآن واللغة . وقد صـــدر فى سنة ١٩٢٦م عقب جمع الدكتور (طه حسين) محاضراته التى كان يلقيها على طلاب الجامعة واصدارها فى كتاب تحت عنوان « فى الشعر الجاهلى » الذى غير بعد ذلك الى « فى الأدب الجـــاهلى »(١) .

والرافعى الذى خلقه الله ليكون حارسا للقرآن ولغته لم يســـتطع الســـكوت على ما ورد فى حديث الدكتور مما يمس جلال القرآن ولغته ، لذلك سارع الى نقض كلام الدكتور « طه » ونقده نقدا جريئا وعنيفا فى مقالات جمعت فى الكتاب الســـابق .

وكان الرافعى أول من كتب فى نقد الدكتور طه ، ففتح الباب لمن بعده ، حيث شرع كثير من العلماء والأدباء أقلامهم وتنالوا الكتاب وما فيه بالنقـــد والنقض وتفاوت نقدهم ، واختلف طرائقهم : فاعتدل بعضهم والتزم حدود الموضوع ، ومضوا ينقدون فى أســـلوب هادىء ولفظ عف ، وغلا بعضهم فاشتد واشتط ، وتجاوزا الكتاب الى صاحب الكتاب ، نشر أكثر ذلك فى صحف ذلك العهد ، ثم جمع بعضه فى كتب هى : كتاب « نقد كتاب الشعر الجاهلى » للأستاذ « محمد فريد وجدي » وكتاب : « الشهاب الراصد » للأستاذ « محمد لطفى جمعة » وكتاب : « نقض كتاب فى الشعر الجاهلى للسيد محمد الخضر حسين » وكتاب : « محاضرات فى بيان الأخطاء العلمية التاريخية التى اشتمل عليها كتاب فى الشعر الجاهلى للأستاذ الشيخ محمد

(١) أنظر المرجع السابق ص٢٨٨ .

الخضرى » وكتاب : « النقد التحليلى لكتاب فى الأدب الجاهلى للأستاذ محمد أحمد الغمراوى »(١) .

ويتميز ما فى كتاب الرافعى « تحت راية القرآن » على ما فى تلك الكتب بميزتين واضحتين : أولاهما : انه أصدق هذه الكتب ، وادقها فى تصوير المعركة التى تلت ظهور الكتاب ، وما مرت به اطوار ، وما تخللها من أحداث ، وثانيتهما : انه اكثر هذه الكتب حدة واعنفها فى مهاجمة الدكتور طه حسين ، لأنه كتب فى خلال المعركة ولم يكتب بعدها كما هو الشأن فى بقية الكتب الأخرى(٢) .

فكتاب « المعركة » أو « تحت راية القرآن » كتاب فى القند والأدب فيه من الحقائق الدامغة ، والأدلة المقنعة ، والحجج القوية ، والرد المفحم ما يجعله فى مقدمة الكتب النقدية التى وضعت للرد على الدكتور طه(٣) .

وليست تلك الكتب السابقة فقط هى التى حملت دفاع الرافعى عن القرآن واللغة والدين ، بل هناك الجم الفقير من المقالات التى كان ينشرها فى الصحف وجمع كثيرا منها فى كتابه (وحى القلم) .

فلسفة الرافعى الدينية :

لم يقف جهاد الرافعى الدينى عند صد هجمات الملحدين والمشككين فى القرآن ولغته ، وانما تعدى ذلك الى تجلية كثير من مبادىء الاسلام ، وابراز محاسن أركانه بما أوتى من بيان وقدرة على التحليل والتعمق فى فهم الأسرار .

---

(١) انظر : د . ناصر الدين الأسد : مصادر الشعر الجاهلى وقيمتها التاريخية : ص٤٠٢ هـ . القاهرة سنة ١٩٦٥م .

(٢) انظر : د . محمد محمد حسين : الاتجاهات الوطنية فى الأدب المعاصر : ٢٨١/٢ ط . ثانية .

(٣) انظر : د . حسن عبد القادر عبد الدايم : أثر القرآن فى أدب الرافعى ص١٥٤ ، رسالة ماجستير بمكتبة كلية اللغة العربية .

فالرافعى واحد من الكتاب المعاصرين القلائل الذين فهموا الاســـلام فهما صحيحا ، وغاصوا فى أعماق الشريعة مستكشفين كنه نورانيتها وروعة قدسيتها وبســـطة سماحتها وأسرار أركانها وجلال أحكامها(١) .

ولقد افتتن الرافعى بصاحب الرسالة وهام به حبا واجلالا وولاء وانشأ فى كل ذلك مقالات تفيض بنور الايمان ، ايمان الفاهم الدارس الواعى وليس ايمان مجرد الوراثة والتقليد ، ومن ذلك : يفسر الرافعى السر فى تكرير ذكر النبى صلى الله عليه وسلم فى الأذان كل يوم خمس مرات ، وأن ذلك لدعوة المسلمين الى تمثل الرسول صلى الله عليه وسلم فى كل اللحظات والاقتـــداء بأعمـــاله فى جميع الأحوال(٢) .

ويتعمق الرافعى فى توضيح أسرار « صـــلاة الجماعة فى المســـجد » وما تحـــدثه من تطهير النفوس مما بها من كبر واعتزاز ، كمـــا يبين المعنى الفلسفى لخطبـــة الجمعة ، وانها تذكرة للمسلمين ويهيب بالخطباء ان يجعلوا خطبهم علاجا لمشـــاكل المسلمين وحســـما لقضـــاياهم(٣) .

كما يحلل الرافعى المعانى الفلسفية لكل حركة من حركات الصلاة من لحظة التوجه الى القبلة حتى الخروج من الصـــلاة(٤) .

كما يناقش فلسفة الصـــوم ويذكر انه سبيل الله لاصـــلاح النفوس وتطيرها من الشح والبخل والأثرة(٥) .

كذلك يوضح المعنى الفلسفى للزكاة ، وأن نظام الزكاة فى الاســـلام أصلح نظام أجتماعى لعلاج مشـــاكل الفقر والغنى(٦) .

---

(١) أنظر : د . مصطفى الشكعة : مصطفى صادق الرافعى اديبا عربيا ومفكرا اســـلاميا ص١٨١ .

(٢) أنظر : وحى القلم ٢/١٠ .

(٣) أنظر : وحى القلم : ٢ ص٢٦٤ وما بعدها .

(٤) أنظر : المرجع الســـابق ص١٢ وما بعدها .

(٥) أنظر : المرجع السابق ص٧٥ .

(٦) أنظر : المساكين ص٧٥ .

الرافعى والمجتمع :

ووجه الرافعى جانبا كبيرا من أدبه الى خدمة المجتمع المصرى والعربى والاسلامى وعالج فى كثير من مقالاته قضايا اجتماعية متعددة : وكانت تتوافد عليه كثير من الرسائل يستفتيه أصحابها الراى ، ويطلبون منه النصيحة فيما جد عليهم من مشـــكلات ، وما طرأ من أحداث .

كما انتقد فى عديد من مقالاته كثيرا من العادات الســيئة والمظاهر القبيحة التى أوقفت ركب الحضارة العربية والاسلامية .

وكانت مبادىء الدين وروح الشريعة الاسلامية الأساس الذى استند اليه فى علاج الأحداث والمشكلات والمــادة التى اعتمــد عليها فى محاربة المظاهر السيئة والعادات المستهجنة .

فكتب كثيرا يحـــذر من مخاطر المدنية الأوربية ويرى أن الاسراف فى تطبيقها تأخر للعـــرب والمســلمين ، ويدعو الى التريث والتمهل والتروى فيما ننقله من تلك الحضارة التى تحوى الخير والشر والنـــافع والضـــار فلا ننقل الا ما يفيدنا وما يتفق مع مبادىء ديننا وطبائعنا وعاداتنا ، والرافعى فى ذلك يرسم الميادين التى نحتاج فيها الى الافادة من ثقافة الأوربيين(١) .

كما رأى الرافعى أن من أسباب تأخر العرب والمسلمين وضع الأمور فى غير نصابها واسناد الحــكم الى غير أهله ، ولذلك توجه الى كثير من تلك الحكومات بالنقد والتوجيه مناديا لها بالأخذ بمبادىء الشريعة الاسلامية وتطبيق مبدأ الشـــورى الذين يزيل ما بين الحكومة والشعب من جفوة ويوثق الصــلة بينهمــا(٢) .

كما يتوجه الرافعى بانتقاده الى الصحافة ويوجهها الى طريق الحق ويدعو الى ان تكون الصحافة لسان الشعب ، كما يقترح أن تنشأ صحيفة

---

(١) انظر : وحى القلم : ٣ ص٢٠٣ وما بعدها .
(٢) انظر : وحى القلم : ١ ص١٩٣ ، ٢ ص٣٣٩ .

دينية على مستوى العالم الاسلامى كله ، تكتب فيها الاقلام الاسلامية من اقطار الأرض وتكون سياستها اسلامية محضة(١) .

كما يكتب كثيرا عن « مأساة فلسطين » ويحض المسلمين على انتزاعها من براثن الصهاينة وجمع التبرعات لأبنائها المشردين(٢) .

ويقف الرافعى طويلا مع رجال وعلماء الازهر يدعوهم الى تطبيق أحكام الدين ويحثهم على البحث والقراءة والاجتهاد وتنقية التاريخ الفقهى وتهذيب الروح الاسلامى والسمو به عن المعانى الكلامية الجدلية السخيفة ، واستخراج اسرار القرآن الكريم المكتنه فيه ، كما يهيب بعلماء الازهر أن يقوموا بأخص واجباتهم وأول مهامهم وهى : بث الدعوة الاسلامية فى أوربا وأمريكا واليابان ، بلغات الأوروبين والأمريكيين واليابانيين فى السنة أزهرية مرهفة مصقولة لها بيان الأدب ودقة العلم واحاطة الفلسفة والهام الشعر وبصيرة الحكمة — وقدرة السياسة(٣) .

كما يدعوهم الى احتقار الدنيا والزهد فيها وعدم التعلق الشديد بها(٤) ويدعوهم كذلك الى العمل بعلمهم حتى يكونوا قدوة طيبة ومثل حسنا فيقول :

آفة العالم الا يعملا — وشقا الجاهل الا يسالا

انما العلم كمثل المال لا — تنفع الأموال حتى تبذلا(٥)

ويتوجه الرافعى الى الشباب فيعالج كثيرا من مشكلاتهم كمشكاة عزوف كثير منهم عن الزواج — فيحدد الرافعى المشكلة ويذكر بواعثها ويحذر من عواقبها ، ويقترح العلاج الناجع لها ، واسباب هذه المشكلة وامثالها

---

(١) انظر : ديوان الرافعى : ١٣٢/١ ورسائل الرافعى ص٢٥٢ .
(٢) انظر : وحى القلم : جـ٢ ص٢٦٠ وما بعدها .
(٣) انظر المرجع السابق ٣ ص٤٢ وما بعدها .
(٤) انظر : المرجع السابق ٢٩٥/٢ .
(٥) انظر : ديوان الرافعى : جـ١ ص٢٢ وما بعدها .

يراها الرافعى فى : ضعف التربية الدينية ، وضعف التربية الاجتماعية فى المدرسة ، وتخنث الطباع واسترسالها الى الدعة والراحة وفرارها من حمل التبعيـــة(١) .

والمقالات التى كتبها الرافعى فى تهذيب أخلاق الشـــباب يفيض بهـــا كتابه : « وحى القلم » كما ضم « ديوانه » كثيرا من القصائد فى توجيه الشباب الى سلوك سبل الاستقامةكقوله من قصـــيدة يصف فيها الخليفة « عمر ابن الخطاب » رضى الله عنه :

لا زينـــة المرء تعليه ولا المـــال	**ولا يشرفه عم ولا خـــــــال**
وانمـــا يتســـامى للعـــلا رجل	**ماضى العزيمـــة لا تثنيه أهوال**
يريك من نفســـه فيمـــا يهم به	**أن النفوس ظبى والناس أبطال(٢)**

كما يختص الرافعى المرأة بجانب كبير من توجيهاته ، ويشغل بها فى كثير من مقالاته فيقدم لها النصح دائما بروح المسلم المحافظ على تقاليده الدينية ، ويلفت نظرها الى تقدير الشرع لها حين فرض عليها الحجاب صونا لكرامتها وحفاظا على كيانها(٣) .

وبعد : فهـــذه نماذج من أدب الرافعى فى الدفاع عن الدين والقرآن واللغة العربية ومما ابتغى به علاج مشكلات العرب والمسلمين ومناقشـــة قضاياهم ، وما من كتاب من كتبه الا كان للأهداف السابقة فيه نصيب ، وبعضها قد اختص بمناقشة تلك المشكلات الاجتماعية ومعـــالجتها معالجة أدبية دينية ككتاب « المســـاكين » الذى أخرجه فى سنة ١٩١٧ م . وعرف به فى الصـــفحة الأولى منه قائلا : هو كتاب « أردت به بيان شىء من حكمة الله فى شىء من أغلاظ الناس » وقدم له كذلك بمقدمة بليغة فى معنى الفقر والاحسان والتعاطف الانسانى قال فيها : « هـــذا كتاب حاولت أن أكسو الفقر من صـــفحاته مرقعة جديدة « وهـــذا الكتا بهو الذى قال بسببه المرحوم (أحمد زكى باشا) للرافعى « لقد جمعت لنا شكسبير كما للانجليز شكسبير ، وهيجو كما للفرنسيين هيجو ، وجوته كما للألمـــان جوته »(٤) .

---

(١) أنظر : وحى القلم : جـ١ ص٢٤٠ وما بعدها .
(٢) أنظر : الديوان : ١/١٤ .
(٣) أنظر : وحى القلم : ١ ص٢٢٢ وما بعدها والأدب العربى المعاصر فى مصر د . شوقى ضيف ص٢٥ ط . ثالثة .
(٤) أنظر : حياة الرافعى : ص٦٢ وما بعدها .

اما الكتاب الثانى الذى فاض بفلسفة الرافعى الدينية ، والدروس المبسوطة فى علاج الأمراض الاجتماعية فهو كتاب : « وحى القلم » الذى هو مجموع مقالاته فى مجلة الرسالة بين سنتى : ١٩٣٤م ، ١٩٣٧م الى مقالات أخرى .

فادب الرافعى قد جاء معظمه حبا فى الدين وانتصارا للقرآن ودفاعا عن اللغة ، حتى فى الحب لم يكن الرافعى يعتبر الا مذهبه والهدف الذى يسعى اليه : للدين وللغة والقرآن — والرافعى كان هبة الله الى الامة العربية المسلمة فى هذا الزمان ، لينبهها الى حقائق وجودها ، وليردها الى مقوماتها(١) .

فالقرآن هو مصدر أدب الرافعى — والقرآن من جهة الأدب علة الجمال ومن جهة الفضيلة غاية الخير ، ومن جهة الفلسفة غاية الحق ، وعلى القرآن والدين كانت تدور فلسفة الرافعى الأدبية والاجتماعية(٢) .

---

(١) أنظر : مجلة الرسالة : عدد ٢٥٣ مايو سنة ١٩٣٨ م . الرافعى فى ذكراه الأولى .

(٢) أنظر : الرسالة : العدد ٢٥٤ مايو سنة ١٩٣٨ م . الرافعى فى ذكراه الأولى .

الفصل الرابع

الجوانب الوجدانية فى حياة الرافعى

واثرها فى الأدب العربى

كان الرافعى رحمه الله موفقا فى بيته ، وشاعرا فى اسرته وبين اهله بالسعادة الكاملة ولم يحل هذا التوفيق وتلك السعادة بينه وبين الحب الطاهر الشريف الذى اضاف الى لغة العرب وادابها زادا قيما من فلسفة الحب والجمال .

فكان له هوى وغرام — ووقع له فى هواه ما يقع للمحبين من ضرورات الحب ، ودافع نفسه ما دافع فلم يجد له طاقة على المقاومة واحتال على الخلاص فما اجدته الحيلة الا هما على هم — وكان حبه اقوى منه — ولكن دينه وأخلاقه كانت أقوى من حبه .

فلم يتعلم الرافعى الحب مما يسمع فى مجالس الشبان ، كما يتعلم أبناء هذا الجيل من اكاذيب المنى التى يتداولونها فى مجالسهم فيتعلمون الحب منها فناله قواعد مرسومة محتومة ، لكنه استمع الى وحى الحب أول ما استمع فى همسات روحه — وخلجات وجدانه وخفقات قلبه ، وانفعال أعصابه الى ما كان للحب فى نفسه من صورة مشرقة شائقة مما قرأ من أخبار العذريين من شباب العرب فأحس كأن شيئا ينقصه فراح يفتقده ، وعلى (جسر كفر الزيات) فيما بين ايتاى البارود وطنطا مسته شعلة الحب المقدسة فكشفت عن عينيه الغطاء ليرى ويحس ويشعر ويكون (شاعر الحسن) من بعد(١) .

وكانت (عصفورة) أول من فتح لها قلبه فسيطرت عليه وغلبته على نفسه — وهى فتاة من (كفر الزيات) لقيها ذات يوم على الجسر ، وسنه يومئذ احدى وعشرون سنة ، فهفا اليها قلبه — وتحرك لها خاطره ومن

---

(١) أنظر : حياة الرافعى : محمد سعيد العريان ص٢٢ .

وحى هـــذا الحب كانت اكثر قصائد الرافعى الغزلية فى الجزء الأول من الديوان ، ومنه كان ولوعه فى صدر أيامه بلقب شاعر الحسن ، وكما ينتهى الحب الذى هو حيلة الحياة لايجاد النوع الى الزواج أو الى الغاية الاخرى ثم يبدأ فى تاريخ جديد ، كذلك انتهى حب الرافعى وعصفورة وأنجب ثمرته الشعرية فى الجزء الأول من الديوان ، ثم كان تاريخ جديد ، فكانت هـــذه القصائد الغزلية التى حفل بها الجزء الأول من ديوانه ثمرة من ثمار هـــذا الحب .

الرافعي ومي :

وعلى مثال هـــذا الحب كم كانت له حبيبات وكم أنجبن من ثمرات ، لكن الحب الذى اشتهر به الرافعى ، وأثمر ثماره الشهية ، وأضاف للأدب العربى هـــذا الزاد القيم من فلسفة الحب والجمال هو حبه لمى ! بعد زيارتها فى منتداها الأدبى الذى كان يعقد فى يوم الثلاثاء من كل أسـروع ، وكان مجمع أعلام الفكر ، يقصـــده الكبراء والعلماء والأدباء والشعراء ، وكان الذين يختلفون الى هـــذا الندى متفاوتين تفاوتا شديدا فكان منهم المصريون على تفاوت طبقاتهم ومنازلهم الإجتماعية وعلى تفاوت أسنانهم أيضا ، وكان منهم السوريون ، والأوربيون على اختلاف شعوبهم كما كان منهم الرجال والنساء ، وكانوا يتحدثون فى كل شىء ، كما كانوا يتحدثون بلغات مختلفة بالعربية والفرنسية والانجليزية ، وربما استمعوا لقصـــدة تنشد أو مقالة تقرأ أو قطعة موســـيقية تعزف أو أغنية تنفذ الى القلوب[١] .

فكان الرافعى رحمه الله أول من يغشى مجلسها يوم الثلاثاء وآخر من ينصرف ، فان منعه شىء عن شهود مجلسها فى القاهرة كتب اليها من طنطا وكتبت اليه ، فكان يحبها حبا عنيفا جارفا لا يقف فى سبيله شىء ، لكنه ليس

---

(١) أنظر : حياة مى : محمد عبد الغنى حسن ص٥ والمحافظة والتجديد فى الفتر العربى المعاصر فى مائة عام : أنور الجندى ص٤٢٨ .

من حب الناس ، حب فوق الشهوات وفوق الغايات الدنيا لأنه ليس له مدى ولا غاية ، وراح الرافعى يوما الى ميعاده ، وكان فى مجلسها شاعر جلست اليه تحدثه ويحدثها ، ودخل الرافعى فوقفت له حتى جلس ، ثم عادت الى شاعرها لتتم حديثا بدأته ، وجلس الرافعى مستريبا ينظر وأبطأت به الوحدة وثقل عليــه أن تكون لغيره أحوج ما يكون اليها فاحمر وجهه وغلا دمه ، ورمى اليها نظرة أو نظرتين ، ثم وقف واتخذ طريقه الى الباب استمهلته فما تلبث ، وكتب اليها كتاب القطيعة وعاد اليه البريد برســالتها تعتذر وتعتب وتجدد الحب فى أسطر ثلاثة ولكن الرافعى حين وجد كبرياءه نسى حبه ، وكان هو الفراق الأخير(١) .

وليس من مقصدنا أن نناقش حقيقة هــذا الحب فهو أمر ليس من صلب بحثنا ، وهناك أبحاث كثيرة قد فرغت له ، كما أن هناك جدلا طويلا وحوارا مثيرا قام بين كثير من الباحثين بشأن هــدا الموضوع(٢) .

وان كنا نميل الى ما كان يحدث من (مى) للرافعى مما يوحى بالحب هو الذى كان يحدث منها لكل رواد « نديها » فالرافعى واحد من العشــاق الكثيرين الذين هاموا صبابة بالأديبة « مى » ممثلة فى حبها مثل العقاد وصبرى ومطران وجبران ومنصور فهمى وطه حسين ، اذ كان يظن كل واحد من هؤلاء أنه الوحيد المســتأثر بحبها المتربع على عرش قلب الأديبة الذكية الفانية صــاحبة المنتدى الكبير فكل واحد من هؤلاء الرواد كان يظن انه أثير لديها ، فهــذا الرافعى يقول : انها كانت تستبقيه بعد الندوة ، والعقاد يقول مثل ذلك ، وكذلك قال المــازنى وطه حسين أيضا وكل منهم صادق فيما قاله ولكن « ميا » كانت شديدة الحرص على صلتها بالجميع ، وشديدة

(١) أنظر : حياة الرافعى : محمد سعيد العريان ص٨١ ومابعدها .

(٢) أنظر : العقاد والتجديد فى الشعر ، وقضية السفور بين العقاد وخصومه للعوضى الوكيل ، وفصول من النقد عند العقاد . احمد خليفة التــونسى .

الحرص على أن يحبها الجميع ، ولعل ذلك كان تعويضا عما أصاب نفسها من العنوسة مع جمالها ووسامتها وثقافتها وادبها .

الشيء المهم والذى نريد الوقوف عليه هو : بيان الأثر الذى ترتب على ذلك الحب والنتائج التى تولدت عنه .

فهـذا الحب كما يقول الأستاذ : (محمد سعيد العريان) كان الوحى الذى استمد منه الرافعى فلسفة الحب والجمال فى كتبه الثلاثة : رسـائل الأحـزان ، والسـحاب الأحمر ، وأوراق الورد(١) .

فالحب كان أحد الروافد الثرة التى اسـتمد منها الرافعى كثيرا من كتابته واشعاره فما فى الجزء من ديوانه من غزل معظمه مستوحى من وحى حبـه الأول الذى كان أول عهـده به على (جسر كفـر الزيات) مع « عصـفورة » .

وما فى الكتب السـابقة من فلسفة فى الحب والجمال معظمه مستوحى من قصـة حبه مع الآنسة (مى) .

حـديث القمـر :

وهو أول كتاب للرافعى استلهم ما فيه من وحى الحب ، وأول ما صدر له فى أدب الانشـاء . وهو أسلوب رمزى فى الحب تغلب عليه الصـنعة ، أنشأه بعد رحلة الى لبنان فى سـنة ١٩١٢م .

ويعد هـذا الكتاب نموذجا فى تعليم الانشـاء وللرافعى فى تعليم الانشـاء أصول أوصى بها صـديقه « أبا رية » كثيرا وطلب منه تطبيقها ، ولقد قررت مدرسة دار العلوم الشرعية بسـوريا تدريس هـذا الكتاب لطلبة الفصل الرابع بها(١) .

---

(١) أنظر : حياة الرافعى ص٩٧ .

رسـائل الأحـزان :

هـذا هو الكتاب الثـانى من مجموعة الكتب التى ألفها الرافعى فى فلسفة الحب والجمال اذ ألفه عقب غضـبه وثورته حين ذهب الى ندى « مى » فوجدها مشغولة عنه بغيره ، ولم يقابل بما كان يقابل به كل مرة من اهتمام كبير وترحيب زائد — حينذاك عاد الرافعى الى منزله يكتب هـذه الرسائل الى صديق قد تخيله فى نفسـه ، يصف فيها من حاله ومن خبره وما كان بينه وبين صاحبته ، فى أسلوب فيه كبرياء المتكبر ، ولوعة العاشق ومرارة الثائر الموتور ، وذلة المحب المفتون يسـتجدى فاتنته بعض العطف والرحمـة والحنـان .

ولم يكتب الرافعى رسائل الأحزان لتكون كتابا يقرؤه الناس ، ولكن لتقراه هى وهى كل حسـبه من القراء ، فمن ذلك لم يجر فيها على نظام المؤلفين فيما يكتبون للقراء من قصـة اليوم والشهر والسنة ، وفيها الزمان والمكـان والحادثة ، بل أرسلها خواطر مطلقة لا يعنيه أن يقرأها قارئها فيجد فيها اللذة والمتاع ، أو يجد فيها الملل ، وحيرة الفكر وشرود الخاطر ، فهى رسائله اليها على أسلوب من كبرياء الحب ، تشفى ذات نفسه ولا تنال من كبريائه .

ويذكر الرافعى فى مقدمة الكتاب سبب تسميته بذلك فيقول : « هى رسائل الأحزان » ، لا لأنهـا من الحزن جاءت ، ولكن لأنهـا الى الحزن انتهت ، ثم لأنها من لسان كان سلما يترجم عن قلب كان حربا ، ثم لأن هـذا التاريخ الغزلى كان ينبع كالحياة وكان كالحياة مفضيا الى قبر »(٢) .

ولقد كتب الرافعى هـذا الكتاب فى ستة وعشرين يوما ، ولمـا أخـذ عليه الدكتور (طه حسين) الغموض فى عباراته ، وانه كان يلدها ولادة

---

(١) أنظر : من رسائل الرافعى : محمود أبو رية ص٢٠٩ .

(٢) أنظر : تصدير رسائل الأحزان للرافعى . ط . ثانية .

ويقاسى فى هـذه الولادة ما تقاسـيه الأم من آلام الوضع ، رد الرافعى عليه قائلا : « ولقد كتبت رسائل الأحزان فى ستة وعشرين يوما فأكتب أنت مثلها فى ستة وعشرين شـهرا ، وأنت فارغ لهـذا العمل وأنا مشـغول بأعمـال كثيرة لا تدع لى من النشـاط ولا من الوقت الا قليلا ، وها أنا أتحداك أن تأتى بمثلها أو بفصل من مثلها ، وان لم يكن الأمر عندك فى هـذا الأسلوب الشـاق عليك الا ولادة وآلاما من آلام الوضع كما تقول فعلى نفقات القابلة والطبيبة متى ولدت بسلامة الله »(١) .

ولم يكن رسائل الأحزان كله نثرا بل وردت فيه قصائد شـعرية ، ومنهـا قصـيدة : « حيلة مرآتها » التى وردت فى الكتاب ونشرت كذلك بمجلة الهلال(٢) .

السـحاب الأحمـر :

أما كتاب : « السحاب الأحمر » فهو الكتاب الثالث من مجموعة مؤلفاته فى « فلسفة الحب والجمال » وهـذا الكتاب يمثل الجزء الثانى من قصـة حب فلانة ، أو الطور الثانى من أطواره بعد القطيعة ، وصـدر بعد رسائل الأحزان بأشـهر .

ونراه يقوم على سبب واحد : حول فلسفة البغض ، وطيش الحب ، ولؤم المرأة ومما يقوله الرافعى فيه : « ان من النسـاء ما يفهم ثم يعلو فى معانيه الحياة الى أن يمتنع، ومن النسـاء ما يفهم ثم يسـفل فى معـانيه الخسيسة الى أن يبتذل — ان من المرأة ما يحب الى أن يلتحق بالايمان ، ومن المرأة ما يكره الى أن يلتحق بالكفـر ومن المرأة حلو ولذيذ يؤكل منه بلا شبع ، ومن المرأة مركزية يشبع منه بلا أكل »(٣) .

---

(١) أنظر : تحت راية القرآن ص ١٠٤ ، ١٠٥ .

(٢) أنظر : رسائل الأحزان ص٣٤ ومجلة الهلال السنة الثـانية والثلاثون ج٨ .

(٣) السـحاب الأحمر : الرافعى ص٢٧ .

كما نعثر فى هـذا الكتاب بين الحين والآخر على متطوعات شعرية فى فلسفة الحب وطيش البغض(١) .

أوراق الـورد :

وكتاب أوراق الورد : هو الـكتاب الرابع من الكتب التى تجلت فيها براعة الرافعى فى تحليـل : فلسفة الحب والجمال — وهو الجزء الأخير من قصـة حبه .

واسم الكتاب مستوحى مما كان يدور بين الرافعى وبين صاحبتـه ، ويبدأ بمقدمة بليغة فى الأدب يتحدث فيها عن : تاريخ رسائل الحب فى العربية بأسلوب هو أسلوب الرافعى واحاطة هى احاطته ، ويحدثنا العريان عن هـذه المقدمة بأنها وحدها باب فى الأدب العربى لم ينسج على منواله ، ولم يكتب مثله ، وانها تذكر قارئهـا ذلك النهج البارع الذى نهجه الرافعى العالم المؤرخ فى كتابه « تاريخ آداب العرب »(٢) .

ويذكر الرافعى فى رسالة منه لأبى رية أن الهدف من تأليفه الكتـاب هو : سد المكان الخالى فى الأدب العربى بما جاء فيه من فلسـفة الحب والجمال — وشرح فكرة الحب وتطهيرها مما علق بهـا ، وبيان أن الأدب العربى قادر على مسـايرة أحـدث الآداب الأوربية والغربية(٣) وكان الرافعى رحمه الله يعتز بأوراق الورد اعتزازه بأنفس ما أنتج فى أدب الانشاء ويرى أن ما كتبه فيه يفوق ما كتبه (شكسبير ولا مارتين)(٤) .

فلسـفة الحب والجمال فى الأدب العربى :

تعتبر كتب الرافعى الأربعة : حديث القمر ورسائل الأحزان والسحاب الأحمر وأوراق الورد وحدة يتمم بعضها بعضا ، لأنها جميعا تنبع من معين

---

(١) أنظر : المرجع السـابق ص١١٧ .
(٢) أنظر : حياة الرافعى ص١١٧ .
(٣) أنظر من رسائل الرافعى ص٢٢٥ وما بعدها .
(٤) أنظر : المرجع السـابق ص٢٨٨ .

واحد ، وترمى الى هدف واحد وان اختلفت اساليبها ومذاهبها ، فهـذه الكتب الاربعة تدور حول « فلسفة الحب والجمال » بما راينا ، ولا ينكر ما فى هـذه الكتب من فلسفة لمعانى الحب وتدقيق فى شرح اسراره وكشف بواعثه ومحركاته ، وانما الذى يستأهل النقاش ويستلفت النظر ما يذهب اليه الرافعى من خلو الادب العربى من هـذا اللون ، وأن تلك الكتب قـد جاءت لتسـد هـذا المكان الخالى فى الادب العربى ، لقد كرر الرافعى ذلك فى أكثر من موطن وفى مقدمته لأوراق الورد كما راينا يذكر ان الأدب العربى قد خلا من هـذا اللون الانشائى ، وما كان منه فى فلسفة الحب فهو شعر لا نثر(١) .

ويلاحظ ما فى دعوى الرافعى السالفة من مبالغة ، وما سـاقه اليها الا فرط اعجابه بكتبه ، فلم يحرم الأدب العربى من هـذا اللون من الثقافة كما ذهب ، فهـذا ابن حزم الأندلسى المتوفى فى القرن الخامس الهجرى قد تورط فى الحب واصيب بدائه وانشأ فى ذلك شـعرا كثيرا اودعه « طوق الحمامة » الذى بحث فيه ماهية الحب واسبابه ، وتكلم عن الحب فى النوم وعن الحب بنظرة واحدة وعن المراسلة والسفراء والوصل والهجر والغيرة وأنواع العذال والرقباء والواشين الى غير ذلك مما انقسم فه البحث الى ثلاثين بابا ، والجاحظ فى القرن الثالث الهجرى تكلم عن الحب وعرفه تعريفا يكاد يقرب من الفلسفة وأن غلبت عليه الصبغة اللغوية ، والرئيس ابو على ابن سينا الف رسالة فلسفية فى « العشق » وقد كان معاصرا لابن حزم ومات قبله بنحو ثمان وعشرين سنة ، وكتب غيرهما من علماء اللغـة فى معنى الحب والعشق والهيام وما اليها من الألفاظ التى تتضمن معنى الحب ، واشـهر من الف فى هـذا الموضوع بعد ابن حزم وابن سينا : ابن قيم الجوزية — صاحب كتاب : (روضـة المحبين) وابو محمد بن السراج صاحب : (مصارع العشاق) والتميمى مؤلف (امتزاج الارواح) والقاضى

(١) انظر المقتطف : عدد مارس سنة ١٩٣١م . فن رسائل الحب فى الأدب العـربى .

ابن سـليمان الفوقانى مؤلف كتاب (محنة الظرفاء) وشـهاب الدين ابن أبى حجلة مؤلف (ديوان الصبابة) وهؤلاء عـدا من الغوا فى الحب الصوفى وفلسفته كابن العربى وابن الفـارض وغيرهما(١) .

فلم يحرم الأدب العربى من هـذا اللون من الكتابة ، ولم يخل من رسائل فى الحب والجمال كما ذهب الى ذلك الرافعى فى دعواه المبالغ فيها .

وبعـد : فلقد كانت تجربة مثمرة ، وحبا طاهرا ناجحا ، اذ اثمرت تلك التجربة ، واثمر هـذا الحب : ادبا وحكمة وفلسـفة شـعرا ونثرا فى الجزء الأول من ديوانه ، وفى كتبه الأربعة التى تدور حول فلسـفة الحب والجمال وهى : حديث القمر ورسائل الأحزان ، والسحاب الأحمر وأوراق الورد .

وما فى هـذه الكتب من أدب وفلسفة فهو ثروة طائلة تضـاف لأدبنا العربى ، لكنها لم تكن اول شىء فيه كما ذهب الى ذلك الرافعى .

---

(١) أنظر : مجلة الهلال : فلسفة الحب عنـد العرب جـ العـام الحادى والأربعون ص ٦٥٦ وما بعدها وجريدة البلاغ الجديد : رسائل الحب فى اللغة العربية ، جريدة البلاغ الجديد عدد ٢٨ يوليو سنة ١٩٣١م .

الفصـــل الخـــامس

الرافعي والشـــاعر والكـــاتب

الرافعي الشـــاعر :

كلف الرافعي بالشـــعر من أول نشأته ، فما كان له هوى الا أن يكون شاعرا كبعض من يعرف من شعراء العربية ، أو خيرا ممن يعرف من شعراء العربيـــة .

واذا كان كبار الكتاب فى العصور الأدبية الزاهرة قد أسهموا فى تعاطى الشعر ظنا منهم انه لا تكتمل للأديب أسباب الامتياز الا اذا جمع الى كتابه النثر قبل الشعر ، فان شعرهم رغم ما كان فيه من ســـمات جمال لم يرتفع قدره الى مقام شعر الشعراء المتفرغين ، لذلك كان يطلق عليه شعر الكتاب وليس كذلك شعر الرافعي رغم أن شهرته ككاتب غلبت صـــيته كشاعر .

ولعل السبب الحقيقى فى ذلك موهبة أصـــيلة ، واحساس مرهف ، واستعداد كامل صـــادف أرضا خصبة فأينع وأثمر خير الثمرات .

ولقد بدأ الرافعي يقول الشعر ولمـــا يبلغ العشرين من عمره ، ينشره فى الصحف وفى مجلات السوريين التى كانت المجلات الأدبية كلها الى ذلك الوقت فى أيديهم ، فمجلة الضـــياء ، والبيـــان ، والثريا ، والزهـــراء ، والمقتطف ، وسركيس ، والهلال ، وغيرها ، كان يقوم عليها كلها جماعة من أدباء ســـورية ، كالبســـتانى ، واليازجى ، وصروف ، وجرجى زيدان ، وسليم سركيس وغيرهم ، وكانت اليهم الزعامة الأدبية فى اللغة والأدب الوصفى والتاريخ ، أما أدب الانشاء فكان قســـمة بينهم وبين أدباء مصر[1] .

وظل الرافعي يقول الشعر لنفســه ، أو ينشر منه فى المجلات الأدبية ، أو يقرؤه على أصدقائه ، فلما كانت سنة ١٩٠٣م ، وعمر الرافعي يومئذ

---

(١) أنظر : حياة الرافعي : محمد سعيد العريان ص٣٢ .

ثلاث وعشرون سنة ، نشر « حافظ ابراهيم » ديوانه ، وقدم له بمقدمة بليغة كانت حديث الادباء فى حينها ، وطال حولها الجدل حتى نسبها بعضهم الى المويلحى ، واستقبل الأدباء ديوان « حافظ » ومقدمته استقبالا رائعا ، وعقدوا له اكاليل الثناء ، والرافعى غيور شموس فما هو الا أن رأى ، ما رأى ، حتى عقد العزم على اصدار ديوانه ، ومادام « حافظ قد صدر ديوانه بهذه المقدمة التى أحدثت كل هذا الدوى ، فان على الرافعى أن يحاول جهده ليبلغ بديوانه ما بلغ حافظ ، وان عليه أن يحمل الأدباء على ان ينسوا بمقدمته مقدمة ديوان حافظ — وصدر الجزء الأول من ديوان الرافعى فى الموعد الذى اراد بعد ديوان حافظ بقليل ، وقدم له بمقدمة بارعة فصل فيها معنى الشعر وفنونه ومذاهبه وأوليته ، واذا كانت مقدمة ديوان « حافظ » قد ثار حولها من الجدل ما حمل بعض الأدباء على نسبتها الى المويلحى ، فقد حملت هذه المقدمة الأديب الناقد الكبير الشيخ « ابراهيم اليازجى » على الشك فى أن يكون كاتبها من ذلك العصر ، مما يخادع نفسه فى قدرة الرافعى على كتابتها[1] .

وبلغ الرافعى بالجزء الأول من ديوانه مبلغه الذى اراد ، واستطاع بغير عناء كبير أن يلفت اليه أنظار ادباء عصره ، ثم استمر على دابه فأصدر فى سنة ١٩٠٤م الجزء الثانى من الديوان ، وفى سنة ١٩٠٦ م اخرج الجزء الثالث ،وفى سنة ١٩٠٨م أخرج الجزء الثانى من ديوان النظرات ومضى على سنته معنيا بالشعر ، متصرفا فى فنونه ، ذاهبا فيه مذاهبه ، لا يرى له هدفا الا أن يبلغ منزلة من الشعر تخلد اسمه بين شعراء العربية ، وتالق نجم الرافعى الشاعر وبرز اسمه بين عشرات الأسماء من شعراء عصره براقا تلتمع أضواؤه وترمى اشعتها الى بعيد ، ولقى من حفاوة الأدباء ما لم يبلغه الا الاقلون من أدباء هذه الأمة ، فكتب اليه الأستاذ الامام الشيخ محمد عبده يقول : « أسأل الله أن يجعل للحق من لسانك سيفا يمحق به الباطل ، وان يقيمك فى الأواخر مقام حسان فى الأوائل » وكتب المرحوم الزعيم « مصطفى كامل » يقول : « وسيأتى يوم اذا ذكر فيه الرافعى قال الناس : هو الحكمة العالية مصوغة فى أجمل قالب من البيان » وكتب حافظ ، وقال

---

(١) انظر : المرجع السابق ص٣٣ .

البارودى ونظم الكاظمى ، وتحدث الأدباء والشعراء ما تحدثوا عن الرافعى الشـــاعر ، وظل هو على مذهبه ذاك حتى سنة ١٩١١م ، ثم تطورت به الحياة ، وانفعلت أعصابه بأحداث الأيام ، فانحرف عن الهدف الذى كان يرمى اليه من الشعر ، وتوجه وجهة جديدة فى الأدب . وليس كل شــعر الرافعى فى دواوينه ، وليس كل ما فى دواوينه يدل على فنه وشـــاعريته ، فالجيد الذى لم ينشر من شعر الرافعى أكثر مما نشره ولم ينقطع الرافعى عن الشـعر بعد تلك الفترة ، ولكنه لم يقتصر عليه[١] .

ولقد تأثر الرافعى فى شعره بكثير من شعراء عصره ، لكن تأثره كان زائدا بهؤلاء الشـــعراء الثلاثة : البـــارودى وحافظ وشـــاعر العراق : عبد المحسن الكاظمى[٢] .

والرافعى قد استوفى فى أجزاء ديوانه ألوانا عديدة فى الغزل والحـــكم والوطنية والنقد والأناشيد وشئون الدنيا وأحال الناس وطرائف الموجودات وكثيرا من الأمور التى تعترض الانسان أو يراها فى حياته كفنان وشـــاعر وانسان ، وهـــذا ايضـــا ما نجد بعضه فى ديوان « النظرات »[٣] .

وديوان « النظرات » هو آخر دواوين الرافعى ، وبعـــده انقطعت علاقته بالشعر بعد أن تحول الى الكتابة الا ما كان من قصائد متفرقة يقولها بين الحين والآخر ، وأكثرها فى حب فلانة ، وبعض هـــذه القصائد قد نشر فى كتبه التى أنشأها للحديث عن هـــذا الحب .

شـــاعر الملك :

وعاد الرافعى الى انشاد الشعر بانتظام فى سنة ١٩٢٦م حينما اختير ليكون شاعرا للملك ، فاستمر يرسل قصائده فى مديح الملك لمناســـباتها من سنة ١٩٢٦م الى ســـنة ١٩٣٠ م ، ثم عاد ما بينه وبين الشـــعر الى قطيعة وهجران[٤] .

---

(١) انظر : حياة الرافعى ص٣٥ وما بعدها .
(٢) انظر : المرجع السابق ص٣١ .
(٣) انظر : الرافعى ومى : عبد السلام هاشم حافظ .
(٤) انظر : حياة الرافعى ص١٣٨ .

وقصة اختيار الرافعى ليكون شاعرا للملك فؤاد ، وحصوله على لقب « شـــاعر الملك » أمر مشهور ومعروف فى تاريخ الرافعى ، ومع هـــذا فيصر الأستاذ : « العوضى الوكيل » على عدم صحة ذلك وينفى خبر حصول الرافعى على لقب : « شاعر الملك » ويرى أن ذلك من خيال الرافعى أو راويته ، كما يذكر الأســـتاذ « العوضى الوكيل » أن الرافعى كان ينظم المدائح فى الملك لمناسباتها وينشرها عن طريق ديوان الملك فى الصحف فى أمكنة بارزة وبحروف متميزة ، ولكن هـــذا مهما يكن من شأنه فانه لا يثبت له وصفا لم يصـــدر به قرار أو أمر ملكى أو ارادة من ارادات « فؤاد » ولا حتى خبر صحفى ، فى الوقت الذى يقبع فيه فى ديوان الملك موظف كبير ينشر مدائح الملك فى مناسباتها وبالطريقة التى كانت تنشر بها مدائح الملك فى الصحف(١) .

ويؤكد الأستاذ « العوضى الوكيل » رأيه فى عدم حصول الرافعى على لقب « شاعر الملك » بالاستناد الى مقال كتبه الأستاذ (يوسف أحمد طيرة) فى مجلة « ابوللو » تحت عنوان « شـــاعر الملك » ورشح فيه مجموعة من الشعراء للحصـــول على لقب « شاعر الملك » منهم : مطران ، ومحرم ، والجارم ، وعبد الرحمن شكرى ،وابراهيم ناجى ، وعلى محمود طه وليس من بينهم الرافعى(٢) .

ويعلق الأســـتاذ « العوضى الوكيل » على ما نشر فى أبولو بقوله : والرافعى اذن ، رغم ما كان ينشر من أمداح للملك فى كل مناسبة ، وأحيانا بغير مناسبة لم يعتبره محرر أبولو من الشعراء الذين يستحقون أن يرشحوا لمنصب شاعر الملك وليس فى السرد التاريخى الذى ذكره المحرر ما يوحى بأن الرافعى كان يوما شاعر الملك نقول : « لعله أمل كان يراود الرافعى فاحتال له ولكنه لم يصل اليه »(٣) .

---

(١) أنظر : قضية السفود بين العقاد وخصـــومه : العوضى الوكيل ص٨٤ .

(٢) أنظر : مجلة أبولو العدد الرابع — المجلد الثانى عدد ديسمبر ســـنة ١٩٣٣م .

(٣) أنظر : قضية الســـفود بين العقاد وخصومه ص٨٤ وما بعدها .

ولعلنا ندرك أن الأستاذ « العوضى الوكيل » لم يكن موفقا فيما رآه وذهب اليه من نفى خبر اختيار الرافعى ليكون شـــاعرا للملك وحصــوله على هــذا اللقب اعتمادا على عدم ورود ذكر الرافعى بين من رشــحتهم « أبولو » للحصول على هــذا اللقب . وهل فى مجرد اغفال « أبولو » ذكر الرافعى ما يجعل الكاتب يجرد الرافعى من منصب أسند اليه ولقب وسمى به فترة من حياته ، ويرى أن ذلك من خياله أو من خيال راويته ؟

وماذا يقول الأستاذ « العوضى الوكيل » فى هــذا الجواز المجانى الذى أعطى للرافعى ليســافر فى الدرجة الاولى على خطوط سكة الحديد ؟

وماذا يقول أيضا فى طبع كتاب « اعجاز القرآن » على نفقة الملك ؟

وماذا يقول كذلك فى ارســال ابن الرافعى (محمد) فى بعثة علمية لدراسة الطب فى فرنسا على نفقة الحكومة .

ثم ماذا يقول فى دلال الرافعى وازدهائه على الموظفين فى محكمة طنطا الأهلية حيث كان يعمل جنبا الى جنب مع مئات من الكتبة والمحضرين وصغار المســتخدمين(١) ؟

فلم تكن هــذه المكاسب الســابقة الا أثرا من آثار حصول الرافعى على لقب « شاعر الملك » .

وماذا يقول صاحب (قضية السفود بين العقاد وخصومه) فى هــذه الخصــومة الطويلة التى كانت بين الرافعى وبين الأســتاذ : « عبد الله عفيفى » وكانت بسبب التزاحم على رتبة « شاعر الامير » ولم تكن ذيادا عن الدين ودفاعا عن القرآن كما كانت سائر الخصومات التى نشبت بين الرافعى وبين أدباء عصره ، كمــا كانت أول كتــابة للرافعى تحت عنوان « على الســفود » هى مقالات ثلاث كتبها فى نقد ثلاث قصــائد أنشأها الاســتاذ عبد الله عفيفى فى مديح الملك(٢) .

---

(١) أنظر : حياة الرافعى ص١٣٩ .

(٢) أنظر : المرجع الســابق : ص١٤٣ .

فهـــذه براهين مقنعة وادلة واضحة لحصـــول الرافعى على لقب « شاعر الملك » فى الفترة من سنة ١٩٢٦م الى ســـنة ١٩٣٠م . ولا قيمة لعدم ورود أسمه بين من رشحتهم « أبولو » للحصول على ذلك اللقب .

أناشـــيد الرافعى :

ولا يفوتنا ونحن نتحدث عن الرافعى الشاعر أن نذكر أناشـــيده التى اشتهر بها فى المحيط العربى والاسلامى وحازت القبول فى كل الأوساط ، حتى فى المجتمعات الاوروبية حيث كانوا يطربون لأناشيده التى يسمعونها فى حفلات الطلبة ويستريحون لها ويبدون اعجابهم بها ويعلنون ثناءهم عليها .

فلم يوفق شاعر من شعراء العربية توفيق الرافعى فى تأليف الأناشيد ، ولم يكتب لنشـــيد وطنى أو طائفى من الذيوع والشـــهرة والانسجام مع الالحان ما كتب لأناشـــيد الرافعى فهو بذلك كما يقول الأســـتاذ : محمد ســـعيد العريان خليق أن يسمى « شـــاعر الأناشـــيد »[١] .

وقد كلف الرافعى منذ نشأته فى الشعر بالأناشيد الوطنية ، والأغانى الشـــعبية ، يفتن فى نظمها ، ويبدع فى أوزانها وأساليبها ، ففى ســـنة ١٩٠٣ أخرج فى الجزء الأول من ديوانه بضع قصائد وطنية ، تفيض عاطفة ، وتشـــتعل حماسة ، واشـــتهر من بينها قطعته (الوطن) التى يقول فى مطلعها :

بلادى هواها فى لسانى وفى دمى ... يمجـــدها قلبى ويدعو لهـــا فمى

وذاعت على السنة تلاميذ المدارس ، يحملهم المعلمون على استظهارها فى دروس المحفوظات كما اشتهر كثير من قصائده الوطنية وأغانيه الشـ[illegible]ـة ، ثم دأب على نظم أمثال هـــذه الاغانى ينشر منها طرفة رائعة فى كل جزء من ديوانه ، فنشر نشـــيد الفلاحة المصرية وأرجوحة سامى ، وغيرهما ، وأذاع فى الصحف كثيرا مما نظم من « أغانى الشعب » ، وعرف الرافعى فى نفســـه هـــذه الميزة التى فاق بها شعراء العربية فى باب هو من الشعر فى ذلك

---

(١) انظر : حياة الرافعى : ص[illegible] .

العصر من صلبه وقوامه ، فأجمع أمره على اخراج ديوان « اغانى الشعب » يضع فيه لكل جماعة أو طائفة من طوائف الشعب نشيدا أو اغنية عربية تنطق بخواطرها وتعبر عن أمانيها ، وقد جرى الرافعى فى هـذا الميدان شوطا بعيدا ، وانجز طائفة كبيرة من أغانى الشعب نشر بعضها وما يزال سائرها فى طى الكتمان بين أوراقه الخاصة ومؤلفاته التى لم تنشر بعد .

واشهر اناشـيده : « اسلمى يامصر » و « الى العلا الى العلا بنى الوطن » و « حماة الحمى .. » ولكل نشـيد تاريخ .

ولعل السر فى توفيق الرافعى هـذا التوفيق الرائع فى أناشيده هو : بلاغته فى وضع تلك الأناشيد ، اذ كان يختار لها الأوزان المناسبة والألفاظ الملائمة ، كما كان يضع لكل جماعة النشـيد الذى يوافق ميولها ، فالنشيد الذى يوضع للطلبة يخالف ذلك الذى يوضع للطالبات ، اذ الأول تغلب عليه القوة والحماسة ، أما الثانى فيجب أن يكون نشـيدهن غناء وحماسـة ظريفـة(١) .

كذلك تدقيقه الزائد ووقوفه الطويل عند الأوزان العروضية يختار منها ما يناسب المعنى الذى يذكر فيه النشـيد ، وأحيانا ما كان ينتهى الى عدم العثور على وزن مناسب للمعنى الذى يذكر فيه النشـيد ، فيضـطر الى ابتكار قوالب جديدة يصب فيها نشـيده .

ويحدثنا الأستاذ/محمد سعيد العريان عن هـذه الحاسة الموسيقية لدى الرافعى فيقول : « وكانت له عناية واحتفال بموسيقية القول ، حتى ليقف عند بعض الجمل من انشائه برهة طويلة يحرك بها لسـانه حتى يبلغ بها سمعه الباطن ، ثم لا يجد لها موقعا من نفسـه فيردها وما بها من عيب ، ليبـدل بها جملة تكون أكثر رنينا وموسيقى ، وكان له ذوق فنى خاص فى اختيار كلماته ، يحسـه القارىء فى جملة ما يقرأ من منشآته ، هـذا الذوق الفنى الذى اختص به هو الذى هيأه الى أن يفهم القرآن ويعرف سر اعجازه فى كل آية وكل كلمة من آية وكل حرف من كلمة »(٢) .

---

(١) أنظر : من رسائل للرافعى : محمود أبو رية ص٢٨٤ .
(٢) حياة الرافعى : ص١٨٤ وما بعـدها .

فتلك هى بلاغة الرافعى فى اناشـيده ، تلك البلاغة التى كتبت له شـهرة وحققت له خلودا لم يبلغهما شاعر من شعراء العربية ، وقد تكونت تلك البلاغة كما رأينا من عناصر منها : الاحتفال بموسيقية القول ، والملائمة بين اختيار الكلمات والمعانى المقصـودة واختيار الأوزان المناسـبة لجو النشـيد والهـدف المراد منه .

الرافعى الكـاتب :

لقد بدأ الرافعى كما تقدم حياته الأدبية شاعرا ، وكان يطمح الى أن تكون له مكانه فى الشعر لا تقل عن مكانة ابرز الشعراء فى عصـور ازدهار اللغة والادب ، ولقد أودع أشعاره فى ديوانه الذى اجتمع من ثلاثة أجزاء . وفى ديوان النظرات الذى أخرجه فى سـنة ١٩٠٨م . وبعد ذلك اتجـه الرافعى الى الكتابة واخذ يتحول من الشـعر الى الكتابة وبدأ يشق طريقه الى عالم الكتابة باخراج الجزء الأول من تاريخ آداب العرب ، بعد أن انتقد الجامعة المصرية بالتقصير والاهمال فى تدريس « أدبيات اللغة العربية » ولقد اتم الرافعى طبع هـذا الجزء فى سـنة ١٩١١م ، وفى العام التالى ، أصدر الجزء الثانى من تاريخ آداب العرب ، وموضوعه : اعجاز القرآن ، والبلاغة النبوية ، وهو الذى أصـدره من بعد فى طبعته الثانية باسم : « اعجاز القرآن » وباسمه الثانى يعرفه قراء العربية — ثم كانت بقية كتبه التى اخذ يصدرها الواحد تلو الآخر . وهى : حديث القمر ، والمسـاكين ، ورسائل الأحزان ، والسحاب الأحمر ، وتحت راية القرآن ، وعلى السفود ، واوراق الورد ، ووحى القـلم .

وفى خلال تلك الفترة التى تحول فيها الرافعى من الشعر الى الكتابة ، وكتب المؤلفات السابقة وكثيرا من المقالات التى كان ينشرها فى الدوريات التى عاصرته — فلم تنقطع علاقته بالشـعر كلية ، بل كان ينشـد شعرا بين الحين والآخر — كهـذه القصـائد المتناثرة التى تقابلنا فى كتبه التى الفها فى فلسفة الجمال والحب ، وذلك بخلاف الأشـعار التى قالها فى مدح الملك فؤاد بعد اختياره شاعرا له وعودته الى الشعر مرة ثانية فى الفترة من سـنة ١٩٢٦ الى سـنة ١٩٣٠م .

أما السبب الذى من أجله عدل الرافعى عن مذهبه فى الشـعر الى الكتـابة ، فهو غيرة الرافعى على القرآن والدين واللغة العربية ، فقـد

رأى أن من الأفضل أن يستخدم أدبه وثقافته فى الذود عن حمى الدين والدفاع عن حياض القرآن وذلك عقب تأليف الجزء الأول من تاريخ آداب العرب — ومقابلة العلماء والباحثين له بالاعجاب والثناء وفى ذلك يقول الأستاذ : « محمد سعيد العريان » : « الحق أن الرافعى لم يكن له خيرة فى شىء من ذلك ولا كان يعنيه ، ولا توجهت اليه نيته ،ولكنه ألف فى «تاريخ آداب العرب» لأنه وجد فى نفسه رغبة الى أن يؤلف فى « تاريخ آداب العرب » ، وكتب فى اعجاز القرآن ، لأن اعجاز القرآن باب فى تاريخ الأدب ، فلما أخرج كتابيه الى الناس ، لم يلبث أن ارتد اليه الصدى مما يقول الناس ، فاذا هو عند أكثرهم أديب ليس مثله فى العربية ، واذا هو كاتب من الطراز الأول بين كتاب العربية ، واذا هو صاحب القلم الذى يكتب عن اعجاز القرآن فيعجز ، ويتحدث عن الاسلام حديث المؤمن الى المؤمن .. وهنا بدأ الرافعى الكاتب الذى يعرفه اليوم قراء العربية على حين أخذ الرافعى الشاعر يتصاغر ويختفى رويدا رويدا حتى نسيه الناس أو كادوا ، لا يتحدثون عنه الا كما يتحدثون عن شاعر استمعوا حينا الى أغاريده العذاب ، ثم ترك دنياهم الى العالم الثانى ليتحدث اليهم من صفحات التاريخ ، لقد عرف الرافعى من يومئذ أن عليه رسالة يؤديها الى أدباء الجيل ، وأن له غاية أخرى هو عليها أقدر وبها أجدر ، فجعل الهدف الذى يسعى اليه أن يكون لهذا الدين حارسه وحاميه ، يدفع عنه أسباب الزيغ والفتنة والضلال ، وأن ينفخ فى هذه اللغة روحا من روحه يردها الى مكانها ويرد عنها ، فلا يجترىء عليها مجترىء ولا نال منها نائل ، ولا يتندر بها ساخر ، الا انبرى له يبدد أوهامه ويكشف عن دخيلته »(١) .

أما السبب الثانى لعدول الرافعى عن الشعر الى الكتابة بعد السبب السابق ، فهو ما تصنعه القيود الشعرية من تقييد حرية الفكر وما تحدثه من تضيق المجال ، وفى الكتابة متسع ، وفيها طلاقة وحرية ، فكان كما يذكر العريان يعجز أن يصب فى قصيدة من الشعر ما كان يستطيع أن يكتبه فى سهولة ويسر مقالا من مقالاته الشعرية الرائعة التى يعرفها قراء العربية فيما قرأوا للرافعى(٢) .

---

(١) محمد سعيد العريان : حياة الرافعى : ص٥٤ ، ٥٥ . .
(٢) المرجع السابق : ص٥٦ ، ٥٧ .

أسلوب الرافعى :

أما أسلوب الرافعى فى كتابته فهو الأسلوب العربى الذى يتكون من الألفاظ القوية والكلمات المحكمة والعبارات المتينة التى تنأى عن النافر والقلق والركيك والسفساف . وهو أسلوب العرب الذين كانت اللغة طوع بنانهم ، ولقد توفر له ذلك الأسلوب من ادمان القراءة وكثرة المطالعة فى كتب القدماء .

ومن يريد أن يقرأ ويفهم ما كتب الرافعى فعليه أن يعد للأمر عدته ، ويكثر من النظر فى كتبه وبمرور الوقت وبكثرة المعاشرة سوف لايجد صعوبة فى فهم ما كتب الرافعى ، ومن يتهمون الرافعى بالغموض فى كتابته وبالتعمية فى عباراته فانهم لم يقراوا له كثيرا ولم يقرعوا بابه طويلا على أن ما فى كتابة الرافعى فهو عمق وبعد نظر وليس غموضا ولا تعمية فمن شاء أن يقرأ ما كتب الرافعى ليتذوق أدبه فيأخذ عنه أو يحكم عليه ، فليستوثق من نفسه قبل ويستكمل وسائله ، فان اجتمعت له أداته من اللغة والذوق البيانى ، واحس احساس النفس العربية المسلمة فيما تحب وماتكره وما يخطر فى أماقيها ، فذوقه ذوق وحكمه حكم ، والا فليسقط الرافعى من عداد من يقرأ لهم ، أو فليسقط نفسه من عداد هذه الأمة(٢) .

فرحم الله الرافعى — لقد كان فى الكتابة طريقة وحده ! وحسب الكاتب مزية الا يكون لأسلوبه ضريع فى الأدب كله ، وأسلوبه يمتاز بالسلامة والسلاسة والايجاز والعمق ، وهذه المزايا نتائج حتمية لاكتمال عدته وغزارة مادته وصفاء ذوقه وذكاء فهمه ، وكان يحمل الفكرة فى ذهنه أيا ا

---

(١) أنظر : حسن عبد القادر عبد الدايم : أثر القرآن فى أدب الرافعى ص١٩٢ — ١٩٦ ، وأنور الجندى : المحافظة والتجديد فى النثر العربى المعاصر ص٤٥٦ — ٤٥٩ ، و د . طه حسين : حديث الاربعاء : ٣ : ٨ — ٢١ ، و د . أحمد هيكل : تطور الأدب الحديث فى مصر : ص٤٣١ — ٤٣٢ ، و د . محمد زغلول سلام : النقد العربى الحديث : ص ٢/ — ٢٩٢ .

(٢) أنظر : تصدير وحى القلم : محمد سعيد العريان : ١/٧ ، والمختار من أدب الرافعى ص صدر الدين شرف الدين ص١٢ .

يعاودها فى خلالها الساعة بعد الساعة بالتقليب والتنقيب والملاحظة والتأمل حين تتشعب فى خياله ، وتتكاثر فى خاطره .

والرافعى كان يقتصد فى أسلوبه ، لأنه ينفق عليه من جهده ، من ذوقه ومن فنه ما يجعله أشبه بومضات الروح ونبضات القلب ، ونفحات العافية فهو يفصل اللفظ على قدر المعنى ، وهو بعد ذلك أسلوب جيد التقسيم ، سليم المنطق الا أنه بعيد الاشارة يستتر جماله على القارىء العجلان ، والفهم البطىء — فاذا روى فيه الناقد المتذوق انكشف له فى كل كلمة سر ، وطالعته فى كل فقرة آية .

الفصل السادس

الرافعى الناقد

كما كان الرافعى شاعرا وكاتبا له طابعه المميز فى الشعر وأسلوبه الواضح فى الكتابة ، فقد كان أيضا ناقدا له منهجه المستقل فى نقده .

ولم يخرج نقد الرافعى عن الهدف العام الذى دار فى اطاره أدبه وهو : الذود عن حمى الدين واللغة العربية .

ولقد استفاد الأدب العربى ولغته — وانتفعت حقول الفكر وميادين الثقافة من جهود الرافعى فى النقد استفادة غير محدودة .

ومهمة الناقد عند الرافعى لا تقل شأوا عن مهمة الأديب — بل ان قيام النقد بوظائفه من أهم الأسباب فى علو كعب الأدب وارتفاع شأنه — ولم ينتعش الأدب فى القرون الأولى الا لتوافر النقاد الذين توفروا عليه بالنقد والتمحيص — كذلك لم يهبط المستوى الأدبى فى العصور المتأخرة الا لعدم توافر النقاد الذين يحددون الوسائل ويهيئون السبل للاصلاح الأدبى والنهضة الثقافية .

وبهذا يرد الرافعى السر فى تخلف الشعر عن منزلته الواجبة له فى مجاراة النهضة الأدبية الحديثة التى سقط فيها النقد الأدبى — ويرى أن من اقوى الأسباب التى سمت بالشعر فيما بعد القرن الثانى وجعلت أهله يبالغون فى تجويده وتهذيبه كثرة النقاد والحفاظ وتتبعهم على الشعراء واعتبار أقوالهم وتدوين الكتب فى نقهم كالذى كان فى دروس العلماء وحلقات الرواية ومجالس الأدب — كما يرى الرافعى ان الشاعر لا يكون لسان زمنه حتى يوجد معه الناقد الذى هو عقل زمنه(١) .

وليس كل انسان يصلح أن يكون ناقدا — بل أن الناقد هو من يكون لديه الملكة الأصيلة الذوق المهذب المصقول مع اجادة فنى المنظوم

---

(١) انظر : الرافعى : وحى القلم : ٣٧٨/٣ ، ٣٧٩ .

والمنثور — ولا ينبغى أن يعرض لنقد الشاعر والكلام عنه الا شـــاعر كبير يكون ذا طبيعة فى النقد — أو كاتب عظيم يكون ذا طبيعة فى الشعر — ولابد من الأدب والشعر معا لنقد الشعر وحده فيأتى الكلام فيه من العلم والذوق والاحساس والالهام جميعا فيتبين النـــاقد وجوه النقص الفنى ، ويعرف بم نقصت وماذا كان ينبغى لها وما وجه تمامها(١) .

وربما كان هـــذا الذى يريده الرافعى هو الأفضـــل وليس لازما — فهناك كثير من النقاد ومؤرخى الشعر من يتذوقون الأدب تذوقا صـــحيحا سليما ونظراتهم فيه صائبة مسددة وهم مع ذلك ليسوا بشعراء ولكنهم يتميزون بما لديهم من حاسة فنية(٢) .

فالرافعى يرى أن توافر النقد ويقظة النقاد وقيامهم بواجبهم مما يحقق النهوض للأدب ويعلى من شأنه — ولذا فانه كان يتمنى أن يتفرغ لمقـــالات فى النقد نحو سنتين أو ثلاث تهدم العصر كله من جميع نواحيه الضعيفة ويبنى عليه أدبا جديدا لأن هـــذا العمل فى نظره ينشىء جيلا قويا ، ويحدث فى الأدب واللغة نهضـــة تنبعث بالحياة(٣) .

وعدم التمكن من النقد كان عيبا من العيوب التى عدها الرافعى على شاعر النيل « حافظ ابراهيم » اذ رأى انه لو كان زاول النقد واستظهر للكتابة فيه بتلك الملكة المبدعة فى التندر والتهكم ، مع ما أوتى من القوة فى اللغة والبيان لكانت النعمة قد تمت به على الأدب العربى — لكنه لم يكن عنـــده منه الا ذوق الكلام وادراك النفرة والنبـــوة فى الحرف — والغلظ والجسأة فى اللفظ — والضعف والتهافت فى التركيب ثم ما يجيش فى الخاطر أو يتلجلج فى الفكر من ذوق المعنى وادراك كنهه والنفاذ الى آثار النفس الحيـــة فيـــه(٤) .

---

(١) المرجع السابق : ٣/ ٢٧٩ .
(٢) أنظر : نشأة النقد الأدبى الحديث فى مصر د . عز الدين الأمين ص١٤٩ .
(٣) أنظر : من وسائل الرافعى . محمود أبو رية ص٢٥١ ط ثانية .
(٤) أنظر : وحى القلم : الرافعى : ٣٣٢/٣ .

وذلك لا يكفى عند الرافعى فى صـــناعة النقـــد بل لابد من التعليل والتوجيه وان صلح مذهب الحس بالكلام هـــذا أن يكون من بعض معانى النقد فلا يتهيأ أن يكون هو النقد بمعناه الفلسفى أو الأدبى — ولن يتأتى هـــذا النقد الا بالعلم المستفيض والاطلاع الواســـع ، والحس المرهف ، والقدرة المتمكنة ، مضافة كلها الى الأدب البارع وفلسفته الدقيقة(١) .

ولم يكن التفريط فى صناعة النقد عيب حافظ فقط — بل كان عيب كل الشـــعراء فى العصر الحديث — فيقول الرافعى : « ومن مصـــيبة الأدب عندنا — بل من أكبر أسرار ضـــعفه أن شعراءنا لا طاقة لهم بالنقد وأنهم يفرون منه فرارا ويعملون على تفاديه ، وأنهم لا يحسنون غير الشـــعر ، فلا البارودى ولا صبرى ولا حافظ ولا شوقى كان يحسن واحد منهم أن يدفع عن نفسه أو يكتب فصلا فى النقد الأدبى ، أو يحقق مســـألة فى تاريخ الأدب(٢) .

والرافعى كثيرا ما يردد أن مصـــيبة هـــذا العصر فى الأدب أنه مفلس من ناقد متفرغ للنقد مستجمع أسبابه بصير بمذاهبه متحقق بكل وسائله(٣) .

منهج الرافعى فى نقـــده :

ونظرا لتمكن الرافعى فى اللغة واحاطته بأصولها ووقوفه على أسرارها وكثرة دفاعه عنها فقد ظن عدد كبير من الأدباء والنقاد المحدثين أن منهجه فى النقد قد لزم دائرة اللغة ولم يبرحها الى غير ذلك من مناهج النقد — اذ يرى هؤلاء أن نقد الرافعى فىجملته كان يدور فى اطار المنهج الفقهى الذى يقوم على اللغة — ويعتمد فى الشعر على تشريح الأبيات تشريحا لغويا أو عروضيا دون كشف سحر القصيدة جملة — ولا ما يكمن فيه من انفعال أو عاطفة أو

---

(١) المراجع الســـابق .
(٢) أنظر : من رسائل الرافعى : محمود أبو رية ص٢١٧ .
(٣) المرجع الســـابق .

فكر أصيل — وما ينبض فيه من موسيقى[1] .

ولا يخالف الباحث ما قرره هؤلاء النقاد المعاصرون من غلبة المنهج الفقهى على نقد الرافعى وبروز الاتجاه اللغوى فى كثير من أحكامه النقدية بتأثير من ثقافته العربية الأصـــيلة التى جعلته ذا تمكن من اللغة لا يقل عن تمكن أعلامها الأول وبصر اربابها الســـابقين .

هـــذا التمكن من اللغة والتفقه فى أسرارها يصوره لنا أصدق تصوير المرحوم الأستاذ/أحمد حسن الزيات فى ذكرى الرافعى الأولى قائلا : « كان الرافعى رحمه الله حجة فى علوم اللســـان ثقة فى فنون الأدب — عليما بأسرار اللغة — بصيرا بمواقع الغلط ، خبيرا بمواضع النقد ، محيطا بمذاهب الكلام — وقلما تتهيـــأ هـــذه الصـــفات لغير المطبوعين من الأدباء الذين تعاطوا مهنة التعلم فاســـتنزفوا أيامهم فى درس القواعد وحفظ الشواهد وفقه النصوص بحـــكم الصنعة فكنت، اذا ذكرته فى شىء من دقائق النحو وخواص التركيب وفروق اللغات وجدته على ظهر لســـانه كأنما انصرف من مراجعتهلوقته — ودراسة الكاتبأو الشاعر للفقه وفنه هىفى رأيه ورأىالحق شرط لوجوده فلا يكون النبوغ والأســـتاذية بدونه — ولا تجزى الطبيعة ولا المحـــاكاة عنه .. ولقد بلغ علم الرافعى بالعربية وآدابها حد الاجتهاد والرأى فكان يقف فى التعليل والاستنباط من ثقاتها ورواتها موقف الند ، وقد يتعاظم أحيانا فيقف منهم موقف الاستاذ ، فهو فى رأيه مطلق الحرية مستقل الارادة فى حدود المـــأثور من بيان العرب — ولكنه فى فلسفته مقيد النظر مسير الفكر لنزوله فى الرأى على حـــكم الدين »[2] .

---

(١) انظر : الشعر المعاصر على ضـــوء النقد الحديث . مصطفى عبد اللطيف الســـحرتى ص١٤٧ . ونشأة النقـــد الأدبى الحديث فى مصر د . عز الدين الأمين ص١٤٤ ، ١٤٥ ومصطفى صـــادق الرافعى د . طه عبد الرحيم عبد البر ص١٣٥ والتراث النقدى قبل مدرســـة الجيل الجديد د . عبد الحى دياب ص٧١ — ٧٥ .

(٢) الرسالة : عدد : ٢٥٤ السنة السادسة مايو سنة ١٩٣٨م .

فبتأثير من تلك الثقافة اللغوية الواســـعة كان المنهج الفقهى متميزا وواضحا فى نقد الرافعى — لكنه لم يكن المنهج الوحيد الذى سار عليه الرافعى فى نقده كما يذهب الى ذلك كثير من المعاصرين — بل استعان الرافعى الى جانب ذلك المنهج بمناهج أخرى .

على أن هــذا المنهج الفقهى الذى سار عليه أغلب النقاد القدامى — وتميز تميزا واضحا فى نقد الرافعى هو أهم مناهج النقد وليس منهجا سلبيا شكليا كما يرى ذلك فريق من المعاصرين الذين يرون أنه منهج يعنى بالعرض دون الجوهر وبالقشر دون اللباب(١) .

وهــذا المنهج يبتدىء بالنظر اللغوى لينتهى الى الذوق الأدبى الذى هو لاشك يتحكم فى كل ما يمت الى الأدب بصلة سواء فى ذلك أردنا أم لم نرد — كما أنه يتضمن روح العلم ويعتز بالنفاذ الى حقائق النفوس — ويستمد حقيقته من مادة درســه وهى الأدب(٢) .

وعلى الرغم من اهمية هــذا المنهج الفقهى ووضــوح قيمته وتميزه ملموسا فى معظم ما كتبه الرافعى عن البارودى وصبرى والشعر العربى — وما رد فيه على الدكتور طه حسين فى المعركة بين القديم والجديد — وما حلل فيه شاعرية كل من : عبد الله عفيفى وعبــاس محمود العقاد فى (على السفود) وما أنصف فيه حافظ ابراهيم ، ورفع من قدر أحمد شوقى — على الرغم من وضوح هــذا المنهج فى كل تلك الدراسات — فلم يكن هو المنهج الأوحد الذى اعتمد عليه الرافعى — وانما كان ذلك المنهج واحدا من مجموعة مناهج قد تكامل بها نقد الرافعى ومن تلك المناهج التى تكون منها منهج الرافعى المتكامل فى النقد عدا المنهج الســابق .

---

(١) الشعر المعاصر على ضوء النقد الحديث . مصطفى عبد اللطيف الســحرتى ص٢٠ .

(٢) فى الميزان الجديد د . محمد مندور ص١٤٤ — ١٥٤ .

المنهج التـــاريخى :

ذلك المنهج الذى يربط النص وصاحبه بالبيئة والمجتمع والعصر الذى نشأ فيه ، بل يذهب أبعد من ذلك فى ربطهما بالعصور التى سبقتهما — فان سنة التطور الثقافى والاجتماعى والسياسى ، تجعل العصر يرث كثيرا من خصائص العصور التى سبقته ، فيتأثر بها حتما ، عن قصد أو عن غير قصد ، فلابد اذن للناقد أن يلم بما قال التاريخ عن الاديب — وعو عصره — وما كان يسوده من تيارات ثقافية وســـياسية واجتماعية ومذهبية وما يكون قد جرى حولها من تحزب وصراع ، فان دراسة النص على هـــذا المستوى — وعلى ضـــوء هـــذا التاريخ تعين الناقد كثيرا على فهم ما فى النص من ميول واتجاهات ثم على ادراك ما قد يكون بين تصوير النص وتصوير التاريخ من وفاق أو خلاف ، فيقارن ويوازن ، عسى أن يعرف ايهما أحق واصدق فى تصـــويره ودلالاته — وهـــذا المنهج التاريخى هام جدا فى تتبع الاطوار التاريخية للأجناس الأدبية ، من شعر ونثر ومسرحيات وقصص ، على مختلف العصـــور الأدبية(١) .

ولقد طبق الرافعى هـــذا المنهج التاريخى فى كتاباته واعتمد عليه الى حد كبير ونوه بقيمته ومكانته وذلك فى حديثه عن امرىء القيس — تحت عنوان : « أمير الشعر فى العصر القـــديم » اذ ذكر انه « لابد أن يتقصى المؤلف فى الجمع من آثار المترجم وأخباره ، وأن يبالغ فى التمحيص والمقابلة — ويدقق فى الاستباط والاستخراج ، ويضيف الى عامة ما وجد من العلم والخبر خاصة ما عنده من الرأى والفكر ، ويعمل على أن ينقح ما انتهى اليه المـــاضى فى أدبه وعلمه بما بلغ اليه الحاضر فى فنه وفلسفته »(٢) .

المنهج النفسى :

والى جانب المنهج الفقهى والمنهج التاريخى كان هناك المنهج النفسى وهى جميعا تكون منهج الرافعى المتكامل فى النقد .

---

(١) انظر : اتجاهات وآراء فى النقد الحديث د . محمد نايل ص٢٥ والنقد الأدبى سيد قطب ص١٤١ — ١٤٣ .

(٢) وحى القلم : الرافعى : ٣/٤١٥ .

ويقوم هـذا المنهج النفسى على الدراسات النفسـية التى تكشف الصلة بين النص ونفسية الأديب ومشاعره ، ومدى قدرة هـذا النص على تصوير تلك المشاعر والتعبير عنها ، فان وظيفة الأدب الحقيقية هى التصوير والتعبير عن المشـاعر والنوازع والرغبات فى الانسـان سواء أكانت شعورية أم لا شعورية فتتبدى وتتواثب من خلال النص ، وتتجـه تلقاء روحيا الى وجدان الناقد والقارىء المتذوق ، بكل ما تحمل من حرارة وقوة — وقد تكون دلالة النص الأدبى من وجهة الدراسة النفسية أصـدق من التاريخ فى كشف شـخصية الأديب وطبائعه وحياته الخاصة والعامة ، ، فان الناقد البصير لا تخفى عله سمات الصدق الوجدانى فى التعبير الأدبى وما حوى من حرارة وانفعال ، كما لا تخفى عليه مظاهر الزيف والافتعال فيما يغشى التعبير من فتور وهزال واضطراب[1] .

« والمنهج النفسى » هو الذى يتكفل بالاجـابة الى الطوائف الآتية من الاسـئلة :

١ — كيف تتم عملية الخلق الأدبى ؟ وما هى طبيعة هـذه العملية من الوجهة النفسـية ؟ وما العناصر الشعورية وغير الشـعورية الداخلة فيها وكيف تتركب وتتناسق ؟ وكم من هـذه العناصر ذاتى كامن فى النفس ؟ وكم فيها طارىء من الخارج ؟ وما العلاقة النفسـية بين التجربة الشعورية والصورة اللفظية ؟ وكيف تستنفد الطاقة الشـعورية فى التعبير عنها ؟ وما الحوافز الداخلية والخارجية لعملية الخلق الأدبى ؟ . . . الخ .

٢ — ما دلالة العمل الأدبى على نفسية صاحبه ؟ كيف نلاحظ هـذه الدلالة ونستنطقها ؟ وهل نستطيع من خلال الدراسة النفسية للعمل الأدبى أن نسـتقرىء التطورات النفسـية لصـاحبه ؟ . . . الخ .

٣ — كيف يتأثر الآخرون بالعمل الأدبى عند مطالعته ؟ وما العلاقة بين الصـورة اللفظية التى يبدو فيها وبين تجارب الآخرين الشـعورية

(١) أنظر : اتجاهات وآراء فى النقد الحديث د . محمد نايل ص٢٥ .

ورواسبهم غير الشعورية ؟ وكم ممن هـذا التأثير منشؤه العمل الأدبى ذاته ؟ وكم ؟ وكم منه منشؤه من ذوات الآخرين استعدادهم(١) ؟

وهـذا المنهج النفسى يظهر بوضوح فى راسات الرافعى ويكاد ساوى فى الأهمية والوضوح عند الرافعى المنهج الفقهى — ولقد اعتمد على هـذا المنهج اعتمادا كبيرا فى كل دراساته اللغوية والأدبية والدينية وفى الحديث عن اعجاز القرآن وفى فلسفة الجمال والحب وذلك فضلا عن اعتماده عليه الى حد كبير فى دراساته النقـدية .

وانه يصف مسلكه فى هـذا المنهج عند بداية حديثه عن ديوان الشاعر المهندس : (على محمود طه) الملاح التائه قائلا : « اذ أردت أن أكتب عن شعر قرأته ،كان مندأبى أن أقرأه متثبتا أتصفح عليه فىالحرف والكلمة ، الى البيت والقصـيدة ، الى الطريقة والنهج الى ما وراء من بواعث النفس الشاعرة ، ودوافع الحياة فيها ، وعن أى أحوال هـذه النفس يصدر هـذا الشعر ، وبأيها ينتسب الى الالهام ، وفى أيها تصل الالهام به ، وكيف يتصرف بمعانيه ، وكيف يسترسل الى طبعه ، ومن أين المـأتى فى رديئه وسقطه ، وبماذا يسلك الى تجويده وابداعه ، ثم كيف حدة قريحته وذكاء فكره والملكة النفسـية والبيانية فيه ، وهل هى جبارة متعسفة تملك البيان من حدود اللغة فى اللفظ الى حدود الالهام فى المعنى ملكة استقلال تنفذ بالأمر والنهى جميعا ، أو هى ضعيفة رخوة ليس معها الا الاختلال والاضطراب ، وليس لها الا ما يحمل الضعيف على طبعه المكدود كلما عنف به سقط به ؟ أتبين كل هـذا فيما أقرأ من الشعر ، ثم أزيد عليه انتقاده بما كنت أصنعه أنا لو أنى عالجت هـذا الغرض أو تناولت هـذا المعنى ، ثم أضيف الى ذلك كله ما أثبته من أنواع الاهتزاز التى يحدثها الشعر فى نفسى ، فانى لأطرب للشعر الجيد الوثيق أنواعا من الطرب لا نوعا واحدا »(٢) .

ومن المناهج السـابقة مجتمعة يتكون المنهج النقـدى المتكامل عند الرافعى . ولم يكن يفصل بين تلك المناهج عند التطبيق بل كانت تتعاون مع

---

(١) انظر : النقد الأدبى . سـيد قطب ص١٨٠ .

(٢) وحى القلم : الرافعى : ٤٢٤/٣ .

بعضها لتخرج الصـــورة النقدية كاملة — وهــذا المنهج المتكامل يلخصه الرافعى فى مقاله الذى نشره بمجلة « أبولو » تحت عنوان « نقد الشـــعر وفلسفته » قائلا : « وطريقتنا نحن فى نقد الشعر تقوم على ركنين : البحث فى موهبة الشاعر — وهــذا يتناول نفسه والهامه وحوادثه — والبحث فى فنه البيـــانى »(١) .

فمنهج الرافعى النقدى ليس المنهج الفقهى وحده كما ذهب الى ذلك كثير من النقاد المعـــاصرين بل انه منهج متكامل يقوم على المنهج الفقهى والتاريخى والنفسى وفقط يغلب وضوح المنهج الفقهى وتميزه على المنهجين الآخرين بسبب تمكن الرافعى من اللغة وبصره بطرق استعمالاتها ووجوه أســـاليبها .

كما أن منهج الرافعى فى النقد لم يقف عند المنهج العربى القديم فى النقد كما يرى هؤلاء المعاصرون الذين يذهبون الى أن منهج الرافعى فى نقـــده كان صورة من النقـــد العربى القديم(٢) .

فليس ينكر أن الرافعى قد اقتفى أثر النقد العربى القديم وبخاصة فى المنهج الفقهى الذى يقوم على اللغة نحوها وصرفها وعروضـــها وبيانها وبديعها .. الخ وهو أهم المناهج وأوثقها صلة بالدراسات الأدبية ، لكنه كثيرا ما كان يخرج عن اطار قواعد هــذا النقد ويعلن عدم رضـــائه عن كثير من أصوله ، كما كان يبدى اعجابه ويظهر ارتياحه لكثير مما جاء به النقـــد الحـــديث .

ومن ذلك ثناؤه على ما أحدثته النهضة الأدبية الحديثة من تجديد فى الشعر العربى فى : هــذا النوع القصصى الذى توضـــع فيه القصـــائد الطوال ، فان الآداب العربية خالية منه ، والسبب فى ذلك أن القصة انما يتم تمامها بالتبسط فى سردها وســـياقة حوادثها وتسمية أشخاصها وذكر أوصـــافهم وحكاية أفعالهم وما يداخل ذلك أو يتصل به . وانما بنى الشعر

---

(١) مجلة أبولو : مايو سنة ١٩٣٢ ووحى القلم : ٣/٢٨٢ .

(٢) أنظر : الشعر المعاصر على ضـــوء النقد الحديث . مصطفى السحرتى ، والتراث النقدى قبل مدرسة الجيل الجديد د . عبد الحى دياب .

العربى فى أوزانه وقوافيه على التأثير لا على السرد ، وعلى الشعور لا على الحكاية ولا يريدون منه حديث اللسان ولكن حديث النفس(٢) .

ومن مظاهر ذلك التجديد الذى أبدعته النهضة الأدبية الحديثة فى الشعر العربى فى نظر الرافعى : صياغة بعض الشعر على أصل من أصول التفكير فى الانجليزية أو الفرنسية أو غيرهما من لغات الأمم فيخرج الشعر عربيا وأسلوبه فى تأدية المعنى أجنبى(٣) .

ومن مظاهر هذا التجديد أيضا : الانصراف عن افساد الشعر بصناعة المديح والرثاء ، وذلك بتأثير الحرية الشخصية فى هذا العصر ، فان المدح اذا لم يكن بابا من التاريخ الصحيح لم يدل على سمو نفس الممدوح ، بل على سقوط نفس المادح ، وما ابتليت لغة من لغات الدنيا بالمديح والرثاء والهجاء ما ابتليت هذه العربية(٣) .

ومن هذا التحديد أيضا : الاكثار من الوصف والابداع فى بعض مناحيه ، والتفنن فى بعض أغراضه الحديثة ، وذلك من أسمى ضروب الشعر ، لا تتفق الاجادة فيه والاكثار منه اذا كان الشعر حيا ، وكانت نزعة العصر اليه قوية ، وكان النظر فيه صحيحا(٤) .

ومما يستملحه الرافعى من مظاهر التجديد التى ابدعتها النهضة الأدبية الحديثة فى الشعر العربى : اهمال الصناعات البديعية التى يبنى عليها الشعر ، كنظم البيت ليكون جناسا أو طباقا أو استخداما أو تورية ... الخ ، أو ضربا من صناعة العدد والحساب ، كالتاريخ الشعرى بأنواعه أو صناعة الحرف كالمقلوب والمهمل وغيرها ، أو صناعة الفكر ، كاللغز والمعمى ، أو صناعة الوضع كالتشجير والتطريز الى ما يلتحق بهذا الباب الذى ذهب أهله فلا يتيسر لأحد من بعدهم أن يجاريهم فيه(٥) .

---

(١) الرافعى : الشعر العربى فى خمسين سنة : المقتطف : يناير سنة ١٩٢٦م . ووحى القلم : ٣/٣٨٢ .
(٢) المرجع السابق : ٣/٢٨٣ .
(٣) المرجع السابق : ٣/٢٨٤ .
(٤) المرجع السابق .
(٥) المرجع السابق .

ويرى الرافعى ان مما اضافته النهضة الأدبية الحديثة الى الشعر العربى : النظم فى الشئون الوطنية والحوادث الاجتماعية ، مما يجعل الشعر محيطا بروح العصر وفكره وخياله ، واستخراج بعض أوزان جديدة من الفارسية والتركية(١) .

فهذه المظاهر التى ابدعتها النهضة الأدبية الحديثة فى الشعر العربى قد استحسنها الرافعى واستجدها واستراح لها واشاد بها واثنى عليها .

ويعنى هذا أن الرافعى قد بنى أصوله النقدية من النقد العربى القديم ومن النقد العربى الحديث ولم يكن منهجه النقدى صورة من النقد القديم كما ذهب الى ذلك فريق من المعاصرين .

وما استفادت اللغة العربية وادبها فى أى وقت كما استفادت من المعارك النقدية التى خاضها الرافعى دفاعا عن القرآن والدين واللغة . ولقد اثمرت هذه المعارك عن كتابين أودع فيهما الرافعى خلاصة مذهبه فى النقد وأسلوبه فى الجدال . وفيهما أشلاء المعركتين الطاحنتين بينه وبين الدكتور حسين وبينه وبين العقاد . ولو تجرد هذان الكتابان من بعض ما فيهما لكانا خير ما انتجت العربية فى النقد واحسن مثال فى مكافحة الرأى بالرأى ، مع الاطلاع الواسع والفكر الدقيق(٢) .

وليست كل آراء الرافعى فى النقد فى هذين الكتابين فقط — بل هناك العديد من مقالات الرافعى التى نشرت فى الدوريات التى كان يكتب فيها فى تلك الفترة — والتى ضم كتابه (وحى القلم) جانبا كبيرا منها .

أما كتاب (تحت راية القرآن) أو المعركة بين القديم والجديد فقد سبق الحديث عنه — وعرفنا انه كتبه ردا على كلام الدكتور طه حسين فى كتابه (فى الشعر الجاهلى) الذى غير اسمه بعد الى (فى الآدب الجاهلى) وكان الرافعى أول من كتب فى الرد على الديتور فى كتابه السابق وتلاه كثيرون ممن الفوا الكتب وكتبوا المقالات فى نقض حديث الدكتور طه حسين .

---

(١) المرجع السابق : ٣٨٥/٣ .

(٢) أنظر : حياة الرافعى : محمد سعيد العريان ص١٣٦ .

أما كتاب (على السفود) فهو يضم مقالات الرافعى التى كتبها فى نقد العقاد ونشرها بمجلة العصور فى منتصف سنة ١٩٢٩م . ولم تذكر المجلة اسم مؤلفها ورمزت اليه بكلمة : « أمام من أئمة الأدب العربى »(١) . ولقـــد كتب الرافعى هـــذه المقالات فى نقـــد العقـــاد بسبب نقـــد العقاد له فى « الديوان » الذى ألفـــه مع المـــازنى — ونقد فيه العقـــاد الرافعى تحت عنوان : « ما هـــذا يا أبا عمرو » ؟

كما نقد العقاد الرافعى أيضا فى جريدة البلاغ الأسبوعى فى كلامه على اعجاز القرآن ونشر هـــذا النقد فى كتابه : (ســـاعات بين الكتب) تحت عنوان : « كلمة فى المعجزة وكلمة أخرى فى الكتاب »(٢) .

واذا كان كتاب : (تحت راية القرآن أو المعركة بين القديم والجديد) قد أحـــدث ثورة هائلة فى الدراســـات القرآنية كان من أثرها تلك الكتب والمقالات التى ألفت فى الرد على الدكتور (طه حسين) عقب رد الرافعى ، فان مقالات (على السفود) هى الاخرى قد أشعلت نهضة أدبية ولغوية بين الادباء والنقـــاد ســـجلتها الدوريات التى كانت تصـــدر فى تلك الفترة وبالذات « مجلة الرســـالة » فلقد دفعت تلك المقالات كثيرا من الأدباء الى البحث والقراءة فى أمهات الكتب وجمع المعلومات من مصـــادرها الأصـــيلة حتى يحظـــوا بنشر مقالاتهم ويشرفوا بقراءة الجمهـــور المتحمس المترقب لمـــا يكتبـــون .

ولقد بلغ من حدة المعركة ومبلغ ما أفاد منها الأدب وانتفعت بها اللغة أن أخذتتنتقل من قطبيها الأساسيين التى كانت تدور بينهما الى الانصـــار والخصوم والمؤيدين والمعارضين . ونذكر على سبيل المثال طرفا من هـــذا الحوار الأدبى الرائع الذى شهدته مجلة الرسالة والذى قام بين أنصـــار

---

(١) المرجع الســـابق : ص٢٨٩ .

(٢) أنظر : ساعات بين الكتب للعقاد ص٢٣ — ٣٠ وجريدة البلاغ الأسبوعى . عدد ١٠ ديسمبر سنة ١٩٢٦م والعقاد والتجديد فى الشعر : للعوضى الوكيل ص٣٦ وقضية السفود بين العقاد وخصومه ص٣٤ وفصول من النقد عند العقاد : محمد خليفة التونسى ص١١ والمعارك الأدبية : أنور الجنـــدى ص٤٠٨ .

وخصوم كل من الرافعى والعقاد بشأن النقد الذى وجهه الرافعى للعقاد فى هــذا البيت الذى ورد فى احدى قصائد ديوانه وهى (غزل فلسفى) والذى يخاطب فيه العقاد حبيبته قائلا لها :

فيك منى ومن النـــاس ومن كل موجـود وموعـود تـؤام

فأخذ عليه الرافعى عــدم توفيقه فى هــذا التعميم فى وصف حبيبته — اذ الموجــود منه الجميل والدميم والنافع والضــار — فلا يتأتى للعقاد ما قصــده من اجتماع الحسن كله فى حبيبته — والرافعى يقول فى ذلك : « فان » من كل موجود « البق والقمل والنمل والخنفساء والوباء والطاعون والهيضة وزيت الخروع والملح الانجليزى الى ووات من مثلها لا تعد ، أفيكون هــذا كله فى حبيب الا على مذهب العقاد فى ذوقه ولغته وفلسفته »(١) ؟

ويرد الأستاذ (سيد قطب) هــذا النقد الذى ذكره الرافعى — اذ يرى أن الغرض الذى قيل فيه البيت وهو الغزل ينفى هــذا النقد ولا يدع له مجالا قائلا : « فأى طبع سليم يتجه الى تفسير بيت غزلى فى معرض اعجاب شاعر بحبيبته واستغراق فى شمول شخصيتها بأن : « كل موجود « وهو البق والقمل والنمل ... الخ » غافلا عما فى هــذا الاحساس من « حياة » واستكناه لجوهر الشــخصية و « خيال بارع » تثيره طبيعة فنية ، فيرى فى هــذه المرأة من متنوع الصــفات ومختلف النزعات وشتى المزايا عالمــا كاملا من كل موجود وموعود »(٢) .

أما الأســتاذ : (محمود محمد شاكر) فيقف الى جانب الرافعى ويرى أن نقده فى محله وفى موضعه من أحكام اللغة ومقاييسها — وأن الرافعى ناقد عربى وقد ذهب فى نقد هــذا البيت مذهب العربى حين يسمع الكلام العربى لا ينحرف بألفاظه الى غير معــانيها ، وقد قال العقاد لصــاحبته فى الغزل الفلسفى : « فيك من كل شىء » و « فيك من كل موجود » والعرب

---

(١) الرافعى : الرسالة : عدد : ٢٥٤ — الســنة الســادسة مايو ســنة ١٩٣٨م .

(٢) سيد قطب : الرسالة : عدد : ٢٥٤ — الســنة الســادسة مايو ســنة ١٩٣٨م .

والفلاســـفة جميعـــا يزعمون أن لفظ (كل) اذا دخل على الفكرة أوجب عموم أفرادها على سبيل الشمول دون التكرار ، فكذلك أوجب الشاعر على صاحبته أن يشمل (جوهر شخصيتها) جزءا من كل ما يمكن أن يسمى « شـــيئا » ومن كل ما يسوغ أن يسمى (موجودا وموعودا) وهـــذا الاطلاق من « فيلسوف يتغزل » يقتضى شـــمول الأفراد من (كل شيء) ومن « كل موجود » وليس يشك أحد ممن لم يســـلبهم الله « الطبع » و « العقيدة » ولم يحرمهم الخيال البارع فى أن ما ذكره الرافعى فى كلامه من البق الى الملح الانجليزى ، شيء من الأشياء وموجود من الموجودات ، والفيلســـوف حين يتغزل لن يريد هـــذا بغير شـــك »(١) .

ويقف المرحوم الأستاذ (عبد المتعال الصعيدى) الى جوار العقاد ويدفع نقد الرافعى له فى هـــذا البيت اذ يرى أن العقاد يمشى فى بيته مع بعض الفلاســـفة الذين يرون كل شيء فى الطبيعة جميلا ، ويذهبون فيها مذاهب الهيام الذى يبدى كل شيء فيها حسنا ، وهـــذا شأن كل محب مع حبيبته ، اذ يبلغ به الهيام فيه الى حد لا يرى فيه نقصـــا ولا عيبا بل الى حد أن يرى نقصـــه كمالا وجمالا :

وعين الرضا عن كل عيب كليلة ولكن عين السخط تبدى المساويا

فبيت العقاد من هـــذه الناحية منسجم مع موضـــوع قصـــيدته فى الغزل الفلسفى(٢) .

وهناك كلام كثير وحوار طويل بين الأنصار والخصوم حول هـــذا البيت عدا ما سبق ، ولعلنا ندرك تحامل الرافعى فى هـــذا النقد على الرغم من جريانه فيه على مقاييس اللغة ورســـوم المنطق كما ذكر الأســـتاذ : « محمود محمد شـــاكر » ولكن العقاد فى مقام التغزل بحبيبتـــه وفى موطن الاعجاب بها والاشادة بمحاسنها وذلك يكفى لصرف لفظ العموم عن شمول

---

(١) محمود محمد شـــاكر : بين الرافعى والعقاد : الرسالة : العدد : ٢٥٤ — الســـنة الســـادسة مايو سنة ١٩٣٨ م .

(٢) انظر : عبد المتعال الصعيدى : بين الرافعى والعقاد : الرسالة : العـــدد : ٢٥٥ الســـنة السادسة مايو ســـنة ١٩٣٨م .

كل الصـــفات القبيحة والاشـــياء الدميمة — ويقتضى قصره على كل المظاهر المستحسنة ، وذلك فضـــلا عن أن كل شىء فى هـــذا الكون لا يخلو من حسن يسوغ اجراء بيت العقاد على عمومه ، وقد ذهب الى هـــذا بعض العلماء فى تفسير قوله تعالى : **(الذى أحسن كل شىء خلقه وبدأ خلق الانسان من طين)** فقال العلامةالزمخشرى : انه ما من شىءخلقه الله الا وهو مرتب على ما اقتضـــته الحكمة — وأوجبته المصـــلحة — فجميع المخلوقات حســـنة وان تفاوتت الى حسن وأحسن(١) .

فهـــذه صـــورة مما كان يدور بين الأدباء والباحثين بأثر من مقالات الرافعى (على السـفود) .

ولقد حفلت الدوريات التى كانت تصدر فى تلك الفترة بمباحث قيمة اســـتفادت منها اللغة وأدبها أعظم اســـتفادة .

ولقد وجهت تلك المقالات وحركت كثيرا من المغرمين بصناعة الأدب الى السهر فى البحث والتنقيب — وأنتجت هـــذه الأبحاث الممتعة فى كل فروع اللغة والأدب .

وما أفاده الأدب من هـــذه المعركة كفيل بأن يصرف النظر عما بها من تجريح وما شابها من مظاهر لا يقرها الذوق ، ولا يرتضيها الخلق المهذب .

وبعد : فالرافعى قد أدار نقده فى الدائرة التى دار فيها أدبه وهى : الدفاع عن القرآن واللغة العربية ، وقد مضى فى نقـــده على منهج متكامل ظهر فيه الجانب اللغوى واضحا متميزا لبراعته فى اللغة واحاطته بأصولها ، كما قام منهجه وتأسس كما رأينا على أصـــول من النقد العربى القـــديم والحديث ، ولم يكن صورة من النقد العربى القديم كما ذهب الى ذلك فريق من المعاصرين .

أما ثمرات نقده فرأيناها فى كتابيه : (تحت راية القرآن أو المعركة بين القديم والجديد) وكتـــاب (على السفود) وما عداهما من المقـــالات العديدة التى نشرها فى كثير من الدوريات التى عاصرته وكان يكتب فيها وجمع جانبا كبيرا منها فى كتابه (وحى القلم) الى جانب هـــذه الأبحـــاث القيمة التى تلت كتابيه السابقين فى القرآن والأدب والنقد واللغة وكان هو سببا فيها ، ومحركا لها .

---

(١) المرجع الســـابق .

وفاة الرافعى :

وعن سبعة وخمسين عاما ، وبعد سبع وثلاثين ســـنة متصلة منها قضايا الرافعى فى الدفاع عن القرآن وفى خدمة اللغة والأدب ، صعدت روحه الى بارئها وحمل جثمانه بعد ظهر الاثنين ١٠ مايو سنة ١٩٣٧م ، الى حيث رقد رقدة الأبد فى جوار أبويه من مقبرة الرافعى بطنطا(١) .

وبموت الرافعى انطوت صفحة من تاريخ الأدب فى مصر ، وانقرض جيل من أدباء العربية كان له مذهب ومنهـــاج — ولقد ترك لنا الرافعى : ديوانه ، وديوان النظرات وتاريخ آداب العرب ، واعجاز القرآن ، وحديث القمر ، والمساكين ، وأناشيده التى بلغ فيها مبلغا لم يبلغه أحد من شعراء العربية — ورسائل الأحزان ، والسحاب الأحمر — وتحت راية القرآن ، وعلى السفود ، وأوراق الورد ، ووحى القلم . الى غير ذلك من الكتب التى كان قـــد بدأ فى تأليفهـــا ، ثم عاجلته المنية عن اتمامها وطبعها : كأسرار الاعجاز ، وملكة الانشاء ، وديوان أغانى الشعب(٢) .

هـــذا بخلاف المقالات الكثيرة التى كان ينشرها فى الصحف والمجلات التى عاصرته . وان مجموعة كبيرة من كتبه السابقة ألفها كما رأينا : دفاعا عن القرآن ، واثباتا لاعجازه ، وذودا عن حياض الدين واللغة العربية ، فهو كما وصـــفه الأســـتاذ محمد سعيد العريان : كان شاعرا ، وكاتبا ، وأديبا ، وعالمـــا ، ومؤرخا ، ولكنه بكل أولئك وبغير أولئك كان شيئا غير الشاعر والكاتب والأديب وغير العالم المؤرخ — كان هبة الله الى الأمة العربية المسلمة فى هـــذا الزمان ، لينبهها الى حقائق وجودها ، وليردها الى مقوماتها ، وليشخص لها شخصيتها التى تعيش باســـمها ولا تعيش فيها ، والتى تعتز بها ، ولا تعمل لها (٣) .

وان خير ما يصـــنعه أبناء هـــذا الجيل وفاء للرافعى وتقديرا لدفاعه عن الدين واللغة والقرآن لهو اعادة النظر فى آثاره والاكباب عليها ، والنهل مما حوت من معارف فى اللغة والدين والأدب وغيرها من سائر صـــنوف الثقـــافة .

---

(١) أنظر : حياة الرافعى ص٢٨٢ .
(٢) أنظر : المرجع السابق ص٢٨٧ وما بعدها .
(٣) أنظر : المرجع السابق ص٦ .

الباب الثاني

اعجاز القرآن

الفصـــل الأول

معنى الإعجاز ودليله

لمـــا كانت أبرز صـــفات المعجـــزة تتمثل فى عجز البشر عن الاتيان بمثلها واستمرار ذلك العجز . فى كل الأزمنة فقد حصر الرافعى الاعجاز فى شيئين : ضعف القدرة الانسانية فى محاولة المعجزة ، ومزاولته على شدة الانسان واتصال عنايته ، ثم استمرار هـــذا الضعف على تراخى الزمن وتقدمه ، فكأن العالم كله فى العجز انسان واحد ليس له غير مدته المحدودة بالغة ما بلغت(١) .

التحـــــدى :

أما الدليل على الاعجاز فيراه الرافعى فى : التحدى وعدم المعارضة ، فمعجز العرب الأول عن الاتان بمثل القرآن بعد مبالغته فى التحدى لهم ، وقد أتوا حظا وفيرا من البلاغة شاهد بين على عجزهم ومن يجىء بعدهم الى أن تقوم الســـاعد — اذ كان من عادتهم أن يتحدى بعضهم بعضـــا فى المساجلة والمقارضة بالقصـــيد والخطب ، ثقة منهم بقوة الطبع فتحداهم القرآن فى آيات كثيرة أن يأتوا بمثله أو بعضه ، وسلك الى ذلك طريقا كأنها قضـــية من قضـــايا المنطق التاريخى .

ويقرر الرافعى فائدة هـــذا التحدى فى كونه وثيقـــة تشـــهد بعجز البشرية جميعا عن الاتيان بمثل القرآن حتى تقوم الساعة بعد أن عجز العرب الأول عن الاتيان بمثله فيقول : « فان حكمة هـــذا التحدى وذكره فى القرآن انما هى أن يشـــهد التاريخ فى كل عصر بعجز العرب عنه وهم الخطباء اللد والفصحاء اللسن وهم كانوا فى العهـــد الذى لم يكن للغتهم خير منه ولا خير منهم فى الطبع والقوة ، فكانوا مظنة المعارضـــة والقدرة عليها ، حتى لا يجىء بعد ذلك فيما يجىء من الزمن مولد أو أعجمى أو كاذب أو منافق أو ذو غفلة ، فيزعم أن العرب كانوا قادرين على مثله وأنه غير معجز وأن عسى أن لا يعجز عنه الا الضعيف »(٢) .

---

(١) أنظر : اعجاز القرآن للرافعى ص١٥٦ ط ثانية .

(٢) المرجع الســـابق ص١٨٩ وما بعدها .

كما يقرر الرافعى أن حفظ اللغة العربية وصيانتها من التبديل والتغيير كان احدى ثمرات ذلك التحدى فيقول ما نصه : « ولقد كانت هـذه الطريقة المعجزة التى نزل بها القرآن هى السبب فى حفظ العربيـة واسـتخراج علومها — وما كان أصل ذلك الا التحدى بها ، فان من حكمة هـذا التحدى أن يدعوهم الى النظر فى أسـاليبه ، ووجه نظمه وتدبر طريقتـه — حتى اذا استيقنوا العجز وأطرقوا عليه ، كان ذلك سببا لمن يخلفهم على اللغة الى استبانة وجوه الاعجاز ، وتأدت بهم الى حيث بلغوا من تتبع كلام العرب والاستقصاء فيه ، والكشف عن محاسـنه ... ولولا ما صـنعوا لخرج الناس الى العجمة ولذهبت هـذه الآداب ، ولمـا بقى فى الأرض الى اليوم من يقول : ان القرآن معجزة وذلك بأن العرب لم يكن لهم من البلاغة الا علم الفطرة ، ولم يكن لمن بعدهم من هـذه الفطرة الا ما ترجعـه الوراثة من أوليتهم ، وهى شىء تتولاه العصـور بالتحول والزيغ ، وتدأب بالنقص والاختلاف ، حتى يخرج عن أصله الى أن يكون أصلا جديدا ، ثم الى أن تنشق منه أصول أخرى ، وهى الطريقة التى تنشأ بها اللغات ، وتسـتمر وتذهب فى الاشتقاق ، فلا يبقى على ذلك من البلاغة العربية شىء ينفذ اليه العلم ، و تستطيعه القدرة ، اذ تكون العربية نفسها قد درست وانتثرت بقاياها فى القبور والأنقاض »(١) .

فالرافعى يقرر أن ذلك التحدى الذى تكرر فى مواضع متفرقة من القرآن الكريم أصدق دليل على اعجازه ، وأن سكوت العرب على هـذا التحدى على الرغم من حميتهم وأنفتهم وكبريائهم أقوى شاهد على اقرارهم بالعجز ، كما يرى تفرد القرآن بين الكتب السماوية بذلك التحدى فيقول فى كتابه : « تحت راية القرآن » .

« ولن يكون النقد نقدا اذا كان من أنصارك ومؤازريك ، بل هو النقد اذا جاء من المعارضين لك والمنكرين عليك ، ثم لا يتم له معناه الا اذا كان من أقواهم فكرا وأصحهم رأيا وأبلغهم قلما ، فان لم ينتقدك هـذا ومثله فادفعهم اليك دفعا ، وتحدهم تحديا ، وأرمهم بالعجز اذا لم يفعلوا ، فان

---

(١) المرجع السابق ص١٧١ وما بعدها وتحت راية القرآن ص٣١٣ .

الحجة ليست لك ولا هى لهم ، وانما تنحاز الى الغالب منكما ، وحتى الحجة الصحيحة فانها أبدا فى حاجة ماسـة الى حجة أخرى تؤيدها أو تفسرها أو تحدها أو تمنع اللبس بينها وبين غيرها ، فكل شىء فانما صـحته وتمامه فى معارضته ونقده ، اذ المعارضة نصف الحق وان هى لم تكن حقا لأنها تبينـه وتجلوه وتقطع عنه الألسنة ، وتنفى عنه الظنة ، ومن هنا يظهر لك السر المعجز الغريب البـالغ منتهى الدقة فى القرآن الكريم ، فان هـذا الكتاب من دون الكتب السـماوية والأرضية هو وحده الذى انفرد بتحدى الخلق ، واثبات هـذا التحدى فيه ، وبذلك قرر أسـمى قواعـد الحق الانسانى ، ووضع الأسـاس الدستى الحر لايجاد المعارضة وحمايتها ، وأقام البرهان لمن آمنوا على من كفروا ، وكان العجز عنه حجة دامغة معها من القوة كالذى من الحجة الاخرى فى اعجازه قسما بالحجتين جميعا ، وذلك هو المبدأ الذى لا استقلال ولا حرية بغيره ، وما الصواب اذا حققت الا انتصار فى معركة الآراء ، ولا الخطأ الا اندحار فيهـا لا أقل ولا أكثر ، وبهـذا وحده يقوم الميزان العقلى فى هـذه الانسـانية »(١) .

اختـلاف آيات التحـدى :

ومن المعلوم أن الله جلت حكمته تحدى العرب أولا بالقرآن كله فى قوله عز وجل : ((**فليأتوا بحديث مثله**)) فلما ظهر عجزهم عنه تحـداهم بعشر سـور فى قوله : ((**قل فأتوا بعشر سـور مثله**)) ثم لمـا ظهر عجزهم عنها أيضا تحداهم بسـورة واحـدة فى قوله : ((**فأتوا بسـورة مثله**)) فلما ظهر عجزهم عنها أيضـا لزمتهم الحجة لزوما واضحا ، وانقطعـوا انقطاعا واضـحا(٢) .

ويفسر الرافعى هـذا التدرج فى أمر التحدى بأنه سـلوك منطقى وسـبيل من سـبل الاقناع(٣) .

---

(١) تحت راية القرآن : الرافعى ص٣١٣ ط . سادسة .

(٢) أنظر : تحقيق اعجاز القرآن لابن كمال باشا ص٥٢ مخطوط بمكتبة الأزهر تحت رقم (٧٧٩) علوم قرآن .

(٣) أنظر : اعجاز القرآن للرافعى ص ١٩١ .

بينما يفسر « السيد محمد رشيد رضا » اختلاف القدر المتحدى به فى آيات الاعجاز وتدرجه من : القرآن كله الى عشر سور الى سورة واحدة بأنه راجع الى اختلاف أوجه الاعجاز ، ومن ذلك قوله : « ولعل وجه التحدى بعشر سور مفتريات دون ســورة واحدة هو ارادة نوع خاص من أنواع الاعجاز ، وهو الاتيان بالخبر الواحد بأساليب متعددة متساوية فى البلاغة وازالة شبهة تخطر بالبال ، بل بعض الناس أوردها على الاعجاز بالبلاغة والأسلوب ، وهى أن الجملة أو الســورة المشتملة على القصة يمكن التعبير عنها فى اللغة بعبارات مختلفة تؤدى المعنى ، ولابد أن تكون عبــارة منها ينتهى اليها حسن البيان مع السلامة من كل عيب لفظى أو معنى يخل بالفهم أو التأثير المطلوب ، فمن سبق الى هــذه العبارة أعجز غيره عن الاتيان بمثلها ، لأن تأليف الكلام فى اللغة لا يحتمل ذلك »(١) .

ولا يوافق الباحث على ما يراه « السيد رشيد رضا » فى تفســيره السابق لتنزع آيات التحدى ، ويرى أنه تفسير ملحوظ عليه التكلف والتمحل ، فالله عز وجل يعــلم عجز العرب عن الاتيــان بمثل القرآن فتحــداهم ، فما استطاعوا الى ذلك سبيلا ، ولم يكن حدث بينهم بعد خلاف أو جدل حول الجهة التى جاء منها الاعجاز القرآنى ، بل انهم حاروا فى أمر القرآن كله ، ودخلهم العجز من جميع جوانبه ، ولم يفصلوا حينئذ بين اعجاز بالغيبيات واعجاز بالبلاغة وغير ذلك من أوجه الاعجاز .

فتفصيل القول فى أوجه الاعجاز القرآنى لم يكن الا أخيرا بعد أن نشأ الكلام على خلق القرآن وأعقبــه القول بالصرفة ، وتعــددت من بعد ذلك الآراء فى اعجاز القرآن ، فالعرب الذين عاصروا نزول القرآن لم يقع اختلاف بينهم فى ذلك ، بل انهم لم يستطيعوا أن يحددوا سر لهــذا الذى اســتولى على قلوبهم وســيطر على أفئدتهم فمضوا يقولون : انه ســحر وشعر وأســاطير الأولين .

فكيف يطلب الله عــز وجل من قوم لم يقع بينهم اختلاف فى ذلك ولم يفترقوا على أوجه الاعجاز أن يأتوا بقرآن على هــذه الأوجه ؟

---

(١) تفسير المنار : جـ١ ص١٩٣ وما بعدها ط . أولى .

فتنوع القدر المتحدى به فى آيات التحدى انما كان ليلزمهم الحجة ، وليسلك معهم الطريق المنطقى والأسلوب العقلى فى الحجاج الذى يقوم على التدرج والتسلسل حتى تكون الحجة أقهر ، والبرهان أظهر وذلك ما قرره الرافعى فى قوله : « وقد كان من عادتهم أن يتحدى بعضهم بعضا فى المساجلة والمقارضة بالقصيد والخطب ، ثقة منهم بقوة الطبع ، فتحداهم القرآن فى آيات كثيرة أن يأتوا بمثله أو بعضه ، وسلك الى ذلك طريقا كأنها قضية من قضايا المنطق التـاريخى »(١) .

فتنوع آيات التحدى ، واختلاف القدر المتحدى به ليس لاختلاف أوجه الاعجاز ، كما يرى : « السيد رشيد رضا » ، وانما هى طريقة فى الحجاج وسبيل من سبل المنطق والاقناع العقلى حتى تكون الحجة أقهر والبرهان أظهر كما أكد ذلك الرافعى .

عـدم المعـارضة :

ويتصل بالتحدى فى الدلالة على الاعجاز : ترك المعارضة بعد الدعوة اليها ، ومعظم الدارسين يتفقون على أن التحدى وعدم المعارضة أقوى دليلين على الاعجاز ، ولقوة هـذين الدليلين فى الدلالة على الاعجاز عدهما « أبو الحسن على بن عيسى الرمانى » وجهين من أوجه الاعجاز عنده(٢) .

لهـذا نرى الرافعى يقرر أن المعارضة من أقوى السبل لتأكيد السبق وتحقيق الغلب فى مجال القول فيقول فى كل من كتابيه : « اعجاز القرآن وتحت راية القرآن » ما سبق أن ذكرناه وما نصـه : « فانما صـحته وتمامه فى معارضته ونقده ، اذ أن المعارضة نصف الحق ، وان هى لم تكن حقا ، لأنها تبينه وتجلوه وتقطع عنه الألسـنة ، وتنفى عنه الظنة ، ومن هنا يظهر لك السر المعجز الغريب البالغ منتهى الدقة فى القرآن الكريم »(٣) .

---

(١) اعجاز القرآن للرافعى ص١٨٩ وما بعدها .

(٢) انظر : النكت فى اعجاز القرآن للرمانى ص٧٥ ضمن ثلاث رسائل فى اعجاز القرآن .

(٣) اعجاز القرآن : ص٢٧١ وتحت راية القرآن ص٣١٣ .

وقد رأينا الرافعى يحكى فى معظم ما ذكره عن : المعارضة دون أدنى اشارة ما ذكره القاضى عبد الجبـــار فى : « بيان الدلالة بأن القرآن معجز وما يتصـــل بذلك »(١) وكذلك ما ذكره « الامام عبد القاهر » فى : دلائل الاعجـــاز(٢) .

وفى مجال الحـــديث عن : المعارضـــة وجدنا الرافعى يناقش بعض المعارضـــات التى جاءت فى منتهى الركاكة وفى غاية السخف لعـــدم أخـــذ اصحابها بأصـــول المعارضة السليمة ، ويحدد الرافعى أسس المعارضة الصحيحة واصولها السليمة فى قوله : « وانما سبيل المعارضة الممكنة التى يطمع فيها أن يكون لصاحبها جهة من جهات الكلام لم تؤخذ عليه ، وفن من فنون المعنى لم يستوف قبله ، فأما أن يكون الكلام الذى يقصد اليه بالمعارضة كهـــذا القرآن : أحكم دقيقه وجليله ، وامتنع كثيره وقليله ، وأخذ منـــافذ الصنعة كلها واستبرأ المعنى الذى هو فيه الى غايته ، وقطع على صاحبه أمر الخيار فى الوجه الذى يعارضه منه ، وكان من وراء ذلك بابا واحـــدا فى امتناعه لا موضع فيه لمتصفح ، ولا مغمز لثقاف .. وقد توثقت علائقه ، وترادفت حقائقه ، وتواردت على ذلك دقائقه ، ثم كانت جملته قد أحرزت عناصر الفطرة البيانية ، وجمعت فنونها ، واحتوت منا لكمال الفنى ما كان احســـاسا صرفا فى نفوس أهله يشـــعرون به وجدانا ، ولا يقدرون على اظهاره بيانا فذلك مما لا سبيل للنفس الى المكابرة فيه بحال من الاحوال ، أو ابتغائه بالمعارضة ومطاولته بالقدرة على مثله ، اذ هو بطبيعته المعجزة لا ترى فيه النفس الا مثالا للعلم تعرض به مقدار ما انتهت اليه من أحكام العمل »(٣) .

وقام الرافعى بعـــد ذلك بعرض ما ذكر من معارضـــات على هـــذه المقاييس التى لاحظنا أنه ينقلها من الخطابى دون أن يشير اليه فأظهر زيفها وأبان سخفها ذاكرا من المعارضين : مسيلمة بن حبيبة الكذاب ، والأسود

---

(١) أنظر : المغنى : القاضى عبـــد الجبار جـ١٦ ص٢٤٦ وما بعدها هـ . أمين الخولى .

(٢) أنظر : دلائل الاعجاز : عبد القاهر ص٣٧ ط . المراغى .

(٣) اعجاز القرآن للرافعى ص٢١٥ وما بعدها .

العنسى ،وطليحة بن خويلد الأســدى ، وسجاح بنت الحارث بن ســويد التميمية . ولوحظ كذلك أنه فى حديثه عن هؤلاء المعارضين كان يحكى كلام الباقلانى دون أن يذكره ، كما نقل كذلك كلامه على نفى وقوع المعارضة من « ابن المقفع » دون أدنى اشــارة منه بذلك(١) .

ولوحظ أيضا أن حديثهعن المعارضين كان سردا تاريخيا وعلى سبيل العموم وان كان موضوع المعارضات لم يعد فى حاجة الى مزيد من النقاش بعد ان أطال الخطابى الوقوف عنده وأعطاه حقه من النقاش والبحث وفضح جهل المعــارضين وأبان عيبهم ، وكان كلامه فى ذلك دســتورا احتــذاه كل من جاء بعــده(٢) .

وممن سلك مسلك الخطابى واستن سبيله من المعاصرين عدا الرافعى فى كشف تلك المعارضات وبيان اخلالها بقواعد الذوق الســليم وأسس البلاغة الصحيحة ووضح التفاوت البين بينها وبين كلام الله عز وجل الامام الشيخ « محمد عبده » فى رده على دعاة النصرانية ممن يثبتون معارضــة القرآن ، وينكرون التفاوت بين تلك المعارضات وبين كلام الله ، وذلك فى تفسيره لســورة « الكوثر » التى ادعى أن « مسيلمة » عارضــها ، فأفاض الامام الشيخ فى بيان اعجاز السورة الكريمة مبينا سر بلاغتها ، وموضحا النقص الفاضح فى كلام مسيلمة وعدم دنوه من كلام الله عز وجل(٣) .

فالخطابى من غير شك هو المجلى الاول لموضوع المعارضات بتلك المقاييس التى وضعها للمعارضة السليمة ، وبهــذه الموازنات الحصيفة بين ما ذكر من معارضات وبين كلام الله عز وجل بما عاد على البلاغة والنقد بأعظم فائدة ولقد ردد كلام « الخطابى » عن المعارضة معظم من أتوا بعده ، فشاهدنا الرافعى يردد ما ذكره عن أصول المعارضة ومقاييسها ، والشيخ

---

(١) أنظر : المرجع الســابق ص٢٠٢ وما بعدها واعجــاز القرآن للبــاقلانى ص٥٩ .

(٢) أنظر : بيان اعجاز القرآن للخطابى ص٥٥ وما بعدها ضمن ثلاث رسائل فى اعجاز القرآن .

(٣) أنظر : تفسير المنار : جا ص٢٢٥ وما بعدها ط . أولى .

« محمد عبده » يسلك مسلكه فى ابطال ما ورد من معارضات بعرضها على كلام الله المبين .

انزال القرآن مفرقا وحكمـــة ذلك :

وفى مجال الحديث عن : التحدى والمعارضة يناقش الرافعى السر فى انزال القرآن مفرقا وعدم انزاله جملة واحدة ، فيرى أن هـــذا التفرق فى النزول فضلا عن أن من اســـبابه تابع الحوادث ، والتدرج الطبعى فى الهداية والارشـــاد ، فانه كذلك سبيل الى المعارضة ، وقطع لأعذارهم ان هم تعللوا بنزوله جملة واحدة ، كما كان من البدء بانزال السور القصار حتى يسهل عليهم الأمر ولا يتعللوا بالطول الزائد ، ولنستمع لمـــا يذكره الرافعى فى ذلك اذ يقول : « أنزل هـــذا القرآن منجما فى بضع وعشرين سنة ، فربما نزلت الآية المفردة ، وربما نزلت آيات عدة الى عشر ، كما صح عن أهل الحديث فيما انتهى اليهم من طرق الرواية ، وذلك بحسب الحاجة التى تكون سببا فى النزول ، وليثبت به فؤاد النبى صلى الله عليه وســـلم ، فان آياته كالزلازل الروحية ، ثم ليكون ذلك أشد على العرب وأبلغ فى الحجة عليهم واظهر لوجه اعجازه ، وادعى لأن يجرى أمره فى مناقلاتهم ، ويثبت فى السنتهم ، ويتسلسل به القول ، ولولا نزوله متفرقا : آية واحدة الى آيات قليلة ما افحمهم الدليل فى تحـــديهم بأقصر ســـورة منه ، اذ لو أنزل جملة واحدة كما ســـألوا لكان لهم فى ذلك وجه من العـــذر يلبس الحق بالباطل ، وينفس عليهم أمر الاعجاز ، ويهون فى أنفسهم من الجملة بعض مالا يهون من التفصـــيل ، لأنهم لا يقرأون ولا يتدارسون ، ولكن الآية أو الآيات القصـــيرة تنزل فى زمن يعرفون مقـــداره بما ينزل فى عقبها ثم هم يعجزون عن مثلها فى مثل هـــذا الزمن بعينه وبخاصة اذا اعتبرت أن أكثر ما أنزل فى ابتداءالوحى واستمر بعد ذلك من لدن كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأتى حراء فيتحنث فيه الليالى ،ا لى أن هاجر من مكة انما هو من قصار الســـور ، على نسق يترقى الى الطول فى بعض جهاته ، وذلك ولاريب مما تتهيأ فيه المعارضة بادىء الرأى اذا — كانت ممكنة ، لأنه مفصل آيات ، ثم لقرب غايته ممن ينشط الى معارضته ، والأخذ فى طريقته ، دون

ما يكون ممتد النسق بعيد الغاية ، فتصدف النفس عن جملته الطويلة ..
وقد كان ابتداء الوحى فى سنة ٦١١ للميلاد بمكة ، ثم هاجر منها النبى صلى الله عليه وسلم فى سنة ٦٢٢ الى المدينة ، فنزل القرآن مكيا ومدنيا ، وقد اختلفت الروايات فى آخر آية نزلت وتاريخ نزولها ، وفى بعضها أن ذلك كان قبل موته عليه الصلاة والسلام بأحد وثمانين يوما ، فى سنة احدى عشرة للهجرة ، وأى ذى كان فان مدة نزول القرآن توفى على العشرين سنة ، وانما هى الحكمة التى أومأنا اليها فى مذهب اعجازه ، وحكمة أخرى معها : وهى : استدراج العرب وتصريف أنفسهم بأوامره ونواهيه على حسب النوازل وكفاء الحادثات ، ليكون تحولهم أشبه بالسنة الطبيعية ، كما ينمو الحى من باطنه »(١) .

فالرافعى يرى أن نزول القرآن مفرقا كفاء الحوادث المتتابعة كان سبيلا لاظهار دعوى التحدى ، كما كان من أسبابه : التدرج فى تربية المسلمين تربية دينية خلقية سليمة ، لأن الفطرة فى مثل هذا الأمر لا تؤتى ثمارها ، وان عقلية الناس فى الجاهلية لا تستطيع أن تستوعب ما فى القرآن من عقائد وأفكار دفعة واحدة(٢) .

ونحن ندرك أن لنزول القرآن مفرقا أسرارا أخرى لم ينبه عليها الرافعى منها : أن يسهل حفظه ، ويتيسر فهمه(٣) ، ومنها : أن يتمكن الرسول صلى الله عليه وسلم من حفظه وتدبره(٤) .

امتداد التحدى الى جميع العصور :

ولم يفت الرافعى وهو يتحدث عن دليل الاعجاز على معجزة رسول الله صلى الله عليه وسلم الكبرى الماثل فى التحدى وعدم المعارضة أن

---

(١) اعجاز القرآن للرافعى ص٢٠ وما بعدها .
(٢) أنظر : القرآن الكريم : عرض وشرح بعض ما تضمنه من كبريات الحقائق . محمد كمال حسين ص١٠ .
(٣) أنظر : اعجاز القرآن لعبد الكريم الخطيب : ١٤١/٢ ط . أولى ، والبيان فى مباحث من علوم القرآن ص٦٦ وما بعدها . عبدا لوهاب غزلان .
(٤) أنظر : الاعجاز البيانى للقرآن د . عائشة عبد الرحمن ص٦٥ ط . دار المعارف .

يفصل القول فى مسألة بالغة الدقة وهى : أكان التحدى موجها الى العرب فى عصر المبعث ، أو انه قائم أبدا على امتداد الزمان ؟ فيرى أن التحدى ممتد الى جميع العصور ، بعجز أهل العصر الأول الذين نزل القرآن عليهم ، وكانوا على الفطرة اللغوية ، فعجز من يأتى بعدهم ممن دب فيهم اللحن وتسربت بينهم العجمة أولى ، فيقول فى اعجاز القرآن ما نصه : « على أن كلامنا آنفا فى عجز العرب عن معارضة السورة القصيرة من القرآن ، وعدم تأتيهم لذلك لا يؤخذ منه أن غير العرب المحدثين والمولدين وسائر من يكونون عربا فى اللسان دون الفطرة يستطيعون مالم يأت لأولئك ، اذ كانوا دونهم ليس لهم احساس لغوى تستبد به روعة الكلام وتصرفه بالكثير عن القليل ، لتمثل الاصل اللغوى الذى ينبغى أن يكون عليه الوضع والبناء والذى هو نفسه حقيقة الاعجاز ، لأنه سر التركيب والنظم »(١) .

وهذا الذى قرره الرافعى من اعجاز القرآن لأفراد العصر الاول بالأصالة ولمن بعدهم بالتبع لا جديد فيه ، وانما هو أمر قد فرغ منه السابقون ، اذ نص عليه الرمانى فى : النكت فى اعجاز القرآن — والباقلانى فى : اعجاز القرآن وعبد القاهر فى :الرسالة الشافية ، ولقد نقل الرافعى كعادته منهم دون أن ينبه على ذلك(٢) .

كما يتفق الباحثون فى اعجاز القرآن على أن التحدى باق على امتداد الزمن ، ومستمر الى الأبد ، وان الاعجاز ثابت لأهل العصر الأول أصالة ومن يليهم بالتبع ، كما يتفقون كذلك على الصلة الوثيقة بين التحدى والاعجاز ، ولا يرى الباحث بينهم أى اختلاف أو اضطراب بشأن ذلك كما ذهبت الى هذا الدكتورة « بنت الشاطىء »(٣) .

---

(١) اعجاز القرآن للرافعى ص : ٢٢٣ ط . ثانية .

(٢) أنظر : النكت فى أعجاز القرآن للرمانى ص١١٣ والرسالة الشافعية لعبد الظاهر ص١١٨ واعجاز القرآن للباقلانى ص٣٣ .

(٣) أنظر : الاعجاز البيانى للقرآن د . عائشة عبد الرحمن ص٩٥ وما بعدها .

واذا كان قد لوحظ على الرافعى انه يحكى فى معظم ما ذكره عن معنى الاعجاز ودليله كلام الســـابقين دون أن يشير اليهم أو يدل عليهم ، فقــد لوحظ عليه كذلك أنه لم تكن هناك وحــدة موضـــوعية تدور فى اطارها مناقشاته حول هـــذا الموضوع ، بل رأينـــاه يناقش المعنى فى أكثر من مكان وفى غير كتاب من كتبه .

وذلك لا يقلل من قيمة هـــذه الجولات الرائعة التى قدمها وعلى وجه الخصوص تفسيره لحكمة التحـــدى .

الفصـــل الثـــانى

أوجه الإعجاز

من المعلوم الواضـــح أن القرآن الكريم هو المعجزة الكبرى التى أيد بها الله عز وجل رسالة نبيه ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم ، وقد اقر العرب بمكانة القرآن واعترفوا بروعته منذ اللحظة الأولى لاستماعهم اليه ، اذ راوه بيانا غير بيانهم ، وأحسوا له تأثيرا يخالف تأثير أدبهم ، فعقدت دهشـــتهم لتلك البلاغة الســـنتهم ، وحيرت البابهم ، واصـــابتهم بالحيرة والذهول .

ولم يقع اختلاف حول تلك المكانة العالية والمنزلة الســـامية والمقام الرفيع للقرآن الكريم وكونه المعجزة الأولى للرسول صلى الله عليه وسلم ، بل ان الكل يجزم بهـــذا .

وانما جرى الخلاف وحدث النقاش وتشعبت الآراء وتنوعت المذاهب فى تحديد الجهة التى كان منها هـــذا الاعجاز(١) .

فالرافعى يرى أن الأنسب الا يحصر الاعجاز فى وجه بعينه ، أو يرد الى ناحية خاصـــة ، ويستحسن من أجل ذلك وجهة من يرون الاعجاز فى أكثر من وجه حيث يقول عند سرده أوجه الاعجاز عند العلماء : « وجماعة يذهبون الى أن الاعجاز مجتمع من بعض الوجوه التى ذكرناها كثرة أو قلة ، وهذا الرأى حسن فى ذاته ، لا لأنه الصواب ، ولكن لأنه يدل على أن كل وجه من تلك الوجوه ليس فى نفسه الوجه المتقبل »(٢) .

ومعروف أن للاعجاز عند الرافعى أكثر من جانب : كالجانب العلمى والجانب الأدبى واللغوى والجانب النفسى ومباينة أسلوب القرآن لسائر الأساليب ،والجانب البلاغى الذى يعـــده أظهر هـــذه الجـــوانب وأبرزها فى تحقيق الاعجـــاز .

---

(١) انظر : مقالات أهل الفرق وجمهرة المسلمين فى اعجاز القرآن : أحمد محمد الحجار ص١٩ وما بعدها . مخطوط بمكتبة كلية اللغة العربية .
(٢) اعجاز القرآن للرافعى ص١٦٦ .

وتلك هى وجهة كثير من الباحثين المتقدمين فى اعجاز القرآن .

فالخطابى وقد رأى أن الاعجاز فى النظم يضيف الى ذلك وجها آخر ، وهو ما يحدثه القرآن فى انقلوب من روعة ، وما يخلعه على النفوس من هيبة ، والرمانى جعل البلاغة أحد وجوه سبعة يظهر بها اعجاز القرآن ، والباقلانى يرى النظم أحد وجوه ثلاثة للاعجاز(١) .

وغير هؤلاء كثير يجعلون من النظم وجوها أخرى يرون الاعجاز فيها : كالقاضى عياض فى الشــفاء والزركشى الذى جعل الاعجاز فى وجوه متعددة على رأسها النظم ، وكذلك الالوسى والقرطبى(٢) .

ويرى الرافعى سوى ما تقدم أن حقيقة الاعجاز أمر صعب تحديده ، وشىء فوق مســتوى الافهام ، وأكبر من أن تحيط به العقول فيقول تحت عنوان : (حقيقة الاعجاز) : « أما الذى عنــدنا فى وجه اعجاز القرآن ، وما حققناه بعد البحث ، وانتهينا اليه بالتأمل وتصفح الآراء واطالة الفكر ، وانضاج الروية ، وما استخرجناه من القرآن نفسه فى نظمه ووجه تركيبه ، واطراد أسلوبه ، ثم ما تعاطيناه لذلك منا لتنظير والمقابلة واكتناه الروح التاريخية فى أوضاع الانسان وآثاره ، وما نتج لنا من تتبع كلام البلغاء فى الأغراض التى يقصد بها ، والجهات التى يعمل عليها ، وفى رد وجود البلاغة الى أسرار الوضع اللغوى التى مرجها الى الابانة عن حياة المعنى بتركيب حى من الألفاظ يطابق سنن الحياة فى دقة التأليف واحكام الوضع وجمال التصــوير وشــدة الملاءمة حتى يكون أصــغر شىء فيه كأكبر شىء فيه ، نقول : ان الذى ظهر لنا بعد كل ذلك واستقر معنا أن القرآن معجز بالمعنى الذى يفهم من لفظ الاعجاز على اطلاقه ، حين ينفى الامكان بالعجز عن غير الممكن ، فهو أمر لا تبلغ منه الفطرة الانسانية مبلغا ، وليس الى ذلك مأتى

---

(١) أنظر : بيان اعجــاز القرآن للخطابى ص٧٠ والنكت فى اعجاز القرآن للرمانى ص٧٥ واعجاز القرآن للباقلانى ص٦٠ .

(٢) أنظر : الشفاء ص١٧٩ وما بعدها ج١ والبرهان للزركشى ٩٦/٢ وما بعدها وروح المعانى للالوسى : ٢٨/١ والجامع لأحكام القرآن للقرطبى : ٦١/١ .

ولا جهة ، وانما هو اثر كغيره من الآثار الالهية يشاركها فى اعجاز الصنعة وهيئة الوضع ، وينفرد عنها بأن له مادة من الألفاظ كأنها مفرغة افراغا من ذوب تلك المواد كلها ، وما نظنه الا الصـــورة الروحية للانسان ، اذا كان الانســـان فى تركيبه هو الصـــورة الروحية للعالم كله »[١] .

ولم يأت الرافعى كذلك بجديد فى تلك الوجهة ، فقد بدا الخطابى حديثه عن بيان اعجاز القرآن بتقرير أن الناس لم ينتهوا فيه الى رأى على كثرة كلامهم وطول نقاشهم ، وكذلك فعل السكاكى والزركشى والسيوطى[٢] .

كذلك رأى هـــذه الوجهة من المعاصرين عدا الرافعى المرحوم الدكتور (محمد عبد الله دراز) فى النبأ العظيم[٣] .

ومما لاشك فيه أن هـــذه الوجهة فى صـــعوبة تحقيق الاعجاز وعدم ادراك كنهه حق وعلى صواب — فادراك الاعجـــاز من الاعجاز . وسر الاعجاز وحقيقته فى القرآن فوق ادراك العقول — واحاطة الافهام ، وسيظل هـــذا السر خالدا ما بقيت السموات والأرض[٤] .

---

(١) اعجاز القرآن للرافعى ص١٦٦ .

(٢) انظر : بيان اعجاز القرآن للخطابى ص٢١ والبرهان للزركشى ٢/١٠٠ ومعترك الأقران للســـيوطى ص١١ ، ٣ .

(٣) انظر : النبأ العظيم : ص٢٠٩ وما بعدها .

(٤) انظر : ابن ســـنان وجهوده فى النقد والبلاغة د . عبد الحميد العبيسى ص١٥٥ واسرار الاعجـــاز فى النســـق القـــرآنى د . ابراهيم عوضين ص٤٦ .

الفصــل الثــالث

مذهب الصرفة

لقد عرض الرافعى فى سرده أوجه الاعجاز لهــذا المذهب ، ففسره وحدد القائلين به وأبطله ، وبين خطورة القول به على القرآن وبلاغته .

ولمــا كان كثير من الباحثين فى اعجاز القرآن قديما وحديثا قد جروا عند حديثهم عن الصرفة على أن يردوا بداية الكلام عنها الى النظام(١) ، فقد حقق الرافعى ذلك وبين أن هــذا المذهب ليس من ابتداع النظام ، ولا هو أبو عذره ، وانما جرى الكلام به على ألسنة قوم قبله .

وذكر الرافعى أن بدء القول بالصرفة يعود الى نشأة الكلام عن خلق القرآن وأن أول ما ظهر من الكلام فى القرآن مقالة تعزى الى رجل يهودى يسمى « لبيد بن الاعصم » كان يقول : ان التوراة مخلوقة ، فالقرآن كذلك مخلوق ، ثم أخذها عنه « طالوت » بن أخته وأشاعها ، فقال بها : « بنان ابن ســمعان » الذى اليه تنسب البنانية ، وتلقاها عنه « الجعد بن درهم » « مؤدب مروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية » وكان زنديقا فاحش الرأى واللسان ، وهو أول من صرح بالانكار على القرآن والرد عليه وجحد أشياء مما فيه ، وأضاف الى القول بخلقه ان فصاحته غير معجزة ، وان الناس يقدرون على مثلها وعلى أحسن منها ، ولم يقل بذلك أحد قبله ، ولا فشت المقالة بخلق القرآن الا من بعده ، اذ كان أول من تكلم بها فى دمشق عاصمة الأمويين ، وكان مروان « ويلقب بالحمــار » يتبع رأيه ، حتى نسب اليه فقيل : مروان الجعدى ، ولم تظهر بعده فتنة القول بخلق القرآن الا زمن أحمد بن أبى دؤاد وزير المعتصم سنة ٢٢٠هـ ، وكان أول من بالغ فى القول بذلك : عيسى بن صبيح الملقب بالمزدار الذى اليه تنسب المزدارية ، ثم لمــا نجحت آراء المعتزلة بعد أن اقبل جماعة من شياطينها على دراسة كتب الفلسفة مما وقع اليهم عن اليونان وغيرهم نبغت لهم شئون أخرى من الكلام ، فمزجوا بين تلك الفلسفة على كونها نظرا صرفا وبين الدين على كونه يقينا

---

(١) أنظر : الطــراز للعلوى : ٣٩١/٣ واعجاز القرآن لعبــد الكريم الخطيب : ٣٣٩/١ هـ . أولى (٠)

محضا ، وتغلغلوا فى ذلك حتى خالف بعضهم بعضـــا بمقدار ما يختلفون فى الذكاء وبعد النظر ، فتفرقوا عشر فرق ، واختلفت بهـــذا آراؤهم فى وجه اعجاز القرآن اختلافا يقوم بعضه على بعض ، فيبدأ فارغا وينتهى كما بدأ وان كثر فى ذات نفسه ، فذهب شيطان المتكلمين أبو اسحاق ابراهيم النظام الى أن الاعجاز كان بالصرفة ، وهى أن الله صرف العرب عن معارضـــة القرآن مع قدرتهم عليها فكان هـــذا الصرف خارقا للعادة(١) .

كما بين الرافعى أن هـــذا الذى روى عن النظام أحد شطرين من رأيه أما الشطر الآخر : فهو الاعجاز انمـــا كان من حيث الاخبـــار عن الامور المـــاضية والآتية(٢) .

وبعد أن قدم الرافعى تفسير النظام للصرفة أبطله وبين أن الصرف على ذلك يكون هو المعجزة لا القرآن ، كما قدم أيضا تفســـير « المرتضى » لها وقرر أنه رأى بين الخلط(٣) .

وبهـــذا يكون الرافعى قد تنبه الى التفسيرين الواضحين للصرفة عند النظام والشريف المرتضى ولم يخلط بينهما كما فعل غيره من الباحثين .

كما استطاع الرافعى أن يوقفنا على بداية الكلام عن الصرفة ، وأنه يعود الى حيث نشأ الحديث عن خلق القرآن ، وبين لنا أن أول من بالغ فى القول بالصرفة كان : عيسى بن صبيح الملقب بالمزدار .

أما لمـــاذا نسب القول بالصرفة الى النظـــام وأغفل ذكر المزدار ؟ فالرافعى يرده الى الشهرة التى لازمت « النظام » نتيجة مبالغته فى القول بذلك ، فيذكر ما نصـــه : « غير أن النظام هو الذى بالغ فى القول بالصرفة عرفت به ، وكان هـــذا الرجل من شياطين أهل الكلام على بلاغة ولسن وحسن تصرف ، بيد أنه شب فى ناشئة الفتنة الكلامية ، فلم ينتفع بيقين ، وقال فيه الجاحظ وهو تلميذه وصاحبه وأخبر الناس به : انما كان عيبه الذى لا يفارقه سوء ظنه ، وجودة قياسه على العارض والخاطر والسابق الذى لا يوثق بمثله ، فلو كان بدل تصحيحه القياس التمس تصحيح الاصل

---

(١) انظر : اعجاز القرآن للرافعى ص٢٦١ وما بعدها .
(٢) المرجع الســـابق .
(٣) المرجع الســـابق .

الذى قاس عليه ، كان أمره على الخلاف ، ولكنه كان يظن الظن ثم يقيس عليه وينسى ان بدء أمره كان ظنا ، فاذا أتقن ذلك وأيقن جزم عليه ، وحكاه عن صاحبه حكاية المستبصر فى صحة معناه ، ولكنه كان لا يقول : سمعت ولا رأيت ، وكان كلامه اذا خرج مخرج الشـــهادة القاطعة لم يشـــك السامع انه انما حكى ذلك عن سماع قد امتحنه أو عن معاينة قد بهرته ، قلنا : وهـــذا بعض ما ذهب بفضل بلاغته ، وغطى على أثره ، ونقض أمره عروة عروة ، وجعله فى اكبر آرائه بعيـــدا عما هو من غايته منـــدفعا الى ما ينزل عن حقه ، حتى جاء رأيه الذى علمت فى مذهب الصرفة دون قدره ، بل دون علمه ، بل دون لســـانه »(١) .

الجـــاحظ والصرفة :

وكان للجاحظ من قضـــية الاعجاز القرآنى موقف لفت نظر الباحثين وأثار دهشتهم ، واسترعى انتباههم ، اذ بينما يرى أن القرآن معجز بنظمه البديع الذى لا يقدر على مثله العباد مع ما سوى ذلك من الدلائل التى جاء بها من جاء به(٢) .

وفى موطن آخر يقرر أن القرآن معجز بالصرفة ولقد تحدث بهـــذا الرأى فى معرض الاحتجاج على الذين يشـــككون فى أن يكون « سليمان » عليه السلام قد وهب الله له ملكا لم يكن لأحد من بعده ، وأن الجن كانت فى بعض ما ملك ، ثم هو مع ذلك يجهل ملكة سبأ وملكها حتى دله عليها وعلى مكلها الهدهد فكيف يصح هـــذا ؟ ويرد الجاحظ على ذلك بما حدث لموسى ابن عمران ومن كان معه فى التيه ، فقد كانوا أمة من الأمم يكسعون أربعين عاما فى مقدار فراسخ يسيرة ولا يهتدون الى المخرج ، وما كانت بلاد التيه الا من ملاعبهم ، ولكن الله صرف أوهامهم ، ورفع القصد من صدورهم ، وبعد أن ساق أمثلة أخرى قال : ومثل ذلك ما رفع من أوهام العرب وصرف نفوسهم عن المعارضة للقرآن بعد أن تحداهم الرســـول بنظمه ، ولذلك لم نجد احدا طمع فيه ، ولو طمع فيه لتكلفه ، ولو تكلف بعضهم ذلك فجاء

---

(١) اعجاز القرآن للرافعى ص١٦٢ ، ١٦٣ .
(٢) الحيوان الجـــاحظ : ٩٠/٤ . أولى .

بأمر فيه ادنى شبهة لعظمت القصة على الأعراب وأشباه الأعراب والنساء وأشباه النساء ، ولألقى ذلك للمسلمين عملا ، ولطلبوا المحاكمة والتراضى ببعض العرب ، ولكثر القيل والقال ، فقد رأيت أصحاب مسيلمة وأصحاب بنى النواحة انما تعلقوا بما الف لهم مسيلمة من ذلك الكلام الذى يعلم كل من سمعه أنه انما عدا على القرآن فسلبه ، واخذ بعضه ، وتعاطى أن يقارنه فكان ذلك التدبير الذى لا يغلبه العباد ولو اجتمعوا له[١] .

ولقد تضاربت اقوال الباحثين فى تفسير هذا الموقف المتناقض للجاحظ ومضوا يلتمسون العلل والتأويلات ، فالرافعى يحكم عليه بالاضطراب وتتبع أستاذه النظام قائلا : « أما الجاحظ فان رأيه فى الاعجاز كرأى أهل العربية ، وهو أن القرآن فى الدرجة العليا من البلاغة التى لم يعهد مثلها ، وله فى ذلك أقوال نشير الى بعضها فى موضعه ، غير أن الرجل كثير الاضطراب ، فان هؤلاء المتكلمين كأنما كانوا من عصرهم فى منخل ، ولذلك لم يسلم هو أيضا من القول بالصرفة ، وان كان قد أخفاها وأومأ اليها عن عرض ، فقد سرد فى موضع من كتاب (الحيوان) طائفة من أنواع العجز ، وردها فى العلة الى أن الله صرف أوهام الناس عنها ، ورفع هذا القصد من صدورهم ، ثم عد منها : ما رفع من أوهام العرب وصرف نفوسهم عن المعارضة لقرآنه بعد أن تحداهم الرسول بنظمه ، وقد يكون استرسل بهذه العبارة لما فى نفسه من أثر أستاذه ، وهو شيء ينزل على حكم الملابسة ويعترى اكثر الناس الا من تنبه له أو نبه عليه ، أو هو يكون ناقلا ولاندرى »[٢] .

ومن الباحثين من لا يوافق الرافعى ولا يقره على نعته الجاحظ بالاضطراب واقتفاء أثر استاذه ، ويرى أن الجاحظ لم يرد بالصرفة معناها الشائع ، وهو أن العرب كانوا قادرين على الاتيان بمثل القرآن بلاغة وفصاحة لولا أن الله صرفهم ، وانما يقصد أن الله تعالى صرف العرب مع عدم قدرتهم على الاتيان بأية معارضة للقرآن لئلا يشتبه الامر

---

(١) انظر : المرجع السابق : ٤/٣٠ وما بعدها .

(٢) اعجاز القرآن للرافعى ص١٦٤ ، ١٦٥ .

على الأعراب وأشباه الأعراب ، ويوجد من يزعم أن هــذا كالقرآن فى علو الطبقة ، ثم يطلبون المحاكمة ، ويثور الجدل حول كتاب الله تعالى(١) .

ويرى البــاحث أن الرافعى لم يذهب بعيــدا حينما نعت الجاحظ بالاضطراب واقتفاء أثر أستاذه ، وأن هــذا التــأويل الســابق لكلام الجــاحظ يبدو عليه التكلف ويظهر فيه التعسف والتمحل ، فالجاحظ أديب وأسلوبه من الوضوح بمكان ولو كان يقصــد ما فهمه ذلك الباحث وغيره ممن يرون رأيه لعبر عن ذلك فى صراحة .

ثم انه ليس غريبا فى أن يقول « الجاحظ » بالاعجاز البيــانى ، ثم يعود ليقول بالصرفة ، فلقد شاركه الرمانى فى القول بذلك ، اذ جعلها مع ســتة وجوه غيرها منها النظم أوجه الاعجاز ، كما رآها « ابن سنان » الوجه فى الاعجاز(٢) .

ادلة القائلين بالصرفة :

واستدل القائلون بالصرفة على صــحة مذهبهم بأدلة جاءت جميعها فى غاية الركاكة والتهافت ، ومعظمها يدور حول امتناع العرب عن المعارضة مع تمكنهم من القيام بها ، ومع التقريع الشديد من الله عز وجل لهم ، وقــد رد كثير من الباحثين تلك الأدلة ، وبينوا ضعفها واضطرابها ، والرافعى نراه بعد أن قام بعرض كلام النظام عن الصرفة يبطله بقوله : « قلنا : وكأنه من هــذا القبيل هو المعجزة لا القرآن »(٣) .

ويمضى الرافعى ليبين مبلغ سخف هــذا الرأى فيقول : « وهو عندنا رأى لو قال به صبية المكاتب ، وكانوا هم الذين افتتحوه وابتدعوه لكان ذلك مذهبا من تخاليطهم فى بعض ما يحاولونه اذا عمدوا الى القول فيما لا يعرفون

---

(١) أنظر : قضية اللفظ والمعنى وأثرها فى تدوين البلاغة د . على محمد حسن ص١١٢ وما بعدها .

(٢) أنظر : النكت فى اعجاز القرآن للرمانى ص١١٠ وسر الفصاحة لابن ســنان ص٨٩ .

(٣) اعجاز القرآن للرافعى ص١٦٢ .

ليوهموا أنهم قد عرفوا ، الا فان من سلب القدرة على شيء بانصراف وهمه عنــه ، وهو بعــد قادر عليه مقرن له لا يكون تعجيزه بذلك فى البرهان الا كعجزه هو عن البرهان ، اذ كان لم يعجزه عدم القــدرة ، ولكن أعجزه القدر وهو لا يغالب ، والمرء ينسى ويذكر ، وقد يتراجع طبعه فترة لا عجزا وقد يعتريه السأم ، ويتخونه الملال ، فينصرف عن الشيء ، وهو له مطيق ، وذلك ليس بأحق بأن يســـمى عجزا من أن يســـمى تهاونا ، ولا هو أدخل فيما يحمل عليه الضعف منه فيما يحمل عليه فضل الثقة »(١) .

ولمـــا كان القائلون بالصرفة قد استدلوا أيضا على صحة مذهبهم بعدم معارضة العرب للسور القصـــيرة مع تمكنهم من ذلك بما أوتوه من بيان وبلاغة فقد ابطل الرافعى هـــذا الدليل الذى استندوا اليه مبينا أن السور القصيرة كانت كالسور الطويلة فى التحدى والاعجاز قائلا : « لا جرم كان من الرأى الفائل والمذهب الباطل قول أولئك الذين زعموا أن الاعجاز كان بالصرفة وما دعاهم الى القول بها الا عجبهم كيف لم يأت للعرب أن يعارضوا الســـورة القصيرة والآيات القليلة مع هـــذا التحدى ومع هـــذا التقريع ، وهم اللد الخصمون ، والكلام سيد عملهم ، ولهم فيه المواقف والمقامات ، بيد أن أولئك لو كان لهم احساس العرب ، أو لم يأخذوا الأمر على ظاهره وردوه الى أسبابه فى الفطرة لرأوا أن معنى العجز هو فى الكثير والقليل ، فان التحدى بالسورة الواحدة طويلة أو قصيرة لم يكن فى أول آية نزلت من القرآن ، بل كان بعـــد ســـور كثيرة منه ، وبعـــد أن ذهبت فى العرب كلّ مذهب ، وهو أمر غريب فى استلاب حس القوم ، والتأنى الى تعجيزهم ، فان أعجبك شيء من سياسة البيان المعجزة واشـــتقاق المســـتحيل من الممكن ، فذلك فليعجبك »(٢) .

ولقد لوحظ أن الرافعى اعتمد فى هـــذه البراهين التى ابطل بها أدلة القائلين بالصرفة على ما ذكره الخطابى فى : « بيان اعجاز القرآن » .

---

(١) المرجع السابق ص١٦٣ .
(٢) المرجع السابق ص١٦٣ .

والقاضى عبد الجبار فى المغنى وعبد القاهر فى الرسالة الشافية ودلائل الاعجاز[١] .

وظلت تلك البراهين التى اعتمد عليها « عبد القاهر » فى ابطال مذهب الصرفة مستمدا أصولها من : القاضى عبد الجبار والخطابى تردد حتى هذه اللحظة ، واعتمد عليها جميع الباحثين فى ابطال هذا المذهب . فقد رددها كل من : الرازى ويحيى بن حمزة العلوى[٢] .

مذهب الصرفة والدراسات القرآنية :

وعلى الرغم من وضوح فساد هذا الرأى ، وتهافت أدلة القائلين به ، فانه أثر فى الدراسات القرآنية أبعد الآثار وأقواها ، حيث أثار العلماء وجعلهم يكتبون فى اثبات الاعجاز للاسلوب[٣] .

فما من كتاب من كتب التفسير أو البلاغة الا عرض لهذا المذهب واختصه بمزيد من النقاش ، ولهذا فان الرافعى كان ممعنا فى التحمس حين قرر أن « النظام » بمذهبه هذا حرم القرآن والبلاغة من دراسات ممتعة وأبحاث مجدية فى قوله : « على أن القول بالصرفة هو المذهب الفاشى من لدن قال به النظام ، يصوبه فيه قوم ، ويشايعه عليه آخرون ، ولولا احتجاج هذا البليغ لصحته وقيامه عليه وتقلده أمره ، لكان لنا اليوم كتب ممتعة فى بلاغة القرآن وأسلوبه واعجازه اللغوى وما الى ذلك ، ولكن عفا الله عنهم أخرجوا انفسهم من هذا كله وكفوها مؤنته بكلمة واحدة تعلقوا عليها ، فكانوا فيها جميعا كقول هذا الشاعر الظريف الذى يقول :

---

(١) انظر : بيان اعجاز القرآن للخطابى ص٢٢ وما بعدها والمغنى للقاضى عبد الجبار ٢١٨/١٦ وما بعدها ودلائل الاعجاز : ٢٥٨ والرسالة الشافية : ص١٤٨ .

(٢) انظر : نهاية الايجاز للرازى ص٦ ، والطراز للعلوى : ٣٩٢/٣ وما بعدها .

(٣) انظر : أثر القرآن فى تطور البلاغة العربية حتى نهاية القرن الخامس الهجرى د . كامل الخولى ص٤٣ .

كأننـا والمـاء من حـولنا قـوم جـلوس حـولهم ماء[1]

ونقول للرافعى فوق ما سبق : ان هـذا المذهب لم يستمر طويلا ، ولم يكتب له البقاء حتى تقرر ما قررته ، ثم انه لم تمض لحظة فى أى عصر من العصور دون أن يظهر هناك كتاب جديد فى لغة القرآن وبلاغته وعلومه ، ومن هنا فان الرافعى قد جاوز الحد فى كلامه السابق على الرغم مما حالفه من توفيق فى توهين هـذا المذهب ونقض أدلة القائلين به .

واختتم حديث الرافعى عن الصرفة بقوله فيها : « وعلى الجملة فان القول بالصرفة لا يختلف عن قول العرب فيه : « ان هو الا سـحر يؤثر » ، وهـذا زعم رده الله على أهله وأكذبهم فيه وجعل القول به ضربا من العمى « أفسحر هـذا أم أنتم لا تبصرون »[2] .

---

(١) اعجاز القرآن للرافعى ص١٦٤ .

(٢) المرجع السـابق .

الفصـــل الرابع

المذهب الغيبي فى الاعجاز

لقد وردت فى القرآن الكريم آيات كثيرة تتحدث عما سيقع فى الغيب وما يحدث فى المستقبل ، وتحقق ووقع ما جاءت به تلك الآيات ، ولم يتفق الباحثون فى اعجاز القرآن فى موقفهم منها ، فمنهم من عد ذلك وجها من اعجاز القرآن ، ومنهم من نفى أن يكون لذلك مدخل فى الاعجاز .

ومن تلك الآيات التى تحقق ما أنبأت به قوله تعالى : « واذ يعــدكم الله احدى الطائفتين أنها لكم وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين » فكان الامر كما وعـــد من الظفر باحدى الطائفتين : العير التى كان فيها أبو سفيان ، أو الجيش الذين خرجوا يحمونها من قريش ، فأظفرهم الله عز وجل بقريش يوم بدر(١) .

ومنه قوله تعالى : « آلم . غلبت الروم فى أدنى الارض وهم من بعد غلبهم سيغلبون » . ومنه : « هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون » . ومنه : « فتمنوا الموت ان كنتم صادقين ولن يتمنوه أبدا بما قدمت أيديهم » . ومنه : « فأتوا بســـورة من مثله وادعوا شـــهداءكم من دون الله ان كنتم صادقين فان لم تفعلوا ولن تفعلوا » . ومنه : « سيهزم الجمع ويولون الدبر » . ومنه : « لقـــد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المســـجد الحرام ان شاء الله آمنين محلقين رؤسكم ومقصرين لا تخافون » . ومنه : « وعدكم الله مغانم كثيرة تأخذونها فعجل لكم هـــذه وكف أيدى الناس عنكم » ، ثم قال : « وأخرى لم تقدروا عليها قد أحاط الله بها »(٢) .

ولمـــا كانت هـــذه الأنباء الصـــادقة التى جاءت بها تلك الآيات لا يجوز أن تقع على الاتفاق دل على أنها من عند علام الغيوب ، مما جعل الرمانى يعدها من أوجه الاعجاز عنده(٣) .

---

(١) أنظر : النكت فى اعجاز القرآن للرمانى ص١١٠ وما بعـــدها .
(٢) المرجع الســـابق .
(٣) المرجع الســـابق .

وبمثل هـذا يرى الباقلانى أن ورود أخبار هـذه القرون السـالفة فى القرآن مع كون النبى صلى الله عليه وسلم أميا لا يقرأ ولا يكتب مما يعد وجها من اعجـازه(١) .

كذلك يرى الزمخشرى أن هـذه الاخبار الصادقة عما يقع فى المستقبل قبل وقوعه أمر لا يقدر عليه الا الله عز وجل ويعده وجها من اعجاز القرآن مع النظم(٢) .

كما عد القاضى عياض والسيوطى الاخبار بأحوال القرون السالفة ، والأنباء بالمغيبات التى حـدثت فى المستقبل من الأوجه التى يتحقق فيها اعجاز القرآن(٣) .

ومن الباحثين من رفض عد هـذا من أوجه الاعجاز ، بحجة أنه لابد أن يكون الاعجاز ذاتيا للقرآن ، بأن تلازمه صـفة الاعجاز فى كل سورة من سـوره ، وكل آية من آياته ،وأن يتحقق فيه ذلك فى كل معـرض ومساق ، بحيث لو جرد عن جهة الدلالة على صـدق الدعوة وجد الاعجاز ثابتا له والوصف قائما فيـه .

وفى مقـدمة من قال بذلك : القاضى عبد الجبـار والرازى ويحيى ابن حمزة العلوى وابن حزم والزركشى(٤) .

أما صـاحبنا « الرافعى » فانه لم يذكر شيئا عن هـذا الوجه ، ولم يعرض له ضمن الوجوه التى ذكرها فى اعجاز القرآن ، ولم نقرأ له شيئا عن تلك الآيات التى أخبرت بالمغيبات قبل وقوعها .

ولا يمنع الباحث أن يعد الاخبار بالمغيبات من أوجه الاعجاز القرآنى ، وان لم تتمثل هـذه الاخبار فى كل سـور القرآن ، ويرى أن ذلك يناسب الرأى المختار فى اعجاز القرآن ، وهو عدم حصره فى وجه بعينه .

---

(١) انظر : اعجـاز القرآن للباقلانى ص ٦١ وما بعدها ت د . محمد عبد المنعم خفاجى .

(٢) انظر : الكشاف جـ٣ ص٣٦٨ ط . ثانية ، جـ٤ ، ص٢٧٣ ومنهج الزمخشرى فى تفسير القرآن وبيان اعجازه د . مصطفى الجوينى ص٢١٦ ، ٢١٧ .

(٣) انظر : الشفاء للقاضى عياض جـ١ ص١٧٣ وما بعدها ط . اخيرة ومعترك الاقران فى اعجاز القرآن للسيوطى ص٢٣٩ وما بعدها .

(٤) انظر : المغنى : ٢٢٠/١٦ ، ونهـاية الايجاز ص٧٠ والطراز للعلوى : ٢٩٨/٣ ، والفصل لابن حزم : ١٦/٣ والبرهان للزركشى : ٩٥/٢ .

الفصــل الخــامس

الاعجاز الروحى

لقد كانت هــذه الآثار التى تركها القرآن من هــداية وتقويم للافراد والجماعات ، وتطوير للمجتمعــات والشــعوب ، وتغيير للعقائد والآراء والاتجاهات ، وذلك الاعجاب الذى ســيطر على النفوس ، وتلك الروعة التى خالطت القلوب ومازجت الأفئدة ، وذلك الجذب الهائل الذى يحدث لمن يســمع القرآن ممن يؤمن به ومن لا يؤمن به ، ومن يدرك أسرار لغته ومن لا يدركها ، مما كان سببا فى الانة كثير من القلوب القاســية ، وصفاء وطهارة عديد من الارواح الشريرة ، فكان ذلك وغيره سببا فى أن يرى عدد من الباحثين فى القديم والحديث أن اعجاز القرآن أمر فوق البلاغة التى لا تحد بحدود معينة ، ولا تضبط بضــوابط معلومة أو محصــورة ، والتى يغفل الكثير عن أسرارها ، ويغيب عنهم دقائقها وتفاصيلها ، هــذا الأمر من غير شك هو ذلك التأثير العظيم الذى أحدثه القرآن بالنفوس ، وتلك الروحانية التى استأثر الله بعلمها .

وجاء حديث الرافعى عن هــذا الوجه موجزا وعلى سبيل الاشارة ، ولم يبسط الكلام عليه كما بســطه حول الوجوه الاخرى التى رد الاعجاز عليها وهى : الوجه العلمى والوجه اللغوى والادبى والوجه النفسى والوجه الأســلوبى والوجه البلاغى .

ولقد كان الرافعى منصــفا ، اذ رأيناه يجعل هــذه الآثار الروحية أمرا ناشئا عن النظم ومترتبا على البلاغة التى يعدها الوجه الأصيل والبارز فى اعجــاز القرآن .

فلم نجد بين الأوجه المتعددة الســابقة التى جعل الرافعى الاعجاز فيها هــذا الذى يسمى « بالاعجاز الروحى » ولم نصــادف الا كلاما عن الرهبة والخوف والروعة التى تسيطر على نفوسنا وقلوبنا عند ســماع القرآن ، مما هو أثر من آثار بلاغته الفائقة ، ونظمه البديع الذى يعده الوجه الأصــيل فى الاعجــاز .

فالرافعى لم يفرد وجها خاصا « بالاعجاز الروحى » ، وجاء حديثه عن ذلك الأثر الروحى محددا وموجزا وعلى أنه سبيل من سبل النظم ، ومن اشاراته فى ذلك قوله : « هل تصيب فى القرآن كله مما بين الدفتين الا رهبة ظاهرة لا تمويه فى شىء منها ، والا أثرا من التمكن يصف له منزلة المخلوق من أمر الخالق ، والا روحا أكبر من أن يكون نفسا انسانة أو أثرا من آثار هـذه النفس ، ثم هل تجد فى أغراضه الا ما كان فى وضـعه مادة لتلك الرهبة ولذلك الاثر وذلك الروح ؟ »(١) .

وانصار القول بهـذا الوجه فى اعجاز القرآن كثير فى القيم والحديث ، فمنهم من يعده الوجه الاساسى فى الاعجاز ، ومن يراه أحد الأوجه التى تحقق بها الاعجـاز .

واول من ذهب الى هـذا الوجه من القدماء هو الخطابى ، ولم يجعله الخطابى الوجه الوحيـد فى الاعجاز ، بل ذكر معه النظم ، ومما يقوله فى ذلك : « قلت فى اعجاز القرآن وجها آخر ذهب عنه الناس ، فلا يكاد يعرفه الا الشـاذ من آحادهم ، وذلك صـنيعه بالقلوب ، وتأثيره فى النفوس ، فانك لا تسمع كلاما غير القرآن منظوما ولا منثورا اذا قرع السمع خلص له الى القلب من اللذة والحلاوة فى حال ، ومن الروعة والمهـابة فى أخرى ما يخلص منه اليه ، تسـتبشر به النفوس ، وتنشرح له الصدور ، حتى اذا أخذت حظها منه عادت مرتاعة قد عراها الوجيب والقلق ، وتغشاها الخوف والفرق ، تقشعر منه الجلود ، وتنزعج له القلوب ، يحول بين النفس وبين مضمراتها وعقائدها الراسخة فيها ، فكم من عدو للرسول صلى الله عليه وسلم من رجال العرب وفتاكها أقبلوا يريدون اغتياله وقتله ، فسمعوا آيات من القرآن ، فلم يلبثوا حين وقعت فى مسامعهم أن يتحولوا عن رأيهم الاول . وأن يركنوا الى مسالمته ، فيدخلوا فى دينه ، وصـارت عداوتهم موالاة وكفرهم ايمانا »(٢) . وتابع الخطابى فى القول بهـذا الوجه القاضى عيـاض والسـيوطى(٣) .

---

(١) اعجاز القرآن للرافعى ص٢٣٥ .
(٢) بيان اعجاز القرآن : الخطابى ص٧٠ ، ٧١ .
(٣) أنظر : الشـفاء ١٧٧/١ ومعتـرك الأقران فى اعجاز القرآن للسـيوطى ص٢٤٣ وما بعـدها .

اما المعاصرون ففى مقدمة من قال منهم بهـذا الوجه فى اعجاز القرآن المرحوم : « محمد فريد وجدى » اذ يرى أن هـذا الوجه هو الأولى والأجدر بأن يكون مناط الاعجاز ويستدل على رأيه بما استدل به السابقون من هـذه الآثار العظيمة التى يخلعها القرآن على القلوب ويحدثها فى النفوس ، ويرى أن هـذا من غير شك روحانية قد استأثر الله بعلمها ، ولا يمكن أن يكون للبلاغة وحدها كل هـذا التأثير لأن تأثير البلاغة على النفس محـدود ، وحدودها غير مقيدة ، وقواعدها غير مضبوطة(١) .

كذلك نرى المرحوم الدكتور : « زكى مبارك » يعد هـذه الروحانية الوجه فى اعجاز القرآن محتجا بأن للبلاغة سلطانها المحدود على النفس ، وأن بلاغة الأساليب وروعتها ليست فى ألفاظها ولا معانيها ، وانما هى فى الفكرة وهى شىء روحى(٢) .

وتبعهما فى القول بهـذا الرأى كثير من المعاصرين ، فبعضهم كان يسلك مسلكهما والبعض الآخر كان يجعل هـذا الوجه ناشئا عن البلاغة وحادثا عن النظم(٣) .

ولا ينكر الباحث تلك التـأثيرات الهـائلة التى يخلعها القرآن على القلوب ويحدثها فى النفوس ، كما لا ينكر هـذه الروعة وتلك المهابة التى تحدث عند سماعه ممن يعرف معانيه ومن لا يعرفها ، بل انه يرى أن من اعجاز هـذا الكتـاب الكريم ألا ينتهى النـاس الى رأى فى اعجازه ، وأن اختلافهم فى كل عصر وزمان حول جهة الاعجاز القرآنى وعدم اتفاقهم على تحديد وجه معين لاعجازه انما هو من اعجاز القرآن كما يميل الباحث الى

---

(١) أنظر : دائرة معـارف القرن العشرين : محمد فريد وجـدى : ٦٧٧/٧ ط . ثانية .

(٢) أنظر : النثر الفنى : ٦٩/١ وما بعدها ط . أولى .

(٣) أنظر : اعجاز القرآن لعبد الكريم الخطيب : ٣٢٠/١ وما بعدها ، جـ٢ ص٢٣٧ وما بعدها . والوحدة الموضوعية فى القرآن د . محمد محمود حجازى ص٧١ وما بعدها ، والتفسير الصوفى للقرآن . عبد القادر أحمد عطا ص٧٠ والقرآن المجيد : محمد عزة دروزة ص٣٢ وما بعدها ، والقرآن : محاولة لفهم عصرى د. مصطفى محمود ص١٢ وما بعدها .

أن هــذه الآثار ناشئة عن نظم القرآن البديع ومبنية على نسجه المحكم ، كما قرر الرافعى الذى كان حصيفا اذ ذهب الى ذلك ، ومن ثم كان حكمنا عليه بالانصاف ، وفى الوقت نفسه فان الباحث يرفض اعتبار ذلك الأثر الوجه فى الاعجاز لمــا يؤدى اليه ذلك من صــد المســلمين عن التبصر والتأمل فى بلاغة القرآن والاستهداء بعلومه .

كما يرى الباحث غير ما تقدم أن القول بهــذا الوجه فقط فى اعجاز القرآن لا يفترق كثيرا عن القول بالصرفة ، اذ كلاهما يصرف المسلمين عن الافادة بقرآن ربهم ، ويبعــدهم عن الانتفاع بهديه ، ولله در « الخطابى » حيث لم يحصر الاعجاز فى هــذا الوجه فقط كما فعل « محمد فريد وجدى » والدكتور « زكى مبارك » ، بل عده من أوجه الاعجاز مع النظم ، وان كنا نأخذ على الخطابى أنه أفرد هــذا الوجه من الاعجاز عن النظم ، ولو أنه جعله مرتبطا بالنظم وناشئا عنه لكان أكثر صــوابا .

ومن هنا رأينا الرافعى على الرغم من افادته من الخطابى فى كلامه الموجز عن هــذا الوجه من الاعجاز أكثر منه انصــافا ، حيث جعل هــذه الآثار الروحية ناشئة عن النظم الذى يعتبره منــاط الاعجاز ، ولم يجعلها وجها من وجوه الاعجاز كما فعل الخطابى أو الوجه فى الاعجاز كما فعل « وجدى » ومن لف لفه .

الفصـــل الســـادس

الإعجاز فى القصص القرآنى

ولقد عد بعض الباحثين فى اعجـــاز القرآن قديما وحديثا ما ورد فى القرآن من قصص الأمم السابقة والعصور المـــاضية من أجل العظة والعبرة وجها من أوجه اعجـــازه .

والرافعى وان كان يرى الاعجاز فى أكثر من وجه حيث يستحسن ذلك ويستجيده فانا لم نجد من بين الوجوه التى جعل الاعجاز فيها هـــذا الوجه .

ولقد قال بهـــذا الوجه فى اعجاز القرآن كثير فى القديم والحديث : فالباقلانى يعده أحد الوجوه الثلاثة للاعجاز عنده(١) .

وبينما يرى الباقلانى وغيره أن أخبار القرون بأحوال الأمم السابقة والعصور المـــاضية لا يحتمل الشك وشـــاهد لا يحتمل النقض على نبوته صلى الله عليه وسلم ، وانه من أوجه الاعجـــاز القرآنى ، فان كثيرا من الملاحـــدة والطاعنين على الاسلام يعترضـــون على عد هـــذا الوجه من الاعجـــاز ، اذ يرون أن هـــذه الاخبار التى وردت فى القرآن عن أحوال الأمم المـــاضية لم تكن جديدة وأن معظمها كان معروفا لأهل الكتاب ، وأنها جاءت مخالفة لمـــا تضمنته وثائق التاريخ(٢) .

وقد تصدى كثير من الاعلام المعاصرين لرد هـــذه الافتراءات ، ودفع تلك الاعتراضات(٣) .

ويرى الباحث : ان الأحداث التاريخية الواردة فى القرآن دليل قوى على صدق نبوة الرسول عليه الصلاة والسلام ، كما أنها من أوجه الاعجاز القرآنى ، وان كانت وجها ثانويا بعد الوجه الأصيل وهو البلاغة والنظم .

---

(١) أنظر : اعجاز القرآن للباقلانى ص٦١ وما بعدها .

(٢) أنظر : الفن القصصى فى القرآن الكريم د م. محمد أحمد خلف الله ص٣٨ وما بعـــدها .

(٣) أنظر : تفسير المنـــار : ٤٧١/٢ ط . أولى .

كما يرى الباحث كذلك ان القرآن ليس كتاب تاريخ ، وأن المعــانى التاريخية لم تكن مقصــدا من مقاصـــده ، وأن ما يراه البعض من مخالفة القصص القرآنى لحقــائق التــاريخ ، وأن ذلك مذهب معروف فى جميع اللغات ، فهــذا مالا يرضاه الباحث ولا يقره .

فالقرآن كله حق وصدق ، وأنه لم يعن بالتفصــيلات ، وانما عنى بالكليات والحقائق الثابتة والنظريات العامة التى لا تحتمل اختلافا ولا افتراقا ، ولا يحتج بما فى كتب اليهــود والنصــارى من وثائق التاريخ لأنها حرفت وغيرت ، فلا يجوز الاحتجاج بها على ما ورد فى القرآن .

بلاغة التكرار فى القصص القرآنى :

وعلى الرغم من أن الرافعى لم يعد الجانب القصصى ضمن الوجوه التى رد الاعجاز اليها فانه بســط القول فى ظاهرة كانت ميدانا فســيحا ومجالا رحبا لطعن الطاعنين ودعاوى الملاحــدة والمغرضين على القرآن الكرم وللتشكيك فى بلاغته وأحكامه وهى : ظاهرة التكرار فى القرآن الكريم .

وبدأ الرافعى فقرر ما قرره البلاغيون والنقاد من قبله من : أن التكرار فى القرآن من محاسنه ومن أخص وجوه البلاغة فيه ، وذم الذين عابوه ، وبين أن عيبهم ناشىء عن حقدهم وناتج عن عجزهم عن الاتيان بمثله قائلا فى ذلك : « وقد خفى هــذا المعنى (التكرار) على بعض الملاحدة وأشباههم ومن لا نفاذ لهم فى أسرار العربية ومقاصد الخطاب ، والتأنى بالسياسة البيانية الى هــذه المقاصد — فزعموا به المزاعم السخيفة واحالوا الى النقص والوهن ، وقالوا ان هــذا التكرار ضعف وضيق من قوة وسعة ، وهو أخزاهم الله كان أروع وأبلغ وأسرى عن الفصـــحاء من أهل اللغة والمتصرفين فيها ، ولو أعجزهم أن يجيئوا بمثله ما أعجزهم أن يعيبوه لو كان عيبا »(١) .

وناقش الرافعى رأى القــدامى من البلاغيين والنقــاد كالجــاحظ وأبى هلال العســكرى حول ظاهرة التكرار فى القرآن الكريم ، وبين أن ما ذهبوا اليه من أن التكرار لم يكن يصار اليه الا مع بنى اسرائيل لضعف

---

(١) اعجاز القرآن للرافعى ص٢٢٠ وما بعدها .

أفهامهم وقلة بصيرتهم ، بينما لم يستعمل فى خطاب العرب لذكائهم وفطنتهم وعدم احتياجهم الى ذلك حـكم فيه قصـور ورأى يحتاج الى توضيح ، لأن اليهـود كان منهم البلغـاء وفيهم الفصـحاء ولم يكونوا من العى والغباوة كما يتصور ، ثم يقرر الرافعى أن هـذا التكرار الوارد فى القرآن انما هو ضرب من ضروب الأدب العبرانى جرى عليه القرآن فى أكثر خطابهم ، ويقول الرافعى فى بيان وجهة نظر الجاحظ ومن تابعه حول ظاهرة التكرار : « وفى بعض ذلك التكرار معنى آخر فطن اليه بعض علمائنا ولم يكشف لهم عن سره ، فأول من نبه عليه الجاحظ فى كتاب الحيوان اذ قال : ورأينا الله تبارك وتعالى اذا خاطب العرب والأعراب ، أخرج الكلام مخرج الاشـارة والوحى والحذف ، واذا خاطب بنى اسرائيل أو حكى عنهم جعله مبسوطا وزاد فى الكلام ، أى كأن ذلك مبالغة فى أفهامهم ، وتوسع فى تصوير المعانى لهم وتلوينها بالألفاظ ، ايجازا فى موضع واطنابا فى موضع ، اذ كانوا قوما لا سـليقة لهم كالعرب ، وليسوا فى حكمهم من البيان ، فلا يمضى كلامهم لسننه بلا اعتراض من تنافر التراكيب وثقل الحروف وجفاء الطبيعة اللغوية ، فلهـذا ونحوه كان لابد فى خطابهم من التكرار والبسط والشرح ، بخلاف العرب ، فان الخطاب يقع اليهم على سنن كلامهم من الحذف ، والقصد الى الحجة ، والاكتفـاء باللمحة الدالة ، وبالاشـارة الموحى بها ، وبالكلمات المتوسـمة ، وما يجرى هـذا المجرى »(١) .

ويعود الرافعى لتصحيح وجهة نظر الجاحظ بعد أن عرضها ، مبينا أن اليهود كان منهم البلغاء وفيهم الأدباء ، ولم يكونوا من الغفلةو البلاهة كما يتخيل فيقول معلقا على كلام الجاحظ : « وهو قول صحيح فى الجملة ، بيد أنهم أخطأوا وجه الحكمة فيه ، فان اليهود لم يكونوا من الغفلة والجفاء والاستكراه بحيث وصفوهم ، أو بحيث يجوز ذلك فى صفتهم ، وان فيهم لمتكلمين ، وان منهم لشعراء ، والخطاب فى القرآن كله يسـمعه العرب واليهود جميعا ، فلا هؤلاء ينكرون من أمره ولا أولئك »(٢) .

---

(١) المرجع السابق .
(٢) المرجع السـابق .

ويرى الرافعى بعد ذلك أن هـذا التكرار الذى ورد فى القرآن هو فى الحقيقة سر من أسرار الأدب العبرانى ، جرى القرآن عليه فى أكثر خطابهم خاصة ليعلموا أنه وضع غير انسانى ، وليحسوا معنى من معانى اعجازه فيما هم بسبيله ، كما أحس العرب فيما هو من أمرهم ، اذ كان أبلغ البلاغة فى الشعر العبرانى القديم أن تجتمع له : رشاقة العبارة ، وحسن المعرض ، ووضوح اللفظ ، وفصاحة التركيب ، وابانة المعنى ، وتكرار الكلام لكل ما يفيده التكرار توكيدا ومبالغة وابانة وتحقيقا ونحوها — ثم استعمال الترادف فى اللفظ والمعنى ، ومقابلة الاضداد وغيرها ، مما هو فى نفسه تكرار آخر للمحسنات اللفظية ، وتحسين للتكرار المعنوى »(١) .

فالرافعى — كما نرى — يعد التكرار من أخص وجوه البلاغة القرآنية ، ويوافق الجاحظ على السبب العام لوجوده فى القرآن الكريم ، فالجاحظ يرى أنه استعمل كثيرا مع بنى اسرائيل لقلة فهمهم ، والرافعى يرى كذلك أنه كثر استعماله معهم ، لكن لا لقلة فهمهم كما قرر الجاحظ ، بل لأنه لون من الوان أدبهم ، وضرب من ضروب بلاغتهم ، وقد كان فيهم البلغاء والخطباء والشعراء ، بل ان تهمة النبى صلى الله عليه وسلم بأنه شاعر لم تكن ابتداء الا من قبل بعض اليهود ، ثم تعلق بها بعض العرب مكابرة .

فالرافعى اذن لا يخالف الجاحظ فيما قرره من وجود التكرار فى الآيات التى خوطب بها بنو اسرائيل ، ولكن يخالفه فى التعليل لذلك ، فالجاحظ يرده الى قلة أفهامهم والرافعى يعلل كما رأينا بأن القرآن خاطبهم بما يعرفون ، فالتكرار ضرب من ضروب بلاغتهم ، ولون من الوان أدبهم ، ولم يكونوا من الغفلة والسذاجة كما يظن ، وان فيهم لمتكلمين ، وان منهم لشعراء ، والخطاب فى القرآن كله يسمعه العرب واليهود جميعا ، فلا هؤلاء ينكرون من أمره ولا أولئك .

واضح أن الرافعى لم يخص الأدب العبرانى بظاهرة التكرار ، بل انه يرى أن التكرار كان من بعض ألوانه ، وقد خاطبهم القرآن بما يعرفون ، ومن هنا فلم يكن المرحوم (أمين الخولى) موفقا حينما فهم أن الرافعى قد اختص الأدب العبرانى بظاهرة التكرار ونفاه عن العرب(٢) .

---

(١) المرجع السابق ص٢٢٦ .

(٢) أنظر : مناهج تجديد فى النحو والبلاغة والتفسير والأدب : أمين الخولى ص٢١٠ .

فلم يكن يقصد الرافعى ذلك كما رأينا ، بل انه أراد أن القرآن خاطب اليهود بما يعرفونه فى لغتهم ، وما يدور فى أدبهم ، وكان من ذلك : التكرار .

وواضح كذلك أن الرافعى لم يقصد أن فى القرآن كثيرا ولا قليلا من الأدب العبرانى ، وانما يقصد أن القرآن خاطبهم بما يعرفون ، وتلك هى البلاغة .

كما لم يقصد الرافعى أن فى القرآن شـيئا غير عربى كما فهم ذلك الدكتور (عبد الغنى الراجحى)(١) ، بل انه يرى أن القرآن كتـاب معجز للبشر جميعا ، وأن الله قد أدار الخطاب فيه على سياسة النفوس البشرية فمن أى وجه قلبته ، وفى أى مجتمع قرأته وجدت اقرارا بالاعجاز .

وجاءت مناقشـة الرافعى للجـاحظ حول ظاهرة التكرار فى غاية الوضوح ، ولم يكن بها شىء من الغموض والاضطراب كما ذهب الى ذلك الدكتور (صلاح الين محمد عبد التواب) اذ اتهم الرافعى بأنه كان مضطربا فى كلامه ، ومهتزا فى حكمه ، فلقد رينا الرافعى يوافق الجاحظ فى السر العام ، لكنه يخالفه فى التعليل ، كما تابع الدكتور (صلاح الدن عبد التواب) الدكتور (عبـد الغنى الراجحى) فيما أخـذه على الرافعى بورود كثير من الأدب العبرانى فى القرآن الكريم الذى أنزله الله بلسان عربى مبين(٢) .

ولقد وضحنا فيما سبق أن الرافعى لم يقصد ذلك ، بل انه يريد أن من بلاغة القرآن أنه كان يخاطب النفوس بما تعرف ، ولـما كان التكرار ملحوظا فى الأدب العبرانى ولونا من ألوانه فقد ورد أسلوب القرآن عليه ، ولا يعنى هـذا أن التكرار واحد فى الأسلوبين ، فنحن نعرف أن فى القرآن كثيرا من الكلمات الأعجمية ، وكثيرا من حكايات العجم وأقوالهم ، ولكنها لم تجىء فى القرآن الكريم الا بعد أن هذبت ونقيت ، وأزيل ما بها من اضطراب وتنافر ، وأصبحت جزءا من النظم القرآنى .

---

(١) أنظر : متشـابه النظم فى قصص القرآن الكريم د . عبد الغنى الراجحى ص١٠ وما بعدها رسالة دكتوراه بكلية أصول الدين .

(٢) أنظر : الدراسات الأدبية حول الاعجاز القرآنى قديما وحديثا د . صلاح الدين عبد التواب ص٤٠ وما بعدها . رسالة دكتوراه بكلية اللغـة العربيـة .

بهــذا أكد لنا الرافعى أن التكرار لم يكن فى القرآن عبثا ، وانما كان لاقتضاء الحال ، واستلزام المقام له ، كما أنه وجه بارز وعنصر أصــيل فى البلاغة القرآنية .

من بلاغة التكرار فى القرآن الكريم :

وكاد حــديث الرافعى عن مكانة التكرار من البلاغة القرآنية يكون نظريا صرفا ، لولا ما عثرنا له على مثال واحد يؤكد فيه بلاغة التكرار فى القرآن الكريم وذلك فى رسالة له الى صديقه أبى رية ، اذ كان « أبو رية » قد أرسل اليه يستفسره عن تناقض بن الأثير حيث يعد السجع المترادف فى المعنى الواحد عيبا من عيوب البلاغة ، ، ولمــا سئل عن قول الله عز وجل : « وكان رسولا نبيا » والرسول لا يكون الا نبيا رجع فقال : « ان ايراد لفظتين فى آخر احــدى الفقرتين بمعنى واحد لا بأس به لمكان طلب السجع ، ولمــا كان الذين يدافعون عن بلاغة القرآن يقولون : انه لا توجد فيه لفظة زائدة ولا كلمة جاءت بمعنى ما قبلها ، فقد أسرع الاستاذ : أبو رية الى صاحب اعجاز القرآن يسأله عن ذلك فيجيبه الرافعى قائلا : « أما ذكر الرسول والنبى معا فى الآيتين فأقرب ما يظن من الحكمة فى ذلك انه تأكيد لشرف الموصوف واختصاصه له بالذكر لصــفات مميزة ، ولهــذا جاءت العبارة معطوفة على صــفة ســابقة « كان صادق الوعد وكان رســولا نبيا » وقــد كان يتوجه الانتقــاد حقيقة لو لم يكن هــذا التنوين فى لفظ « رسول » ولكن التنوين أضعف معنى الكلمة ، والمراد من الســياق : أن يكون المعنى قويا بالغا فى الوصف فوجب أن يدل على كمال الموصوف بكمال المعنى وليس فى مذاهب التعبير عن هــذا الكمال أدل ولا أبين من لفظ النبى فجاء به نكرة لذلك ، وترك العطف فيه ليعلم أن المقصود هو اتمام المعنى ، لأن لفظ الرســول متضمن معنى النبوة ، فذكر النبوة بعده على الوجه الذى فى الآية يدل على أن المراد التوكيد فى الصــفة ، ومن المعلوم أن التكرار يفيد التوكيد وله مواضع مبينة فى البلاغة لو ترك فيها لخرجت العبارة ضعيفة أو ناقصــة لو كان لفظ الآية : « وكان رسولا من الرسل » أو كان الرسول النبى أو « كان رسولا ونبيا » لسقطت العبارة عن درجة الاعجــاز ولجاز

انتقادها ، ولكن هـذا التنوين فى هـذا السياق هو الحكمـة كلها ..
ولا يمكن أن تكون لفظة النبى جاءت فى الآية للسجع ، لأنها وان وافقت ذلك ،
ولكنها تكررت فى الآية الاخرى ومع ذلك لم يعبها تكرارها ، لأن سـياق
الوصف اقتضاها ، وما اقتضاه السـياق فهو الطبعى لأنه من بنية الكلام ،
بخلاف ما اذا سجع الكاتب فجاء بكلمة لا يراد منها الا السجع وبعد سطر
أو سطرين كرر السجعة نفسـها لغرض السـجع أيضا فانها تجىء أبرد
كلام وأسـخفه »(١) .

ولعلنا نلحظ ما فى تحليل الرافعى السابق من عمق وبعد وفلسـفة
وغوص على استخراج الأسرار وابراز النفائس ، وهل يزيد البلاغيون فى
تعريفهم للبلاغة شيئا عن قول الرافعى السابق « وما اقتضاه السـياق فهو
الطبعى لأنه من بنية الكلام » ؟

ولقد حظى موضوع التكرار بجهود البلاغيين والنقاد قديما وحديثا ،
وما من مؤلف فى البلاغة الا قد تناول شرح بلاغة التكرار وسر روعته فى القرآن
الكريم .

فقد ناقشـه الخطابى وبين أن التكرار بلاغة ، وأن تركه فى الموضع
الذى يتطلبه المقام اخلال بمقاييس البلاغة(٢) ..

واذا كان كلام الخطابى عن بلاغة التكرار قد كان على سبيل العموم
من غير تفصـيل بين التكرار فى القصص القرآنى وبينه فى كثير من الآيات
التى تكرر ذكرها فان « القاضى عبد الجبار » قد وقف عند التكرار فى القصص
القرآنى ، ورد طعن الطاعنين بسببه ، وبين أنه من الوجوه التى تجلت فيها
براعة القرآن وظهر فيها اعجازه ، كما بين أن هـذا التكرار كان تسلية
للرسول صلى الله عليه وسلم وتثبيتا لفؤاده على مدى ثلاث وعشرين سنة
هى مدة نزول القرآن ، كما بين أن التكرار المعيب هو ما يكون فى الوطن
الواحد ، فأما اذا تعددت مواطنه فانه بلاغة(٣) .

---

(١) من رسائل الرافعى : محمود أبو رية ص٥٥ وما بعـدها ٢٦٣
وما بعـدها .
(٢) أنظر : بيان اعجاز القرآن للخطابى ص٥٢ .
(٣) أنظر : المغنى ٣٩٧/١٦ وما بعدها ، ت : أمين الخولى .

والشريف الرضى يقرر كذلك ان ما يتوهم انه تكرير فى القرآن فليس بتكرير وانما هو من مقتضيات المقام ومن مستلزمات الحال(١) .

والشريف المرتضى كذلك يتحدث عن بلاغة التكرار فى السور التى يظهر فيها التكرار ظهورا بينا كسورة الرحمن والمرسلات والكافرين(٢) . ويعرض لبيان بعض الأسرار البلاغية التى تكمن وراء اختلاف التعبير وتنوع الاسلوب فى القصة الواحدة ، كعصا موسى عليه السلام التى عبر عنها فى موضع بأنها انقلبت ثعبانا وفى موضع آخر بأنها تحولت الى جان وما يتوهم من التناقض فى ذلك ، ووضح « الشريف المرتضى » أن ذلك الاختلاف ناشىء عن تنوع الغرض واختلاف المقام(٣) .

كما نهج الزمخشرى نهجا موضوعيا تطبيقيا فى شرح الاسرار البلاغية للتكرير فى سور القرآن الكريم ، وهو منهج يقوم على التحليل النفسى والتعمق فى كشف الاسرار البلاغية التى وجد هذا التكرار بسببها فى كلام الله عز وجل وفى القصص التى ساقها ،اذ يرى أن فى التكرير تقريرا للمعانى فى الأنفس وتثبيتا لها فى الصدور(٤) .

كذلك عرض له السكاكى وضياء الدين بن الاثير(٥) ويحيى بن حمزة العلوى والسيوطى واحمد بن فارس فى كتابه (الصاحبى) فى فقه اللغة(٦) ، وكلهم يتفق على بلاغة ما جاء فى القرآن الكريم من آياته وقصصه مكررا فى اكثر من موطن ومرددا فى أكثر من موضع ، وأنه ما من حرف تكرر ذكره الا كان ذلك التكرار لفائدة .

---

(١) انظر : حقائق التأويل فى متشابه التنزيل . الشريف الرضى ٨٢/٥ ط . بغداد .

(٢) انظر : الامالى : للشريف المرتضى ١٢٠/١ وما بعدها ط . أولى .

(٣) المرجع السابق : ص٢٥ .

(٤) انظر : الكشاف : ٤٩/٤ ، والنظم القرآنى فى كشاف الزمخشرى د . درويش الجندى ص٢ والبحث البلاغى فى تفسير الكشاف د . محمد أبو موسى ص٢٥١ .

(٥) انظر : الصبغ البديعى فى اللغة العربية د . احمد موسى ص١٩٧ ، ١٩٨ .

(٦) الصاحبى فى فقه اللغة : احمد بن فارس ص١٧٧ .

كما حظيت هـــذه الظاهرة باهتمام المعاصرين ، فأفاضوا فى الحديث عن أسرار هـــذا التكرار على امتداد القصص القرآنى جميعه ، متأثرين فى ذلك بالدراسات الحديثة ، فى علوم النفس والاجتماع ، وعلى ضوء ما انتهت اليه الدراسات فى مجال القصـــة حديثا ، وينتهون جميعا الى تقرير ما أثبته البلاغيون والنقاد القدامى من قيمة هـــذا التكرار وأثره فى احداث الاعجاز للقصص القرآنى(١) .

وبعد : فاذا كان الرافعى لم يعد الوجه القصصى ضمن الأوجه التى يعتبرها مناط الاعجاز ، فانه قد تحدث عن بلاغة التكرار فى قصص القرآن وآياته ، ورد طعن الطاعنين والملحدين من هـــذه الجهة ، وبين أن التكرار فى القرآن من محاسنه ومن أظهر وجوه بلاغته .

وقد تبين لنا أن معظم كلام الرافعى حول هـــذه الظاهرة جاء نظريا وعلى سبيل العموم غير مؤكد بأمثلة من قصص القرآن وآياته الا ما كان من كلامه الى أبى رية حول قول الله عز وجل : « وكان رسولا نبيا » .

كما تبين لنا كذلك أن الرافعى لم يأت بجديد فى تأكيده بلاغة التكرار ، حيث اتفق علماء البلاغة قديما على قيمة التكرار ومكانته فى القرآن الكريم .

وجاء المعاصرون أيضا فأكدوا ما أكده الســـابقون من أن التكرار فى قصص القرآن وآياته من محاسنه ومن أبرز وجوه البلاغة فيه ، ولم يكن ميدانا للطعن ومجالا للافتراء كما يزعم المغرضون ، ويفترى الحاقدون .

---

(١) انظر : مناهج تجديد فى النحو والبلاغة والتفسير والأدب : أمين الخولى ص٢١١ ط . أولى ، والفن القصصى فى القرآن الكريم د محمد أحمد خلف الله ص٣٢ ، والتصوير الفنى فى القرآن : سيد قطب ص١٢ وما بعدها ط . ثالثة ، ومتنوعات : د . محمد كامل حسين ص١٩ وما بعدها ط . ثانية واعجاز القرآن لعبد الكريم الخطيب : ٣٥٦/١ وما بعدها ط . أولى والتفسير العلمى للآيات الكونية فى القرآن : حنفى أحمد ص٢٦ ، ومن بلاغة القرآن د . أحمد بدوى ص١٤٣ وما بعدها . ومتشـــابه النظم فى قصص القرآن الكريم د . عبد الغنى الراجحى ص٤ وما بعـــدها .

الباب الثالث

الرافعى والاعجاز

الرافعى والاعجاز

لاعجاز القرآن عند الرافعى أكثر من وجه ، فهو لا يجعل الاعجاز فى وجه بعينه ، ولا يراه فى جانب محدد ، بل يرده الى جوانب متنوعة ويجعله فى وجوه متعـــددة .

ولقد شاهدناه يثنى على رأى من يرون الاعجاز فى وجوه متعددة عند سرده راء العلماء فى الاعجاز كقوله : « وجماعة يذهبون الى أن الاعجـــاز مجتمع من بعض الوجوه التىذكرناها كثرة أو قلة ، وهـــذا الرأى حسن فى ذاته ، لا لأنه الصواب ، ولكن لأنه يدل على أن كل وجه من تلك الوجوه ليس فى نفســـه الوجه المتقبل »(١) .

وهـــذه الجوانب التى يتمثل فيها اعجاز القرآن عند الرافعى هى :

١ ـــ الجـــانب البلاغى .
٢ ـــ الجـــانب العلمى .
٣ ـــ الجـــانب اللغـــوى والأدبى .
٤ ـــ الجـــانب النفسى .
٥ ـــ الجـــانب الأســـلوبى .

ولكن ليست هـــذه الجوانب على درجة واحدة ، بل ان ابرزها عنده فىتحقيق الاعجاز هو : الجانب البلاغى ، الذى يعـــده الوجه الأســـاسى والأصيل فى اعجاز القرآن ، ولذلك اختصه بمزيد من العناية .

ولسوف نرجىء الحديث عما ذكره الرافعى عن هـــذا الجانب الذى يعد عمود البحث الى أن نتبين موقفه من الجوانب التـــالية .

---

(١) اعجاز القرآن للرافعى ص١٦٦ .

الفصـــل الأول

الرافعى والإعجاز العلمى

القرآن أصـــل العـــلوم :

لقد عد الرافعى الجانب العلمى من أوجه الاعجاز القرآنى ، وحديثه عن هـــذا الوجه من الاعجاز دار حول ناحيتين :

الأولى : ما فى القرآن من دعوة الى تحريك الفكر والنظر فى الكون والتبصر فى ملكوت الله وحثه على الانتفاع بما فى القرآن من علوم ومعارف مما تمخض عنه هـــذا الجمر الغفير من المؤلفات فى شتى أرجاء المعرفة وسائر صـــنوف الثقـــافة .

هـــذه المعرفة وتلك الثقافة التى غيرت وجه العالم وكانت أصل النهضة الاسلامية التى قام عليها التاريخ العلمى فى أوربا كما ينبه الرافعى على ذلك فى قوله : « فما من موضع فى هـــذا الاساس الا أنت واجد من دونه قطعة من الآداب الاسلامية أو العقول الاســـلامية أو الحضـــارة الاســـلامية ، فالقرآن من هـــذا الوجه انما هو الباب الذى خرج منه العقل الانســـانى المسترحل بعد أن قطع الدهر فى طفولة وشـــباب »(١) .

كما يذكر الرافعى أن المسلمين عكفوا حول القرآن يبحثون ويدرسون ويســـتنبطون ويؤلفون ، فكان القراء والنحـــاة والمفسرون والأصـــوليون والفقهاء والمؤرخون والوعاظ والفلكيون والبلاغيون(٢) .

ويعلل الرافعى ويفسر السر فى اتخاذ المسلمين القرآن مرجعا لهم فى كل ما كتبوا وما يكتبون ، بأنه ما من علم الا قد نظر أهله فى القرآن وأخذوا منه مادة علمهم أو مادة الحياة له فيقول ما نصـــه : « فقد كانت ســـطوة الناس فى الأجيال الأولى من العامة وأشباه العامة شديدة على أهل العلوم النظرية ، الا أن يجعلوا بينها وبين القرآن نسبا من التأويل والاستشهاد ، أو يبتغوا بها مقصـــدا من مقاصـــده ، أو يريغوا معنى من معانى التفقه

---

(١) اعجاز القرآن للرافعى ص١٢٧ ط . ثامنة .
(٢) أنظر : المرجع السابق ص١٢٧ وما بعدها .

فى الدين ، والنظر فى آثار الله الى ما يشبه ذلك مما يكون فى نفسه صلة طبيعية بين أهل العقول والبحث واهل القلوب والتسليم ، وما يزال أثر ذلك ظاهرا فى فواتح الكتب العلمية لذلك العهد ، فما تستفتح من كتاب الا أصبت فى مقدمته غرضا من تلك الأغراض التى أشرنا اليها ، أو ما يصلح أن يكون غرضا منها ، ثم هو أمر ليس أدل على تحقيقه من كتب التفسير ، فانه لا يعرف فى تاريخ العالم كله من لدن أرخ الناس كتاب بلغت عليه الشروح والتفاسير والأقوال والمصنفات المختلفة ما بلغ من ذلك على القرآن الكريم ولا شبيها به ولا قريبا منه »(١) .

ولقد تبين أن الرافعى مسبوق بهذا ، وأنه يردد فيما تقدم كلام السابقين ، فقد تحدث « ابن النديم » فى « الفهرست » عن الكتب التى ألفت حول القرآن فى التفسير ومعانى القرآن وشكله ومجازه وغريب القرآن ولغاته ، وقراءاته والنقط والشكل والوقف والابتداء واختلاف المصاحف وفيما اتفقت ألفاظه ومعانيه فى القرآن ، والكتب المؤلفة فى متشابه القرآن وهجاء المصاحف ومقطوع القرآن وموصوله وأجزاء القرآن وفضائل القرآن وناسخ القرآن ومنسوخه ، وما ألف فى نزول القرآن وأحكامه والتى ألفت فى معان شتى من القرآن(٢) .

والرافعى نفسه نراه يعترف بأنه يردد فى ذلك كلام السابقين ، فقد صرح بحديث صاحب « كشف الظنون » حول هذا وان لم يشر الى صاحب الفهرست فيقول : « وهذه كتب التفسير التى عدها صاحب (كشف الظنون) وسرد أسماءها فى كتابه تبلغ ثلاثمائة ونيفا ، والرجل انما عد بعضها كما يقول ، وأنت فلا يذهبن عنك أن كل كتاب منها فانما هو فى المجلدات الكثيرة الى مائة مجلد ، والى ما يفوت المائة أحيانا ، فقد رأينا فى بعض كتب التراجم أن « أبا بكر الأدفوى » المتوفى سنة ٣٨٨ هـ صنف كتاب « الاستغناء » فى تفسير القرآن فى مائة مجلد وكان منفردا فى عصره بالامامة

(١) المرجع السابق ص١٠٦ وما بعدها .
(٢) انظر : الفهرست : ابن النديم ص٣٤ وما بعدها ط . التجارية .

في انواع من القراءات والعربية وفنون كثيرة من العلم ، وذكر الفيلسوف « ارنست رنان » انه وقف على ثبت يدل على انه قد كان فى احدى مكاتب الاندلس التى أحرقت تفسير القرآن فى ثلاثمائة مجلد — وذكر الشعرانى فى كتابه (السنن) تفسيرا قال : انه فى ألف مجلد ، وهذا كله غير ما افرد بالتصنيف من الكتب والرسائل التى لا تحصى فى مسائل من القرآن وفى مشكله وغريبه ومجازه ومعانيه وضميره وشواهده وأسلوب نظمه والمتشابه من آياته وأمثاله وحروفه واعرابه وأسمائه وأعلامه وناسخه ومنسوخه وأسباب نزوله — الى كثير من مثل ذلك مما حفيت فيه أقلام العلماء بحيث لا يعلم الا الله وحده كم يبلغ ما وضع لخدمة كتابه الكريم ، ولا يعلم الناس من ذلك الا أنه معجزة من معجزات التاريخ العلمى فى الارض لم يتفق له فى ذلك شبيه من أول الدنيا الى اليوم ولن يتفق »(١) .

فالرافعى كما رأينا مسبوق بهذا الكلام ، وقد لاحظنا أنه يردد فيه ما ذكره كل من صاحب الفهرست وصاحب كشف الظنون الذى صرح باسمه واعترف بما أخذه منه .

كما أفاد الرافعى فى كلامه السابق من السيوطى ولم يصرح كذلك باسمه ولم يشر اليه وقد عرض السيوطى لهذا الجانب عند سرده أوجه الاعجاز وعد هذه العلوم الكثيرة التى ألفت حول القرآن واستنبطت منه من وجوه اعجازه(٢) .

وذكر « جرجى زيدان » فى « تاريخ آداب اللغة العربية » هذا الذى قرره الرافعى من أن القرآن أصل العلوم وأنها متفرعة منه قائلا : « ولا يكاد يخلو علم من تأثير القرآن عليه تأثيرا مباشرا أو غير مباشر ، لأنه قاعدة الدين والدنيا ، وبه يتأيد السلطان والخلافة ، وهو أول كتاب أخذوا فى قراءته وحفظه »(٣) .

---

(١) اعجاز القرآن للرافعى ص١٤١ .

(٢) أنظر : معترك الاقران فى اعجاز القرآن للسيوطى ص١٤ تحقيق : على البجاوى .

(٣) تاريخ آداب اللغة العربية : جرجى زيدان ٢/١٢ ت : د . شوقى ضيف .

الاعجـــاز العلمى بين الرافعى والعقـــاد :

ويقرر الرافعى فوق ما سبق أن القرآن الكريم هو أساس النهضة الاسلامية بعلومه التى حملها العرب والمسلمون معهم ونشروها فى كل بلد نزلوا به ، وعلى تلك العلوم قامت النهضـــة الأوربية ، وأنه لا يرتاب عاقل ممن يتدبرون تاريخ العلم الحديث ويستقصون فى أسباب نشأته أنه لو لم يكن القرآن الكريم لكان العالم غيرما هو فى كل ما يســـتطيل به ، وفى تقـــدمه وانبساط ظل العقل فيه ، وقيـــامه على أرجائه ، وفى نموه واســـتبحار عمـــرانه(١) .

وليس غريبـــا ما قرره الرافعى من قيام الحضـــارة الأوربية على أسس من حضارة الاسلام المســـتمدة من القرآن الكريم ، فالمنهج التجريبى الذى قامت عليه الحضـــارة الأوربية الحديثة بكل ما فيها من صناعة فى الطبيعة ، من اكتشـــافات فى الكيمياء ومن قوانين فلكية ومن اختراعات فى جميع المجـــالات المـــادية والحســـية ، وعلى أساس منه ستتطور هـــذه الحضـــارة وترقى وتتسع كما وكيفـــا الى ما شـــاء الله ، هـــذا المنهج الاستقرائى الذى يقوم على التجربة فيما يمكن أن يخضع للتجربة ، وعن طريق الملاحظة فيما لا يتأتى أن يخضع للتجربة للوصول الى الحـــكم عليها فى صـــورة من صورها حكما كليا منهج عربى أصيل ، هـــذا واعترافات العادلين والمنصفين من مفكرى الغرب بذلك لا يكاد يحصرها عد(٢) .

وعلى الرغم من وضوح أثر القرآن فى الحضارة الاسلامية ، واعتماد الحضارة الأوربية فى كثير من أسسها على الحضارة الاسلامية كما قرر الرافعى ، واعترف بذلك المنصـــفون من مفكرى الأوربيين ومؤرخيهم فان العقاد عليه رحمة الله يعد القول بذلك مجانبة للحق وبعدا عن الصـــواب متعللا بتأخر المسلمين ونهضـــة الأوربيين قائلا فى ذلك : « ومن الخطأ أن يقال : ان الأوربيين أخذوا من القرآن كل ما اخترعوه من السلاح الحديث ، لأن القرآن الكريم جاء فيه حثا للمسلمين : « وأعدوا لهم ما استطعتم من

---

(١) انظر : اعجاز القرآن للرافعى ص١٢٦ ط . ثامنة .

(٢) انظر : الاسلام والايمان د . عبد الحليم محمود ص٨٩ وما بعدها ط . ثانية .

قوة ومن رباط الخيل « فقد قال : ان المسلمين سمعوا هـذه الآيات مئات السنين فلم يخترعوا تلك الأسلحة ، وان الاوربيين لم يسمعوها فاخترعوها ، فهل الاسلام اذن لازم أو غير لازم ؟ وهل يضير الأوربيين أن يجهلوه ، أو ليس بضـائرهم أن يخترعوا ما اخترعوه ولم يتبعوه ؟ وخليق بأمثال هؤلاء المتعسفين أن يحسبوا من الصـديق الجاهل ، لأنهم يسـيئون من حيث يقـدرون الاحسـان ، ويحملون على عقيدة اسلامية وزر أنفسـهم وهم لا يشعرون ، كلا لا حاجة بالقرآن الكرم الى مثل هـذا الادعاء ، لأنه كتاب عقيدة يخاطب الضمير ولا يتضمن حكما من الاحكام يشل حركة العقل فى تفكيره ، أو يحول بينه وبين الاستزادة من العلوم ما استطاع حيثما استطاع ، وكل هـذا مكفول للمسـلم فى كتـابه ، كما لم يكفل قط فى كتاب من كتب الأديان ، فهو يجعل التفكير السليم والنظر الصحيح الى آيات خلقه وسيلة من وسائل الايمان بالله « أن فى خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السموات والارض ربنا ما خلقت هـذا باطلا سـبحانك فقنا عذاب النـار »(١)

ولا أدرى لمـاذا يقول العقاد بهـذا وهو يعلم يقينـا أنه لا يحتج بأحوال المسلمين فى أى عصر على الاسـلام ، وانما يحتج بالاسلام على المسلمين ، ولا يصـح بحال أن يتخذ من ضعف المسلمين وهزيمتهم ذريعة لضعف دينهم وتأخره ؟

لعل ذلك من البداهة بحيث لا يغيب عن فكر العقاد وفلسـفته ، وما نظن الا انه قصد بذلك أن يوهن كلام الرافعى حول هـذا المعنى ، وذلك فى اطار المعركة القرآنية بينهما حول « اعجاز القرآن » للرافعى ، وما كان من اعلان العقاد عن عدم اقتناعه بالمنهج الذى اقتفاه الرافعى فى تحليل البلاغة القرآنية ونشره ذلك فى جريدة البلاغ الاسبوعى ، وتم طبعه بعد ذلك فى : سـاعات بين الكتب مما كان سببا فى معركة حامية وحوار طويل بينهما صـورتها الصحف والمجلات التى كانت تصدر فى تلك الفترة ،

---

(١) الفلسـفة القرآنية : عباس محمود العقاد ص ١٢ .

وعادت على اللغة والأدب بأعظم العوائد ، وأفاد منها النقد افادة غير يسيرة[١] .

فمما لاشك فيه أن تأثير القرآن والاسلام على الحضارة الأوربية من الوضوح بمكان كما قرر الرافعى ، وقد أفاد الأوربيون من الحضارة الاسلامية عن طريق التقائهم بالمسلمين فى الحروب الصليبية وعن طريق الفتح العربى فى الأندلس[٢] .

هذا ولم تتفق كلمة الباحثين ودارسى الاعجاز على عد هذا الوجه من جوانب الاعجاز القرآنى ان كادوا يتفقون على كون القرآن أصلا تفرعت منه معظم العلوم ، فقد رأينا الرافعى يعده من أوجه الاعجاز القرآنى متفقا فى ذلك مع السيوطى : اذ جعل هذه العلوم الكثيرة التى الفت حول القرآن واستنبطت منه من وجوه اعجازه ومع القاضى عياض أيضا فى ذلك[٣] .

بينما يرفض بعض الباحثين عد ذلك من أوجه الاعجاز القرآنى بحجة أنه ليس متمثلا فى القرآن جميعه ، ووجه الاعجاز يجب أن يكون شاملا لا تخلو منه سورة من السور ومن هؤلاء : القاضى عبد الجبار ويحيى ابن حمزة العلوى[٤] .

ويقف الباحث مع الرافعى ومن يسلك مسلكه فى عد هذا الوجه من أوجه الاعجاز ويرى أن ذلك أنسب بأليق الآراء فى الاعجاز وهو : عدم حصره فى وجه بعينه أو جانب محدد ، كما أنه يناسب روح هذا العصر الذى يعد العلم أوضح سماته وأبرز ملامحه .

---

(١) أنظر : ساعات بين الكتب للعقاد ص٢٣ وما بعدها وجريدة البلاغ الاسبوعى الصادرة فى ١٠ ديسمبر سنة ١٩٢٦م .

(٢) أنظر : المحاضرات العامة للموسم الثقافى الثانى : سيد أبو المجد ص٧٨ وما بعدها .

(٣) أنظر : معترك الاقران فى اعجاز القرآن للسيوطى ص١٤ ت : على البجاوى ، والشفاء للقاضى عياض ١/١٨٠ وما بعدها ط . أخيرة .

(٤) أنظر : المغنى للقاضى عبد الجبار ١٦/٣٢٩ وما بعدها والطراز للعلوى ٣/٤٠٠ .

الآيات الكونيــة فى القرآن :

أما الشق الثانى من الاعجاز العلمى للقرآن عند الرافعى بعد الشق الماضى الذى تعلق بكون القرآن أصلا للعلوم فهو ما يتعلق بآيات القرآن الكونية ، وما للعلماء من نظريات فى ذلك ويرى الرافعى أن النظر فى القرآن من هــذه الجهة والربط بين الابتكارات والاكتشافات العلمية وبين اشارات القرآن ما يقوى الايمان ويوثق العقيدة فيقول : « وقد استخرج بعض علمائنا من القرآن ما يشير الى مســتحدثات الاختراع وما يحقق بعض غوامض العلوم الطبيعية على أن هــذا ومثله انما يكون فيه اشارة ولمحة ، ولعل متحققا بهــذه العلوم الحــديثة لو تدبر القرآن واحــكم النظر فيه وكان بحيث لا تعوزه أداة الفهم — ولا يلتوى عليه أمر من أمره ، لاستخرج منه اشارات كثيرة تومىء الى حقائق العلوم .. وان فى هــذه العلوم الحديثة على اختلافها لعونا على تفسير بعض معانى القرآن والكشف عن حقائقه .. ولا جرم أن هــذه العلوم ستدفع بعد تمحيصها واتصال آثارها الصحيحة بالنفوس الانســـانية الى غاية واحدة ، وهى تحقيق الاسلام وأنه الحق الذى لامريه فيه — وأنه فطرة الله التى فطر النـــاس عليها وأنه لذلك هو الدين الطبيعى للانســـانية وسيكون العقل الانسانى آخر نبى فى الارض — لأن الذى جاء بالقرآن كان آخر الأنبياء من الناس ، اذ جاءهم بهــذا الدين الكامل ولا حاجة بالكمال الانسانى لغير العقول ينبه اليه بعضها بعضا ومن لا يجب داعى الله فليس بمعجز فى الارض — وقد أشار القرآن الى نشأة هــذه العلوم وتمحيصها وغايتها .. وذلك قوله تعالى : « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أو لم يكف بربك أنه على كل شىء شـــهيد » ولو جمعت أنواع العلوم الانســـانية كلها ما خرجت فى معانيها من قوله تعالى : « فى الآفاق وفى أنفسهم » هــذه آفاق وهــذه آفاق أخرى — فان لم يكن هــذا التعبير من الاعجاز الظاهر بداهة فليس يصح فى الافهام شىء »(١) .

---

(١) اعجاز القرآن : للرافعى ص١٤٢ ، ١٤٣ ط . ثامنة .

ثم يذكر الرافعى أن تعدد التفاسير واختلاف الآراء فى تحديد المراد من قول الله عز وجل مما دخل فى هـذا الجانب من الاعجاز وأنه أذان من الله بمواصلة البحث ومتابعة التنقيب والدراسة فيقول : « وان من أدلة اعجاز هـذا الكتاب الكريم أن يخطىء النـاس فى بعض تفسـيره على اختلاف العصـور — بضعف وسـائلهم العلمية ولقصر حبالهم أن تعلق بأطراف السـماء أو تحيط بالارض ثم تصب الطبيعة نفسـها فى كشف معانيه ، فكلما تقدم النظر وجمعت العلوم — ونازعت الى الكشف والاختراع واستكملت آلات البحث ، ظهرت حقائق الطبيعة ناصـعة حتى كأنه غاية لا يزال عقل الانسان يتطلع اليها ، حتى كأن تلك الآلات حينما توجه لآيات السماء والارض توجه لآيات القرآن أيضا (والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون) ذلك هو الامر فى العلوم الأولى ، ثم الله ينشىء النشأة الآخرة .. ثم ان فى ذكر الآيات الكونية والعلمية فى القرآن دليلا على اعجاز آخر ، فهو بذلك يومىء الى أن الزمن متجه فى سيره الى الجهة العلمية القـائمة على البحث والدليل وأن الانسـانية ذاهبـة فى أرقى عصـورها الى هـذا المذهب ، وأن الدين سـيكون عقليا ، وأن العقل هو آخر أنبيـاء الارض فوجود ذلك فيه قبل ن يوجد ذلك فى الزمن بأربعة عشر قرنا شهادة ناطقة من الغيب لا يبقى عليها موضع شـبهة »(١) .

ويبين الرافعى السر فى عدم اهتمام السابقين بهـذا الجانب العلمى ، ومرورهم على هـذه الآيات الكونية فى القـرآن دون أن يجلوا أسرارها ويبرزوا اعجازها من هـذا الجانب بأنهم كانوا ينظرون اليها نظرة عقدية ، كما يعود الى فصلهم وتفرقتهم بين علوم الدين والدنيا ، وتفسـير الدعوة الى العلم بالعلم الدينى ، ومن قوله فى ذلك : « ولقد كانت معانى هـذه الآيات الشريفة منظورا اليها فيما مضى من جهة العقائد حسب ، ولم يكن أحد يستطيع أن يذهب فى تأويلها مذهبا يصدر فيه عن علم ، ولكن هـذه الحالة قد تغيرت الآن ، لأن الحكماء الذين بغوا فى العصرين الأخيرين قـد أبانوا بمباحثهم العلمية وما كشـفوه من الغوامض الدقيقة عن قـدرة

---

(١) اعجاز القرآن : للرافعى ص١٤٤ وما بعدها .

الله بأحلى بيان ، حتى أصبحت نظريات علم التكوين صالحة لتفسير آيات الله سبحانه وتعالى تفسيرا بديعا مع أنها فى حالتها الراهنة لم تبلغ حد الكمال »(١) .

فالرافعى يرى كما سبق أن هذه النظرة العقدية للمسلمين الأوائل وفصلهم بين علوم الدين والحياة حرمت الاسلام من خير كثير . ومنعت المسلمين من الافادة بعلوم الحياة فى فهم نصوص القرآن .

ومما لاشك فيه أن حديث القرآن عن العلم يشمل علوم الدين وعلوم الدنيا التى تنتهى بنا الى الايمان الصادق ، فكلما تمكنا من سبل البحث وتوافرت لدينا الوسائل العلمية الكافية ازداد فهمنا لكلام الله وادراكنا لمراده ، والعلم الذى يشيد به القرآن ويدعو اليه ، هو العلم بمفهومه الشامل الذى ينتظم كل ما يتصل بالحياة ، ولا يقتصر على علم الشريعة ، أو العلم الدينى كما يتبادر الى بعض الأذهان أو ما ذاع فى عهود التخلف عن القرآن(٢) .

الرافعى والتفسير العلمى :

ويدعو الرافعى الى أن يفسر القرآن علميا ، اذ يرى أن دعوة القرآن الى النظر فى الكون والتأمل فى مخلوقات الله ، والاستهداء بنظريات العلماء فى هذا الشأن ، والمطابقة بينها وبين نصوص القرآن مما يوثق الايمان ، ويجعله ناشئا عن اقتناع ، ومبنيا على أدلة وبراهين ، ومن قوله فى ذلك : « ان فى هذه العلوم الحديثة على اختلافها لعونا على تفسير بعض معانى القرآن والكشف عن حقائقه ، وان فيها لجماما ودربة لمن يتعاطى ذلك ، يحكم بها من الصواب ناحية ، ويحرز من الرأى جانبا ، وهى تفتق له الذهن ، وتؤاتيه بالمعرفة الصحيحة على ما يأخذ فيه ، وتخرج له البرهان وان كان فى طبقات الارض ، وتنزل عليه الحجة وان كانت فى طباق السماء ، ولا جرم

---

(١) المرجع السابق .

(٢) أنظر : قضية الايمان بين الفلسفة والعلم والقرآن : نديم الجسر ص٢١١ وما بعدها ومنهج القرآن فى التربية : محمد شديد ص١٣٨ وما بعدها .

ان هـذه العلوم ستدفع بعد تمحيصا واتصال آثارها الصحيحة بالنفوس الانسانية الى غاية واحدة ، وهى تحقيق الاسلام ، وأنه الحق الذى لا مرية فيه ، وأنه فطرة الله التى فطر الناس عليها ، وأنه لذلك هو الدين الطبيعى للانسانية ، وسيكون العقل الانسانى آخر نبى فى الارض ، لأن الذى جاء بالقرآن كان آخر الأنبياء من الناس ، اذ جاءهم بهذا الدين كامل ، ولا حاجة بالكمال الانسانى لغير العقول ينبه اليه بعضها بعضا ، ومن لا يجب داعى الله فليس بمعجز فى الارض .. ثم ان فى ذكر الآيات الكونية والعلمية فى القرن دليلا على اعجاز آخر ، فهو بذلك يومىء الى أن الزمن متجه فى سيره الى الجهة العلمية القائمة على البحث والدليل ، وان الانسانية ذاهبة فى أرقى عصورها الى هذا المذهب وان الدين سيكون عقليا ، وان العقل هو آخر أنبياء الأرض ، فوجود ذلك فيه قبل أن يوجد ذلك فى الزمن بأربعة عشر قرنا شهادة ناطقة من الغيب لا يبقى عليها موضع شبهة »(١) .

كما يوضح الرافعى ما جناه المسلمون من تفسير القرآن بهذه الطريقة فى قوله : « وقد أفدنا نحن معشر المسلمين فوائد عظيمة خاصة بنا ، لأن هذه المخترعات والمستحدثات وما أدت اليه من أدلة ونظريات قد جاءتنا ببرهان جديد على اعجاز القرآن الذى ندين الله عليه ، فقرت بذلك أعين المؤمنين ، وذلك من فضل الله علينا وعلى الناس .. وسيرجع الفلكيون موحدين اذا علموا أن الاسرار العلمية التى يحسبونها جديدة هى فى القرآن كما ظهرت لهم »(٢) .

والأمر كما قرر الرافعى : فانه بمقدار تعمق الانسان فى الجانب العلمى فى صدق واخلاص تكون خشيته لله تعالى : ذلك أنه يرى من نواميس الكون ، ومن الاتقاق فى الصنع ، ومن الحكمة فى التدبير ما يجعله ساجدا لمبدعه ومنشئه ، ولا سبيل الى معرفة الله عن طريق التأمل فى ذاته ، فان الوسائل الى ذلك معدومة وانما طريق التعرف على الله يبدأ من التأمل فى خلقه ، وعن طريق التفكير السليم فى الحياة والاحياء ، واستخلاص المعارف

(١) اعجاز القرآن للرافعى ص١٤٢ وما بعدها .
(٢) المرجع السابق ص١٤٨ .

القيمة الخارجة من الارض أو النازلة من السماء يمكننا أن ندرك طرفا من عظمة الخالق الأعلى ، وما ينبغى أن يوصف به من كمال ، وكلما ازدادت معرفتنا بمادة الوجوه وسره وانكشفت لنا آياته وخباياه أحسسنا أن عظمة المبدع الماجد فوق ما يطيقه وعينا المحدود وأن التحية التى تقدم لهذا الاله الجليل هى الاعتراف بأن مظاهر وجوده بهرت كما يبهر السنا المتألق عيون الناظرين(١) .

من التفسير العلمى :

ولم يستشهد الرافعى على جدوى هذه الطريقة العلمية فى التفسير الا بقدر محدود من آيات القرآن الكريم ، ويعتذر لذلك بأنه رأى أن الاكثار من ذكر الآيات مشروحة على هذه الطريقة سيؤدى الى مضاعفة حجم الكتاب ، ووعدنا بأنه سيوفى ذلك حقه فى الكتاب الذى توفى قبل اكماله وهو : أسرار الاعجاز .

وقد تبين لنا أن هذه المجموعة اليسيرة من الآيات التى قدمها الرافعى على الطريقة السابقة قد توزعت الى شطريق : الشطر الاول : آيات قد فسرت على الطريقل العلمية ، والشطر الثانى : آيات لم يؤخذ فى تفسيرها بتلك الطريقة ، وهو يقصد من ذلك أن يبين لنا قيمة الطريقة الاولى وأثرها فى ابراز المكنون من اسرار القرآن ومدى ما يفيده المسلمون من تفسير القرآن عليها .

فما ذكره الرافعى على الطريقة الاولى التى عنى فيها بالجانب العلمى : طريقة التصوير الشمسى بامساك الظل فى قوله تعالى : « ألم تر الى ربك كيف مد الظل ولو شاء لجعله ساكنا ثم جعلنا الشمس عليه دليلا » ويعلق الرافعى على هذه الآ بقوله : « فتأمل قوله : (ثم

---

(١) أنظر : الاسلام والايمان د . عبد الحليم محمود ص٨١ ط . ثانية والقرآن الكريم ومعه صفوة البيان لمعانى القرآن : حسنين مخلوف : ٤/١ ط . أولى ، والتفسير العلمى للآيات الكونية فى القرآن : حنفى أحمد ص٥ وحياة محمد د . محمد حسين هيكل ص٣٩٥ ط . ثامنة ونظرات فى القرآن محمد الغزالى ص١٣٤ ط . ثانية .

جعلنا الشمس) فان هـذه الحروف تكاد تنطق بأن هـذا الأمر سيكون لا محالة » ، ومنها كشفهم ان مادة الكون هى الأثير ، والله تعالى يقول فى بدء الخلق : « ثم استوى الى السماء وهى دخان » — ومنها ما حققوه من أن الارض انفتقت من النظام الشمسى ، والله تعالى يقول فى السموات والارض : « كانتا رتقا ففتقناهما » ومنها : ثبوت أنه لولا الجبال لاضطربت دورة الارض ، وذلك لقوله تعالى : « وألقى فى الارض رواسى أن تميد بكم » ومنها : تحقيق أن كل شىء حى فهو من المـاء ، وأن للجماد حياة قائمة بماء التبلور ، وذلك قوله تعالى : « وجعلنا من المـاء كل شىء حى » ومنها : ما كشـفوه من تلاقح النبات وأنه أزواج ، والله تعالى يقول : « فأخرجنا به ازواجا من نبات شتى » ويقول : «ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين»(١) .

ولم يذكر الرافعى من المجموعة الثانية التى لم تفسر على الطريقـة العلمية الا آية واحدة وصرح بأنه وقع على تفسيرها فى بعض كتب الحكيم العلامة داود الانطاكى المتوفى سنة ١٠٠٨هـ ، وهى قوله تعالى : « ولقـد خلقنا الانسان من سـلالة من طين ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما ثم انشأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين » .

ويعلق الرافعى على الآية بما يفيد اشتمالها على دقائق التركيب العلمى قائلا : « ولا تنس أن الآية انزلت على نبى أمى فى قوم لا يعرفون كثيرا ولا قليلا من علم التشريح أو علم التكوين ، ثم انها كذلك ليس فى صناعتها البيانية شىء مما تتحسن به البلاغة فيبين بنفسـه ، ويجعل للكلام شأنا فى تمييزه واستخراج معانيه ، كالاسـتعارة والكناية ونحوها ، ولكنها قائمة على دقائق التركيب العلمى والملاءمة كل الملاءمة بينها وبين دقائق التعبير ، ففيها اعجاز فى المعنى ، ثم اعجاز فى الصـورة ، مع أنها فى غرضها وسـياقها مظنة ألا يكون فيها من ذلك شىء ، اذ هى عبارة علمية تسرد سردا على التقرير والحكاية ، هـذا مما يسمو باعجازها سموا على حدة ، فانه يضـع فوق البلاغة ما تكون البلاغة فى العادة والطبيعة فوقه ، وكل ما هـذه سـبيله من الآيات العلمية فى القرآن الكريم فانت لابد واجد فيه من قوة

---

(١) اعجاز القرآن للرافعى ص١٤٢ .

المعانى اكثر مما فى العقل العربى من قوة الفهم وقوة التعبير ، لتكون قوة الدلالة فيه يوم تتهيأ للأمم وسائلها العلمية دليلا من اقوى ادلة الاعجاز »(١) .

وبعد أن يقدم الرافعى تفسير العلامة داود الانطاكى للآية الذى فتح عليه به وهو فى أضعف الازمنة واشدها انحطاطا وفقرا من الوسائل العلمية يدعو الى تفسيرها مرة ثانية بما توصل اليه علماء الوراثة والاجنة والتشريح فى هذا الشأن حتى نقف عمليا على اعجاز القرآن الكريم قائلا فى ذلك : « وانت لو عرضت الفاظ هذه الآية على ما انتهى اليه علماء تكوين الاجنة وعلماء التشريح وعلماء الوراثة النفسية لرايت فيها دقائق علومهم ، كأن هذه الالفاظ انما خرجت من هذه العلوم نفسها ، وكأن كل علم وضع فى الآية كلمته الصادقة ، فلا تملك بعد هذا أن تجد ختام الآية الا ما ختمت هى به من هذا التسبيح العظيم : « فتبارك الله »(٢) .

التفسير العلى بين الرافعى والمعاصرين :

واذا كان الرافعى قد رأى كما مضى أن المطابقة بين ما يتوصل اليه العلم الحديث من أسرار الكون وبين ما ورد فى القرآن اشارة وتلميحا بشأن ذلك مما يدعم العقيدة وانه من أوجه الاعجاز لقرآنى ، فان علماء المسلمين فى القديم والحديث لم يتفقوا على ذلك ، والحديث عن هذا الموضوع قديم ، وان أخذ صورة أوسع فى العصر الحديث نظرا لتقدم الابحاث العلمية وكثرة الاختراعات والاكتشافات .

وأبرز من عنى بهذا الراى وجعله مذهبا فى الاعجاز من المعاصرين الشيخ « طنطاوى جوهرى » فقد ملأ الدنيا رسائل وكتبا تصل بهذا الموضوع ، والاستاذ « فريد وجدى » فى دائرة المعارف وغيرها من الكتب العلمية ، كذلك ما كتبه الاستاذ « محمد احمد الغمراوى » عن : « سنن الله الكونية » والمرحوم الدكتور : « عبد العزيز باشا اسماعيل » عن : « الاسلام والطب الحديث » والعالم الرياضى الذى كان صدرا أعظم من صدور الدولة العثمانية وهو المرحوم : « احمد مختار باشا الغازى » فى

(١) المرجع السابق ص١٥٠ .
(٢) المرجع السابق ص١٥٥ .

« رياض المختار » وكتب ومؤلفات الاستاذ : « عبد الرازق نوفل » عن : « القرآن والعلم الحديث » و « الاسلام والعلم الحديث » وغيرها(١) .

وممن اهتم بهـذا الجانب وأولاه عناية كبيرة الامام : « محمد عبده » فقد اتجه بعد عودته من المنفى الى التقريب بين الاسلام وبين الحضارة الغربية ، واتخذ اتجاهه هـذا اشكالا مختلفة ، فظهر أحيانا فى صـورة مقالات او مشـاريع أو برامج تدعو الى ادخال العلوم العصرية فى الجامع الازهر ، وظهر تارة أخرى فى صـورة تفسير لنصوص الدين من قرآن أو حديث يخالف ما جرى عليه السـلف فى تفسـيرها ليقرب بها الى أقصى ما تحتمله ، بل الى اكثر مما تحتمله فى بعض الاحيان من قرب لقيم الغرب وتفكيره ، لكى يصل آخر الأمر الى أن الاسـلام يسـاير حضـارة الغرب ويتفق مع أساليب تفكيره ومذاهبه(٢) .

وهنـا فريق آخر يقف من هـذه الطريقة العلمية التى يدعو اليها الرافعى فى تفسير القرآن بحـذر وتحفظ بحجة أن القرآن ليس كتابا علميا ، وانه نزل ليثبت على وجه الدهر ، والنظريات العلمية من شأنها التغيير والتبـدل(٣) .

كما أخذ هـذا الفريق على الفريق الأول أنهم سلكوا هـذا المسلك الخطير وسمحوا لأنفسهم بالخوض فى كلام الله دون أن يعدوا العدة لذلك بالتفقه فى الدين والبصر بأسرار العربية(٤) .

كما أخذوا عليهم : المبالغة فى التأويل ، والتكلف فى التخريج ، وتحميل النصـوص القرآنية مالا تحتمله(٥) .

---

(١) أنظر : مقالات أهل الفرق وجمهرة المسلمين فى اعجاز القرآن : أحمد محمد الحجـار ص٩٤ .

(٢) أنظر : تفسير المنار : جـ١ ط . أولى والاتجاهات الوطنية فى الأدب المعاصر د . محمد محمد حسين ١/٣١٦ .

(٣) أنظر : الاديان فى القرآن لمحمود بن الشريف ص٢٥٦ وما بعدها .

(٤) أنظر : الاعجاز البيـانى للقرآن . د . بنت الشـاطىء ص٨٥ وما بعـدها .

(٥) أنظر : الفلسفة القرآنية : عباس محمود العقاد ص١٨٣ .

واني لأرى أن الرافعى على صواب فى عد الجانب العلمى من اعجاز القرآن ، وان دعوته الى التفسير العلمى تناسب روح هـذا العصر الذى نهضت فيه الاكتشافات وتطورت الابحاث العلمية ، كما أنه سبيل عملى وواقعى للوقوف على أسرار الاعجـاز ورسـوخ العقيدة .

وليس علينـا من حرج فى تفسير القرآن علميا بعد ان نعد أنفسـنا ونهيئها بالوسـائل اللازمة لذلك من : ثبات العقيدة والاحاطة بعلوم اللغة والفقه بأسرارها على أن نسـلك الاعتدال فيما نقرره فلا نتصادم مع قاعدة دينية أو مبدأ فقهى مشـهور .

الفصـــل الثـــانى

الرافعى والإعجاز اللغوى والأدبى

وهـــذا الوجه من أوجه اعجاز القرآن عند الرافعى ، ولا يفهم من ذلك أن الرافعى يفرق بين اللغة والبلاغة التى يعــدها الوجه الاســـاسى فى الاعجاز ، فالبلاغة عنده وثيقة الصلة بعلوم اللغة ، وهو يشترط ضرورة التعمق فى فهم اللغـــة والتفقه فى أسرارها لمن يعتزم التخصص فى البلاغة وما ســـاق الرافعى الى تخصيص وجه للاعجاز اللغوى الا لتمكنه من اللغة وبصره بأســـاليبها وفقهه بأصولها وأسرارها ، ولقد برز هـــذا التفوق اللغوى وظهر بوضوح فى معظم ما كتبه الرافعى ، ولاســـيما عن اعجاز القرآن ، ولقد كاد الرافعى يكون متهجا وحده فى الاعجاز لاهتمامه باللغة وتركيزه على فهم أسرارها فى القرآن الكريم .

ونراه ينوه بهـــذا الجانب فى مقدمة الطبعة الاولى من كتاب « اعجاز القرآن » فيقول « انا قد أفردنا هـــذا الجزء بالكلام فى اعجـــاز القرآن الكريم وفى البلاغة النبوية ، وقصرناه من ذلك على ما كان مرجع أمره الى اللغة فى وضـــعها ونســـقها والغاية منها ، الى ما يتصل بجهة من هـــذه الجهات ، أو يكون مبدأ فيها أو سببا عنها ، أو واسطة اليها ، وهـــذا هو فى الحقيقة وجه الاعجاز الغريب الذى اســـتبد بالروح اللغوية فى أولئك العرب الفصحاء فاشتملت به أنفسهم على خلق من العزيمة الحذاء دائبا لا يســـكن كأنه روح زلزلة فلم تزل من بعـــده ترجف بهم الارض حيث انتقـــلوا »(١) .

والربط بين البلاغة وعلوم اللغة نلمســـه بوضوح فى مقدمات كتب المتأخرين من البلاغيين ، فالخطيب « القزوينى » يلزم دارس البلاغة بضرورة تحصيل علوم اللغة والالمـــام بها ، فيقول فى نهاية المقدمة التى بدأ بها كتابه « الايضـاح » وقد علم بما ذكرنا أمران : أحدهما : أن كل بليغ ، كلاما كان أو متكلما ، فصيح وليس كل فصيح بليغا ، الثانى : أن البلاغة فى الكلام

---

(١) اعجاز القرآن للرافعى : مقدمة الطبعة الاولى ص٢١ .

مرجعها الى الاحتراز عن الخطأ فى تأدية المعنى المراد ، والى تمييز الكلام الفصـــيح من غيره ، والثانى : أعنى التمييز منه ما يتبين فى متن اللغة أو التصريف أو النحـــو أو يدرك بالحس وهو ماعـــدا التعقيـــد المعنوى ، وما يحترز به عن الاول ، أعنى الخطأ هو عـــلم المعانى ، ما يحترز به عن الثاى ، أعنى التعقيد المعنوى هو علم البيان ، وما يعرف به وجوه تحسين الكلام بعد رعاية تطبيقه على مقتضى الحال وفصاحته هو علم البديع »(١) .

فلابد من الاحاطة بعلوم اللغة والالمـــام بها لمن يتوفر على دراسة البلاغة حتى يفصح عما يدور فى خلده ويبين ما يعتلج فى صدره بلغة واضحة مفهومة .

والمتكلم اذا تكلم فانما اهتمامه بأن ينقل ما فى ضميره الى ذهن سامعه فهو محتاج قبل كل شىء الى معرفة اللغـــة التى يريد أن يخاطب بها من مفرداتها وكيفية تركيبها ، فاذا لم يعلم ذلك لم يكد كلامه أن يفهم ، وهـــذه المعرفة تحصل له من علم اللغة والنحو والصرف ، فان حاول تكلما بدون هـــذه المعرفة كان مثله كما قال الحطيئة فى الشـــعر : « يريد أن يعربه فيعجمه » ، ولكنه اذا علم اللغة والنحو والصرف فانما يستطيع أن يعبر عن حاصل المراد واصل المعنى ولا يستطيع أن يفصح عن تمام المراد(٢) .

فتمكن الرافعى من اللغة وبصره بأساليبها واحاطته بأصولها ووقوفه على أسرارها قد ســـاقه الى تخصيص وجه للاعجاز من الوجهة اللغوية ، مع تمام ادراكه بما بين اللغة والبلاغة التى جعلها الوجه الاساسى فى الاعجاز من صـــلة وثيقة واقتراب ملحوظ .

وأيضا كان حرصه على الأصل اللغوى فى الاعجاز ،والتزامه له ، وعنايته به ، لأنه كان آخذا نفسه بالكشف عن أسرار النظم الموسيقى فى القرآن ، هـــذا النظم الذى شبه الســـحر ، والذى ألف العرب على تعـــاديهم ، وكون منهم أمة واحدة تطرب للحن واحد تجتمع عليه قلوبها فى الارض ، بينما ترتفع به أرواحها فى الســـماء(٣) .

---

(١) بغية الايضـــاح : الخطيب القزوينى : ٣١/١ ، ٣٢ ت : عبد المتعال الصـــعيدى . (٢) انظر : موجز البلاغة : الطاهر بن عاشور ط . أولى .

(٣) انظر : مباحث فى علوم القرآن : د . صبحى الصالح ص٣١٩ ط . ســـادسة .

وفى حديث الرافعى عن هـــذا الوجه من اعجاز القرآن ، ذكر نشأة اللغة والحالة اللغوية للعرب قبل الاسلام ، وأنها كانت تمهيدا لاستقبال القرآن فقال : « بلغ العرب فى عقد القرآن مبلغا من الفصاحة لم عرف فى تاريخهم من قبل فان كل ما وراءه انما كان أدوارا من نشوء اللغة وتهذيبها وتنقيحها واطرادها على سنن الاجتماع ، فكانوا قد أطالوا الشـــعر وافتنوا فيه وتواقع عليه من شعرائهم أفراد معدودون كان كل واحد منهم كأنه عصر فى تاريخه بما زاد من محاسنه وابتدع من أغراضه ومعانيه ، وما نفض عليه من الصبغ والرونق ، ثم كان لهم من تهذيب اللغة واجتماعهم على نمط من القرشـــية يرونه مثالا لكمال الفطرة الممكن أن يكون ، وأخذهم فى هـــذا السمت ما جعل الكلمة نافذة فى أكثرها لا يصـــدها اختلاف من اللسان ، ولا يعترضها تناكر فى اللغة ، فقامت فيهم بذلك دولة الكلام ، ولكنها بقيت بلا ملك حتى جاءهم القرآن ، وكل من يبحث فى تاريخ العرب وآدابهم ، وينفذ الى ذلك من حيث تنفذ به الفطنة وتتأتى حكمة الأشياء فانه يرى كل ما سبق على القرآن من أمر الكلام العربى وتاريخه انما كان توطيدا وتهيئة لظهوره وتناهيا اليه ودربة لاصلاحهم به ، وليس فى الارض أمة كانت تربيتها لغوية غير أهل هـــذه الجزيرة . . . وأى شىء أعجب فى تاريخ الأمم من نشأة لغوية تنتهى بمعجزة لغوية ثم يكون الدين والعلم السياسة وسائر مقومات الامة مما تنطوى عليه هـــذه المعجزة وتأتى به على أكمل وجوهه وأحسنها وتخرج به للدهر خير أمة كان عملها فى الأمم صورة من تلك المعجزة »(١) .

كما تحدث الرافعى عن اللهجات العربيـــة التى كانت موجودة قبل القرآن ، وذكر ما ورد فى القرآن من تلك اللجهات ، وقرر أن القرآن قد انتقى من لهجات العرب أحسنها ، وتميز ما فيه عن لغات العرب ولهجاتهم بتركيبه البديع ونظمه الفريد ، ويقول فى ذلك : « ولمـــا كان الوجه الذى أقبل به القرآن على العرب وجه تلك البلاغة المعجزة ، فقد كان من اعجازه أن يأتيهم بأفصح ما تنتهى اليه لغات العرب جميعا ، وانما سبيل ذلك من

---

(١) اعجاز القرآن : للرافعى ص١٧٦ .

لغة قريش ، وهـــذه اللغات وان اختلفت فى اللحن والاســـتعمال الا انها تتفق فى المعنى الذى من أجله صار العرب جميعا يخشعون للفصـــاحة من اى قبيل جـــاءتهم ، وهـــذا المعنى هو مناســـبة التركيب فى أحرف الكلمة الواحدة ، ثم ملاءمتها للكلمة التى بازائها ، ثم اتساق الكلام كله على هـــذا الوجه حتى يكون كالنغم الذى يصب فى الأذن صبا ، فيجرى أضعفه فى النسق مجرى أقواه ، لأن جملته مفرغة على تناسب واحد ، وقـــد استوفى القرآن أحسن ما فى تلك اللغات من ذلك المعنى ، وبأن منها بهـــذه المناسبة العجيبة التى أظهرته على تنوعه فى الأوضاع التركيبية مظهر النوع الواحد ، وهى مناسبة معجزة فى نفسها ، لأن التأليف بين المواد المختلفة على وجه متناسب ممكن ، ولكن التأليف بينها على وجه يجمعها ويجمع الأذواق المختلفة عليها كما اتفق القرآن ، أمر لا يقول بامكانه من يعرف الامكان »(١) .

وسرد الرافعى اللغات التى نزل بها القرآن فقال : « أما اللغات التى نزل بها القرآن غير لغة قريش ، فهى لغة بنى ســـعد بن بكر الذين كان النبى صلى الله عليه وسلم مسترضعا فيهم ، وهى احدى لغات العجز من هوازن ، ثم سائر هـــذه اللغات وهى : جشم بن بكر ، ونصر بن معاوية ، وثقيف ، وتلك هى أفصح لغات العرب جملة ، ثم خزاعة ، وهذيل ، وكنانه ، وأسد ، وضبة ، وكانواعلىقرب من مكة يكثرون التردد اليها ومن بعدهم قيس وألفافها التى فى وسط الجزيرة »(٢) .

وحكى عن « الواسطى » أن فى القرآن من أربعين لغة عربية وهى : قريش وهـــذيل ، وكنانة ، وخثعم ، والخزرج ، وأشـــعر ، ونمير ، وقيس غيلان ، وجرهم واليمن ، وأزد شنوءة ، وتميم ، وكندة ، وحمير ، ومدين ، ولخم ، وســـعد العشيرة ، وحضرموت ، وسدوس ، والعمالقة ، وأنمار ، وغســـان ، ومذجح ، وخزاعة ، وغطفان ، وسبأ ، وعمان ، وبنو حنيفة ، وثعلب ، وطىء ، وعامر بن صعصعة ، وأوس ، ومزينة ، وثقيف ، وجذام ، وبلى ، وعذرة ، وهوازن ، والنمير ، واليمامة — وذكر الرافعى صعوبة

---

(١) المرجع الســـابق .

(٢) المرجع الســـابق ص٦٦ .

تحقيق ذلك : لدروس هـــذه اللغات وتداخلها وتقطع أسباب المقارنة بينها وبين لغة قريش التى مضوا على استعمالها بعد القرآن واطبقوا عليها[١] .

ويوضح الرافعى الطريقة التى سلكها القرآن الكريم فى الجمع بين تلك اللغات ، وما وجده العرب فى تلاوته من يسر وسهولة على الرغم من اختلاف لغاتهم فيقول : ولقد ائتلفت لغة القرآن الكريم على وجه يستطيع العرب أن يقرأوه بلحونهم وان اختلفت وتناقضت ، ثم بقى مع ذلك على فصاحته وخلوصه لأن هـــذه الفصـــاحة هى فى الوضع التركيبى .. وتلك ســـياسة لغوية اســـتدرج بها العرب الى الاجماع على منطق واحد ليكونوا جماعة واحدة كما وقع ذلك من بعد ، فجرت لغة القرآن على أحرف مختلفات فى منطق الكلام كتحقيق الهمز وتخفيفه ، والمد والقصر ، والفتح والامالة وما بينهما ، والاظهار والادغام ، وضم الهاء وكسرها من عليهم واليهم ، والحاق الواو فيهما وفى لفظتى : منهمو وعنهمو ، والحاق الياء فى اليه وعليه وفيـــه ، ونحو ذلك فكان أهل كل لحن يقرأونه بلحنهم ، وربما اســـتعمل القرآن الكلمة الواحدة على منطق أهل اللغات المختلفة فجاء بها على وجهين لمناسبة فى نظمه : كبراء وبرىء ، فان أهل الحجاز يقولون : أنك منك براء لا يعدونها ، وتميم وســـائر العرب يقولون : انا منك برىء ، واللغتان فى القرآن ، وكذلك قوله : « فأسر بأهلك » وقوله : « والليل اذا يسر » فان الأولى لغة قريش ، يقولون : سريت ، وهـــذا باب من اللغة لم يقع الينا مستقصى ولكن علماء الأدب ربما أشاروا الى بعض الفاظه فى كتبهم كما تصيب من ذلك فى الكامل للمبرد وغيره »[٢] .

ويذكر الرافعى من اعجاز القرآن اللغوى نزوله بلغة قريش ، ويبين أن نزوله عليها قد ألجم الملحدين وأفحم المغرضين واخرس المشككين فقال : « فالأصل فيمن نزل القرآن بلغتهم قريش .. وكان طبيعيا أن يكون القرآن بلغة قريش ، لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قريشى ، ثم ليكون هـــذا

---

(١) المرجع الســـابق .
(٢) اعجاز القرآن : الرافعى ص٦٣ .

الكلام زعيم اللغات كلها كما استمازت قريش من العرب بجوار البيت ، وسقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام ، وغيرها من خصائصهم ، وقد الف العرب أمرهم ذلك واحتملوا عليه وافردوهم به ، فلأن يألفوا مثله فى كلام الله أولى ، وهذه حكمة بالغة فى سياسة أولئك الجفاة وتألفهم وضم نشرهم ، فان هذا القرآن لو لم يكن بلسان قريش ما اجتمع له العرب البته ولو كانت بلاغته مما يميت ويحيى ، ثم كانوا لا يعدون فى اعتبارهم اياه أنه ضرب من تلك الضروب التى كانت لهم من خوارق العادات كالسحر والكهانة وما اليهما وهو الذى افترته قريش ليصرفوا به وجوه العرب ويميلوا رؤوسهم عن الاصغاء الى النبى صلى الله عليه وسلم ، فقالوا : ساحر وكاهن وشاعر ومجنون ، وتقولوا من أمثال ذلك يبتغون به أن يحدثوا فى قلوب الناس لهذا الأمر خفة الشأن .. وههنا أصل آخر : وهو أن القرآن لو نزل بغير ماألفهالنبى صلى الله عليه وسلم من اللغة القرشية وما اتصل بها كان ذلك مغمزا فيه ، اذ لا تستقيم لهم المقابلة حينئذ بين القرآن وأساليبه ، وبين ما يأثرونه من كلام النبى صلى الله عليه وسلم فيهون ذلك على قريش ، ثم على العرب ، فيجدون لكل قبيلة مذهبا من القول فيه فتنشق الكلمة ، ثم يصير الأمر من العصبية والمشاحنة والبغضاء الى حال لا يلتئم عليه ابدا ، ولو ان شاعرا من شعرائهم ظهر فيهم بدين خيالى واقامهم عليه لكان من الرجاء والاحتمال أن يستجيبوا له دون صاحب القرآن الذى ينزل عليه بلغة غير لغة قبيلته ، وانما وطأنا بهذا النبذ من القول لأن طائفة من الناس يذهبون الى أن القرآن لو هو قد نزل على النبى صلى الله عليه وسلم بغير القرشية لكان ذلك وجها من اعجازه يلتمس به الحجة ويستبين الظفر ، ولخلى عنه العرب فترة وعجزا ، وهو زعم لا يقول به الا احد رجلين : من يدرى كيف يقول ولا يبالى أن يدرى انك مطلع منه على جهل وسفه »(١) .

---

(١) اعجاز القرآن : الرافعى ص٦٣ .

الاعجـــاز فى القـــراءات :

ويعـــد الرافعى اختلاف القراءات وتعـــددها فى القرآن من جوانب اعجازه اللغوى ، ويرى أن هـــذا التعدد والاختلاف ليســـهل على العرب حفظه وفهمه بلهجاتهم المتغـــايرة ، وليتم للتركيب القرآنى روعة الايقـــاع وعذوبة النغم وجمال الانســـجام ، فيدرك العرب على اختلاف لغـــاتهم تلك الموسيقى القرآنية التى يختص بها النص القرآنى .

ويذكر الرافعى أقوال العلماء الواردة فى تفسير حديث الرسول صلى الله عليه وسلم بهـــذا الشأن فيقول : « وروى أهل الأثر حديثا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو قوله : « أنزل القرآن على سبعة أحرف ، لكل منها ظهر وبطن ، ولكل حرف حد ، ولكل حد مطلع » ، ثم اختلفوا فى تأويله وفى تفسير هـــذه الأحرف ، ولكن الأكثرين على أنها سبع لغـــات من لغات قريش والفافها من ظواهر مكة الى قيس وذلك قول لا تخرج عليه الا بعض ألفاظ الحديث ويبقى سائرها غير متجه ، وقال بعض العلماء : انى تدبرت الوجوه التى تختلف بها لغات العرب فوجدتها على سبعة أنحاء لا تزيد ولا تنقص ، وبجميع ذلك نزل القرآن : الوجه الأول : ابدال لفظ بلفظ كالحوت بالســـمك وبالعكس ، وكالعهن المنفوش ، قرأها ابن مسعود كالصـــوف المنفوش والثانى : ابدال حرف بحرف : كالتابوت والتابوه .. والثالث : تقديم وتأخير ، اما فى الكلمة نحو : سلب زيد ثوبه وسلب ثوب زيد ، وأما فى الحرف :أفلم ييئس وأفلم يأيس ،والرابع : زيادة حرف أو نقصانه ،نحو : ماليه وسلطانية ، فلا تك فى مرية ، والخامس : اختلاف حركات البناء ، نحو : فلا تحسبن (بفتح السين وكسرها) ، والسادس اختلاف الاعراب نحو : ما هـــذا بشرا وقرأ ابن مسعود بالرفع ، والسابع : التفخيم والامالة ، وهـــذا اختلاف فى اللحن والتزيين لا فى نفس اللغة ، والتفخيم أعلى وأشهر عند فصحاء العرب .. فهـــذه الوجوه الســـبعة التى اختلفت بها لغات العرب قد أنزل الله باختلافها القرآن متفرقا فيه ليعلم بذلك أن من زل عن ظاهر التلاوة بمثله ، أو من تعذر عليه ترك عادته (اللغوية) فخرج الى نحو مما قد نزل به فليس بملوم ولا معاقب عليه ، وكل هـــذا فيما اذا لم يختلف

فى المعـــانى ، وهو قول حسن يحمل به الحديث على معنى القراءات التى هى فى الأصل فروق لغوية ، وان كان بعض الأحرف قـد قرىء بسـبعة أوجه وبعشرة نحو : (مالك يوم الدين) و (عبد الطاغوت) »(١) .

ويتفق الرافعى مع هـذا الرأى فى أن ثمرة الاختلاف هى التوسعة والتيسير على القارئين ، وأن تخصيص العدد بسبعة لدلالة هـذا العدد على الكمال وخاصـة فيما يتعلق بالالهيات : كالسـموات ، والارضين السبع ، والسـبعة الأيام التى برئت فيها الخليقة وأبواب الجنة والجحيم ونحـوها(٢) .

ويوضـح الرافعى الأثر الذى يترب على اختلاف القراءات فى توفير الموسيقى لنظمه والانسـجام لتراكيبه ، مما سـهل حفظه وييسر فهمه فيقول : « نزل القرآن على رسول الله صلى الله عليه وسلم بأفصح ما تسمو اليه لغة العرب فى خصـائصها العجيبة ، وما تقوم به ، مما هو السبب فى جزالتها ودقة أوضـاعها واحكام نظمهـا واجتماعها من ذلك على تأليف صوتى يكاد يكون موسيقيا محضا فى التركيب ، والتناسب بين أجزاء الحروف والملاءمة بين طبيعة المعنى وطبيعة الصوت الذى يؤديه ... فكان مما لابد منه بالضرورة أن يكون القرآن أملك بهـذه الصـفات كلها ، وأن يكون ذلك التأليف اظهر الوجوه التى نزل عليها ، ثم أن تتعـدد فيـه مناحى هـذا التأليف تعددا يكافىء الفروع اللسـانية التى سبقت بها فطرة اللغة فى العرب ، حتى يستطيع كل عربى أن يوقع بأحرفه وكلماته على لحنه الفطرى ولهجة قومه ، توقيعا يطلق من نفسـه الاصـوات الموسيقية التى يشبع بها الطرب فى هـذه النفس ، بما يسمونه فى لغة العرب بيانا وفصـاحة وهو فى لغة الحقيقة الموسيقى اللغوية ، واذا تم هـذا النظم للقرآن مع بقاء الاعجاز الذى تحدى به ، ومع اليأس من معارضـته على ما يكون فى نظمه من تقلب الصـور اللفظية فى بعض الاحرف والكلمات بحسب ما يلائم

---

(١) المرجع السـابق : ٦٩ — ٧٢ .
(٢) المرجع السـابق .

تلك الأحوال فى مناطق العرب فقد تم له التمام كله ، وصار اعجازه اعجازا للفطرة اللغوية فى نفسها حيث كانت ، وكيف ظهرت ، ومهما يكن من أمرها ، ومتى كان العجز فطريا فقد ثبت بطبيعته وان لج فيه الناس جميعا لأنه شىء فى تلك الفطرة يفهم منه صريحا ، ثم لا تنكر هى موضعه منها وموقفه ، وان كابرت فيه الألفاظ وبالغت الأهواء فى جحده والانتفاء منه مراء ومغالبة ، والطبيعة قد توجد فى مفردات لغتها مترادفات بحيث يكون الشيئان لمعنى واحد ، ولكن لا توجد فيها الأضداد بحال من الأحوال فلا يكون الشىء الطبيعى محتملا بصورته الواحدة لأن يكون اقرارا وانكارا معا ، ومن ثم لا يستقيم للعرب ان يعارضوا القرآن ، اذ كان ماتى العجز من فطرتهم اللغوية ، ولا يتوهم ذلك وان انتشرت لهم فى الخلاف كل قالة ، ذلك فيما ترى هو السبب الأول الذى من أجله اختلفت بعض الفاظ القرآن فى قراءتها اختلافا صح جميعه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فان القرآن لو نزل على لفظ واحد ما كان بضائره شيئا وهو ما هو احكاما وابداعا »(١) .

فالرافعى كما راينا يقرر أن اختلاف القراءات وتعددها برزت غايته وتمثلت ثمرته فى توفير الموسيقى للنظم القرآنى والانسجام لتراكيبه حتى يشعر العرب على اختلاف لغاتهم ولهجاتهم بعلو طبقته ويدركوا عجزهم عن الاتيان بمثله ، ويوضح الرافعى ذلك فى رسالة له الى صديقه أبى رية فيقول : « أما اختلاف القراءات أحيانا فى بعض الالفاظ فهو ادعى للاعجاب والاعجاز . لأن ملهم اللغة ومقسمها فى ألسن العرب على اختلاف قبائلهم أنزل الفاظ القرآن بطريقة يمكن لهذه الألسنة على تفاوت ما بينها أن تتلوه ، ومن المعلوم أن العربى يجمد على لغة واحدة ، وبعض العرب لا يستطيع أن ينطق غير لغته مطلقا . فكانت القراءات لهذا السبب ، وكلها راجع الى النبى صلى الله عليه وسلم ، وهو تلقاها كذلك عن جبريل عليه السلام ماعدا القراءات الشاذة الضعيفة مما نبه عليه العلماء ، أنزل الله القرآن لهداية العرب وافحامهم به ، فكان من الواجب أن تكون تلاوته متيسرة لهم على السواء ، وهذا لا يتاتى الا مع أوضاع فى

---

(١) المرجع السابق ص٤٥ ، ٤٦ .

بعض الحروف وهــذه الأوضاع هى القراءات ، فمن من العرب كان يستطيع أن يؤلف لكل القبائل كلاما واحدا لا يعسر على السنة قبيلة من قبائلهم الا أن يكون فى الناس يومئذ اله لغوى ؟ ومن هــذا ترى أن القراءات هى معنى من معانى الاعجاز انتبه اليه العرب ولا يمكن أن يدركه غيرهم ممن جاءوا بعدهم ، ولهــذا لا استحسن فى رايى أن يقرأ بها الناس اليوم على اختلافها اذ لا حاجة الى ذلك بعد أن اجتمعت الألســنة على لغة واحدة وقد ظهرت للقراءات فائدة تحقق معنى الاعجاز فيها ، وهى تسهيل التلاوة على بعض أصــحاب الألســنة المعوجة كالمغــاربة ونحوهم ، أما فى مصر فلا حاجة اليهــا »(١) .

كما يرى الرافعى أن من حكمة اختلاف القراءات وتعددها غير ما سبق : تيسير الحفظ على الأميين ، وتسهيل الأمر على الفقهاء فى استنباط الحجج(٢) .

أثر القرآن الكريم فى اللغة العربيــة :

ومن جوانب الاعجاز اللغوى للقرآن الكريم عند الرافعى ما أحدثه من تأثير فى اللغة ، ويتمثل هــذا التأثير فى عدة أمور منها :

* أنه صفى اللغة من اكــدارها ، واجراها فى ظاهرها على بواطن أسرارها ثم هو بما تناول بها من المعانى الدقيقة التى أبرزها فى جلال الاعجاز ، وصــورها بالحقيقة وأنطقها بالمجــاز ، وما ركبها من المطاوعة فى تقلب الأساليب ، وتحول التراكيب الى التراكيب ، قد أظهرها مظهرا لا يقضى العجب منه لأنه جلاها على التاريخ كله لا على جيل العرب بخاصة ، ولهــذا بهتوا لها حتى لم يتبينوا أكانوا يســمعون بها صوت الحاضر أم صوت المستقبل أم صوت الخلود . وهــذا معنى ليس أظهر منه فى اعجاز القرآن ، فان اللغة لا تشب عن أطوار أهلها متى كانت من غرائزهم ، وانما تكون على مقدارهم ضعفا وقوة لأنها صورتهم المتكلمة وهم صــورتها المفكرة ،

---

(١) من رسائل الرافعى : محمود أبو رية ص٧٤ ، ٧٥ .
(٢) أنظر : اعجاز القرآن للرافعى ص٤٧ .

فهى الفاظ معانيهم ، وهم فى الحقيقة معانى الفاظها ، ولذلك لا تزيد عليهم ولا ينقصـــون عنها مادام رسمهم لم يتغير ومادامت عادتهم لم تنتقل(١) .

* ومن تأثير القرآن فى اللغة ، وما يصـــل بالاعجـــاز اللغوي عند الرافعى ، حفظـــه لها من الضـــياع والتبدد كما تبدد وضـــاع غيرها من اللغات ، وذلك بتوحيدها فى لغة واحدة فمن المعلوم بالضرورة ان القرآن قد جمع أولئك العرب على لغة واحدة بما استجمع فيها من محاسن هـــذه الفطره اللغوية التى جعلت اهل كل لســـان يأخذون بها ، ولا يجدون لهم عنها مرغبا ، ولولا القرآن واسراره البيـــانية ما اجتمع العرب على لغتـــه ، ولو لم يجتمعوا لتبدلت لغـــاتهم بالاختلاط الذى وقع ولم يكن منه بد حتى تنتقض الفطرة وتختبل الطباع ، ثم يكون مصير هـــذه اللغات الى العفاء لا محالة ، اذ لا يخلفهم عليها الا من هو أشـــد منهم اختلاطا وأكثر فسادا ، وهكـــذا يتسلسل الأمر حتى تستبهم العربية ولا تبين ، وهى أفصح اللغات الا بضرب من اشارة الآثار ، وذلك معنى من أبين معانى الاعجاز ، ولا نجده اتفق فى لغة من لغات الارض غير العربية ، وهو لم يتفق لها الا بالقرآن ، ولقد كان أسلوبه البيانى الذى جمع له العرب هو الذى اقتفى ما أحدثه العلماء بعد ذلك من تتبع اللغات وتدوينها ورواية شواهدها والتحمل لها ، فكان صنيعهم صـــلة بين اللغة وبين العلوم التى افرغت عليها من بعد ، لأن لغة من اللغات لا تحيا ولا تموت الا بحسب اتصـــالها بمادة العلم الذى به حياة أهلها وموتهم وهى لا يلبسها العلم الا اذا كانت قشـــيبة محكمة ، ولا تضيق عن أنواعه وفروعه ولا يخلقها الاســـتعمال ، وانما شباب هـــذه الحياة اللغوية أن تكون اللغة لينة شـــديدة كما يكون كمال الانســـان بقوة الخلق والخلق ، وهـــذا وجه لو لم يتممهـــا عليه القرآن لمـــا اســـتقامت ابدا ، ولا وقفت على طريقه ، ولا تلاقى فيه آخرها بأولها(٢) .

فلولا القرآن وانه على وجه واحد وهيئة واحـــدة ثابتة ، ما بقيت العربية ، ولا تبينت النسبة بين فروعها العامية ، بل لذهب كل فرع بما أحدث

---

(١) المرجع الســـابق ص٧٧ .
(٢) المرجع الســـابق ص٨٢ — ٨٤ .

من الألفاظ ، وما استجد من ضروب العبارة وأساليبها ، حتى يتسلل كل قوم من هــذه الجنسية ان كانوا من أهلها أو من أهل ذمتها ، ثم لا تستحكم لهم بعد ذلك ناحية من الائتلاف ، ولم يستمر لهم سبب من الارتباط(١) .

فلقد ضمن القرآن للغة العربية الثبــات والبقاء على عكس كثير من اللغات التى تبــددت ، فهــذه التوراة وهــذه الاناجيل ما يقرأها بلغتها الأصلية الا شرذمة قليلة من اليهود وغير اليهود الذين يعيشون على أحلام الذاكـــــرة(٢) .

وثبات القرآن من دون الكتب السماوية يراه الرافعى اعجاز اليس فى العجب أبدع منه الا تحول معانيه على غير قاعدة التحول ، فانه وجود لغوى ركب كل ما فيه على أن يبقى خالدا مع الانســانية ، فهو يدفع عن هــذه اللغة العربية النســيان الذى لا يدفع عن شىء وهــذا وحــده اعجاز ، ثم هو لن يكون كفاءة ذلك ولن يقوم به الا اذا كان معجزا أهل اللغة جميعا فتذكر به اللغة ولا يذكر هو بها وبذلك يحفظها(٣) .

كما يعد الرافعى كذلك من وجوه تأثير القرآن فى اللغة : اقامة أدائها على الوجه الذى نطقوا به وتيسير ذلك لأهلها فى كل عصر ، وان ضعفت الأصــول واضطربت الفروع ، بحيث لولا هــذا الكتاب الكريم لمــا وجد على الأرض أسود ولا أحمر يعرف اليوم ولا قبل اليوم كيف كانت تنطق العرب بألسنتها ، وكيف تقيم أحرفها وتحقق مخارجها(٤) .

أسرار الاعجاز بين اللغة والبلاغة :

والبلاغة علم من علوم اللغة كما ســبق ان عرفنا ، وقد اعتمد الرافعى كما رأينا على اللغة كثيرا فى تقرير نظرياته عن الاعجاز ، وأفاد كثيرا مما ورد

---

(١) أنظر : اعجاز القرآن للرافعى ص٩٤ .
(٢) أنظر : المرجع الســابق ص٩٥ .
(٣) أنظر : المرجع الســابق ص١٢ .
(٤) أنظر : المرجع السابق ص٨٤ وما بعدها .

فى كتب اصول اللغة فى كشف اسرار الاعجاز ، حتى جاء معظم كلامه عن الاعجاز مصبوغا بالصبغة اللغوية ، وذلك لمـــا ذكرنا من تمكنه من اللغة واحاطته بأصولها ، وبتأثير مما كتبه فى « تاريخ آداب العرب » .

وقد حاولت العثور على أنموذج نتبين فيه هـــذا النهج الذى اقتفاه الرافعى فى الاستعانة بمفاهيم اللغة فى ابراز اسرار البلاغة والجمع بين الفلسفة اللغوية والاسرار البلاغية عند تحليل كلام الله عز وجل فوقعت على مثال من ذلك فى احدى مقالات الرافعى التى نشرت « بوحى القلم » وكان تفسيرا لقول الله عز وجل : « وراودته التى هو فى بيتها عن نفسه وغلقت الأبواب وقالت : هيت لك قال : معاذ الله انه ربى أحسن مثواى انه لا يفلح الظالمون ، ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه كذلك لنصرف عنه الســـوء والفحشـــاء ... » .

فيقول الرافعى : « عجبا للحب ! هـــذه ملكة تعشـــق فتاها الذى ابتاعه زوجها بثمن بخس . ولكن أين ملكها وسطوة ملكها فى تصوير الآية الكريمة ؟ لم تزد الآية على أن قالت : « وراودته التى . . » و « التى » هـــذه كلمة تدل على كل امرأة كائنا من كانت ، فلم يبق على الحب ملك ولا منزلة ، وزالت الملكة من الأنثى ، واعجب من هـــذا كله « راودته » وهى بصيغتها المفردة حكاية طويلة تشير الى أن هـــذه المرأة جعلت تعترض يوسف بألوان من أنوثتها ، لون بعـــد لون ، ذاهبة الى فن راجعـــة من فن ، لأن الكلمة مأخوذة من رودان الابل فى مشيتها ، تذهب وتجىء فى رفق ، وهـــذا يصور حيرة المرأة العاشقة واضطرابها فى حبها ، ومحاولتها أن تنفذ الى غايتها ، كما يصور كبرياء الأنثى ، اذ تحتال وتترفق فى عرض ضعفها الطبيعى ، كأنما الكبرياء شىء آخر غير طبيعتها ، فمهما تتهالك على من تحب وجب أن يكون لهـــذا « الشىء الآخر » مظهر امتناع أو مظهر تحير ، أو مظهر اضطراب وان كانت الطبيعة من وراء ذلك ما ضية مصممة ، ثم قال : « عن نفسه » ليدل على أنها لا تطمع فيه ، ولكن فى طبيعته البشرية ، فهى تعرض ما تعرض لهـــذه الطبيعة وحدها ، وكأن الآية مصرحة فى ادب ســـام كل السمو ، منزه غاية التنزيه بمـــا معناه : ان المرأة بذلت كل ما تســـتطيع فى اغوائه

وتصـــببه ، مقبلة عليه ومتدللة ومبتذلة ومنصـــبة من كل جهة ، بما فى جسمها وجمالها على طبيعته البشرية وعارضة كل ذلك عرض امراة خلعت أول ما خلعت أمام عينيه ثوب الملك ، ثم قال : « وغلقت الأبواب » ولم يقل : اغلقت وهـــذا يشـــعر انها لمـــا يئست ورأت منه محاولة الانصراف ، أسرعت فى ثورة نفسها مهتاجة تتخيل القفل الواحـــد أقفالا عدة ، وتجرى من باب ، وتضطرب يدها فى الاغلاق ، كأنما تحاول ســـد الأبواب لا اغلاقها فقط ، « وقالت هيت لك » ومعناها فى هـــذا الموقف أن اليأس قد دفع بهـــذه المراة الى آخر حدوده فانتهت الى حالة من الجنون بفكرتها الشهوانية ، ولم تعد لا ملكة ولا امراة ، بل أنوثة حيوانية صرفة متكشـــفة مصرحة ، كما تكون أنثى الحيوان فى أشـــد اهتياجها وغليانها ، هـــذه ثلاثة أطوار يترقى بعضها من بعض وفيها طبيعة الأنوثة نازلة من أعلاها الى أسفلها ، فاذا انتهت المراة الى نهايتها ولم يبق وراء ذلك شىء تستطيعه أو تعرضه ، بدت من ثم عظمة الرجولة الســـامية المتمكنة فى معانيها ، فقال يوسف : « معـــاذ الله » ثم قال : « انه ربى أحسن مثواى » ثم قال : « انه لا يفلح الظالمون » وهـــذه أسمى طريقة الى تنبيه ضمير المراة اذا كان أســـاس ضميرها فى كل عصر هو اليقين بالله ، ومعرفة الجميل ، وكراهة الظلم ، ولكن هـــذا التنبيه المترادف ثلاث مرات لم يكسر من نزوتها .. فان حبها كان قد انحصر فى فكرة واحدة اجتمعت بكل أسبابها فى زمن فى مكان فى رجل ، فهى فكرة محتبســـة كأن الأبواب مغلقة عليها أيضا ، ولذا بقيت المراة ثائرة فى نفســـها وهنا يعود الأدب الالهى الســـامى الى تعبيره المعجز فيقول : « لقد همت به » كأنما يومىء بهـــذه العبارة الى أنها ترامت عليه وتعلقت به ، والتجأت الى وســـيلتها الاخيرة وهى لمس الطبيعة بالطبيعة لالقاء الجمرة والهشيم ، جاءت العاشقة فى فضيلتها ببرهان الشـــيطان الذى تقذف به فى آخر محاولته ، وهنا يقع ليوسف عليه السلام برهان ربه كما وقع لها برهان شيطانها ، فلولا برهان ربه لكان هم بها ، ولكان رجلا من البشر فى ضعفه الطبيعى ... وههنا المعجزة الكبرى ، لأن الآية الكريمة تريد ألا تنفى عن يوسف عليه السلام فحولة الرجولة ، حتى لا يظن به ثم

هى تريد من ذلك أن يتعلم الرجال ، وخاصة الشبان منهم ، كيف يتسامون بهـذه الرجولة فوق الشـهوات ، حتى فى الحـالة التى هى نهاية قدرة الطبيعة ، حالة ملكة مطـاعة فاتنة عاشـقة مختلية متعرضـة متكشـفة متهالكة ، هنا لا ينبغى أن ييأس الرجل ، فان الوسيلة التى تجعله لا يرى شيئا من هـذا — هى أن يرى برهان ربه »(١) .

بهـذا العمق والبعـد رأينا الرافعى يفسر الآية السـابقة ، وهو تفسير كما رأينا يقوم على الجمع بين الفلسفة اللغوية والاسرار البلاغية ، ويهتم بلب المعنى وثمرته والغـاية منه دون أن يلقى بالا لذكر الالقاب أو تحديد المصـطلحات .

وتلك هى النقاط التى ناقشـها الرافعى فى حديثه عن : « الاعجاز اللغوى للقرآن » .

وقد رأينا أنها تتمثل فى : نشأة العرب اللغوية ، وأنها كانت تمهيدا لاسـتقبال القرآن .

وفى تمثيل القرآن للغات العرب جميعها ، وليسـهل على كل قبيلة أن تقرأه فى يسر وسـهولة .

وفى اختلاف القراءات وتعددها ، الذى تمثل ثمرته ويظهر أثره فى توفير الموسيقى والانسجام لنظم القرآن وتركيبه حتى يدرك العرب اعجازه .

ثم فى هـذه الآثار التى تركها القرآن فى اللغة : بحفظها من الضياع ووحدتها والمحافظة على الاداء السـليم لها .

ولعلنا ندرك أن تسمية هـذا النوع من الاعجاز بالاعجاز اللغوى من التوسع فى التعبير ، فقد رأينا معظم كلام الرافعى عنه يدور حول « الانسجام التركيبى » الذى هو ثمرة البلاغة القرآنية واعتبره الرافعى والجمهور الوجه الأسـاسى فى الاعجاز ، فهى تفرقه شـكلية ، وخاصـة بعد أن عرفنا أن البلاغة وثيقة الصلة باللغة وأنها أحد علومها .

كما ندرك أن الرافعى يردد فى حديثه عن « الاعجاز اللغوى » كلام السابقين ، ونراه يعترف بذلك صراحة فى ذكره أسـماء من روى عنهم ،

---

(١) وحى القلم للرافعى : جـ١ ص١١٥ وما بعدها ط . التجارية .

واضـــافته وتعقيبـــه فى كثير من الأحايين على ما يذكرونه ، كتعليقه على ما ذكره الواسطى وغيره من العلماء فى تفسير حديث الرسول صلى الله عليه وســـلم الوارد فى القراءات .

وفى الوقت نفســـه فاننا لا ننكر عمق الرافعى وفلســـفته البعيدة فى توضيح اثر القرآن الكريم فى اللغة العربية ، ولقد اســـتفاد فى حديثه عن هـــذا الجانب الى حـــد كبير بما ذكره فى « الجزء الأول من تاريخ آداب العرب » ، وكثيرا ما طبق فى حديثه عن اعجازا لقرآن كثيرا من النظريات التى وضع أصولها فى الجزء الأول من الكتاب الســـابق .

ثم ننتقل بعد ذلك الى الركن الثانى لهـــذا الوجه من الاعجـــاز عند الرافعى وهو « الاعجاز الأدبى » .

الاعجـــاز الأدبى :

هـــذا هو الشق الثانى من هـــذا الوجه عند الرافعى ، اذ يرى أن القرآن الكريم كما أعجز العرب بكماله اللغوى ، فانه كذلك أعجزهم بآدابه وقوانينه وتشريعاته التى غيرت حياتهم وبدلت نظامهم وحولتهم من الجهل الى العلم ومن الضلال الى الهداية ومن الغى الى الرشـــد ومن الباطل الى الحق ، ومن الرذيلة الى الفضـــيلة وجعلتهم أفضل الشعوب وخير أمة أخرجت للناس .

ذلك هو وجه الاعجاز الأدبى فى القرآن عند الرافعى ، وهو متصـــل باللغة اتصالا سببيا .

ولم يكن الرافعى أول من عد ذلك ضمن اعجاز القرآن ، فقد عده كثير ممن تخصصوا فى دراسة الاعجاز القرآنى ، غير أنهم جعلوه سبيلا من سبل « النظم » واثرا من آثاره ، فالخطابى يقول شرحا لهـــذا الوجه من الاعجاز : « واعلم أن القرآن انما صـــار معجزا لأنه جاء بأفصح الألفاظ فى أحسن نظوم التأليف مضمنا أحسن المعانى : من توحيد له عزت قدرته ، وتنزيه له فى صـــفاته ، ودعاء الى طاعتـــه ، وبيان بمنهاج عبادته : من تحليل وتحريم وحظر واباحة ومن وعظ وتقويم وأمر بمعروف ونهى عن منكر وارشاد

الى محاسن الأخلاق وزجر عن مساوئها ، واضعا كل شىء منها موضعه الذى لا يرى شىء أولى منه ، ومعلوم أن الاتيان بمثل هــذه الأمور والجمع بين شتاتها حتى تنتظم وتتسق أمر تعجز عنه قوى البشر ولا تبلغه قدرهم ، فانقطع الخلق دونه »(١) .

و « الباقلانى » كتب بعض فقرة فى : اعجاز المعانى التى تضمنها فى أصل وضـــع الشريعة والاحكام والاحتجاجات فى أصل الدين والرد على الملحدين ، ثم اتجه بكل هــذا الى أن المعـــانى والاحكام جاءت على تلك الالفاظ البديعة وموافقة بعضها بعضا فى اللطف والبراعة مماي تعذر على البشر ويمتنع ، وذلك انه قد علم أن تخير الألفـــاظ للمعـــانى المتـــداولة المـــألوفة والأسباب الدائرة بين الناس ، أسهل وأقرب من تخير الألفاظ لمعان مبتكرة وأسباب مؤسسة مستحدثة ، فاذا برع اللفظ فى المعنى البارع كان الطف وأعجب من أن يوجد اللفظ البارع فى المعنى المتداول المتكرر ، والأمر المتقرر المتصـــور ، ثم انضاف الى ذلك التصرف البديع فى الوجوه التى تتضمن تأييد ما يبتدأ تأسيســـه ، ويراد تحقيقه ، تالية التفاضل فى البراعة والفصاحة ، ثم اذا وجدت الالفاظ وفق المعانى والمعانى وفقها لا يفضل أحدهما على الآخر فالبراعة اظهر والفصـــاحة اتم(٢) .

ويوشك أن يكون هـــذا هو المنهج الغالب على من عدوا قيم القرآن وأحكامه وجها من وجوه اعجازه لم يفصلوها عن نظمه المعجز الذى حشدوا جهدهم للنظر فى بلاغته .

والرافعى كما شاهدنا مسبوق الى عد هـــذا الوجه من اعجاز القرآن ، واذا كان الخطابى والباقلانى كما تقدم قد جعلا هـــذا الوجه متصلا بالنظم ، فالرافعى قد جعله كذلك متصلا باللغة اتصـــالا سببيا ، وقد عرفنا أنه يريد المعنى الجامع للغة لا المعنى الجزئى المحدود ، ولا ينكر فضل الرافعى فى تجلية هـــذا الجانب بتحليلاته العميقة وفلسفته الحصيفة .

---

(١) بيان اعجاز القرآن : الخطـــابى ص٢٧ .
أنظر : اعجاز القرآن للباقلانى ص٦٣ .

واعجاز القيم والمثل والأحكام القرآنية ، ليس موضع جدل أو خلاف ، لكنه كما التفت « الخطابى » ليس بالأمر العام فى كل سـورة من سـور القرآن ، وقد كانت المعجزة بسـورة واحدة ، ومعلوم بالضرورة أن سورة واحدة لا تجمع كل ما ذكروه من أحكام القرآن ومعانيه ومثله وآدابه(١) .

ولقد تأثر كثير ممن كتبوا عن اعجاز القرآن حـديثا بالرافعى فى عد هـذا الوجه من أوجه الاعجـاز(٢) .

ويأخذ الرافعى فى توضيح هـذا الجانب الأدبى فى القرآن الكريم فيقرر أن آداب هـذا الكتاب الكريم انما هى آداب الانسانية المحضة فى هـذا النوع أنى وجـدت وحيث تكون وأنها ترمى فى جملتها الى تأسيس الخلق الانسـانى المحض الذى لا يضعف معه الضـعيف دون ما يجب له ، ولا يقوى معه القوى فوق ما يجب له(٣) .

ويوازن الرافعى بين آداب القرآن التى أثمرت هـذه الأجيال المؤمنة وبين الآداب التى نقرؤها فى كتب التربية والفلسفة والاجتماع وعجزت أن تنتج ما أنتجته آداب القرآن التى كانت تخاطب العقل والعاطفة معا على عكس الثانية التى كانت تخاطب واحدا منهما ، فيقول فى ذلك : « وليس من دليل فى التاريخ على أن هـذه الارض شهدت من خلق الله جيلا اجتماعيا كذلك الجيل الأول فى صـدر الاسلام ، حين كان القرآن غضا طريا ، وكانت الفطرة مؤاتية ، وكانت النفوس مستجيبة ، على أنه جيل ناقض طباعه ، وخالف عاداته ، وخرج مما ألف ، وخلق على الكبر خلقا جديدا ، ومع ذلك

---

(١) أنظر : الاعجـاز البيـانى للقرآن د . عائشـة عبد الرحمن ص٧٩ ، ٨٠ .

(٢) أنظر : القرآن والعلم الحديث : عبد الرازق نوفل ص٢٤ ، ٢٥ ، ودائرة معارف القرن العشرين : محمد فريد وجدى ٧ : ٦٨٠ — ٦٨٢ ، وتاريخ آداب اللغة العربية : جرجى زيدان : ١٧/٢ — ١٩ ت : د . شوقى ضـيف .

(٣) اعجاز القرآن للرافعى ص٩٩ — ١٠٣ .

فان الفلسفة كلها والتجارب جميعها والعلوم قاطبة لم تنشىء جيلا من الناس ولا جماعة من الجيل ولا فئة من الجماعة كالذى اخرجته آداب القرآن واخلاقه من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم : فى علو النفس ، وصفاء الطبع ورقة الجانب — وبسط الجناح ، ورجاحة اليقين ، وتمكن الايمان ، الى سلامة القلب وانفساح الصدر .. وانطواء الضمير على أظهر ما عسى أن يكون فى الانسان من طهارة الخلق ، ثم العفة فى مذاهب الفضيلة ، من حسن العصمة ، وشدة الامانة ، واقامة العدل ، والذلة للحق ... وماذا تريد من علوم الأخلاق وعبر الاجتماع وفلسفة التربية وآداب السلوك وما اليها مما يبتغى ذريعة فى كل وجه من اصلاح الانسانية ، اذا كانت كل هذه انما تلتمس الناقص أو المعوج أو الفاسد أو الضال فتتمه وتقيمه وتصلحه وتتنصح اليه على طريق من الجدل والمدافعة والبرهان ، أن هى اغنت فى قليل لم تغن فى كثير ، وان أقنعت العقل لم تبلغ من القلب مبلغا ولا تؤخذ الا على انها ثقاف ودربة وتمكين ... وانما كان ما علمت لقصور هذه الآداب عن استبطان حقائق الفطرة الانسانية ، والكشف عن دخائلها ، واستنارة دفائنها ، وتمثل مذاهبها النفسية على الوجوه التى تذهب اليها هى لا تلك الوجوه التى يمضى فيها النظر والتأمل والحدس والقياس والتنظير ونحوها من وسائل العلماء الى الاستنباط والاستنتاج والى القطع والتقرير ، حتى خرجت تلك الآداب من أن تكون آدابا الى أن صارت قضايا متداخلا بعضها فى بعض ، وأقيسة يفضى بعضها الى بعض ، فصارت كالشىء المختلف الذى لا ينفك يخذل بعضه بعضا ، لحملها على العقل دون الخلق ، واعتمادها على جملة الفائدة دون الطريقة التى تنتهى الى الفائدة ، وبذا ضعفت آثارها فى النشىء من دون الطفولة فضلا عن ذوى العنفوان من الأحداث ومن أغفال الرجال ، اذ لم تمازج أنفسهم ، ولا داخلت طبائعهم المتطلعة التى انما يكون الشر بها شرا ، فلم تثبت ثبات العادة ، ولا أغنت غناء الدين ، وبقيت التربية الطبيعية كما هى : للدين والعادة »(١) .

---

(١) اعجاز القرآن للرافعى ص١٠٤ — ١٠٦ .

كذلك يرى الرافعى أن آداب القرآن تخالف نظريات العلماء سوى ما تقدم من جهة عمومها ، وعدم التمكن من ردها الى عصر بعينه ، وأنها قواعد لما يبتنى عليها وضوابط لما يأتى بعدها فيقول : « ولا غرو كان هذا القرآن من أجل ذلك انما يصف جمل الآداب أى الكليات الأدبية التى تلائم الفطرة فى مختلف أزمانها ، ولا يقرر الأخلاق تقريرا وضعيا على أسلوب الكتب والمصنفات ، فيضعها على أن لها قواعد وضوابط وأشباه القواعد والضوابط ، مما هو مثار الاختلاف ومبعث الفرقة فى مذاهب الحكماء ومما لا تكون الآداب معه الا معادة على الناس فى كل عصر بنوع من التنقيح وضرب من التغيير يناسبان اختلاف كل عصر عن الذى قبله ، بل ان المعجزة فى هذه الآداب الكريمة أنها تقرر الأخلاق تقريرا عاما ، فيضعها القرآن على أنها هى القواعد لغيرها والضوابط لما يبتنى عليها ، ويوردها فى أحسن الحديث ، ويعترض بها وجوه القصص ، ويقلبها مع أغراض الكلام ثم لا يكون فى ذلك وجه الخلاف بينها وبين الفطرة الانسانية ، على ما فى تلك الآداب من الاطلاق ، وعلى أنها غير ملحوظ فيها دولة بعينها أو أمة بأوصافها ، أو نحو ذلك من ضروب الحد والتعيين ، فليس فيها من روح الزمن الا روح الزمن كله بحيث لا يتأتى للفيلسوف ولا المؤرخ الى أن يردها أحدهما أو كلاهما فى جملتها الى عصر بعينه لا تعدوه أو يقصرها على حد تقفها عنده الانسانية وتتقدم بغيرها مما يقال فيه انه الأصلح أو الأنفع ، ولو أن الدهر قد فنى ثم نزع من كل أمة شهيد وعرضت عليهم آداب القرآن فقابلوها بفضائل آدابهم واعترضوا بعض ذلك ببعضه ثم قيل : هاتوا برهانكم عليها لأقر الزمن بألسنتهم جميعا أنها الحق وأن الحق لله ، من أجل ذلك تجد الخطاب الأدبى مطلقا فى القرآن كله كأنه نظام انسانى عام لا يراد به الا حرية المنفعة للنوع كله ، ثم الموازنة بين مقدار هذه المنفعة وبين مقدار الحرية التى تنال بها ليكون كل شىء فى نصابه الاجتماعى فان اطلاق الحرية عبث واطلاق المنفعة ضرر أو ضرار ، ولو سوغت كل أمة أن تقارف ما تريد بمقدار ما يهىء لها ضعف غيرها من الحرية فى بسط يدها لكان من ذلك فتنة فى الارض وفساد كبير ، وان كل أمة اضطربت فيها الموازنة

بين الحرية والمنفعة فانما يكون ذلك حاضر تاريخها مبدأ العبودية لغيرها ، وهـذا الاصل أرقى ما انتهت اليه علوم الاجتماع لهـذا العهد ، وكذلك كل ما فى آداب القرآن الكريم من الأمر والنهى ، فانما يراد به ضبط الصلـة بين عالم العقل وعالم المـادة على وجه بين .. ولو أن العلوم كلها والفلسفة واهلها كانت لأولئك العرب مكان القرآن لمـا اغنت شيئا من غنائه ، ولا ردت عليهم بعض مرده »(١) .

وتتجلى فى هـذه الموازنة الأريبة فلسـفة الرافعى العميقة وثقافته الاجتماعية والنفسـية .

ويوضح الرافعى فى هـذا المجال نقطة على جانب كبير من الأهمية : وهى : ضعف تأثير القرآن على النفوس الآن عن ذى قبل ، فيرد ذلك الى تفريط المسلمين فى الأخذ بآدابه والسير على تعاليمه بعد أن فرطوا فى الاحاطة بأصـول اللغة العربيـة ، فالتفريط فى لغة القرآن اسـتتبعه التفريط فى آدابه وأخلاقه ، وما فرط المسلمون فى آداب هـذا القرآن الكريم الا منذ فرطوا فى لغته ، فأصبحوا لا يفهمون كلمه ، ولا يدركون حكمه ، ولا ينتزعون اخلاقه وشـيمه ، وصاروا الى ما هم عليه من عربية كانت شرا من العجمة الخالصة واللكنة المزوجة ، فلا يقرأون هـذا الكتاب الا أحرفا ، ولا ينطقون الا أصواتا ، ولا جرم كانت هـذه علة العلل فى أن القرآن الكريم لم يعد له من الأثر فى انفس أهـله ما كان له من قبل ، ولا بعض ما كان له ، اذ لم يتدبروه بمثل القرائح التى انزل عليها أو بقريب منها فى الذوق والفهم والبصر بمواقع الكلام ، ولم يجـروه من ذلك على حقـه ، بل أصـبحوا لا يستحون من الله أن يجعلوا قراءة كتابه ضربا من العبادة اللفظيـة يرجون عند الله حسـابها ، ويبتغـون فى الأعمال ثوابهـا ، ولا يشـكون أنهم يستفتحون يوم القيامة بابها ، على أنهم (يخـادعون الله والذين آمنـوا وما يخدعون الا انفسهم وما يشـعرون)(٢) .

---

(١) المرجع السـابق ص١٢٠ — ١٢٣ .
(٢) المرجع السـابق ص١١٣ — ١١٥ .

فهـــذه هى الجوانب التى ناقشها الرافعى فى حديثه عن : « الاعجاز اللغوى والأدبى » .

وقد رأينا انه يقصد اللغة بمعناها الشامل للبلاغة وغيرها ، ومن هنا كان تفسيره لمـــا فى القرآن من لغات العرب ونزوله بلغة قريش واختلاف القراءات وتعددها فى معظمه تفســـيرا بلاغيا اذ رده الى توفير الانســـجام للتراكيب والموســـيقى فى نظمه العجيب البديع ، وهـــذا هو لب البلاغة القرآنية وخلاصـــتها .

كما فهمنا انه لا يقصد بالاعجاز الأدبى المعنى العلمى للأدب ، بل يقصد الآثار الأدبيـــة التى تركها القرآن فى عادات العرب وأخلاقهم واحـــوالهم الاجتمـــاعية ، وقد ذهب الخطابى والباقلانى كذلك الى عد هـــذه الآثار الأدبية من أوجه الاعجاز على انها ناشئة عن النظم ومترتبة عليه .

الفصل الثالث

الرافعى والاعجاز النفسى

الاعجاز النفسى أحد وجوه الاعجاز عند الرافعى ، وحديثه عن هذا الوجه جعل لكتابه « اعجاز القرآن » طابعا معينا وسمتا فريدا بين كتب الاعجاز القرآنى التى تسلك مسلكا واحدا لا يكاد يختلف الا نادرا .

فالرافعى يكاد يكون صاحب منهج مستقل فى « اعجاز القرآن » وما قدمه من جهود فى تجلية هذا الوجه من الاعجاز يعد أحد الأسس التى اعتمد عليها ذلك المنهج ، وحققت له التفرد والتميز .

وفكرة الاعجاز النفسى عند الرافعى تقوم على انه اذا استطعنا رد الأساليب الى أصحابها من خلال الوقوف على طباعهم والتعرف على صفاتهم وأخلاقهم وأثر البيئة فيهم وغير ذلك من الصفات التى يحكيها الأسلوب ، وتستشف منه ، فانا لا نستطيع الوقوف على شىء من ذلك فى أسلوب القرآن الكريم ، لخلوه من كل آثار النفس الانسانية .

فيرى الرافعى أن للبيئة والطبيعة والوراثة اثرا فى الأسلوب ، وان أسلوب كل انسان مرآة صافية نرى فيها مزاجه واخلاقه ، ويختلف هذا الأسلوب من شخص لآخر باختلاف تلك العوامل ، كما يتدرج علوا وانخفاضا ورقيا وتدهورا ، بينما لا ندرك شيئا من ذلك فى كلام الله الذى جاء نمطا واحدا أوله كوسطه وكآخره ، وذلك لخلوه من أدنى آثار النفس الانسانية .

ويقول الرافعى فى ذلك : « وليس من شىء فى أسلوب القرآن يغض من موضعه او يذهب بطريقته ، أو يدخله فى شبه من كلام الناس ، أو يرده الى طبع معروف منطباع البلغاء،وما من عالم أو بليغ الا هو يعرف ذلك ويعد خروج القرآن من أساليب الناس كافة دليلا على اعجازه ، وعلى انه ليس من كلام انسان .. فقد ثبت لنا من درس أساليب البلغاء وترداد النظر فى أسباب اختلافها ، وتصفح وجوه هذا الاختلاف ، وتعرف العلل التى

أثرت فى مباينة بعضها لبعض من طبيعة البليغ وطبيعة عصره أن تركيب الكلام يتبع تركيب المزاج الانسانى ، وأن وجوه الاختلاف بين الأساليب الكتابية فى الطريقة التى هى موضع التباين لا فى الصنعة كالمحسنات اللفظية ونحوها انما هو صورة الفرق الطبيعى الذى به اختلفت الأمزجة النفسية بعضها عن بعض على حسب ما يكون فيها أصلا وتعديلا كالعصبى البحت ، والعصبى الدموى وغير ذلك مما هو مقرر فى الفروع الطبية حتى كأن الأسلوب فى انشاء كل بليغ متمكن ليس الا مزاجا طبيا للكلام — وما الكلام الا صورة فكرية من صاحبه — وقد أمعنا فى هذا الاستنتاج ، وقلبنا عليه كل ما نقرأ من أساليب العربية وهى معدودة — ومررنا على ذلك زمنا ، حتى صار لنا أن نستوضح أكثر أوصاف الكاتب من أسلوب كتابته برد ذلك الى الأوصاف النفسية التى تكون من تأثير الأمزجة ، والتى قلما تتخلف فى الناس وبها أشبه بعضهم بعضا ، وبها كان التاريخ يعيد نفسه »(١) .

ويأخذ الرافعى فى بيان كيفية التفرقة بين الأساليب من خلال الوقوف على أمزجة أصحابها فيقول : « وأنت تتبين هذه الحقيقة اذا عرفت أديبا ليمفاوى المزاج مثلا واردته على ن يأخذ فى أسلوب كأسلوب الجاحظ وهو من أدق الأساليب العصبية ، فانه لا يصنع شيئا واذا نتج له كلام على هذه الطريقة فلا يجىء الا مضطربا متعثرا مطبقا بأبواب التعسف والتكلف .. ولا يزال بيننا أدباء وعلماء بالبلاغة ووجوه الكلام ، يعجبون كيف لا يتهيأ لأحدهم أسلوب كأسلوب ابن المقفع أو عبد الحميد أو سهل ابن هارون أو الجاحظ ، وكيف لا تستقل له طريقة من ذلك على كثرة ما حاولوا من تقليده والأخذ فى ناحيته ، ولا يدرون أنهم يحملون سر اخفاقهم ، وأن أحدهم اذا استطاع تعديل مزاجه على وجه من الوجوه الطبية ليكون بين مزاجين فقد يستطيع تعديل أسلوبه على وجه يكون وسطا بين أسلوبين .. من ذلك يخلص لنا أن القرآن الكريم انما ينفرد بأسلوبه ، لأنه ليس وضعا انسانيا البتة ، ولو كان من وضع انسان لجاء على

---

(١) اعجاز القرآن للرافعى ص٢٣٠ .

طريقة تشبه اسلوبا من اساليب العرب أو من جاء بعدهم الى هـذا العهد .. ولقد احس العرب بهـذا المعنى واسـتيقنه بلغـاؤهم ولولاه ما افحموا ولا انقطعوا من دونه لانهم راوه جنسا من الكلام غير ما تؤديه طباعهم ، وكيف لهم فى معارضته بطبيعة غير مخلوقه ؟ ولمـا حاول مسيلمة أن يعارضه جعل يطبع على قالبه فجاء بشىء لا يشبهه ولا يشـبه كلام نفسه ، وجنح الى اقرب ما فى الطبـاع الانسـانية واقوى ما فى أوهام العرب من طرق السـجع فأخطأ الفصـاحة من كل جهاتها ، وان الرجل على ذلك لفصيح ، ومادامت قوة الخلق ليست فى قدرة المخلوق فليس فى قدرة بشر معارضة هـذا الأسـلوب مادامت الارض ارضا ، وهـذا هو الصريح من معنى قوله تعالى : (قل لئن اجتمعت الانس والجن على ان يأتوا بمثل هـذا القرآن لا أتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا) »(١) .

ويمضى الرافعى فى توضيح الفرق بين كلام الله وكلام البشر من هـذه الجهـة ويبين تجـرد القرآن من اى اثر للنفس الانسـانية مما حقق له الثبات على مر العصـور والاستقرار على كر الدهور فيقول : « فانظر ، هل تحس شيئا من كل ما تقدم أو من شـبه ما تقدم فى أسـلوب القرآن الكريم ؟ وهل ترى فيه من الغرابة التى يكسوها البلغاء كلامهم فى تجويد وصـفه وحبكه ، الا أن غرابته فى كونه منسجما لا غرابة فيه ، وهل عندك اغرب من هـذه السـهولة التى يسـيل بها القرآن ، وهى فى كثير من الكلام وكثير من أغراضه تقتضى الابتذال ، وفى القرآن كله على تنوع أغراضه لا تقتضى الا الاعجاز ؟ وانظر هل ترى هـذه السـهولة الغريبة فى نفسها مما يمكن أن يحس روح انسـانى كسـائر الأساليب ، أم هى سـهولة الأوضاع الالهية التى يعرفها كل الناس ويعجز عنها الناس كلهم ، ثم يعرف العلماء منها غير ما يعرفه الجهال ثم يمتاز بعض العلماء بها على بعض ، ثم يبقى فيها سر الخلق مع كل ذلك مكتوما لا يعرف ، وما هو سر الاعجاز !

---

(١) المرجع السـابق ص٢٣١ — ٢٣٧ .

وتأمل ، هل تصيب فى القرآن كله مما بين الدفتين الا رهبة ظاهرة لا تمويه فى شىء منها والا أثرا من التمكن يصف له منزلة المخلوق من أمر الخالق ، والا روحا أكبر من أن يكون نفسا انسانة أو أثرا من آثار هذه النفس ، ثم هل تجد فى أغراضه الا ما كان فى وضعه مادة لتلك الرهبة ولذلك الأثر وذلك الروح ؟ هذا على أن فيه المعانى الكثيرة والاغراض الوافرة مما لو كان فى كلام الناس لظهر عليه صبغ النفس الانسانية لا محالة بأوضح معانيه وأظهر الوانه ، وبصفات كثيرة من أحوال النفس ، وحسبك أن تأخذ قطعة منه فى الموعظة والترغيب ، أو الزجر والتأديب ، أو نحو ذلك مما يستفيض فيه الكلام الانسانى ، فتقرنها الى قطعة مثلها من كلام أبلغ الناس بيانا وأفصحهم عربية لترى فرق مابين اثر المعنى الواحد فى كلتا القطعتين ، وتقع على مقدار ما بين الطبقة الالهية والطبقة الانسانية فى السعة والتمكن ، فان هذا أمر لا تصف العبارة منه ، واذا وصفت لا تبلغ من صفته ، ثم لا دليل عليه لمن يريد أن يستدل الا الحس ، ومعنى آخر : وهو انثانرى أسلوب القرآن من اللين والمطاوعة على التقليب والمرونة فى التأويل ، بحيث لا يصادم الآراء الكثيرة المتقابلة التى تخرج بها طبائع العصور المختلفة ، فهو يفسر فى كل عصر بنقص من المعنى وزيادة فيه ، واختلاف وتمحيص وقد فهمه عرب الجاهلية الذين لم يكن لهم الا الفطرة وفهمه كذلك من جاء بعدهم من الفلاسفة وأهل العلوم ، وفهمه زعماء الفرق المختلفة على ضروب من التأويل ، وأثبتت العلوم الحديثة كثيرا من حقائقه التى كانت مغيبة وفى علم الله ما يكون من بعد ، وان ما عهد من كلام الناس لا يحتمل كل ذلك ولا بعضه — بل هو كلما كان أدنى الى البلاغة كان نصا ثابتا فى حيزه — تجد الكلمة أو الجماعة على معنى بعينه قد يستقيم وقد ينتقص — وكيفما قلبته رأيته وجها واحدا وصفة واحدة — لأن الفصاحة لا تكون فى الكلام الا ابانة — وهذه لا تتضح الا بالمعنى المتعين ، وهذا المعنى محصور فى غرضه الباعث عليه »(١) .

---

(١) اعجاز القرآن للرافعى ص٢٣٤ وما بعدها .

ولعلنا ندرك أن الرافعى قد حالفه التوفيق فى التمييز بين كلام الله وكلام البشر من هـــذا الجانب النفسى — وحقق فى ذلك ما لم يحققه البلاغيون والمتخصصـــون منهم بدراســـة الاعجاز القرآنى ، وذلك على الرغم من تنبههم لأثر البيئة والطبيعة فى الأسالب — غير أنهم لم يطبقوا تلك الدراسات ولم يفيدوا منها فى بحث اعجاز القرآن ولو انهم افادوا من تلك الدراسة فى مناقشـــة الاعجاز القرآنى لحققوا نفعا أكبر .

الفكـــرة قديمـــة :

وعلى الرغم من ادعاء الرافعى أســـبقيته لهـــذا الجانب من الاعجاز فى قوله : « بيد أننا لم نر أحدا كشف عن سر هـــذا المعنى ولا ألم بحقيقته ولا أوضـــح الوجه الذى من أجله خالف أســـلوب القرآن كل ما عرف من أساليب الناس ولم يشبه واحدا منها »(١) .

فانه قد تبين لنا أن هـــذه الطريقة النفســـية فى التفرقة بين كلام الله وكلام البشر ليست من ابتكار الرافعى كما يزعم ، وانما هى قديمة قدم البحث فى بلاغة الأساليب والوقوف على خصائصها ، بل قدم البحث فى الظواهر اللغوية .

فمراعاة أحوال النفس لا يكاد يخلو منه مبحث من مباحث البلاغة والنقد قديما ، وليست الوجهة النفســـية فى دراســـة الأدب وليدة العصر الحديث اطلاقا ولا مقصـــورة على دراسات الغرب ، ولكن هناك نماذج منها فى الدراسات العربية القديمة وفى الدراسات المصرية المعاصرة ، فالقاضى الجرجانى يذكر فى مقدمة وساطته أن عناصر الشـــعر والكتابة لا تلزم طريقة واحدة ، بل تختلف باختلاف الاغراض(٢) .

و « أبو الحسن على بن عيسى الرمانى » يوضح الأثر الذى تحـــدثه الصـــورة البيانية فى العواطف والنفوس(٣) .

---

(١) المرجع السابق ص٢٢٩ وما بعدها .
(٢) انظر : مقدمة الوســـاطة للقاضى الجرجانى ص١٧ وما بعدها .
(٣) انظر : النكت فى اعجازا لقرآن للرمانى ص٨٥ وما بعدها .

وندرك الحظ الأوفى للنفس من خلال كل نكتة بلاغية ، كالذى نراه فى تعليل « عبد القاهر » لبلاغة التقـــديم وسر روعته بما يخلعه على النفوس من ســـكون واطمئنان بعد التشـــويق(١) .

كمـــا عنى « الزمخشرى » فى أبحاثه البلاغية بتوضيح العلاقة بين اختيار الألفاظ والأحوال النفســـية للمخـــاطب ، وبين ايحـــاءات الكلمات وما تلقيه من ظلال معنوية ونفســـية(٢) .

فليست الفكرة جديدة ، أو من ابتكار الرافعى كما يزعم ، فقد عرفنا ان البلاغة العربية لم تبعد عن النفس لحظة واحدة ، وانه ليس هناك مبحث من مباحث البلاغة الا كانت مراعاة أحوال النفس عنصرا بارزا فيه ، بل أن تتبع أحوال النفس كان المنبع الذى صـــدر عنه تعريف البلاغيين لعـــلوم البلاغة ، فالمعانى : علم يعرف به أحوال اللفظ العربى التى بها يطـــابق مقتضى الحال — والبيان : علم يعرف به ايراد المعنى الواحد بطرق مختلفة فى وضوح الدلالة عليه ، وقيده الســـعد بأن يكون مدلولا عليه بكلام مطابق لمقتضى الحـــال ، والبديع : علم يعرف به وجوه تحسين الكلام بعد رعاية تطبيقه على مقتضى الحال وضوح الدلالة(٣) .

فقد لاحظنا من كل ما تقـــدم مقدار ما بين البلاغة والنفس من علاقة واتصال وأنها صـــلة نفســـية بين المتكلم والمخـــاطب ، وترجع الى فهم المتكلمين لنفوس المخـــاطبين(٤) .

كما نرى تلك العلاقة أيضـــا قائمة فى الفاظ اللغة وحروفها اذ لابد من ضرورة مناسبة كل منها للمعنى الذى ورد فيه ، بل نراها تتمثل كذلك فى

---

(١) أنظر دلائل الاعجاز لعبد القاهر الجرجانى ص٩٧ ط . المراغى .

(٢) أنظر : منهج الزمخشرى فى تفســـير القرآن وبيـــان اعجـــازه د . مصطفى الجوينى ص٢٣٢ .

(٣) أنظر : بغية ايضـــاح : ٢٦/١ وما بعدها ، ٢/٢ .

(٤) أنظر : دفاع عن البلاغة ص٣٧ وما بعـــدها والنشـــر الفنى : ٥٢/٢ وما بعـــدها .

الحركات والسكنات التى تبنى منها التفعيلات العروضية ، فقد روعى فى بناء هذه التفعيلات ملاءمتها للأغراض المقصودة طولا وقصرا(١) .

بين الرافعى وابن أبى الحديد :

وغير ما سبق فقد وقعنا على ما يبطل زعم الرافعى بأسبقيته الى اكتشاف هذه الطريقة النفسية فى الوقوف على اعجاز القرآن ، وذلك من خلال كلام قرأناه لابن أبى الحديد فى شرحه نهج البلاغة — وتقرير أنه من كلام الامام على كرم الله وجهه وليس موضوعا عليه — وبالموازنة بين ما ذكره الرافعى وبين ما قاله بن أبى الحديد تبين لنا ان كلام الرافعى كان صورة مما ذكره ابن أبى الحديد — وبعد أن شاهدنا ما ذكره الرافعى نسوق ما ذكره ابن أبى الحديد فى ذلك لنتبين فى جلاء اسرا فالرافعى فى دعواه الى تفرده بكشف هذا الوجه من الاعجاز — يقول ابن أبى الحديد : « لا يخلو اما ان يكون كل « نهج البلاغة » مصنوعا منحولا ، أو بعضه ، والأول باطل بالضرورة — لانا نعلم بالتواتر صحة اسناد بعضه الى أمير المؤمنين عليه السلام ، وقد نقل المحدثون كلهم أوجلهم والمؤرخون كثيرا منه ، وليسوا من الشيعة لينسبوا الى غرض فى ذلك — والثانى : يدل على ما قلناه لأن من قد انس بالكلام والخطابة وشدا طرفا من علم البيان ، وصار له ذوق فى هذا الباب لابد ان يفرق بين الكلام الركيك والفصيح وبين الفصيح والأفصح وبين الأصيل والمولد — واذا وقفت على كراس واحد يتضمن كلاما لجماعة من الخطباء ، أو لاثنين منهم فقط فلابد أن يفرق بين الكلامين ويميز بين الطريقتين ، الا ترى أنا مع معرفتنا بالشعر ونقده لو تصفحنا ديوان أبى تمام فوجدناه قد كتب فى أثنائه قصائد أو قصيدة واحدة لغيره ، لعرفنا بالذوق مباينتها لشعر أبى تمام ونفسه وطريقته ومذهبه فى القريض — الا ترى ان العلماء بهذا الشأن حذفوا من شعره قصائد كثيرة منحولة اليه لمباينتها لمذهبه فى الشعر — وكذلك حذفوا من شعر أبى نواس كثيرا

---

(١) انظر : المزهر للسيوطى : ٤٧/١ وما بعدها والتفسير النفسى للأدب ص٨٠ .

لما ظهر انه ليس من الفاظه — ولامن شعره ، وكذلك غيرهما من الشعراء — ولم يعتمدوا فى ذلك الا على الذوق خاصة . وانت اذا تأملت « نهج البلاغة » وجدته كله ماء واحدا ، ونفسا واحدا وأسلوبا واحدا كالجسم البسيط الذى ليس بعض من ابعاضه مخالفا لباقى الأبعاض فى الماهية وكالقرآن العزيز أوله كأوسطه ، وأوسطه كآخره ، وكل سورة منه وكل آية مماثلة فى المأخذ والمذهب والفن والطريق والنظم لباقى الآيات السور ، ولو كان بعض « نهج البلاغة » منحولا وبعضه صحيحا لم يكن ذلك كذلك ، فقد ظهر لك بهذا البرهان الواضح ضلال من زعم أن هذا الكتاب أو بعضه منحول الى أمير المؤمنين عليه السلاه »(١) .

فلا نجد فرقا بين كلام الرافعى وبين كلام ابن أبى الحديد ، الا ما نراه من دوران كلام ابن أبى الحديد حول اسلوب نهج البلاغة وتأكيد أنه من كلام الامام على كرم الله وجهه لأنه يحكى روحه ومزاجه وقد جاء نمطا واحدا ، فأخذ الرافعى هذا الكلام واثبت به أن اسلوب القرآن الكريم طبقة وحده وفى أعلى درجات البلاغة ، وأسمى منازل الفصاحة ، التى تتطامن بلاغة العرب عن الدنو منها أو اللحاق بها — وذلك لخلوه من أدنى آثار النفس الانسانية ولقد رأينا الرافعى يعترف تلميحا بنقله الفكرة التى بنى عليها كلامه عن « الاعجاز النفسى » وذلك فى قوله : « وقد قيل : ان « نهج البلاغة » مصنوع وضعه الشريف الرضى ونحله أمير المؤمنين ، والصحيح أن فيه الأصيل والمولد ، وربما انفردا وربما تمازجا — ونحن نستطيع بطريقتنا أن نزايل بين ما فيه من ذلك ونبين وضع من وضع — فان المزاجين لمختلفان كما يعرف من صفة على ومن صفة الشريف »(٢) .

فتلك هى فكرة الاعجاز النفسى فى نظر الرافعى — ولقد تبين لنا أن الاعجاز النفسى وثيق الصلة بالاعجاز البلاغى ، ولقد تنبه الاقدمون الى ذلك كما تبين لنا أن الفكرة التى بنى عليها الرافعى كلامه عن هذا الوجه

(١) شرح نهج البلاغة : ابن أبى الحديد ٤٥٧/٣ ط . بيروت .
(٢) اعجاز القرآن للرافعى ص٢٣١ وما بعدها .

من الاعجاز والطريقة التى اعتمد عليها فى التمييز بين كلام الله وكلام البشر من هـذه الناحية فكرة قديمة وطرقة مألوفة — وفقط تظهر براعته ويبرز فضله فى تطبيقها والانتفاع بها فى تجلية الاعجاز القرآنى — ولقد مكنته من ذلك : ثقافته العريضة فى علوم النفس والاجتماع .

ولقد ردد كلام الرافعى عن الاعجاز النفسى ، وسلك هـذا المسلك فى التفرقة بين كلام الله وكلام البشر كثير ممن كتبوا بعده فى اعجاز القرآن(١) .

اسرار الاعجـاز بين البلاغة وعلم النفس :

ولقد أطلت التنقيب فى آثار الرافعى علنى اعثر على أنموذج نستوضح فيه عمليا فكرة الرافعى عن الاعجاز النفسى ، فلم أقف الا على آية واحدة قد عرض الرافعى لتفسيرها ونشر ذلك التفسير فى كتابه : وحى القلم — وكل الذى لمسـناه من آثار هـذه الفكرة هو اسـتعانة الرافعى فى تحليل الآية الكريمة ببعض المبادىء التى يقول بها علماء النفس — وهى على كل حال توضح لنا كيفية استخدام الرافعى للأسس النفسـية والانتفاع بها فى فهم النصـوص . وان لم تكن صـورة واقعيـة لفكرته التى بنى عليها كلامه حول — الاعجاز النفسى — نرى ذلك فى تفسير الرافعى لكلمة (أمة) من قول الله عز وجل : (انا وجدنا آباءنا على أمة) وذلك فى رده على من يقولون بأن الاسلام دين يتعصب للماضى ، فيقول الرافعى : « ان الدين الاسلامى لا يعرف المـاضى بمعنى ما مضى على اطلاقه — بل هو يشترط فيه الا يخالف العقل ولا العلم ، والا يناقض الهداية (قالوا بل نتبع ما الفينا عليه آباءنا أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون » ؟ وفى الآية الاخرى : (قالوا حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا أو ولو كان آباءهم لا يعلمون شيئا ولا يهتدون) ؟ وفى الثالثة : (قالوا بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا أو لو كان الشـيطان يدعوهم الى عذاب السـعير ؟) ، وفى الرابعة : (انا وجدنا آباءنا على أمة وانا على آثارهم مقتـدون . قال أو لو جئتكم بأهدى مما وجـدتم عليه آباءكم ؟) . فانظر كيف ما نسميه اليوم بالجمود فى قوله : (حسـبنا) وكيف

---

(١) أنظر : النبأ العظيم د . محمد عبد الله دراز : ١ ص٩١ وما بعدها واعجاز القرآن لعبد الكريم الخطيب : جـ١ ص١٧٢ وما بعدها .

صــور ما نسميه بالرجعية فى قوله : (نتبع) وتأمل كيف رفض الجمود والرجعيــة معا فى العلم والعقل والهــداية — أى فى آثارها من العلوم والمخترعات والفضائل الانســانية ، وكيف أبطل فى تلك العلات الاحتجاج بالمــاضى بهــذا الاسلوب الدقيق العالى ، وهو قوله فى كل آية : أو لو ، أو لو ، لم يغيرها ، بل كررها بلفظها أربع مرات ، فالمعجــز هنا مجىء الآيات بهــذه الصــورة المنطقية لاســقاط حجتهم — ونفى معنى التقديس عن المــاضى فيهن ، اذ كان العلم دائم التغير وكان العقل دائم التجديد والابداع ، وكانت الهداية شديدة على الطبيعة الحيوانية التى هى ماضى النفس ، فكأنها جديدة على النفس عند كل شــهوة . .

ومن أدق الأسرار قوله : (انا وجدنا آباءنا على أمة) فكلمة (أمة) هــذه لم يعرفها أحد على حقيقتها ، ولم تفسرها الا علوم هــذا الزمن ، فهى المشــاعر النفســية التى يتكون منها مزاج الشعب — وفيها يستقر المــاضى — كأن الآية قد عبرت بآخر ما انتهى اليه علماء النفس : من أن الانسان ابن أبويه وابن شعبه أيضا — فالتعصب فى الاسلام هو للعــلم النافع — وللمجد الصحيح وللهداية الباعثة على الكمال ، وتعصب الجيل لمثل هــذا فى ماضــيه هو فى اســمه تعصب ، غير أنه فى معناه انما هو العقل لتسليم مجد الأمة الى الجيل التالى »(١) .

الاعجاز النفسى بين الرافعى والمعــاصرين :

الاعجاز النفسى كما رأينا احد وجوه الاعجاز عند الرافعى والمنهج النفسى واضح فى كل دراســاته — وفى معظم أبحــاثه — كما أنه أحــد الأصــول التى بنى منها منهجه المتكامل فى النقــد .

والرافعى ينادى باســتخدام هــذا المنهج النفسى فى دراسة البلاغة ويأخذ على البلاغيين التقصير فى اســتخدام ذلك المنهج مما جعل بلاغتهم لا تحقق الهــدف المنشــود منها وهو : ادراك أسرار الاعجاز والوقوف على محاسن الصــورة الأدبية والاحساس بروعتها وجمالها ، فيقول الرافعى :

---

(١) وحى القلم : للرافعى ٢ ص٣١٣ وما بعدها .

« لم يقصر علماؤنا رحمهم الله فى شىء من هــذا الذى وضعوه الا ما كان من فلسفة البلاغة وأسرارها النفســية — فليس لهم فى هــذا الباب الا ما يعد ! على أن طبائع أزمانهم تســوغ لهم أكبر العذر فى اغفاله — وما هو بأول شىء مكن لهم الاهمال فيه ، ولعلنا اذا يسر الله ومد بعونه وبلغت بنا الوسائل أن ننشط يوما لوضع كتاب فى بلاغة القرآن على ما هو فى القرآن نفســه لا ما هو فى كتب البلاغة »(١) .

ويذهب المرحوم الأســتاذ/أمين الخولى كذلك الى ضرورة الاستعانة بأصول علم النفس فى دراسة البلاغة ، ويرى أن استخدام المنهج النفسى فى الأبحاث البلاغية يزيل ما وصلت اليه البلاغة من جفاف وجمود ويعيد لها رونقها وبهاءها ويحقق لها أهدافها ويصل بها الى غايتها المنشــودة فيقول : « والبلاغة وهــذا مكانها فى الدراسة الأدبية قد انتهت الينا فى حال باعدت بينها وبين الروح الفنية ، وأشــاعت فى أوصــالها جفافا وذبولا ، وكستها خشونة وغبرة ، نفرت من درسها وعوقت عن الجدوى منه ، وقد تعالت دعوتنا ودعوة الأدباء من قبل ومن بعد الى اصــلاحها ، فاذا ما أردنا أن نخلصها من ذلك كله فأول العمل فى هــذا السبيل أن نقيمها على ما تعتمد عليه الفنون الرفيعة كلها ، وما هو أصــل أول فيها .. وما ذلك الأصل الا الأصل النفسى .. فأما الذى نريد من عمل المؤدبين فى ســبيل هــذه الغاية ، فهو أن نوثق الصلة بين ذلك الفن القولى والخبرة بالنفس .. وهــذا فى درس البلاغة بخاصة ، بأن تقــدم بين يدى الدرس البلاغى مقدمة نفســية ، وهى أمس به وألزم له .. أرى أن تدرس فى هــذه المقــدمة القوى الانســانية بعامة وما له منها أثر فنى بخاصــته فنعرف غير القليل عن الوجدان ، وعلاقته بمظاهر الشعور الاخرى من ناحية عمله الفنى ، ونعرف مثل ذلك عن الخيال ، والذاكرة والاحساس ، وعن الذوق الذى طال ويطول التحدث عنه فى البلاغة ، بل فى ســائر الفنون جميعا ، كما يجب أن نعرف الكثير عن أمهات الخوالج الانســانية ، من حب وبغض ،

---

(١) اعجــاز القرآن للرافعى ص٢٩١ .

وحزن وفرح ، وغيرة وانتقام ، وما الى ذلك مما هو مادة المعانى الأدبية الكبرى فى الآداب الانسانية كلها ، وعلى الخبرة بحركات النفس فيه ، واتجاهاتها يقوم النقد الفنى ، ذو الاساس ، بل أن البصر بذلك هو مادة النبوغ الفذ وسبيل خلود الآثار الأدبية للمنشئين والناقدين »(١) .

كما يرى الأستاذ/أمين الخولى أن هذا الوصل الوثيق بين البلاغة وعلم النفس له اثر قوى فى اصلاح الحياة الأدبية المصرية ، وفى اصلاح دراسة البلاغة ، وفى تغيير الآراء فى مسائل أدبية أساسية كاعجاز القرآن وتعليله(٢) .

فحسم القول فى قضية الاعجاز القرآنى والوقوف على أسرار الاعجاز فى الكتاب الكريم فى نظر الأستاذ/أمين الخولى لن يتهيأ الا اذا توثقت الصلة بين البلاغة وعلم النفس ، ويقول فى ذلك سوى ما تقدم : « وأبعد من ذلك وأعمق أن تقديرنا صلة البلاغة بعلم النفس سيهدينا فى بحث مسألة قديمة جليلة الخطر ، كانت منذ أول الدهر خالقة البحث البلاغى ومحددة غايته ، وموجهه دراسته ، تلك هى مسألة اعجاز القرآن التى نعرف جميعا أنها أفعل ما أثر فى البحث البلاغى ، وحياة البلاغة العربية ، ونقدر ما كان ولا يزال لها من خطر أدبى وخطر دينى .. ان هذا القرآن من حيث هو فن أدبى معجز ، ثم من حيث هو هدى وبيان دينى ، لن يدار الأمر فيه الا على سياسة النفوس ورياضتها .. فالنظر الصائب اليه والفهم الصحيح له .. لا يقوم الا على ادراك ما استخدمه من ظواهر نفسية ، ونواميس روحية ، أدار عليها بيانه مستدلا وهاديا ومقنعا ومجادلا ومثيرا ومهددا .. فبالأمور النفسية لا غير يعلل ايجازه واطنابه وتوكيده ، واشارته ، واجماله وتفصيله ، وتكراره من اطالته ، وتقسيمه وتفصيله وترتيبه ومناسباته وما قام من تعليل هذه الأشياء وغيرها ، على ذلك الأصل فهو الدقيق

---

(١) البلاغة وعلم النفس : أمين الخولى ص١٤٦ — ١٤٨ .

(٢) المرجع السابق ص١٣٥ .

المنضبط ، وما جاوز ذلك فهو الادعاء والتمحل أو هو أشبه شيء به »(١) .

ويتفق الباحث مع الأستاذ/ أمين الخولى فى قيمة ذلك المنهج فى تفهم البلاغة والوقوف على أسرار الاعجاز على أن يكون ذلك بقدر حتى لا تتحول البلاغة الى قواعد نفسـية ، ويوافقه أيضا على ربط البلاغيين المتقدمين بين البلاغة وعلم النفس على قدر طاقتهم(٢) . كما يوافقه على السـبيل الذى رسـمه لاصلاح البلاغة بتجريدها من الأبحاث الأصولية والمنطقية التى افسـدت بهاءها كبحث الدلالات فى مقـدمة علم البيـان ، وأبحاث الفلسفة المختلفة فى الألوان والطعوم والمـاهيات والحقائق والنسب والصلات من درس التشـبيه والفصل والوصل وغيرهما(٣) .

بينما لا يوافقه البـاحث على حكمـه بالغموض على تعليل البلاغيين للبلاغة فى « تأكيد المدح بما يشـبه الذم » وأفضـلية المجاز على الحقيقة والكنـاية على الافصـاح بالذكر(٤) .

ويرى البـاحث أن تعليل البلاغيين لمـا تقـدم قـد جاء فى غاية الوضوح ، وأنه تعليل فيه الفلسفة البلاغية والنفسـية التى ينادى الرافعى وأمين الخولى بتطبيقها ويأخذان على البلاغة العربية التقصير فيها .

فالرافعى وأمين الخولى يدعوان الى الربط بين البلاغة وعلم النفس ويريان ذلك سبيلا لاصلاح البلاغة ، وتفهم أسرار الاعجاز فى الكتاب الكريم .

كما يذهب الى ذلك كثير من البلغاء والنقـاد المعاصرين الذين يدعون الى افساح المجال بين البلاغة والنقد الأدبى وبين علم النفس لأن الأدب نوع من الفن ، والنفس هى منبع جميع الفنون(٥) .

---

(١) مناهج تجديد فى النحو والبلاغة والتفسير والأدب : أمين الخولى ص١٩٩ — ٢٠٣ .
(٢) أنظر : فن القول : أمين الخولى ص٢٠٥ .
(٣) البلاغة وعلم النفس : أمين الخولى ص١٤٧ .
(٤) أنظر : المرجع السـابق ص١٥٠ — ١٥٢ .
(٥) أنظر : مقالات فى النقـد الأدبى : د . محمود السمرة ص٧٧ . ودراسات فى علم النفس الأدبى : حامد عبد القادر ص١٤ — ١٦ وقواعد =

ويرى البـــاحث تعقيبا على ذلك ان العلاقة بين البلاغة وعلم النفس يجب أن تتم بالقدر المسموح به وأن استخدام الأسس النفســـية فى البحث البلاغى يجب أن تحدث بلا مغالاة حتى لا تفقد العلوم صـــفاتها الأساسية وتذوب فى بعضـــها(١) .

فالمغالاة فى تلك الصلة تجعل النص الأدبى يفقد روحه ويذوب ويتحلل وســـط نظريات علم النفس المتشعبة ، بل ان خطر هـــذه الدراسات ان استبدت بالنص الأدبى أنها تجعلنا ننسى أن تقويم العمل الأدبى من الناحية الفنية هو وظيفة النقد الأدبى ، حين نندفع فى تطبيقات لنظريات علم النفس ، أو تحليلات مبنية على تلك النظريات ، تستوى فيها دلالة النص الجيد ودلالة النص الردىء ، ومن هنا وجدنا كل هـــذه الدراسات المستفيدة من علم النفس نظرية محضـــة لم تحاول أن تلج الى النص فتبين ما فيه من ابداع وما فيه من اشراقة الجمال التى تحبب الفن الى القلوب ، والتى هى سر خلود الفن ومصـــدر تأثيره(٢) .

نزول القرآن بين اللفظ والمعنى :

لقد استخدم الرافعى المنهج النفسى الذى اســـتند اليه فى التمييز بين كلام الله وكلام البشر فى حسم القول فى عدد من القضـــايا القرآنية التى طال حولها الجدل وكثر فيها النقاش ، وفى مقدمة تلك القضـــايا : ظاهرة التكرار فى القرآن الكريم ، وتلك الظاهرة المشار اليها وهى : أكان نزول القرآن باللفظ أم بالمعنى ؟

أما ظاهرة التكرار فقد عرضنا لها فيما سبق ، وانتهينا الى أن التكرار فى القرآن الكريم من عناصر بلاغته ومن خصائص نظمه وأن وروده فى القرآن مما حقق للعرب عجزهم بالفطرة عن معارضته ، لأن المعنى الواحد يتردد

= النقد الأدبى لاسل آبركرمبى ص٣٥ والتفسير النفسى للأدب : د . عز الدين اســـماعيل ص١٣ .

(١) النقد والنقاد المعاصرون : د . محمد مندور ص١٠٤ .

(٢) المذاهب النقدية : د . ماهر حسن فهمى ص١٧٤ .

فى أسلوبه بصورتين أو صور كل منها غير الأخرى وجها أو عبارة ، وهم على ذلك عاجزون عن الصورة الواحدة ، ومستمرون على العجز لا يطيقون ولا ينطقون وهذا أبلغ فى الاعجاز وأشد عليهم فى التحدى(١) .

وأما قضية وحى القرآن باللفظ أو المعنى فهو أمر قد اختلفت فيه الفرق الاسلامية فللأشعرية قول وللمعتزلة رأى وللحنابلة مذهب ، وثم فرق أخرى لها آراء مختلفة ، ومعظمها مما لا يسكن اليه العقل ولا يطمئن اليه القلب(٢) .

وبهذا المنهج النفسى يحسم الرافعى النزاع فى هذه القضية ويرى أن القرآن قد نزل بالألفاظ ، ولو لم ينزل بالألفاظ ، وكانت الألفاظ له عليه الصلاة والسلام لظهر فيها أسلوبه قليلا أو كثيرا ولما كان من حاجة الى نزول القرآن آية فآيتين الى عشر ، بل كان يحدث عن المعنى الذى ينطبع فى روحه جملة واحدة ، وفوق ذلك فهذه حالة تستدعى وقوع التفاوت فى أجزاء القرآن وهو غير واقع(٣) .

فيفصل الرافعى القول ويحسم النزاع فى هذه القضية التى لم يتمكن المفسرون باستثناء الزمخشرى من حسمها لعدم أخذهم بهذه الجوانب النفسية ، فأخذوا يكثرون من التأويلات والتخريجات فى قول الله عز وجل : (نزل به الروح الأمين ، على قلبك لتكون من المنذرين ، بلسان عربى مبين) الا أن الزمخشرى يدركه التوفيق ، فيفطن من ذلك الى خاطرة نفسية دقيقة ، يكشف بها قتام الموقف ، ويهون المعضلة ، اذ يعلق قوله تعالى : « بلسان عربى مبين » بالفعل « نزل » ويجعل المعنى هكذا : نزل به الروح الأمين على قلبك بلسان عربى مبين لتكون من المنذرين ، ثم يبين كيف يكون النزول على القلب بلسان عربى مبين فيقول : ولو كان أعجميا لكان نازلا على سمعك دون قلبك ، لأنك تسمع أجراس حروف لا تفهم معانيها ولا تعيها ، وقد يكون الرجل عارفا بعدة لغات ، فاذا كلم بلغته التى لقنها

---

(١) اعجاز القرآن : الرافعى ص٢٢١ .
(٢) انظر : من رسائل الرافعى : محمود أبو رية ص٧٣ .
(٣) المرجع السابق ص٧٤ .

اولا ، ونشـــأ عليها ، وتطبع بها لم يكن قلبه الا الى معانى الكلام يتلقاها بقلبه ، ولا يكاد يفطن للألفاظ كيف جرت ، وان كلم بغير تلك اللغة ، وان كان ماهرا بمعرفتها،كان نظره أولا فى ألفاظها ثم فى معانيها ، فهـــذا تقرير أنه نزل على قلبه « لنزوله بلسان عربى مبين » وبذلك المنهج النفسى فى فهم حال المتكلم بلغته الأم ، وحال المتكلم بغيرها كشف الزمخشرى ظلمة الموقف وهون الأمر حتى عنـــد من لا يرى أنه حل المســـألة حلا نهائيا ، وبهـــذا جعل الاحتجاج بالآية على النزول بالمعنى دون اللفظ يبدو واهنا(١) .

وبعد : فنختم حديثنا عن « الاعجاز النفسى » عند الرافعى بتقرير أنه من حســـناته العظيمة ، وأنه قد جعل لدراسته عن الاعجاز ســـمتا معينا وطابعا فريدا ، وكاد الرافعى بهـــذه اللمحات النفســـية يكون منهجا وحده فى دراســـة الاعجاز القرآنى .

وان كنا نأخذ عليه أنه لم يؤكد نظرياته ولم يطبق عليها بآيات من الذكر الحكيم ، وكان يعمل على افراد كتاب برأسه لهـــذا الجانب التطبيقى ، غير أن المنية قد عاجلته عن اتمامه . فرحمه الله وجزاه أجزل ثواب .

---

(١) أنظر : مناهج تجديد فى النحو والبلاغة والتفسير والأدب : أمين الخولى ص٢١٢ ، ٢١٣ .

الفصل الرابع

الرافعى وأسلوب القرآن

لقد وقف الرافعى طويلا عند أسلوب القرآن ليبين أنه قد جاء مخالفا للمعهود من أساليب العرب ومغايرا للمألوف من كلامهم — ومباينا للطرق التى جروا عليها فى محاوراتهم ومخاطباتهم — وعد ذلك التباين وهـذا التفرد والتغاير وجها قويا من أوجه الاعجاز قائلا فى ذلك : « وهـذا الأسـلوب نانما هو مادة الاعجاز العربى فى كلام العرب كله ، ليس من ذلك شىء يمكن أن يكون معجزا »(١) .

أما أسلوب القرآن الذى اعتبر الرافعى مباينته لأساليب العرب وجها من أوجه اعجازه فيتمثل عنده فى تلك الهيئة التركيبية التى وردت على ألفاظ العرب ومعانيهم ولكن فى بناء وحـكم وتركيب متقن ، ونسج بديع .

بين أسـلوب القرآن وأساليب البشر :

أما وجوه التفـاوت بين الأسلوب القرآنى والأسلوب العربى فيتمثل عند الرافعى أولا فى : روعة بناء الأسلوب القرآنى وأحكام نسـجه على الرغم من أن مادته هى المـادة التى تكون منهـا الكلام العربى ، فيقول الرافعى : « وقد كانوا يتساجلون الكلام ويتقارضون الشـعر ، ويتناقضون فى أغراضه ومعانيه ، حين لم يكن من الفرق عند فصحائهم بين فن وفن من القول الا ما يكون من تفاوت المعانى واختلاف الأغراض ، وسـعة التصرف ، وكان أسلوب الكلام قبيلا واحدا وجنسا معروفا ، ليس الا الحر من المنطق والجزل من الخطاب ، والا اطراد النسـق وتوثيق السرد وفصاحة العبارة وحسن ائتلافها ، ولا يغتصـبون لفظة ، ولا يطردون كلمة ، ولا يتكلفون لتركيب .. وانما تؤاتيهم الفطرة ، وتمدهم الطبيعة ، فتتسق الألفاظ الى ألسنتهم — وتتوارد على خواطرهم — وتجرى مع أوهامهم — وتستجيب فيهم لكل حركة من النفس لفظة المعنى الذى هو أصل هـذه الحركة ، ثم لا تكون هـذه اللفظة الا كأنها خلقت لذلك المعنى خلقا — وأفرغت عليه

---

(١) اعجاز القرآن للرافعى ص٢١٣ ط . ثامنة .

افراغا حتى لا يناسبه غيرها فيما يلتئم على لسان المتكلم ولا يكون فى موضعها اليق منها فى مذهبه ولحن قومه وطريقة لغته »(١) .

ويوضح الرافعى المجالات التى تبرز فيهـا البراعة والميادين التى يظهر فيها التنافس والسبق فى كلام العرب ، ثم يرى أن هـذه المقاييس الجمالية قد هدمها القرآن بنظمه البديع وأسلوبه المحكم ، فلم تكن دهشتهم من الفاظه التى جاء كلامهم مبنيا منها ، وانما كانت حيرتهم من ذلك التركيب العجيب ، وهـذا البنـاء الدقيق الذى جاء مخالفا لمـا الفـوه ومغايرا لمـا اعتادوه — وأنه لمـا ورد عليهم أسلوب القرآن رأوا الفاظهم بأعيانها متسـاوقة فيما الفوه من طرق الخطاب ، والوان المنطق — ليس فى ذلك اعنات ولا معـاياة ، غير أنهم ورد عليهم من طرق نظمه ، ووجوه تركيبه ونسـق حروفه فى كلماتها ، وكلماته فى جملها ، ونسـق هـذه الجمل فى جملته ما أذهلهم عن أنفسهم من هيبة رائعة ، وروعة مخوفة ، وخوف تقشـعر منه الجلود — حتى أحسوا بضعف الفطرة القوية ، وتخلف الملكة المستحكمة ، ورأى بلغاؤهم أنه جنس من الكلام غير ما هم فيه ، وأن هـذا التركيب هو روح الفطرة اللغوية فيهم .

كما يبين الرافعى أنه لم يكن عجز العرب عن المعارضة الا لمـا راوه من هـذا الاحكام وتلك الدقة فى هـذه الهيئة التركيبية التى تكونت من الفاظ العرب ، واستعملت فى الأغراض التى كانت تستعمل فيها ، لكن على نمط بديع ، وطراز فريد وبنـاء متين حير ألبابهم فما وجدوا الى معارضـته سـبيلا اذ لم يكن هناك مجال لمعارضـة — وقد اسـتيقن بلغاء العرب كل ذلك فاستيئسوا من حق المعارضة — اذ وجدوا من القرآن ما يغمر القوة ويحيل الطبع ويخاذل النفس مصـادمة لا حيلة ولا خدعة وانما سبيل المعارضة الممكنة التى يطمع فيها أن يكون لصـاحبها جهة من جهات الكلام لم تؤخذ عليه ، وفن من فنون المعنى لم يسـتوف قبله وباب من ابواب الصـنعة لم يصفق من دونه ، وأن تكون وجوه البيـان له معرضة يأخذ فى هـذا ويعدل عن ذلك ، حتى يستطيع أن يعارض الحسـنة بالحسنة ،

---

(١) المرجع السـابق .

ويضـــع الكلمة بازاء الكلمة ، ويقابل الجملة بالجملة ثم يصير الأمر بعـــد ذلك الى مقدار التأثير الذى يكون لكلامه والى مبلغه فى نفوس القوم ، من تأثير الكلام الذى يعارضـه .. فأما أن يكون الكلام الذى يقصد اليه بالمعارضة كهـــذا القرآن : أحكم دقيقه وجليله ، وامتنع كثيره وقليله ، وأخذ منـــافذ الصـــنعة كلها — واستبرأ المعنى الذى هو فيه الى غايتـــه ، وقطع على صاحبه أمر الخيار فى الوجه الذى يعارضـــه منه — وكان من وراء ذلك بابا واحدا فى امتناعه ، لا موضع فيه للتصـــفح ولا مغمز للثقاف ، ولا مورد للمقـــالة ، وقد توثقت علائقه ، وترادفت حقـــائقه ، وتواردت على ذلك دقائقه ، ثم كانت جملته قد أحرزت عناصر الفطرة البيانية وجمعت فنونها ، واحتوت من الكمال الفنى ما كان احســـاسا صرفا فى نفوس أهله ، يشعرون به وجـــدانا ، ولا يقـــدرون على اظهـــاره بيانا فذلك ما لا سبيل للنفس الى المكابرة فيه بحال من الأحوال ، أو ابتغائه بالمعارضة ومطاولته بالقـــدرة على مثله ، اذ هو بطبيعته المعجزة لا ترى فيه النفس الا مثالا للعلم تعرف به مقدار ما انتهت اليه من أحكام العمل(١) .

أما الزاوية الثانية التى يظهر فيها التفاوت بين أســـلوب القرآن وأسلوب البشر عند الرافعى فهى : التزام الأسلوب القرآنى الاحكام والقوة فى كل المواقف ، ومع جميع المعانى والأغراض على خلاف أساليب البلغاء التى يتعاورها القوة والضعف وينتابها الوضوح والخفاء من معنى الى معنى ومن موضع لآخر — فيقول الرافعى فى ذلك : « ذلك هو وجه تركيبه — أو هو أسلوبه — فانه مباين بنفســـه لكل ما عرف من أساليب البلغاء فى ترتيب خطابهم وتنزيل كلامهم ، على انه يؤاتى بعضه بعضا ، وتناسب كل آية منه كل آية أخرى فى النظم والطريقة على اختلاف المعنى وتباين الأغراض ، سواء فى ذلك ما كان مبتدأ به من معانيه واخباره وما [illegible] متكررا فيه ، فكأنه قطعة واحدة ، على خلاف ما انت واجده فى كلام كل بليغ من التفاوت باختلاف الوجوه التى يصرفه اليها والعلو فى موضع ، والنزول فى موضع ، ثم ما يكون من فترة الطبع ومسحة النفس فى وجهة بعث عليها الملل ، أو جهة استؤنف لها النشـــاط ، ثم ما لابد منه من الاجادة فى بعض الأغراض

---

(١) انظر : المرجع السابق ص ٢٠ وما بعدها .

والتقصير فى بعضها ، مما يختلف البلغاء فى علمه والاحاطة به ، أو التأتى له والانطباع عليه ، وهـذا كله معروف متظـاهر فى الناس لا يسـتوى فيه أحـد »(١) .

ولقد تبين لنا أن كلام الرافعى السـابق يكاد يكون تلخيصا لمـا ذكره « الباقلانى » — اذ يعد التفـاوت بين أسلوب القرآن وأسلوب البشر من هـذه الجهـة وجها من وجوه الاعجاز الثلاثة التى يرى الاعجاز فيها ، ولنستمع لمـا ذكره الباقلانى عن هـذا الوجه من الاعجاز لنلمس فى وضوح محـاكاة الرافعى له وذلك كعـادته كثيرا من غير أن يشير اليه فيقول « الباقلانى » : « وفى ذلك معنى ثالث : وهو أن عجيب نظمه وبديع تأليفه لا يتفاوت ، ولا يتباين ، على ما يتصرف اليه من الوجوه التى يتصرف فيها ، من ذكر قصص ومواعظ واحتجاج وحـكم وأحكام واعذار وانذار ووعد ووعيد وتبشير وتخويف وأوصاف وتعليم أخلاق كريمة ، وشيم رفيعة ، وسير مأثورة ، وغير ذلك من الوجوه الى يشتمل عليها ، ونجد كلام البليغ الكامل والشاعر المفلق ، والخطيب المصقع ، يختلف على حسب اختلاف هـذه الأمور ، فمن الشـعراء من يجود فى المدح دون الهجو ومنهم من يبرز فى الهجو دون المدح ، ومنهم من يسـبق فى التقريظ دون التأبين ومنهم من يجود فى التأبين دون التقريظ ، ومنهم من يغرب فى وصف الابل أو الخيل أو سير الليل أو وصف الحرب أو وصف الروض أو وصف الخمر أو الغزل ، أو غير ذلك مما يشتمل عيه الشـعر ويتداوله الكلام .. ثم نجد فى الشعراء من يجود فى الرجز ولا يمكنه نظم القصـيد أصلا ، ومنهم من ينظم القصيد ولكن يقصر فيه مهما تكلفه أو عمله ، ومن الناس من يجود فى الكلام المرسل فاذا أتى بالموزون قصر ونقص نقصـانا عجيبا ، ومنهم من يوجد بضد ذلك ، وقد تأملنا نظم القرآن فوجدنا جميع ما يتصرف فيه من الوجوه التى قـدمنا ذكرها على حد واحد ، فى حسن النظم ، وبديع التأليف والرصف ، لا تفاوت فيه ، ولا انحطاط عن المنزلة العليا ، ولا اسـفال فيه الى الرتبة الدنيا ، وكذلك قد تأملنا ما يتصرف اليه وجوه الخطاب من الآيات الطويلة والقصيرة فرأينا الاعجاز فى جميعها على حـد واحد لا يختلف ، وكذلك قد يتفاوت

(١) المرجع السـابق ص٢٢٩ .

كلام الناس عند اعادة ذكر القصة الواحدة ، فرأيناه غير مختلف ولا متفاوت ، بل هو على نهاية البلاغة ، وغاية البراعة ، فعلمنا بذلك أنه ما لا يقدر عليه البشر ، لأن الذى يقدرون عليه قد بينا فيه التفاوت الكثير عند التكرار ، وعند تباين الوجوه واختلاف الأسباب »(١) .

فلعلنا ندرك أن الرافعى لم يزد شيئا فى كلامه عن هذا الجانب من التفاوت بين كلام القرآن وكلام البشر على ما ذكره « الباقلانى » واعتبره وجها من وجوه النظم القرآنى هذا من غير أن يشير الرافعى كما ذكرنا الى الباقلانى بكلمة واحدة .

ويأتى الرافعى الى الجهة الثالثة التى يظهر فيها البون البعيد بين اسلوب القرآن واسلوب البشر فيرى أن أسلوب القرآن طبقة وحده ولا يمكن رده الى نمط معين من اساليب البشر لأنا لا نرى فيه شيئا مما نراه فى اساليب البشر التى تحكى طباع أصحابها وتصور أمزجتهم واتجاهاتهم وعلى الرغم من تنبيه الأقدميين لذلك فلم يشر الرافعى اليهم . اذ قد عرفنا فيما سبق أن النقاد والبلاغيين قد تحدثوا عن تاثير البيئة فى أدب الكتاب وشعر الشعراء — واختلاف أحوال الكتا بباختلاف طبائعهم وعاداتهم — وعن تمثيل الأسلوب لصاحبه وأنه مرآه تحكى أخلاقه وطباعه ومزاجه(٢) .

ولم يقتصر الرافعى على اغفال ذكر السابقين وعدم التنويه بأثرهم فى ذلك ، بل نراه يذهب الى أبعد من هذا حيث يدعى التفرد بأسبقيته الى ابتكار هذا الجانب — ومن ذلك قوله : « وليس من شىء فى أسلوب القرآن يغض من موضعه ، أو يذهب بطريقته ، أو يدخله فى شبه من كلام الناس ، أو يرده الى طبع معروف من طباع البلغاء وما من عالم أو بليغ الا وهو يعرف ذلك ، ويعد خروج القرآن من أساليب الناس كافة دليلا على اعجازه ، وعلى أنه ليس من كلام انسان ، بيد أننا لم نر أحدا كشف

---

(١) اعجاز القرآن للباقلانى ص٦٤ وما بعدها ط . أولى .

(٢) أنظر : الوساطة : للقاضى الجرجانى ص٢٤ ط . رابعة ، ومن الوجهة النفسية د . محمد خلف الله ص١٠٢ وما بعدها .

من سر هـــذا المعنى ، ولا الم بحقيقته ، ولا أوضح الوجه الذى من اجله خالف أسلوب القرآن كل ما عرف من اساليب الناس ولم يشـــبه واحـــدا منهـــا »(١) .

ويمضى الرافعى فى توضـــيح هـــذا المقيـــاس النفسى الذى نتمكن بوساطته من التعرف على الأساليب والموازنة بينها وردها الى اصـــحابها بعد أن نعرف طباعهم واتجاهاتهم ، وينتهى الى اســـتحالة مثل ذلك فى الأسلوب القرآنى لأنه قد جاء قبيلا واحدا ليس فيه أدنى أثر للنفس الانسانية فيقول : « من ذلك يخلص لنا ان القرآن الكريم انما ينفرد بأسلوبه لأنه ليس وضـــعا انســـانيا البتة ، ولو كان من وضـــع انســـان لجاء على طريقة تشـــبه أسلوبا من اساليب العرب أو من جاء بعدهم الى هـــذا العهد ، ولا من الاختلاف فيه عند ذلك بد فى طريقته ونســـقه ومعانيه (ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا) ولقد أحس العرب بهـــذا المعنى واستيقنه بلغاؤهم ولولاه ما أفحموا ولا انقطعوا من دونه ، لأنهم رأوه جنسا من الكلام غير ما تؤديه طبـــاعهم ، وكيف لهم فى معارضـــته بطبيعة غير مخلوقة ؟ »(٢) .

فالرافعى كما رأينا يدعى السبق الى ابتكار هـــذا الجانب النفسى فى مباينة أسلوب القرآن لأسلوب البشر ، وهى دعوى مردودة بما سبق من كلام النقـــاد والبلاغيين عن تأثر الأسلوب بأحوال البيئة والظروف الاجتماعية ، واشـــارة الباقلانى الى اختلاف الأسلوب وتباين طرائق الكتاب اشارة واضـــحة .

فالمقطوع به أن كلام الرافعى عن هـــذا الجانب كان بسطا لمـــا ذكره الباقلانى كما كان كلامه على اختلاف أســـاليب الكتا بباختلاف المعـــانى والأغراض تلخيصا كذلك لمـــا ذكره الباقلانى .

---

(١) اعجاز القرآن للرافعى ص٢٢٩ وما بعـــدها .
(٢) اعجاز القرآن للرافعى ص٢٣٢ .

ولنستمع لما ذكره « الباقلانى » فى كيفية التعرف على الأساليب ونسبتها الى أصحابها لندرك أن الرافعى لم يزد شيئا عما ذكره الباقلانى ، ولم يكن كلامه الا ايضاحا لما أجمله — فيقول الباقلانى : « ولا يخفى على أحد يميز هذه الصنعة سبك أبى نواس ، ولا نسج ابن الرومى من نسج البحترى ولا يخفى عليه فى زماننا الفصل بين رسائل عبد الحميد وطبقته ، وبين طبقة من بعده ، حتى انه لا يشتبه عليه ما بين رسائل ابن العميد وبين رسائل أهل عصره ومن بعده ممن برع فى صناعة الرسائل وتقدم فى شاوها حتى جمع فيها بين طرق المتقدمين وطريقة المتأخرين ، حتى خلص لنفسه طريقة ، وانشأ لنفسه منهاجا ، فسلك تارة طريقة الجاحظ ، وتارة طريقة السجع وتارة طريقة الاصل ، وبرع فى ذلك باقتداره وتقدم بحذقه ولكنه لا يخفى مع ذلك على أهل الصنعة طريقه من طريق غيره وان كان قد يشتبه البعض ، ويدق القليل ، وتغمض الأطراف ، وتشذ النواحى .

وكذلك لا يخفى عليهم معرفة سارق الألفاظ وسارق المعانى ، ولا من يخترعها ولا من يلم بها ، ولا من يجاهر بالأخذ ممن يكاتم ، ولا من يخترع الكلام اختراعا ويبتدهه ابتداها ، ممن يروى فيه ، ويجيل الفكر فى تنقيحه ويصبر عليه حتى يتخلص له ما يريد ، وحتى يتكرر نظره فيه »(١) .

وينتهى « الباقلانى » الى تقرير أن من يمكنه التعرف على ذلك والوصول اليه ، وتبين الفروق بين الأساليب لا يخفى عليه مباينة أسلوب القرآن لكل الأساليب قائلا : « فكيف خفى عليهم الجنس الذى هو بين الناس متداول ، وهو قريب متناول ، من أمر يخرج عن أجناس كلامهم ، ويبعد عما هو فى عرفهم ، ويفوت مواقع قدرهم — واذا اشتبه ذلك فانما يشتبه على ناقص فى الصنعة أو قاصر عن معرفة طرق الكلام الذى يتصرفون فيه ، ويديرونه بينهم ولا يتجاوزونه فلكلامهم سبل مضبوطة ، وطرق معروفة محصورة »(٢) .

---

(١) اعجاز القرآن للباقلانى ص١٥٢ وما بعدها .
(٢) المرجع السابق ص١٥٥ وما بعدها .

فلا نرى فرقا يكاد يذكر بين كلام الرافعى والباقلانى عن هـذا الجانب الا فى تلك اللمسات النفسـية التى اضافها الرافعى ، كاختلاف الأساليب باختلاف الأمزجة وغيرها .

كما أفاد الرافعى فى حديثه عن التفاوت بين أسلوب القرآن وأساليب البشر من هـذه الجهة بما ذكره « ابن أبى الحديد » فى « شرح نهج البلاغة » فقد أثبت عمليا وبهـذه الطريقة النفسية أنه من كلام الامام على كرم الله وجهه وليس موضوعا عليه(١) .

فدعوى الرافعى الى ابتكار هـذا المقياس النفسى فى اظهار التباين بين كلام الله وكلام البشر مردودة ، وهو يرد كما شاهدنا ما ذكره الباقلانى وابن أبى الحـديد .

أسـلوب القرآن بين الرافعى والقـدماء :

لقد عرفنا أن الرافعى يعد مبـاينة الأسـلوب القرآنى لأسـالب البشر وجها من وجوه اعجازه ، ويحكى ما ذكره الباقلانى من وجوه هـذا التباين دون أن يشير اليه — ولم يتفق الأقدمون حول مدخلية هـذا الوجه فى الاعجاز — فمنهم من عده من وجوه الاعجـاز كالباقلانى الذى تأثر به الرافعى كثيرا فى ذلك ولخص معظم ما ذكره فى هـذا الجانب دون أن ينبه عليه — ولقد سـبق أن ذكرنا أن الباقلانى يجعل مباينة النظم القرآنى للمعهود من جميع أساليب العرب ، ميزة من ميزاته وخاصة من خواصه ، بل وجها من وجوه اعجـازه ، ومن قوله فى ذلك : « ان نظم القرآن على تصرف وجوهه خارج عن المعهود من نظام جميع كلامهم ومباين للمألوف من ترتيب خطابهم — وله أسلوب يختص به ويتميز فى تصرفه عن أساليب الكلام المعتاد ، وذلك أن الطرق التى يتقيد بها الكلام البديع المنظوم تنقسم الى أعاريض الشعر على اختلاف أنواعه ثم الى أنواع الكلام الموزون غير المقفى ، ثم الى أصناف الكلام المعدل المسجع ثم الى معدل موزون غير مسجع ، ثم الى ما يرسل ارسالا فيتطلب فيه الاصـابة والافادة وافهام المعانى المعترضة على وجه بديع وترتيب لطيف وان لم يكن معتدلا فى وزنه ، وذلك شـبيه

---

(١) أنظر : ابن أبى الحديد : شرح نهج البلاغة ٤٥٧/٣ ط . بيروت .

بجملة الكلام الذى لا يتعمل ولا يتصنع له وقد علمنا ان القرآن خارج عن هـــذه الوجوه ومباين لهـــذه الطرق »(١) .

كذلك نجد من الذين اقتدى بهم الرافعى فى عد هـــذ الوجه من اعجاز القرآن «أبو الحسن على بن عيسى الرمانى » اذ راى أن ذلك من نقض العادة حيث أن العادة كانت جارية بضروب من أنواع الكلام معروفة : منها الشعر ومنها السجع ومنها الخطب ومنها الرسائل ومنها المنثور الذى يدور بين الناس فى الحديث ، فأتى القرآن بطريقة مفردة خارجة عن العادة لها منـــزلة فى الحسن تفوق كل طريقـــة ، ولولا أن الوزن يحسن الشـــعر لنقصت منزلته فى الحسن نقصـــانا عظيما .. ولذلك من جاء بغير الوزن المعروف فى الطباع الذى من شأنه أن يحسن الكلام بما يفوق الموزون فهو معجـــز(٢) .

كما كان القاضى عياض من الذين تأثر بهم الرافعى فى هـــذا الوجه من الاعجاز ، اذ عد القاضى عيـــاض ضمن الوجوه التى ذكرها فى اعجاز القرآن : صـــورة نظمه العجيب ، والأسلوب الغريب المخالف لأســـاليب كلام العرب ومنـــاهج نظمها ونثرها الذى جاء عليه ، وقفت مقـــاطع آية وانتهت فواصل كلماته اليه ، ولم يوجد قبله ولا بعده نظير له ولا استطاع أحـــد مماثلة شىء منه ، بل حارت فيه عقـــولهم ، وتدلهت دونه أحلامهم ، ولم يهتدوا الى مثله فى جنس كلامهم من نثر أو نظم أو سجع أو رجز أو شـــعر(٣) .

هكـــذا رأينا الرافعى يقتدى بهؤلاء الســـابقين فى عد هـــذا الوجه من الاعجاز ولا نراه يذكرهم أو يشير اليهم ، كما كان تأثره زائدا بالباقلانى فى موازنته بين أسلوب القرآن وأســـاليب البشر . اذ حكى معظم كلامه فى ذلك دون أن يشير اليه كما مر .

---

(١) اعجاز القرآن للباقلانى ص٦٣ .
(٢) انظر : النكت فى اعجاز القرآن للرمانى ص١١١ .
(٣) انظر : الشـــفاء للقـــاضى عياض : جا ص١٧٠ وما بعـــدها ط . أخيرة .

وكان الى جوار هؤلاء الذين اقتدى بهم الرافعى فى عد هـــذا الوجه من الاعجاز غيرهم ممن ينفون ان تلك المعاينة وجها من الاعجاز .

فالقاضى « عبد الجبار » ينكر أن يجعل هـــذا التباين وجها من أوجه الاعجاز والا لزم أن كل من بدأ شـــيئا وسبق اليه يعده اعجازا ويعتبر عمله معجزة . ويقول فى ذلك : « فلم يكن بالســـبق اعتبار دون أن ينضاف اليه ما ذكرناه من تعذر مثله على غيره — وخروجه من المعتاد — ولو كان السبق الى الشعر من باب الاعجاز لكان كل وزن منه وكل بحر يقتضى الاعجاز — ولصح ادعاء الاعجاز فى كل زمان بابتداع وزن مخالف لمـــا جرت به العادة .. وانما يدل على النبوة ما يخرج عن طريق العادة فى الوقوع والتمكن ، فكيف يصح اعتبار الســـبق فى هـــذا الباب .. ولهـــذه الجملة جوزنا أن يقع السبق الى الصـــناعات وما جرى مجراها ، والا يكون ذلك معجزا لتمكن الغير من المشـــاركة .. ولو كان السبق يؤثر فى ذلك لوجب اذا تمكن أحدنا من ابتداء لغة أن يكون ذلك معجزا ، فلما لم يجز ذلك لصحة المشـــاركة ، فكذلك القول فيما عداه »(١) .

كذلك يعارض الامام «يحيى بن حمزة العلوى » بشـــدة أن تكون مباينة اسلوب القرآن لجميع الأساليب من أوجه اعجازه — ويرى أن ذلك فاســـد لأوجه أولها : انه لو كان مطلق الأسلوب معجزا ، لكان أســـلوب الشعر معجزا وهكـــذا اسلوب الخطب والرســـائل يلزم كونه معجزا ، وثانيها : أن الأسلوب لا يمنع من الاتيان بأسلوب مثله — فلو كان الأمر كذلك جازت معارضـــة القرآن بمثله — لأن الاتيان بأسلوب يماثله سهل ويسير على كل احد ، وثالثها : انه لو كان الاعجاز انما كان من جهة الأسلوب لكان ما يحكى عن (مسيلمة) الكذاب معجزا ، ورابعها : انه لو كان وجه اعجازه الأسلوب لمـــا وقع التفاوت بين قوله تعالى : « ولكم فى القصاص حيـــاة » وبين قول الفصـــحاء من العـــرب : (القتل أنفى للقتل) لأنهما مســـتويان فى الأسلوب ، فلما وقع التفاوت بينهما دل على بطلان هـــذه المقـــالة(٢) .

---

(١) المغنى للقاضى عبد الجبار : ١٦ ص٢١٦ وما بعدها .
(٢) أنظر : الطراز للعلوى : ٣ ص٣٥ وما بعدها .

فلهـذه الأسباب ينكر العلوى أن يجعل هـذا الوجه من الاعجاز ، وهى أيضا نفس الأسباب التى اعتمد عليها الرازى من قبله فى نفى مدخلية هـذا الوجه فى تحقيق الاعجاز(١) .

أسـلوب القرآن بين الرافعى والمعـاصرين :

واذا كان القدامى كما رأينا قد اختلفت آراؤهم حول مدخلية هـذا الوجه فى تحقيق الاعجاز ، وانقسموا الى طائفتين : واحـدة تعـده من أوجه الاعجاز ويحاكيها الرافعى فى ذلك وذكرنا من هـذه الطائفة الرمانى والباقلانى والقاضى عياض ، والثانية : تنكر أن يجعل لهـذا الوجه مدخل فى تحقيق الاعجاز ، وذكرنا منها القاضى عبد الجبار والرازى والامام : يحيى ابن حمـزة العلوى ، فان جـدالا عنيفا وخلافا حادا قد دار بين كثير من المعاصرين حول الأسلوب القرآنى من حيث موافقته أو مباينته للمعهود من أسـاليب العرب .

وقد عرفنا رأى الرافعى : وانه يرى مباينة الأسلوب القرآنى للمعهود من أساليب العرب ويعد ذلك من وجوه اعجازه كما وقفنا على الموازنات التى ادارها بين الأسـلوب القرآنى وأسـاليب البشر مما كان يردد فيه كلام البـاقلانى .

فيرى فريق من المعاصرين عدا الرافعى أن أسـلوب القرآن من جنس كلام العرب — ومن نوع أساليبهم — وعلى رأس ذلك الفريق الدكتور (زكى مبـارك) اذ يرى أن أسلوب القرآن لم يختلف فى شىء عن أسلوب العرب وأن القرآن عربى ، وقد أنزل على قوم يفهمونه ويتكلمون بلسان عربى وكان لهم ادب قوى متين يقرب فى روحه وأسـلوبه من روح القرآن وأسـلوبه فان البيئة واحدة والعصر واحد ، ولم يكن محمد صلى الله عليه وسلم الا بشرا الهم هداية قومه كما صرح القرآن غير مرة — والقرآن نفسه قد وصـف العرب فى عدة مواطن بأنهم أهل فصـاحة وجدل وخصومة وعناد — ولم تكن فصـاحتهم صـمتا ، ولا جـدلهم سـكوتا ، ولا خصـومتهم فرارا — ولا عنادهم انهزاما — ولكنهم بالفعل قابلوا القول بالقول والسـيف

(١) انظر : نهاية الايجاز فى دراية الاعجاز للرازى ص٦ .

بالسيف نحو ثلث قرن الى أن انتصر الاسلام ولم تبق من آثار خصومه غير ذكريات الجدل والحروب(١) .

فالدكتور : (زكى مبارك) يستشهد بفهم العرب لمعانى القرآن على أنه من جنس كلامهم — ويستحيل أن يكون أول كتاب عرفه العرب ، لأنه لا يمكن للغة من اللغات أن يكون أول كتاب فيها مماثلا فى روعته وجلاله القرآن(٢) .

ولعلنا ندرك ما فى رأى الدكتور : (زكى مبارك) من مجانبة للحق وبعد عن الصواب ، فنحن لا ننكر بناء الأسلوب القرآنى من المواد التى بنى منها الكلام العربى : أصواتا والفاظا ، اما التركيب فلم يكن متفقا — وكان هذا التفاوت فى الهيئة التركيبية بين أسلوب القرآن وأساليب العرب واضحا ، ورآه كثير من البلاغيين والباحثين فى اعجاز القرآن وجها من وجوه اعجازه كالباقلانى والرمانى والرافعى وغيرهم .

لذلك فلم يلق رأى الدكتور : « زكى مبارك » السابق ومن تبعه قبولا فى نظر كثير من الباحثين ، فأخذوا يردونه ويؤكدون ما قرره الرافعى من مباينة أسلوب القرآن لأساليب العرب .

فيرد المرحوم الأستاذ (عبد المتعال الصعيدى) على ما يستدلون به على موافقة أسلوب القرآن لأساليب العرب من مشاكلة المعجزة لما برع فيه القوم كعصا موسى عليه السلام ، وما كان من براعة قومه فى السحر ، بأن ذلك لم يكن الا نوعا من المناسبة ، ولا يقتضى أن يكون هذا من ذاك — فلم يكن للطب دخل فى معجزة عيسى ولم يكن للسحر دخل فى معجزة موسى ، وليس هناك الا مناسبة بين عصا موسى والسحر ، وكذا بين معجزة كل رسول والصناعة التى مهر فيها من أرسل اليهم — وهى مناسبة لا تؤدى الى أن يكون هذا من ذاك أو من نوعه والضد يناسب الضد ، وهما ضدان وليس أحدهما من نوع الآخر ، وكذلك بلاغة القرآن وبلاغة

---

(١) انظر : جريدة البلاغ عدد : ٢١ اغسطس سنة ١٩٣١ م .
(٢) انظر : المرجع السابق عدد : ٤ سبتمبر سنة ١٩٣١ م .

العرب ونثره ونثرهم بينهما من الفرق ما بين عصا موسى والسحر ، وليس احدهما من نوع الآخر ، وان كانا يجتمعان فى جنس النثر[١] .

كما يرد الأستاذ (محمد لطفى جمعة) على ما رآه الدكتور (زكى مبارك) من موافقة أسلوب القرآن لأسلوب الحديث الشريف وخطب الخلفاء والقواد فيقول : « لا وجه للشبه بين الصورة المفردة المتمايزة التى فاقت كل ما تقدمها وما لحق بها من صور التعبير الانشائى — تلك الصورة الفذة العجيبة التى احتواها القرآن ، وبين الصور البلغية الاخرى التى ذكرها الأستاذ (زكى) مازجا فيها بين خطبة حجة الوداع ، وخطب عمر ابن الخطاب وخالد بن الوليد وغيرهم — وحاشا لله وللأدب أن تكون كما قال الأستاذ : انه يعتقد انها كانت « من الأدب القوى المتين الذى يقرب فى روحه وأسلوبه من روح القرآن وأسلوبه » نعلم أن البيئة واحدة واللغة واحدة والعصر واحد ، وكذلك نعلم أن محمدا لم يكن الا بشرا كما يقول الدكتور ، ولكن هذا المخلوق الفذ قد تمايز ونطق برسالة الله اليه فجاء بالاعجاز ، ولم يكن فى امكان خصومه أن يأتوا بمثله ، والا فمن ذا الذى منعهم ذلك أو عاقهم ، وقد تحداهم القرآن فى خمسة مواضع فعجزوا وبكموا وخرست ألسنتهم وقبعوا فى أعقار دورهم[٢] .

أما الفريق الثانى الذى يرى ما يراه الرافعى من مباينة أسلوب القرآن لأساليب العرب فيلقانا منه الأستاذ (محمد فريد وجدى) معتمدا فى ذلك على مذهبه فى اعجاز القرآن وهو : « الاعجاز الروحى » ، اذ يرى ان أسلوب القرآن واضح أنه من صنع الاله ، وليس هناك وجه للمقارنة بين ما هو الهى وما هو بشرى ، لأن هذا الكتاب اعتبرته أمة بأسرها كتابا الهيا معجزا للانس والجن مجتمعين ، والشىء لا يعتبر الهيا ومعجزا الى هذا الحد الا اذا كان فوق قدرة الذين يدينون بهذه العقيدة على الأقل ، ويصبح هذا الاجماع منهم فى نهاية الأمر دليلا محسوسا على أنه كان

---

(١) انظر : جريدة البلاغ عدد : ٢٨ اغسطس سنة ١٩٣١م .
(٢) انظر : جريدة البلاغ عدد : ٦ سبتمبر سنة ١٩٣١م .

بالنسبة لهم نسيج وحـــده فى أسلوبه ونظمه ، وانه كان من طراز لا عهـــد لهم به ولا قدرة لهم عليه(١) .

ويرى البـــاحث أن ما يراه الرافعى ومن يذهب معه فى القول بمباينة الأسلوب القرآنى لأساليب العرب هو الصواب ، وانه لا مجال للمقارنة بين أسلوب القرآن وأساليب العرب بحال من الأحوال ، ومن العسير أن يحاول واحد من المسلمين التماس المقاييس التى يقاس بها كلام البشر من أساليب القرآن ، لأن فى ذلك ذهـــابا الى امكان بلوغ درجته مع اجمـــاعهم على اعجازه ، واستعصاء محاكاته على بنى البشر ، بعد أن اســـتعصت على الخلص من العرب ، أهل اللسن والبيـــان(٢) .

بين الرافعى والدكتور دراز :

لقد شـــاهدنا الذين يقررون مباينـــة أســـلوب القرآن لأســـاليب العرب يحصرون هـــذا التباين فى عدد من النقاط ، فالرافعى حدده كمـــا سبق فى دقة التركيب القرآنى واحكام نســـجه ومباينته للمعهود من تراكيب العرب وفى تجرد الأسلوب القرآنى من كل آثار النفس الانســـانية ، ولزومه منزلة عالية ودرجة واحدة من القوة فى كل المعـــانى ، ومع جميع الأغراض . والأستاذ « فريد وجدى » يجعل هـــذا التبـــاين فى روح القرآن التى يرد الاعجاز اليها كما ســـبق أن عرفنا .

أما المرحوم الدكتور : (محمد عبد الله دراز) فقد أوفى على الغاية ، وبين مكانة الأســـلوب القرآنى ، وقرر مباينته لأســـاليب العرب بهـــذه الأمـــور :

١ — القصـــد فى اللفظ والوفاء بحق المعنى .
٢ — خطاب العـــامة وخطاب الخـــاصة .
٣ — اقناع العقل وامتاع العـــاطفة .
٤ — البيـــان والاجمـــال .

---

(١) أنظر : المرجع السابق عدد : ٢٠ اكتوبر سنة ١٩٣١م .
(٢) أنظر : قدامه بن جعفر والنقد الأدبى د . بدوى طبانه ص٣٩٥ .

فالدكتور (دراز) يقرر مباينة أسلوب القرآن لأساليب العرب بهـذه النقـاط السـابقة ، ولعلنا نلحظ انه قد حالفه التوفيق فى ذلك ، وأن ما ذكره فى بسط الأمور السـابقة لم يخرج عما ذكره البلاغيون فى ذلك ، ومن يطالع ما كتبه البلاغيون فى مقـدمات كتبهم عن : معنى البلاغة والنظم يدرك الصـلة الوثيقة بين ما قالوه وبين ما ذكره الدكتور : دراز .

وما من شك فى أن توفيق الدكتور (دراز) فى ذلك يعود الى تحليل المعايير التى ذكرها البلاغيون بأسلوب أدبى وبلغة سـهلة ، والاستعانة بمبادىء علم النفس والفلسـفة فى تقريب تلك المقاييس البلاغية من الأفهام ولا يبعد هـذا المنهج عن المنهج الذى درج عليه الرافعى فى كشف أسرار البلاغة القـرآنية ، وكتب له الشـهرة ، وحقق له ذيوع الصيت ، ذلك المنهج الذى يعتمد على اصـول البلاغة القديمة بعد تصفيتها من الغموض وتخليصـها من التعقيد وتنقيتها من الألغاز والمعميات ، وعرضها فى عبارات سـهلة توضح ثمرها وتبين جوهرها ولبها .

والباحث بعد ما تقدم يرى ما رآه الرافعى من مباينة أسلوب القرآن لأساليب البشر ، وان كان يأخذ عليه فصـله الأسلوب عن البلاغة ، اذ كان الأولى به أن يدخله فى حيز البلاغة ، وليس من الدقة أن يخصص وجه من أوجه الاعجاز لأسلوب القرآن وآخر لبلاغته — ولقد رأيناه يفعل ذلك حيث ذكر فى حـديثه عـ « الاعجـاز البلاغى » معظم ما ناقشـه فى كلامه على « الاعجاز الأسلوبى » وذلك من غير شك فيه اضطراب وتناقض .

وهـذا المـأخذ نلحظه فى معظم ما كتبـه الرافعى ، فهو لم يكن مسلسلا ولم يلزم النهج الموضـوعى فى كتابته ، ولو كانت هناك وحـدة موضـوعية تدور فى اطارها مناقشاته لمـا رأيناه يفرد وجها خاصا من الاعجاز للأسـلوب ووجها آخر للبلاغة .

وذلك لا يغض من قيمة هـذه الجهود الرائعة التى بذلها الرافعى فى اظهار التفاوت البعيد بين أسلوب القرآن وأساليب البشر ، بعد أن وقف على المقاييس البلاغية وأجاد فهمها ، واستخلص ثمرتها ، وقدم لبـابها فى عبارات واضـحة محكمة تنـاسب روح العصر الذى عاش فيـه وتلائم أذواق أهـله .

الباب الرابع

الرافعي وبلاغة القرآن

« الرافعى وبلاغة القرآن »

لقد عرفنا أن الرافعى يرجع اعجاز القرآن الى جــوانب متعددة ، ووجوه متنــوعة ، وهى :

الجانب البلاغى ، والجانب العلمى ، والجانب اللغوى والأدبى ، والجانب النفسى ، والجانب الأســلوبى — وان اهم هــذه الجوانب عنده ، وأكثرها مدخلا فى تحقيق الاعجاز هو : الجانب البلاغى الذى يعده منــاط الاعجــاز .

والرافعى يتفق فى ذلك مع جمهور العلماء والباحثين فى اعجاز القرآن ، اذ يعتبرون البلاغة الجانب الأصيل والوجه الأساسى فى الاعجاز ، وان كانوا يذكرون غيرها من الوجوه فى اعجازه .

والبلاغة عند الرافعى تســاوى النظم والانســجام ، وهو يتفق فى ذلك مع « عبد القاهر الجرجانى » حيث لا يقيم فرقا بين : البلاغة والفصاحة والبيــان والبراعة وما شــاكلها .

والنظم عنــد الرافعى يتركب من : الحروف ، والكلم ، والجمل . فالحروف والكلمات والجمل هى أركان النظم عند الرافعى ، وهو يرى أن سر الاعجاز فى نظم القرآن يتناولها كلها — بحيث خرجت من جميعها تلك الطريقة المعجزة التى قامت به .

لذلك ورد هــذا الباب فى الفصول التــالية :

١ — انســجام الحروف فى القرآن الكريم .

٢ — انســجام الكــلم فى القرآن الكريم .

٣ — الانســجام التركيبى فى القرآن الكريم .

الفصـــل الأول

إنسجام الحروف فى القرآن الكريم

من أبرز الأسباب التى كتبت للرافعى الشهرة والمجد وعلو المنزلة بين دارسى الاعجاز — وجعلت لكاتبه : (اعجاز القرآن) نمطا معينا بين ما كتبه القدامى والمحدثون عن الاعجاز القرآنى — ما كتبه عن : انسجام الحروف وأثره فى البلاغة القرآنية .

فما كتبه الرافعى عن الموسيقى القرآنية التى نشأت عن توالى الحروف وانســـجامها يعتبـــر من غير شـــك ميزة وســـبقا وتفردا له فى ميدان البلاغة القرآنية .

فعلى الرغم من وجود هـــذه الكتب الكثيرة وتلك الأســـفار النفيسة التى الفت فى اعجاز القرآن وبيان بلاغته وفصـــاحته ، وامتدادها على مر العصـــور — فانها لم تستطع ولم يتمكن أصـــحابها من اقناعنا اقناعا كاملا واجابتنا اجابة شافية عن السؤال الذى طالمـــا تردد فى أذهان الكثير منـــا ومن أجله كانت علوم البلاغة وهو : الفرق بين بلاغة القرآن الكريم وبلاغة الكلام العربى اذ جلى الرافعى هـــذه المسألة وأكد بما لا يدع للشك مجالا أن البون شـــاسع والفارق عظيم بين البلاغة فى كلام الله وبينها فى أســـاليب العرب .

ومن تلك الأسس التى اعتمد عليها الرافعى فى تجلية الفـــارق بين البلاغتين : الحروف وأصواتها — فالرافعى يرى أن القرآن قد ركبت آياته من الكلمـــات التى ركب منها كلام العرب ، كما تكونت كلماته من الحروف التى تكون منها كلامهم .

غير أن الحروف فى كلماتهم كان يؤتى بها كما اتفق ، وينطق بها على اى وجه ، أما فى القرآن فالحرف كان يوضع فى مكانه المناسب وموطنـــه الملائم مع ما قبله وما بعـــده .

فانســـجام الحروف وما يحدثه هـــذا الانســـجام من موسيقى هو الأساس الأول للنظم القرآنى الذى يعتبره الرافعى مناط التحدى وموطن الاعجـــاز .

ولا يخفى علينا السر فى توفيق الرافعى ونجاحه فى ذلك ، ومهارته فى تحقيق ما لم يتمكن الكثير فى القديم والحديث من تحقيقه : اذ انه قد أعد للأمر عدته واحاط بأسبابه وجمع وسائله ، من حفظه لكلام الله وثقافته العريضة الواسعة فى علوم اللغة وآدابها — وذوقه المرهف وفلسفته العجيبة حيث تمثل ذلك كله أصدق تمثيل فى (تاريخ آداب العرب) الذى ورد حديثه فى الجزء الأول منه حديث العالم الفيلسوف الخبير بلغة العرب وما فيها من أسرار .

فالمجهود الذى بذله « الرافعى » فى الجزء الأول من تاريخ آداب العرب فى الحديث عن : أسرار اللغة قد أفاده أيما افادة فى حديثه عن : اعجاز القرآن ولقد أعد الرافعى نفسه وزودها بالثقافات المتنوعة التى يحتاج اليها البليغ — وانتفع بتلك الثقافات فى تذوق أسرار البلاغة القرآنية ، اذ قدم لنا خلاصة هذا التذوق فى فلسفة بلاغية ، لا فى قواعد جافة — فماذا ذكر الرافعى عن : انسجام الحروف التى يعدها أحد أسس النظم القرآنى ؟

يذكر الرافعى أن الحرف الواحد من القرآن معجز فى موضعه ، لأنه يمسك الكلمة التى هو فيها ليمسك بها الآية والآيات الكثيرة — وهذا هو السر فى اعجاز جملته اعجازا أبديا — فهو أمر فوق الطبيعة الانسانية ، وفوق ما يتسبب اليه الانسان اذ هو يشبه الخلق الحى تمام المشابهة — وما أنزله الا الذى يعلم السر فى السموات والارض[1] .

ويوضح الرافعى الفرق بين صفات الحروف ومكانتها فى القرآن وبينها فى كلام العرب فيرى أن الحروف فى القرآن جاءت غاية فى الانسجام ومثلا فى التلاؤم والتناسب مع ما قبلها وما بعدها — بينما وردت فى كلام العرب خالية من مراعاة ذلك التناسب ومن ملاحظة هذا الانسجام قائلا فى ذلك : « ان طريقة النظم التى اتسقت بها الفاظ القرآن ، وتألفت لها حروف هذه الالفاظ انما هى طريقة يتوخى بها الى انواع من المنطق وصفات من اللهجة لم تكن على هذا الوجه من كلام العرب ، ولكنها

---

(١) اعجاز القرآن للرافعى ص٢٤٠ .

ظهرت فيه أول شيء على لسان النبى صلى الله عليه وسلم ، فجعلت المسامع لا تنبو عن شيء من القرآن .. حتى لم يكن لمن يسمعه بد من الاسترسال اليه والتوفر على الاصغاء .. فانه انما يسمع ضربا خالصا من الموسيقى اللغوية فى انسجامه واطراد نسقه واتزانه على أجزاء النفس مقطعا مقطعا ونبرة نبرة كأنها توقعه توقيعا ولا تتلوه تلاوة ، وهذا نوع من التأليف لم يكن منه فى منطق أبلغ البلغاء وأفصح الفصحاء الا الجمل القليلة التى انما تكون روعتها وصيغتها وأوزان توقيعها من اضطراب النفس فيها اذ تضطرب فى بعض مقامات الحماسة أو الفخر أو الغزل أو نحوها فتنتزى بكلام المتكلم من أبعد موضع فى قلبه حتى تنتهى به الى الحلق ، ثم ترسله من هناك وكأن ألفاظه عواطف تتغنى »(١) .

كما يبين الرافعى أنه وان كان من العرب من يجيد نطق الحروف بصفاتها المعلومة وعلى الوجه الذى نطق به القرآن الكريم الا أن الفرق كان مع ذلك عميقا بين الحرف فى القرآن وبينه فى كلام العرب من جهة أحكام تركيبه فى القرآن وملاءمته لما قبله وما بعده ، وعدم توافر ذلك فى كلام العرب فيقول : « وقد كان منطق القوم يجرى على أصل من تحقيق الحروف وتفخيمها ، ولكن أصوات الحروف انما تنزل منزلة النبرات الموسيقية المرسلة فى جملتها كيف اتفقت فلابد لها مع ذلك من نوع فى التركيب وجهة من التأليف حتى يمازج بعضها بعضا ويتألف منها شيء من شيء ، فتتداخل خواصها ، وتجتمع صفاتها ، ويكون منها اللحن الموسيقى ، ولا يكون الا من الترتيب الصوتى الذى يثير بعضه بعضا على نسب معلومة ترجع الى درجات الصوت ومخارجه وأبعاده ، فكان العرب يترسلون أو يحذمون فى منطقهم كيفما اتفق لهم ، ولا يراعون أكثر من تكييف الصوت دون تكييف الحروف التى هى مادة الصوت ، الى أن يتفق من هذه قطع فى كلامهم تجيء بطبيعة الغرض الذى تكون فيه ، أو بما تعمل لها المتكلم ، على نمط من النظم الموسيقى ، ان لم يكن فى الغاية ففيه ما عرفوه من هذه الغاية فلما قرىء عليهم القرآن رأوا حروفه فى كلماته ، وكلماته فى جمله

---

(١) المرجع السابق .

الحانا لغوية رائعة — كأنها لائتلافها وتناسبها قطعة واحدة ، قراءتها هى توقيعهـــا ، فلم يفتهم هـــذا المعنى — وأنه أمر لا قبل لهم به ، وكان ذلك أبين فى عجزهم ، حتى ان من عارضه منهم كمسيلمة جنح فى خرافاته الى ما حســـبه نظما موســـيقيا أو بابا منه ، وطوى عما وراء ذلك من التصرف فى اللغة ، وأساليبها ومحاسنها ودقائق التركيب البيانى — كأنه فطن الى أن الصـــدمة الأولى للنفس العربية انما هى فى أوزان الكلمات وأجراس الحروف دون ما عداها ، وليس يتفق ذلك فى شىء من كلام العرب الا أن يكون وزنا من الشـــعر أو الســـجع »(١) .

فالرافعى يرى أن انســـجام الحروف فى القرآن الكريم هو الوجه الأول لنظمه العجيب وموســـيقاه الساحرة ، وأن كل الذين يدركون أسرار الموسيقى وفلسفتها النفسية لا يرون فىالفن العربى بجملته شـــيئا يعدل هـــذا التناسب الذى هو طبيعى فى كلمات القرآن وأصـــوات حروفه — وما منهم من يســـتطيع أن يغتمز فى ذلك حرفا واحـــدا ويعلو القرآن على الموسيقى بأنه مع هـــذه الخاصة العجيبة ليس من الموسيقى ولا يغيب عن بالنا أن الرافعى لم يقصد أن العرب لم يكونوا يهتمون باصلاح الحروف وابرازها فى الصورة السليمة ، وانما يريد أن العرب مع تمكنهم من اللغة واحاطتهم بأسرارها واهتمامهم بحروفها ، فانهم لم يتمكنوا من وضع الحروف فى مكانها المناسب كما تمكن القرآن من ذلك .

فلا يغيب عن بال الرافعى أبدا أن العرب كانوا يعنون عناية كاملة بالحروف اذ أنه قد شرح ذلك وبسطه فى الجزء الأول من تاريخ آداب العرب وعد اهتمام العرب وعنايتهم بالحروف وجها من وجوه تمدنهم قائلا فى ذلك : « وهـــذه العناية منهم بتأليف الحروف كانت السبب الطبيعى لعنـــايتهم بتأليف الألفاظ واحكام الكلام ، وتوخيهم روعة الأسلوب وفخامة التركيب وهو ما خص به العرب دون سائر الأمم — وقد غفل بعض العلماء عن هـــذا السبب الطبيعى فذهب الى أن العرب انما تعنى بالألفاظ لأنها تغفل المعانى

---

(١) اعجاز القرآن للرافعى ص٢٤٢ وما بعدها .

فتجد من الفاظهم ما قد نمقوه وزخرفوه ووشـــوه ودبجوه ، ولست تجد مع ذلك تحته معنى شريفا .. وعلى هـــذا النمط اكثر اشعارهم .. والحق ان ذلك فى العربية وجه من وجوه تمدنها ، وقد جروا فيه على سنن طبعية ثابتة — لأنهم يفرعون من المعـــانى فروعا كثيرة بالمجاز والاستعارة ، ثم يجرون عليها الألفاظ التى تناســـبها ، وكأنهم يستغلونها استغلالا معنويا وذلك من أمرهم أيضا فى الالفاظ ، فانهم لا يفرطون فى مادة تتقلب عليها حروف المنطق بما ينزل على حكمهم فى التأليف من العذرية والمناســـبة فيفرعون الألفاظ المتقاربة فروعا كثيرة يجرونها على المعانى المتباينة ، كقولهم : رويت فى الأمر (فكـــرت) — ورويت راسى من الدهن ، وأمثـــال لذلك كثيرة ، فكأنهم بهـــذا الضرب يستغلون المعانى استغلالا لفظيا »(١) .

وحتى يوقفنا الرافعى عمليا على انسجام الحروف فى القرآن الكريم وما ينشأ عن هـــذا الانسجام من روعة وبيان فى النظم القرآنى فانه يدعونا الى ترتيل أية قطعة نستجيدها من كلام العرب كما نرتل القرآن لنقف على ما بها من اضـــطراب فى البناء وخلل فى التركيب ونلمس روعة الانســـجام والتناسب فى كلام الله عز وجل فيقول : « وأنت تتبين ذلك اذا انشـــأت ترتل قطعة من نثر فصـــحاء العرب أو غيرهم على طريقة التلاوة فى القرآن ، مما تراعى فيه أحكام القراءة — وطرق الأداء ، فانك لابد ظاهر بنفســـك على النقص فى كلام البغاء وانحطاطه فى ذلك عن مرتبة القرآن ، بل ترى كأنك بهـــذا التحسين قـــد نكرت الكلام وغيرته — فأخرجته من صـــفة الفصاحة ، وجردته من زينة الأسلوب واطفأت رواءه — وانضبت ماءه لأنك تزنه على أوزان لم يتسق عليها فى كل جهاته ، فلا تعدو أن تظهر من عيبه ما لم يكن يعيبه اذا انت ارسلته فى نهجه واخذته على جملته — وحسبك بهـــذا اعتبارا فى اعجاز النظم الموسيقى فى القرآن ، وانه مما لا يتعلق به أحد ، ولا يتفق على ذلك الوجه الذى هو فيه الا فيه لترتيب حروفه باعتبار من أصواتها ومخارجها ومناســـبة بعض ذلك لبعضه مناسبة طبيعية فى

---

(١) تاريخ آداب العرب للرافعى : جـ١ ص٢٢٠ وما بعدها ط . ثانية .

الهمس والجهر والشـــدة والرخاوة والتفخيم والترقيق والتفشى والتكرير وغير ذلك »(١) .

انســـجام الحـــروف وآثاره :

ويرى الرافعى أنه قد ترتبت على احكام الحروف ودقة احكامها وروعة انســـجامها فى القرآن الكريم عدد من النتائج منها :

حفظ القرآن وبقـــاؤه :

فهـــذه الموسيقى النـــاتجة عن : تلاؤم الحروف وتناســـبها يجعلها الرافعى أبرز العناصر فى حفظ القرآن الكريم وبقائه ، كما يرد اليها تهذيب الأساليب وتنقيتها من الخلل والاضطراب ومن قوله فى ذلك : « ولقد كان هـــذا النظم عينه هو الذى صفى طباع البلغاء بعد الاسلام — وتولى تربية الذوق الموسيقى اللغوى فيهم ، حتى كان له من محاسن التركيب فى أساليبهم مما يرجع الى تساوق النظم واستواء التأليف ما لم يكن مثله للعرب من قبلهم ، وحتى خرجوا عن طرق العرب فى السجع والترسل على جفاء كان فيهما الى سجع وترسل تتعرف فى نظمهما آثار الوزن والتلحين على ما يكون من تفـــاوتهم فى صـــفة ذلك ومقـــداره ، ومبلغهم من العلم به ، وتقدمهم فى صنعته ، ولولا القرآن وهـــذا الأثر العجيب من نظمه لذهب العرب بكل فضيلة فى اللغة — ولم يبق بعـــدهم للفصـــحاء الا كما بقى من بعد هؤلاء فى العامية ، بل لمـــا بقيت اللغة نفســـها »(٢) .

الروعة والهيبـــة :

كما يتحدث الرافعى عن : سر الروعة والهيبة التى تعترى المنصتين للقرآن وعـــدم حصـــول ذلك عند ســـماع كلام العرب فيردها كذلك الى انسجام الحروف فى القرآن الكريم ومدى ارتباطها بالمعنى والغرض والتدقيق

---

(١) اعجاز القرآن للرافعى ص٢٤٤ .
(٢) المرجع الســـابق .

في اختيارها ، وملاءمتها للأحوال النفسية ، ويطلق الرافعي على ذلك : بلاغة الصوت ، ويوضحه بقوله : « وليس يخفى أن مادة الصوت هي مظهر الانفعال النفسي وأن هذا الانفعال بطبيعته انما هو سبب في تنويع الصوت بما يخرجه فيه مدا أو غنة أو لينا أو شدة — وبما يهيىء له من الحركات المختلفة في اضطرابه وتتابعه على مقادير تناسب ما في النفس من أصولها ، ثم هو يجعل الصوت الى الايجاز والاجتماع أو الاطناب والبسط ، بمقدار ما يكسبه من الحدوة والارتفاع والاهتزاز وبعد المدى ونحوها مما هو بلاغة الصوت في لغة الموسيقى — فلو اعتبرنا ذلك في تلاوة القرآن على طرق الأداء الصحيحة لرأيناه أبلغ ما تبلغ اليه اللغات كلها في هز الشعور واستثارته من أعمال النفس ، وهو من هذه الجهة يغلب بنظمه على كل طبع عربي أو أعجمي — وهذه حالة مطردة يعرفها الناس جميعا ، وما من أعجمي يسمع ترتيل القرآن ان فهمه أو لم يفهمه الا اعترائه رقة للشجى والنظم ، وأحس أن هذه الآيات تتموج في نفسه وتجيش نفسه بها ، مع أنه لا يعتريه من ذلك شيء اذا هو سمع الألحان العربية في الغناء والشعر ، وقد لا يجد في الموسيقى ضربا أسخف منها ، لمكان اختلاف الأذواق ، وما تجده ملحدا لا يؤمن بالله وهو مؤمن بهذا الاعجاز في كتابه حين يسمعه مرتلا من صوت جميل ، كان النبوة حينئذ تلامسه ، حتى أن القاسية قلوبهم من أهل الزيغ والالحاد ومن لا يعرفون لله آية في الآفاق ولا في أنفسهم لتلين قلوبهم وتهتز عند سماعه ، لأن فيهم طبيعة انسانية — ولأن تتابع الأصوات على نسب معينة بين مخارج الأحرف المختلفة هو بلاغة اللغة الطبيعية التي خلقت في نفس الانسان فهو متى سمعها لم يصرفه عنها صارف من اختلاف العقل أو اختلاف اللسان ، وعلى هذا وحده يؤول الأثر الوارد أن الصوت الحسن يزيد القرآن حسنا ، لأنه يجنب هذا الكمال اللغوي ما يعد نقصا منه اذا لم تجتمع أسباب الأداء في أصوات الحروف ومخارجها ، وانما التمام الجامع لهذه الأسباب : صفاء الصوت ، وتنوع طبقته ، واستقامة وزنه على كل حرف »(١) .

(١) اعجاز القرآن للرافعي ص٢٤٥ وما بعدها .

وواضح أن الرافعى قد أفاد فى حديثه السابق عن الآثار المترتبة على مناسبة الحروف للأحداث المعبر عنها وسماه : بلاغة الصوت — بما أفاض اللغويون القول فيه(١) .

الفواصل القرآنية :

ويذكر الرافعى كذلك أن انسجام الحروف فى القرآن الكريم له أثر واضح فى توفير الحسن فى الفواصل القرآنية التى يغلب ختمها بأنسب حرفين فى لغة الموسيقى وهما : النون والميم فيقول : « وما هذه الفواصل التى تنتهى بها آيات القرآن : الا صور تامة للأبعاد التى تنتهى بها جمل الموسيقى ، وهى متفقة مع آياتها اتفاقا عجيبا يلائم نوع الصوت والوجه الذى يساق عليه بما ليس وراءه فى العجب مذهب ، وتراها أكثر ما تنتهى بالنون والميم ، وهما الحرفان الطبيعيان فى الموسيقى نفسها ، أو بالمد ، وهو كذلك طبعى فى القرآن فان لم تنته بواحدة من هذه كأن انتهت بسكون حرف من الحروف الاخرى كان ذلك متابعة لصوت الجماعة وتقطيع كلماتها ، ومناسبة للون المنطق بما هو أشبه واليق بموضعه ، وعلى أن ذلك لا يكون أكثر ما أنت واجده الا فى الجمل القصار ، ولا يكون الا بحرف قوى يستتبع القلقلة والصفير أو نحوهما ما هو ضروب أخرى من النظم الموسيقى »(٢) .

اعجاز القرآن لغير العرب :

كما يتحدث الرافعى عن اعجاز القرآن لغير العرب وادراكهم بلاغته واحساسهم روعته ، فيرده كذلك الى تلك الموسيقى التى يحدثها تماثل الحروف فى القرآن الكريم — وهذا الانسجام الناتج عن وضع الحروف فى أماكنها المناسبة فيقول : « وهذه هى طريقة الاستهواء الصوتى فى اللغة وأثرها طبعى فى كل نفس ، فهى تشبه فى القرآن الكريم أن تكون

---

(١) أنظر : الخصائص لابن جنى : ١ ص٥٤٩ وما بعدها والمزهر للسيوطى : ١/٣ .

(٢) المرجع السابق .

صوت اعجازه الذى يخاطب به كل نفس تفهمه وكل نفس لا تفهمه ، ثم لا يجد من النفوس على اى حال الا الاقرار والاستجابة ولو نزل القرآن بغيرها لكان ضربا من الكلام البليغ الذى يطمع فيه أو فى أكثره ، ولما وجد فيه أثر يتعدى أهل هذه اللغة العربية الى أهل اللغات الأخرى ولكنه انفرد بهذا الوجه المعجز ، فتألفت كلماته من حروف لو سقط واحد منها أو أبدل بغيره أو أقحم معه حرف آخر لكان ذلك خللا بينا أو ضعفا ظاهرا فى نسق الوزن وجرس النغمة ، وفى حس السمع وذوق اللسان ، وفى انسجام العبارة ، وبراعة المخرج — وتساند الحروف وافضاء بعضها الى بعض ، ولرأيت لذلك هجنة فى السمع ، كالذى تنكره من كل شىء مرئى لم تقع أجزاؤه على ترتيبها ، ولم تتفق على طبقاتها ، وخرج بعضها طولا وبعضها عرضا ، وذهب ما بقى منها الى جهات متناكرة »(١) .

عدم الملل من سماع القرآن :

ولقد عد كثير من الباحثين فى اعجاز القرآن من وجوه اعجازه : عدم تسرب الملل والسأم الى سامعيه ، بخلاف غيره من الكلام الذى يسمح اذا تكررت قراءته ويذكر الرافعى هذه الخاصية القرآنية ، ويردها كذلك الى هذا الاتساق العجيب فى تركيب الحروف فيقول : « ومما انفرد به القرآن وباين سائر الكلام ، أنه لا يخلق على كثرة الرد وطول التكرار ولا تمل منه الاعادة ، وكلما أخذت فيه على وجهه الصحيح فلم تخل بأدائه رأيته غضا طريا ، وجديدا مونقا ، وصادفت من نفسك له نشاطا مستأنفا وحسا موفورا ، وهذا أمر يستوى فى أصله العالم الذى يتذوق الحروف ويستمرى تركيبها ، ويمعن فى لذة نفسه من ذلك ، والجاهل الذى يقرأ ولا يثبت معه من الكلام الا أصوات الحروف والا ما يميزه من أجراسها على مقدار ما يكون من صفاء حسه ورقة نفسه وهو لعمر الله أمر يوسع فكر العاقل ويملأ صدر المفكر ، ولا نرى جهة تعليله ولا نصحح منه تفسيرا الا ما قدمنا من اعجاز النظم بخصائصه الموسيقية وتساوق هذه الحروف

---

(١) المرجع السابق ص٢٤٧ .

على أصول مضبوطة من بلاغة النغم ، بالهمس والجهر والقلقلة والصفير والمد والغنة ونحوها ، ثم اختلاف ذلك فى الآيات بسطا وايجازا وابتداء وردا ، وافرادا وتكريرا »(١) .

وليس غريبا ما يقرره الرافعى من اثر الموسيقى القرآنية الناشئة عن احكام حروفه وانسجام تركيبها فى حفظ القرآن وبقائه ، وعدم الملل من كثرة تلاوته فالنقاد قد اتفقوا على افضلية الشعر على النثر بسبب الوزن ، ولذلك كان المعنى الواحد اذا قيل مرة شعرا ومرة نثرا كان فى الشعر اكبر أثرا ، بل ان الشعر اذا حل الى نثر لم يكن له ذلك الأثر الكبير ، ولم يكن لهذا الاختلاف من سبب الا ما فى الشعر من موسيقى(٢) .

على أن البون بعيدكما يقرر الرافعى بين موسيقى القرآن التى تذهب الملل من نفوسنا عند سماعه ، وبين موسيقى الشعر التى يعترينا الملل عند الاطالة فى سماعها ، ذلك اننا نسمع القصيدة من الشعر فاذا هى تتحد الأوزان فيها بيتا بيتا وشطرا شطرا ، ونسمع القطعة من الموسيقى فاذا هى تتشابه اهواؤها وتذهب مذهبا متقاربا ، فلا يلبث سمعنا أن يمجها ، وطبعنا أن يملها ، اذا أعيدت وكررت علينا بتوقيع واحد ، بينما نحن من القرآن ابدا فى لحن متنوع متجدد ولا يخفى هذا الجمال التوقيعى فى لغة القرآن على أحد ممن يسمع القرآن ، حتى الذين لا يعرفون لغة العرب ، فكيف على العرب انفسهم ؟ وأول شىء أحسته تلك الأذن العربية فى نظم القرآن هو ذلك النظام الصوتى البديع الذى قسمت فيه الحركة والسكون تقسيما منوعا يجدد نشاط السامع لسماعه ، ووزعت فى تضاعيفه حروف المد والغنة توزيعا بالقسط يساعد على ترجيع الصوت ، وتهادى النفس فيه آنا بعد آن الى أن يصل الى الفاصلة الأخرى فيجد عندما راحته العظمى (٣) .

---

(١) المرجع السابق .

(٢) انظر : النقد الأدبى : أحمد أمين ص٦٧ وفصول فى الشعر ونقده : د . شوقى ضيف ص٢٨ وما بعدها .

(٣) انظر : النبأ العظيم د . محمد عبد الله دراز : ١ ص٩٥ وما بعدها ودراسات فى علم النفس الأدبى د . حامد عبد القادر ص٩٤ .

ولما كان جمال الشعر فى موسيقاه الناشئة عن أوزانه ، فان النفس سرعان ما تمل هـذه الموسيقى لالتزامها نغمة واحدة ، بينما تطلب المزيد من الموسيقى القرآنية التى تتجدد على الدوام(١) .

ولم ينس الرافعى وهو يتحدث عن انسجام الحروف ومنزلتها فى البلاغة القرآنية أن ينبه على الحركات وأثر الاهتمام بها فى تحقيق الانسجام للحروف قائلا فى ذلك : « ولا يذهبن عنك أن الحروف لم تكن فى القرآن على ما وصفنا بأنفسها دون حركاتها الصرفية والنحوية ، وليست هـذه الحركات الا مظاهر الكلم »(٢) .

وهو يرى كما تقدم أن انسجام الحروف والعناية بتحقيقها والاهتمام بوضعها فى أماكنها المناسبة قد تولدت عنه تلك الموسيقى التى اشركت الأعجمى مع العربى فى الاحساس بروعة القرآن ، كما جعلته غضا طريا وجديدا لا يمل من اعادته ولا يسلم من تكرار تلاوته ، ونحس بالرهبة والهيبة عند سماعه .

ولعلنا ندرك بعد ما تقدم ما أحرزه الرافعى من توفيق فى حديثه عن : انسجام الحروف فى القرآن الكريم والآثار التى ترتبت على هـذا الانسجام .

ويعود هـذا التوفيق من غير شك الى تمكنه من علوم اللغة ، واحاطته بأسرارها ، مستعينا الى مدى بعيد بما ذكره فى الجزء الأول من تاريخ آداب العرب من فلسفة لغوية وصوتية ، فلقد افادته تلك الفلسفة اللغوية والصوتية افادة غير محدودة فى تحليل البلاغة القرآنية ، وجعلته يربط بين البلاغة وعلوم اللغة ويحلل الأسرار القرآنية تحليلا ادبيا لغويا بلاغيا قائما على التذوق والتعمق وبعيدا عن الألغاز والمعميات .

---

(١) انظر : المدخل الى النقد الأدبى الحديث د . محمد غنيمى هلال ص٥٣٠ وموسيقى الشعر العربى د . شكرى عياد ص٣٤ وما بعدها .
(٢) اعجاز القرآن للرافعى ص٢٤٨ .

وما أشد حاجتنا الآن بعد أن استعرضنا كلام الرافعى عن « انسجام الحروف » فى القرآن الكريم الى أن نطالع ذلك عمليا من خلال التطبيق على آيات القرآن الكريم ، لهـذا سنعرض لمـا قاله الرافعى فى آية واحـدة من الآيات المحدودة التى استشهد بها وبين ما فيها من أحكام فى انسـجام حروفها ، وقصر باع البلغاء عن أحكام مثل ذلك ، واذا وجد فى كلامهم شىء من هـذا القبيل فهو على سـبيل الندرة والالهام .

أما الآية فهى قوله تعالى : « ولقد أنذرهم بطشتنا فتماروا بالنذر » ويأخـذ الرافعى بحاسـته العجيبة وذوقه المرهف فى بيان أسرار حروفها ووضع كل منها فى المكان الذى وضع فيه مع بيان علاقته بما قبله وما بعده فيقول : « من ذلك لفظة (النذر) جمع نذير ، فان الضمة ثقيلة فيها لتواليها على النون والذال معا ، فضلا عن جسأة هـذا الحرف ونبوه فى اللسان ، وخاصة اذا جاء فاصلة للكلام ، فكل ذلك ما يكشف عنه ويفصح عن موضعه الثقل فيه ، ولكنه جاء فى القرآن على العكس وانتفى من طبيعته فى قوله تعالى : « ولقد أنذرهم بطشتنا فتماروا بالنذر » فتأمل هـذا التركيب ، وأنعم ثم أنعم على ما تأمله ، وتذوق مواقع الحروف وأجر حركاتها فى حس السـمع وتأمل مواضـع القلقلة فى دال (لقد) وفى الطاء من (بطشـتنا) وهـذه الفتحات المتوالية فيما وراء الطاء الى واو (تماروا) ، مع الفصل بالمد ، كأنها تثقيل لخفة التتابع فى الفتحات اذا هى جرت على اللسان ، ليكون ثقل الضمة عليه مستخفا بعد ، وتكون هـذه الضمة قد أصابت موضعها كما تكون الأحماض فى الأطعمة ثم ردد نظرك فى الراء من (تماروا) ، فانها ما جاءت الا مسـاندة لراء (النذر) حتى اذا انتهى اللسان الى هـذه انتهى اليها من مثلها ، فلا تخف عليه ولا تغلظ ولا تنبو فيه ، ثم أعجب لهـذه الغنة التى سـبقت الطاء فى نون (انذرهم) وفى ميمها ، وللغنة الأخرى التى سبقت الذال فى (النـذر) »[1] .

---

(١) اعجاز القرآن للرافعى ص٢٥٨ . ٥

وبعد أن بين الرافعى كما رأينا اصابة كل حرف وحركة مكانها من الآية مما لا يستقر النظم مع ابداله بغيره يمضى ليبين أن هــذا احكام فوق طاقة البلغاء لا يتفق شيء منه فى كلامهم الا على ســبيل الندور والالهام فيقول : « وما من حرف أو حركة فى الآية الا أنت مصيب من كل ذلك عجبا فى موقعه والقصــد به ، حتى ما تشك أن الجهة واحــدة فى نظم الجماعة والكلمة والحرف والحركة ، ليس منها الا ما يشــبه فى الرأى أن يكون قد تقدم فيه النظر واحكمته الروية وراضه اللسان ، وليس منها متخير مقصــود اليه من بين الكلم ومن بين الحروف ومن بين الحركات ، وأين هــذا ونحوه عند تعاطيه ومن أى وجه يلتمس وعلى أى جهة يســتطاع ،و كيف يأتى للانسان فى مثل تلك الآية وحــدها فضلا عن القرآن كله وهو لا يكون الا عن نظر وصــنعة كلامية ، والبليغ من الناس متى اعتسف هــذا الطريق ولم يكن فى الكلام الى سجيته وطبعه فقد خذلته البلاغة واستهلكته الصنعة وضاق به التصرف وتنــاثرت أجزاء كلامه من جهاتها ، وكلما لج فى المكابرة لجت البلاغة فى الاباء فمثله كمن يمشى مســتديرا ويحسب انه يتقــدم ، لانه — زعم — لم يحرف وجهه ولم ينفتل عن قصــده ، ولأن نظره ما يزال ثابتا فيما يستقبله ، انما تلك طريقة فى النظم قد انفرد بها القرآن ، وليس من بليغ يعرف هــذا الباب الا وهو يتحاشى أن يلم به من تلك الجهة أو يجعل طريقة عليها ، فان اتفق له شيء منه كان الهاما ووحيا لا تقتحم عليه الصناعة ، ولا يتيسر له الطبع بالفكر والنظر ، وكان مع ذلك لا يخلو من التواء ومن مغمز ، على انه يكون جملة من فصل أو عبارة من جملة أو بيتا من قصــيدة أو شطرا من بيت ، لا يطرد ولا يستوى ، وليس الا أن يتفق اتفاقا ، أما أن يتهيأ لأحدالبلغاء فى عصور العربية كلها من معارض الكلام والفاظه ما يتصرف به هــذا التصرف فى طائفة أو طوائف من كلامه على أن يضرب بلســانه ضربا موســيقيا ، وينظم نظما مطردا ، ويهدف الكلمة الكلمة وينصب الحرف للحرف ويعصب الحركة بالحركة ، ويجرى بعضا من بعض فهــذا ان أمكن أن يكون فى كلام ذى الفاظ ، فلن يستقيم فى الفاظ ذات معان فهو لغو من احــدى الجهتين ، ولو أن ذلك ممكن لقــد كان اتفق فى عصر خلا من ثلاثة

عشر قرنا ، ونحن اليوم فى القرن الرابع عشر من تاريخ تلك المعجزة »(١) .

وقد كنا نود لو طبق الرافعى هـذا المنهج التحليلى على قدر كبير من السـور والآيات حتى تعظم الفائدة غير أنه كان يرى أن الاطالة فى هـذا تضاعف حجم الكتاب وكان يعمل على اخراج ذلك فى كتاب (أسرار الاعجاز) الذى توفى وترك منه نتفا مبعثرة .

انسـجام الحروف بين الرافعى والبلاغيين :

واذا كنا رأينا الرافعى يبـدأ حـديثه عن النظم القرآنى بالحروف واصواتها ، ويعدها ركنا من أركانه وأساسا من أسسه ، فالبلاغيون جميعا قد تحدثوا عن صـفات الحروف ـ وما من مؤلف فى اللغة والبلاغة الا كانت للظواهر الصـوتية فيه نصيب ، غير أن أصحاب تلك المؤلفات لم يوفقوا فى ابراز محاسن الحروف فى القرآن الكريم وفى تجلية روعتها وابراز جمالها كما وفق الرافعى فى ذلك وتوفيق الرافعى فى تبيان أسرار الحروف فى القرآن الكريم كما قدمنا يعود الى وقوفه على ما كتبه اللغويون والبلاغيون وتطبيق ذلك والافادة منه فى تجلية البلاغة القرآنية ، بينما وردت فى مباحث البلاغيين قواعد جافة ومعزولة عن النص الأدبى .

فهناك بون بعيد بين ما ذكره الرافعى عن الصوتيات وبين ما ذكره البلاغيون من ذلك ـ فالرافعى يعنى باللب ويهتم بالثمرة ويتعمق فى تذوقه خصائص الحروف فى القرآن الكريم .

بينما يهتم البلاغيون بالتقعيد ولا يكثرون من الاستشهاد والتطبيق بالآيات القرآنية والنصوص الأدبية ، ومن ثم فقد آتت دراسات الرافعى عن الصوتيات أكلها ، وحققت الغاية منها فى تذوق وفهم أسرار البلاغة القرآنية ، بينما وقفت تلك الدراسات عند اللغويين والبلاغيين دون تحقيق ذلك .

وأرى أنه لكى ينهض البحث البلاغى بمهمتـه الأسـاسية فى تذوق الأسرار القرآنية ، وفى ادراك روعة النص الأدبى ، واستشعار محاسنه ،

---

(١) المرجع السابق ص٢٥٩ وما بعـدها .

فانه يجب أن تتوافر له الأسس الراسخة والقواعد المتينة الثابتة ، وأقوى هذه الأسس وأثبت تلك القواعد : الحروف وحركاتها — وهى مستوفاه ومستوعبة فى كتب اللغة ، فعلى دارس البلاغة أن يبدأ دراسته بالوقوف عليها ، وعلى الكاتبين فى البحث البلاغى أن يقيموا أبحاثهم على هذا الأساس المتين .

ولذا فقد كان الرافعى محكما ومسددا لخطى حينما بدأ كلامه على نظم القرآن وبلاغته بالحديث عن : الحروف وأصواتها .

ومن هذه الأبحاث التى عنى بها اللغويون ، ويجب أن تلقى اهتماما من البلاغيين وأن يلم بها دارس البلاغة قبل أن يخوض غمار البحث البلاغى هذا البحث الذى يوضح ما بين أصوات اللغة وحروفها وألفاظها وبين المعانى المستعملة فيها والأحداث المعبر عنها من علاقة وتناسب — فيجب ألا يخلو كتاب من كتب البلاغة من هذا المبحث الذى يعد مفتاح الدرس البلاغى(١) .

ولقد تحدث الجاحظ عن الحروف وبين أن الاهتمام بها له أثر كبير فى تحقيق البيان ونبه على كثير من عيوبها التى تخل بصفائها وطلاوتها ، وأشار الى أن تحقيق الحروف باخراجها من مخارجها ما يكسبها الفخامة والعذوبة(٢) .

كذلك لم يهمل « قدامة بن جعفر » الحروف فى حديثه عن نعوت الألفاظ وذكر منها : أن يكون سمحا سهل مخارج الحروف من مواضعها ، عليه رونق الفصاحة ، مع الخلو من البشاعة(٣) .

---

(١) انظر : الخصائص لابن جنى : ١ ص٥٤٩ وما بعدها والمزهر للسيوطى : جا ص٥٣ .

(٢) البلاغة العربية فى دور نشأتها د . سيد نوفل ص١١١ وما بعدها والبلاغة تطور وتاريخ د . شوقى ضيف ص٤٧ .

(٣) قدامة بن جعفر والنقد الأدبى د . بدوى طبانه ص٢١ .

انســـجام الحروف بين الرافعى والرمانى :

ولقد تبين ان الرافعى فى جعله انســـجام الحروف فى القرآن الكريم وجها من وجوه نظمه وركنا من أركان بلاغته انما يحكى صراحة ما ذهب اليه « أبو الحسن على بن عيسى الرمانى » وذلك كعادته دون أن يشير اليـــه .

فالرمانى يرى أن تحقيق الحروف بوضعها فى أماكنها المناسبة وجه من وجوه البلاغة التى يعدها أحد الوجوه السبعة لاعجاز القرآن عنده .

ولقد تحدث الرمانى عن الحروف فى : (باب التلاؤم) حيث عرفه بأنه : تعديل الحروف فى التأليف ، وأنه نقيض التنافر ، ويجىء على ثلاثة أوجه : متنافر ومتلائم فى الطبقة الوسطى ومتلائم فى الطبقة العليا ، وبين الرمانى أن القرآن الكرم كله من المتلائم فى الطبقة العليا ، وأن الفرق بين القرآن وبين غيره من الكلام فى التلاؤم كالفرق بين المتنـــافر والمتلائم فى الطبقـــة الوسطى — وبين أن هـــذا نتبينه بذوقنا واحساسنا كما نميز موزون الشعر من مكســـوره — ووضح كذلك سبب التلاؤم بأنه يعود الى تعديل الحروف فى التأليف ، كما علل للتنافر بما ذكره الخليل من البعـــد الشديد أو القرب الشديد ، وذكر فائدة التلاؤم فى : حسن الكلام فى السمع ، وســـهولته فى اللفظ ، وتقبل المعنى له فى النفس لمـــا يرد عليها من حسن الصـــورة ، وطريق الدلالة ، كمن يقرأ الكتاب فى أحسن ما يكون من الخط والحرف ، ومن يقرأه فى أقبح ما يكون من الحرف والخط — فانه متفاوت فى الصـــورة وان كانت المعانى واحـــدة(١) .

ولعلنا ندرك ما بين الرمانى والرافعى من تقارب ملحوظ فى الحديث عن الحروف : فكلاهما يعترف بأثرها فى تحقيق النظم وروعته ويعد الاهتمام بها مما يدخل فى : التحدى والاعجاز — ويضيف الرافعى الى كلام الرمانى تلك الموازانات التى بين فيها الفرق بين وضع الحرف وتركيبه فى القرآن الكريم وبينـــه فى كلام العرب — والآثار التى تولدت عن : انســـجام الحروف فى القرآن الكريم .

---

(١) انظر : النكت فى اعجاز القرآن للرمانى ص٩٤ وما بعدها .

بين الرافعى وعبــد القــاهر :

والرافعى يتفق مع عبد القاهر من جهة الاهتمام بالنظم اذ يراه كل منهما الوجه الأساسى فى اعجاز القرآن وان كان كلام عبد القاهر عن النظم يغلب عليه الطــابع النحوى لتعمقــه فى النحو وبصره بدقائقه وأسراره ، بينما يغلب على حديث الرافعى الطــابع اللغوى والصوتى لتمكنه من اللغة وفقهــه لأسرارها ، وانتفاعه بما كتبه فى الجزء الأول من تاريخ آداب العرب عن : فلســفة اللغة وأسرارها .

ثم يختلفان بعد ذلك حول الحروف وأصواتها ، فعبد القاهر لا ينكر ما للاهتمام بها والعناية بتحقيقها من أثر فى جمال الأساليب لكن لا يصح أن تنسب اليها البلاغة أو يرد اليها روعة النظم لأن النظم أمر كلى . ومن البدهيات أن البلاغة لا تنسب الى الكلمات المفردة فمن الأولى ألا تنسب الى الحروف .

بينما يقرر الرافعى كما سبق ان الاهتمام بالحروف أحد وجوه النظم القرآنى ، وأن تحقيقها والعناية بها بلاغة .

ولاشــك فى أن نظرة عبد القاهر اشــمل من نظرة الرافعى فى ذلك ، فلا ينكر ما للحروف من أثر فى احداث البيان حين يعنى باختيارها وبعــدها من النافر والشــاذ أما أن تجعل البلاغة فيها فذلك ما لا يقره المبتدىء فى دراسة البلاغة التى ينص أعلامها على أن البلاغة من صــفات الكلام والمتكلم ولا توصف بها الألفاظ المفردة — فلأن تنفى عن الحروف من باب أولى .

ونظرا لاهتمام عبد القاهر بأمر النظم واطنابه فى الحديث عنه وأنه مناط الحسن وموطن البلاغة والبيان فقد فهم بعض المعاصرين أنه يغفل أهمية الحروف ويغمط قدرها ويلغى أثرها فى روعة النظم وحسنه وعابوا عليه ذلك واتهموه بالتقصــير(١) .

---

(١) أنظر : النقد الأدبى : سيد قطب ص١٢٣ ومقدمة تحرير التحبير د . حفنى شرف ص٤٧ والنقد الأدبى فى الربع الأول من القرآن العشرين د . أحمد حفنى ص١٥١ .

ولقد كنت على أن ارى رايهم واشاركهم فى اتهام امام البلاغة لولا ما لفتنى اليه استاذى الدكتور/احمد موسى من ضرورة متابعة عبد القاهر فى كل ما كتب وتتبعه فى كل المواطن حتى يجىء الحكم صادقا والرأى قاطعا ، ومن ثم فقد عاودت متابعة عبد القاهر حتى وجدته فى نهاية أسرار البلاغة يعترف بأهمية الحروف ويقرر قيمتها فى روعة النظم ، ويعلل اهداره لأمرها فى المواطن السالفة حتى لا يتوهم انها مناط الحسن ومحل الاعجاز ، ولنستمع لما يقوله عبد القاهر فى ذلك حتى نتبين عمق نظره وشمول رأيه اذ يقول : « واعلم انا لا نأبى أن تكون مذاقة الحروف وسلامتها مما يثقل على اللسان داخلا فيما يوجب الفضيلة وان تكون مما يؤكد أمر الاعجاز ، وانما الذى ننكره ونفيل رأى من يذهب اليه أن يجعل معجزا وحده ويجعله الأصل والعمدة فيخرج الى ما ذكرناه من الشناعات »(١) .

بهذا كان عبد القاهر أصوب رأيا فى موقفه من الحروف من الرافعى الذى حالفه التوفيق فى ابراز أسرار الاعجاز من جهة انسجام الحروف ولم يوفق حين جعل ذلك أصلا فى الاعجاز .

بين الرافعى وابن سنان الخفاجى :

كما ندرك افادة الرافعى فى حديثه عن : انسجام الحروف بما كتبه ابن سنان وان اختلفت طريقة التناول بينهما ، فابن سنان يجعل الاهتمام بالحروف شرطا فى فصاحة الكلمة ، بينما يجعلها الرافعى أحد أركان النظم القرآنى ، ولا يرى ابن سنان فرقا بين القرآن الكريم وكلام العرب من جهة التلاؤم . ولقد نقد الرمانى بسبب ذلك بينما يقرر الرافعى أن مكانة الحروف فى القرآن الكريم تتمثل فى تلاؤمها واحكام تركيبها ، واذا كان الطابع القاعدى قد غلب على صنع ابن سنان فان الطابع الأدبى قد تميز فى صنع الرافعى ، اذ كان معنيا بابراز الانسجام الناشىء عن : احكام وضع الحروف ودقة تركيبها فى القرآن الكريم(٢) .

---

(١) أسرار البلاغة : عبد القاهر الجرجانى ص٣٣٨ .
(٢) انظر : سر الفصاحة لابن سنان ص٥ — ٤٢ ت . عبد المتعال الصعيدى .

ولقد وضح ابن سنان طرقا من هــذا الانسجام ، لكنه كان على سبيل الاشـــارة والايجاز(١) ولم يكن ابن ســـنان أول من ناقش ظاهرة الحروف وأصواتها كما ذهب الى ذلك بعض الباحثين(٢) .

بل أن اللغويين من قبله قد أفاضوا القول فى مناقشة هــذا المبحث ، وتجلت براعة ابن سنان فى الافادة من جهود اللغويين فى البحث البلاغى ، كما تعرض البلاغيون والنقـاد من قبله لهــذا المبحث ، لكنه كان أكثر بسطا واســتيعابا(٣) .

كما أفاد الرافعى فى حـديثه « انســجام الحروف » بما كتبه الرازى وضـــياء الدين بن الأثير والعلوى وابن الزملكانى(٤) .

واذا كان البلاغيون قد تعرضوا للحديث عن أحوال الحروف وصفاتها كما تقدم ، فان الرافعى تجلت براعته وتألقت مهارته وكان أكثر حصـــافة من البلاغيين فى ذلك اذ ناقش صــفات الحروف وفلسفة الصوتيات نظريا فى الجزء الأول من : تاريخ آداب العرب ثم طبق تلك النظريات بعد ذلك فى الجزء الثانى من الكتاب الســـابق الذى اختصــه بالحديث عن : اعجاز القرآن فبين أثر الحروف فى البلاغة القرآنية فى هــذا الانسجام الناشىء من وضع كل حرف فى مكانه المناسب — وتلك الموسيقى التى يهتز لها غير العربى ويدرك عن طريقها علو كعب الأسلوب القرآنى — كما مكنت الصبية والعوام من حفظ القرآن وجعلته باقيا على مر العصور وغضا طريا لا يمل من ســـماعه ولا يسأم من ترداده .

---

(١) أنظر : النقد الأدبى من خلال تجاربى : مصطفى السحرتى ص٥٧ .
(٢) أنظر : ابن سنان الخفاجى ومنهجه فى النقد والبلاغة ص١٦٤ .
(٣) أنظر : من النقد والأدب . د . أحمد بدوى ص١٦١ .
(٤) أنظر : المثل الســـائر : ابن الأثير : ٣٦/١ والطراز للعلوى : ٢١٩/٣ وما بعدها ، ونهاية الايجاز للرازى ص٢٢ وما بعدها والمجيد فى اعجاز القرآن المجيد لابن الزملكانى ص٤٩ والتبيان فى علم البيـــان له أيضـــا ص١٦٥ .

ولقد وفق الرافعى فى توضيح البون البعيد بين هـذه الموسـيقى القرآنية وبين نغمات الموسيقى وموسيقى الشـعر حيث لا نمل من سماع الأولى لتجددها بين لحظة وأخرى ونمل ونسأم من سماع الثانية لمجيئها على وتيرة واحـدة بسبب اتحاد الأوزان وتساوى المقاطع .

ولكى ندرك ما أحرزه الرافعى من نجاح فى ابراز أثر الحروف فى البلاغة القرآنية فلنقرأ ما كتبه البلاغيون فى مقدمات كتبهم عن الفرق بين الفصاحة والبلاغة وحديثهم الطويل عن : شروط فصاحة الكلمة فانا لا ندرك علاقة ولا صلة بين ما نقرؤه وبين البلاغة القرآنية ، بينما نرى العكس فى صنع الرافعى .

وان كنا نأخذ على الرافعى انه قد جاوز بالحروف قدرها وأعطـاها اكثر من حقها حين مضى يرد الاعجـاز اليها وينسب الحسن اليها ، وكان الأحرى به أن يسـلك مسلك « عبد القاهر » حيث اعترف بأثرها فى تحقيق الحسن وصنع البيان دون أن يجعل الاعجاز فيها وترد البلاغة اليها .

كما نأخذ عليه كذلك انه لم يقدم قدرا كافيا من الآيات القرآنية ليبين خصائص ما بها من حروف — وهـذا المـأخذ ينساق الى معظم ما كتبه الرافعى اذ كان فى حاجة الى مزيد من التطبيق للتقرير والتأكيد ، ولقـد استدرك رحمه الله هـذا النقص ، فأخذ فى تأليف كتاب يختصه بهـذا الجانب التطبيقى ، وكانت يد القدر أسبق اليه فذهب الى جوار ربه وتركه قصـاصات مبعثرة على مكتبه .

وما أشد حاجة البحث البلاغى الى الافادة من صنع الرافعى فى دراسة المقاييس البلاغية بعد حذف ما بها من غموض وتقديمها فى عبارات سـهلة من خلال التطبيق على كلام الله والمختار من كلام العرب مع التفقه فى معرفة أسرار الحروف وأصواتها قبل التوغل فى البحث البلاغى ، والافادة فى ذلك بجهود المحدثين فى الصوتيات — وبذلك نعيد للبلاغة شـبابها ونضارتها ، ونقضى على عزلتها وانكماشها ، ونصلها بالنص الأدبى حقلها الخصب ، وميـدانها الفسـيح .

الفصـــل الثـــانى

انسجام الـكلم فى القرآن الـكريم

بعد أن فرغ الرافعى من الكلام على الركن الأول من أركان النظم عنده المتمثل فى الحروف وأصواتها أخذ فى الكلام على الركن الثانى المتمثل فى : الكلمات وحروفها .

وحديث الرافعى فى البلاغة كما رأينا حديث الفيلســـوف الذى يقرر حقائق ، ويضع مبادىء ، فهو حديث رجل قد تثقف ثقافة واســـعة وأحاط بعلوم اللغة وبلاغتها وبعد أن أستوعب هـــذا كله سجله فى هـــذه النظريات البعيدة وتلك الأحكام الصـــائبة .

ولقد قرأ الرافعى ما كتبه البلاغيون عن القرآن — وما وضعوه من قواعد للمحافظة على الأساليب ، لكنه لم يوافقهم على مســـلكهم الذى احتذوه ، حيث رأى أن مناهجهم وطرقهم وقواعدهم لا تحقق للبلاغة هدفها المنشـــود فى : تذوق الأسرار القرآنية والوقوف على بلاغة القرآن الكريم .

واذا كان كثير من الباحثين يردون خلو (اعجاز القرآن للرافعى) من الأبحاث البلاغية التى فاضت بها كتب البلاغة وحفلت بها كتب الاعجاز الى عدم دراسة الرافعى لهـــذه البلاغة وعدم تمكنه من الوقوف عليها والالمـــام بها فانى أخالفهم فى ذلك وأرى أن (الرافعى) قد وقف على كتب البلاغة واستوعبها ودرس كتب الاعجاز وأحاط بها واشـــار الى كل تلك الكتب فيما قدمه لنا — لكنه رأى أن المنهج الذى مضت عليه تلك الكتب لا يحقق الهدف الذى يراد الوصـــول اليه وهو : ادراك بلاغة القرآن وتذوق أسرار هـــذه البلاغة .

بل انى لأرى أن ما قدمه الرافعى فى ذلك لم يخرج عن البلاغة ولم يتجاوز حدودها وقواعدها ، لكن فى أسلوب آخر ونهج جديد يغلب عليه التـــذوق والتعمق وينأى عن : الجمود والغموض والجفاف .

وعند تدقيق النظر وامعـــان الفكر نتبين أن ما كتبه الرافعى عن البلاغة القرآنية انما هو بلورة وبسط وشرح وتحليل لمـــا كتبه البلاغيون .

فلقد حلل الرافعى هـذه القواعد وبسطها وأعاد صياغتها فى أسلوب أدبى وتلك هى : فلسفة البلاغة .

والبليغ العصرى الناجح هو الذى يصنع ما صـنعه الرافعى ، فيقدم البلاغة لأهل عصره بأسلوب العصر — ولا يتأتى له ذلك الا بالوقوف على التراث البلاغى القـديم ، والتفقه فى دراسته ، ثم يطبق هـذه المقاييس عند التحليل للنصوص الادبية بأسلوب يبعد عن روح التقعيـد ، لا يحوى من القواعد الا لبابها وثمرتها وخلاصتها ، وبذلك ننتفع بالدراسات البلاغية ونحقق للبلاغة أهدافها من : الارتقاء بالأسـاليب والوقوف على محاسنها ومساوئها ، وتكوين ملكة التذوق والنقد .

كما لا أوافق على ما يراه كثير من النقاد المعاصرين من : عدم جدوى الدراسات البلاغية القديمة ، وأنها تحجر على الأفهام — وتمنع من الافادة بثمار الأدب والاحساس بجمـاله .

فتلك نظرات قاصرة — وأحكام خاطئة ، فلم يستمد النقد الأدبى الحديث أصـوله وعناصره الا من تلك الدراسات ، وبشىء من التروى وبقليل من النظر والتدبر يمكننا أن نرد معظم هـذه الأصول التى قا مءليها النقد الأدبى الحديث الى أصول وقواعد قديمة .

فالدراسات البلاغية والنقدية القديمة تراث هائل وزاد نافع وجهد علمى قويم ، وعلينا أن نفيـد من هـذا الزاد وأن ننتفع بذلك التراث فى تكوين الملكات وتربية الأذواق — واحياء لغة العروبة — وعلى أدبائنا ونقادنا أن يبذلوا جهدهم ويكرسوا همتهم فى سبيل تذليل المصـاعب التى يلقاها الدارس المعاصر أمام فهم هـذه القواعد — وأن يعنوا بالتطبيق عليها من القرآن الكريم وحديث الرسـول عليه الصلاة والسلام — والمختار من كلام العرب .

كان ذلك فى تقديرى سر نجاح الرافعى ، والسبب فى ذيوع صـيته ، وتألق نجمه — وتقدير الدارسين والباحثين لمـا كتبه عن (اعجاز القرآن) فلقد رمى الى لفت العقول الى ادراك ما بين كلام الله وكلام البشر من بون

بعيد فى البلاغة وفارق شاسع فى البيان والفصــاحة ، ووجد أن المنهج الذى درج عليه البلاغيون لا يمكنه من تجلية هــذا المقصد ومن بلوغ ذلك الهدف — وخاصة انه يكتب ذلك فى عصر قد فســدت فيه الملكات ، وتغيرت الأذواق — فعمل على بلورة دراسات البلاغيين وتصــفيتها من الغامض والخفى واستخراج ثمارها ، وعرضها على الدارسين كنماذج وأمثلة لعلو كعب البيان القرآنى ، وبلوغه المرتبة العالية فى البلاغة والبيان .

ولو صنع الرافعى ما صنعه البلاغيون — لمــا كان الا صــورة مكررة منهم — ولمــا زاد كتابه على أن يكون نسخة معادة من كتبهم ومؤلفاتهم فى اعجاز القرآن . ولكن كانت الحكمة والفلســفة والبلاغة فيما صنعه — ومن هنا كتب له النجاح ، وتم له التفرد والتميز .

فماذا كتب الرافعى عن : الكلمات وحروفها — التى يعد ورودها فى القرآن الكريم على درجة عالية من الانسجام وجها من وجوه نظمــه وأصلا من أصــول بلاغته ؟

فالطابع العام الذى أدركناه فيما كتبه الرافعى عن : الحروف وأصواتها هو نفسه الطابع الذى نلمسه فى كلامه على : الكلمات وحروفها ، والذى نلحظه على كل دراســاته البلاغية ، أعنى الطابع اللغوى البلاغى الذى يجمع بين اللغة والبلاغة فى تذوق النصــوص وتفهم أسرارها .

صــوت النفس :

لقد بدأ الرافعى كلامه عن : انسجام الكلم فى القرآن الكريم بما كان من علاقة وارتباط بين هــذه الكلمات وبين المعانى المقصودة .. وأن هــذه العلاقة جزء من هــذا الانســجام ويقول فى ذلك : « والكلمة فى الحقيقة الوضعية انما هى صوت النفس ، لأنها تلبس قطعة من المعنى فتختص به على وجه المناســبة قــد لحظته النفس فيها من أصل الوضع حين فصلت الكلمة على هــذا التركيب وصوت النفس أول الأصوات الثلاثة التى لابد منها فى تركيب النسق البليغ ، حتى يستجمع الكلام بها أسباب الاتصــال بين الألفاظ ومعانيها وبين هــذه المعانى وصورها النفســية ، فيجرى فى

النفس مجرى الارادة — ويذهب مذهب العاطفة ، وينزل منزلة العلم الباعث على كلتيهما »(١) .

فالرافعى يرى أن المناسبة بين الأصوات والمعانى وبين الكلمات والغرض المقصود وجه من وجوه « انسجام الكلم » فى القرآن الكريم ويطلق على ذلك « صوت النفس » حيث يعرفه بأنه « الصوت الموسيقى الذى يكون من تأليف النغم بالحروف ومخارجها وحركاتها ومواقع ذلك من تركيب الكلام ونظمه على طريقة متساوقة ، وعلى نضد متساو بحيث تكون الكلمة كأنها خطوة للمعنى فى سبيله الى النفس ،وان وقف عندها هذا المعنى قطع به »(٢) .

وبالتحقيق تبين أن الرافعى لم يقدم جديدا فى كلامه السابق ، فهذه المناسبة بين الكلمات ومعانيها التى كانت فى القرآن على أحكم وجوه التناسب والتى أطلق عليها الرافعى : صوت النفس — مبحث لغوى حظى باهتمام اللغويين — وأخذ جانبا كبيرا من جهدهم وقدرا عظيما من اهتمامهم وذلك المبحث هو : المناسبة بين الحروف والكلمات وبين معانيها — ولقد فصل — ابن جنى — الكلام على هذا الموضوع فى باب : امساس الألفاظ أشباه المعانى — وكذلك السيوطى(٣) .

كما تابع اللغويين فى مناقشة هذا المبحث غير واحد من البلاغيين ، وذلك يدل على مبلغ فائدة المباحث اللغوية فى الدراسات البلاغية ، وخطورة تنحية هذه المباحث جانبا ودراسة البلاغة بمعزل عنها .

فلقد استعان الزمخشرى بهذا المبحث فى تفهم الأسرار القرآنية وادراك الفروق بين الكلمات(٤) .

---

(١) اعجاز القرآن للرافعى ص٢٤٩ .
(٢) المرجع السابق .
(٣) انظر الخصائص لابن جنى : ١ ص٥٤٤ وما بعدها ت : محمد على النجار ، والمزهر للسيوطى : ٤٧/١ ت : محمد أحمد جاد المولى وآخرين .
(٤) انظر : الكشاف للزمخشرى : ١١٢/٣ ، ٢٥٣ ، ٢٥٧ ط . ثانية ، والنظم القرآنى فى كشاف الزمخشرى ص٤١ وما بعدها د . درويش الجندى .

كما تحدث — ضــياء الدين بن الأثير — عن المناســبة بين الالفاظ ومعانيها فى مقالته الثانية من كتاب « المثل الســائر » وعد تلك المناسبة وجها من وجوه الصــناعة المعنوية وذكرها تحت عنوان : فى قوة اللفظ لقــوة المعنى(١) .

واقتفى —يحيى بن حمزة العلوى — أثر — ضياء الدين بن الأثير ، وتحدث عنه تحت العنوان السابق عند بن الأثير ، وذكر أن هــذا المبحث له صــلة وثيقة بالبلاغة(٢) .

وعرض له — ابن قيم الجوزية — كذلك فى كتابه : الفوائد المشــوق الى علوم القرآن(٣) .

فواضح أن الرافعى لم يذكر جديدا فى كلامه السابق ، بل انه كان يحكى ما ذكره اللغويون الذين أفاضوا فى مناقشة هــذا المبحث ، واقتفى أثرهم البلاغيون غير أنه قد لوحظ أن الرافعى لم يعرض فى ذلك لكل مــا ذكره اللغويون والبلاغيون من أوجه تلك المناسبة ، بل جاء حديثه عن ذلك تلخيصا لكلامهم وفلسفة لمقاييسهم وتطبيقا لها فى ميدان البلاغة القرآنية .

وتلك هى طريقة الرافعى كما سبق أن قررنا وعرفنا أن كلامه مبنى على أصول راسخة وأسس قوية من لغة الأقدمين وبلاغتهم ، لكن بأسلوب يخالف أسلوبهم ، ومنهج يغاير منهجهم — أسلوب يناسب روح العصر ، ولغة بعيدة عن التعقيد والغموض — مزدانة بالبيان والاشراق .

كما ندرك قيمة المباحث اللغوية ومدى فائدتها فى الدراسات البلاغية .

وهــذه المناسبة بين الكلمات ومعانيها فى القرآن الكريم التى يعدها الرافعى عنصرا من عناصر نســقها وانســجامها يطلق عليها النقد الأدبى

---

(١) أنظر : المثل الســائر لابن الأثير : ١ ص١٤٩ وما بعــدها . ت : الدكتورين : الحوفى وطبــانة .

(٢) أنظر : الطراز للعلوى : ٣ ص١٦٢ وما بعدها ط . المقتطف .

(٣) أنظر : الفوائد المشــوق الى علوم القرآن : ابن قيم الجوزية ص١٠٦ ط . أولى .

الحديث (الايحاء) ويجعل لها شأوا بعيدا فى جمال العبارات وبلاغتها ومن أجل ذلك كانت الكلمة الموحية أهم عنصر من عناصر الصياغة الشعرية[١] .

ونفتقد عند الرافعى ما نفتقده فى معظم كلامه ، وهو الجانب التطبيقى اذ كنا فى أمس الحاجة الى التثبت من هـذا الكلام من خلال التطبيق على آيات القرآن الكريم ، يوضح فيها بطريقة عملية ما بين كلماتها والمعانى التى وردت فها من علاقة واتصـال .

صـوت الحس :

ومن أهم وجوه انسـجام الكلم فى القرآن عند الرافعى : انها جاءت على قدر المعانى لا زائدة ولا ناقصة ، ويطلق الرافعى على هـذا الوجه : صوت الحس — ويرى انه من أدق مظاهر انسجام الكلم فى القرآن الكريم ، وانه لا يكون الا من دقة التصـور المعنوى — والابداع فى تلوين الخطاب ، ومجاذبة النفس مرة ، وموادعتها مرة واستيلائه على محضها بما يورد عليها من وجوه البيان ، أو يسوق اليها من طرائف المعانى[٢] .

ويقرر الرافعى أن حسن الألفاظ يوزن بمقدار توافر هـذا العنصر فيها الذى هو روح الاعجاز فى القرآن الكريم ، ولو هو خلا منه لأشـبه أن يكون اعجازه صـناعيا عند العرب ان بقى معجزا ، ولو هم فقـدوا هـذا المعنى من اكثره أو من أقله ، لقد كانوا وجـدوا مذهبا فيه للقول ومساغا للرد ، ولظلوا فى مرية منه ، ثم لسـارت عنهم الأقاويل فى معارضته واعتراضه .

كما يقرر الرافعى أن صوت الحس هـذا الذى هو روح الاعجاز فى القرآن الكريم لم يوجد فى كلام العرب ، وانما وجد فى كلامهم الصـوتان الآخران وهما : صوت النفس وصوت العقل ، ذلك بأن صـوت النفس طبعى فى تركيب لغتهم أن يستبينوه فى كثير من كلام بلغائهم ، أما صـوت

---

(١) أنظر : اتجاهات وآراء فى النقد الحديث د . محمد نايل ص٧٦ والتجديد فى الأدب المصرى الحديث : عبد الوهاب حمودة ص٤٠ وموسيقى الشـعر العربى د . شـكرى عياد ص١٧ .

(٢) اعجاز القرآن للرافعى ص٢٥٠ وما بعـدها .

الحس فقد خلت لغتهم من صريحه وانفرد به القرآن ، وقد كانوا يجدونه فى أنفسهم منذ افتنوا فى اللغة وأساليبها ، ولكنهم لا يجدون البيان به فى ألسنتهم ، لأنه من الكمال اللغوى الذى تعاطوه ولم يعطوه .

كما يبين الرافعى أن اختصاص القرآن الكريم بهذا الصوت قد أبعد الملل والسآمة عن سامعيه ، اذ تصيب كل كلمة هدفها وتوافق غرضها بدون زيادة أو نقصان ، ولا تطويلا فى جانب وتقصيرا فى جانب آخر كما يشاهد ذلك فى كلام البلغاء وحديث الفصحاء — وأعجب شىء فى أمر هذا الحس الذى تمثل فى كلمات القرآن أنه لا يسرف على النفس ولا يستفرغ مجهودها ، بل هو مقتصد فى كل أنواع التأثير عليها فلا تضيق به ولا تنفر منه ولا يتخونها الملال ، ولو بحث فى أصول البلاغة الانسانية عن حقيقة نفسية ثابتة قد اطردت فى اللغات جميعا وهى فى كل لغة تعد أصلا فى بلاغتها لما أصبنا غير الحقيقة التى لا تظهر فى شىء من الكلام ظهورها فى القرآن ، وهى (الاقتصاد فى التأثير على الحس النفسى) وما نعرف فى هذه الأساليب العربية خاصة الا اسرافا على هذا الحس أو تراجعا من دونه(١) .

ويمكننا أن نرد كلام الرافعى السابق عن : صوت الحس — الذى يعده روح الاعجاز فى القرآن الكريم ويعتبره أبرز مظاهر انسجام الكلم فى القرآن الى ما ذكره البلاغيون فى علم المعانى عن : بلاغة الايجاز والاطناب — وان كان هناك بون بعيد بين صنع الرافعى الذى جعل القرآن هدفا لبحثه فوصل به البحث الى غايته : فى تذوق أسرار البلاغة القرآنية وبين صنع البلاغيين حيث كان الجدل والتقعيد الذى حشدت به أبحاثهم سببا فى وقوفها دون الوصول الى الهدف السابق .

صوت الحس بين الرافعى والدكتور « دراز » :

ونأخذ على الرافعى فى كلامه على « صوت الحس » السابق عدا اهمال التطبيق ما بدا على كلامه من غموض وبعد — ومن أجل هذا فقد

---

(١) أنظر : اعجاز القرآن للر[illegible] ص٥٤[illegible] .

رأينا الدكتور « دراز » أكثر توفيقا من الرافعى فى موقفـــه من الظـــاهرة السابقة ، كما كان أكثر وضوحا منه — فقد جعل الدكتور — دراز — هـــذه الخاصية من الوجوه التى يتميز بها كلام القرآن على كلام البشر — وأطلق عليها : القصـــد فى اللفظ والوفاء بحق المعنى — وذكر أنهما نهايتان كل من حاول أن يجمع بينهما وقف منهما موقف الزوج بين ضرتين لا يستطيع أن يعدل بينهما دون ميل الى احدهما ، ولا يجتمعان على تمامهما الا فى القرآن الكريم ، حيث نجد بيانا قـــد قدر على حاجة النفس احسن تقدير ، فلا نحس فيه بتخمة الاسراف ، ولا بمخمصة التقتير يؤدى لنا من كل معنى صورة نقية وافية : (نقية) لا يشوبها شىء مما هو غريب عنها — (وافية) لا يشذ عنها شىء من عناصرها الأصلية ولواحقها الكمالية ، كل ذلك فى أوجز لفظ وأنقاه ، ففى كل جملة منه جهاز من أجهزة المعنى ، وفى كل كلمة منه عضـــو من أعضـــائه — وفى كل حرف منه جزء بقدره ، وفى أوضاع كلماته من جمله ، وأوضاع جمله من آياته سر الحياة الذى ينتظم المعنى بأدائه(١) .

فلعلنا ندرك أن كلام الدكتور — دراز — على هـــذه الظاهرة هو بعينه ما ذكره الرافعى . وكان الدكتور دراز أكثر توفيقا لوضـــوحه .

دقة الكـــلم القرآنى :

ومن وجوه انسجام الكلم فى القرآن الكريم عند الرافعى : استقرارها فى أماكنها وعدم الاضطراب فى حروفها ، فلا توجد كلمة واحدة قلقة أو نافرة ، ولا يوجد حرف قد ازيل عن موضـــعه ، أو يصلح غيره ليحل محله ، بخلاف كلام العرب الذى كان مجالا للنقد لمـــا يعتوره من اضطراب وخلل ، اذ انه لمـــا كان الأصـــل فى نظم القرآن أن تعتبر الحروف بأصـــواتها وحركاتها ومواقعها من الدلالة المعنوية ، استحال أن يقع فى تركيبه ما يسوغ الحـــكم فى كلمة زائدة أو حرف مضطرب ، أو ما يجرى مجرى الحشو والاعتراض ، أو ما يقال فيه أنه تفوت واستراحة كما نجد من كل ذلك فى أساليب البلغاء ، بل نزلت كلماته منازلها على ما استقرت عليه طبيعة البلاغة ، بحيث لو نزعت كلمة أو ازيلت عن وجهها ثم ادير لســـان العرب كله على أحسن منها فى

---

(١) أنظر : النبأ العظيم : د . محمد عبد الله دراز ص١٠٣ وما بعدها .

تأليفها وموقعها وسدادها لم يتهيأ ذلك ، ولا اتسقت له اللغة بكلمة واحدة ، وهو سر من اعجازه قد احس به العرب ، لأنهم لا يذهبون مذهبا غيره في منطقهم وفصـــاحة هـــذا المنطق ، وانما يختلفون في أسباب القدرة عليه ومعنى الكمال فيه ، ولو انهم وجدوا ســـبيلا الى نقص كلمة من القرآن لأزالوها واثبتوا فيه هـــذا الخطأ أو ما يشـــبه الخطأ في مذهبهم ، اذ كان من المشـــهور عنهم مثل هـــذا الصـــنيع في انتقادهم وتصفحهم بعضهم على بعض في التحدى والمناقضة ، كما في قصة الخنساء ونقـــدها في عكـــاظ على حسان بن ثابت حين انشـــدها قوله :

لنا الجفنات الغر يلمعن بالضحى ... واســـيافنا يقطرن من نجدة دما
ولدنا بنى العنقاء وابنى محـــرق ... فاكرم بنـــا خالا وأكرم بنا ابنما

فقالت الخنساء : ضعفت افتخارك وأبرزته في ثمانية مواضع ، قال : وكيف ؟ قالت : قلت : لنا الجفنات — والجفنات : ما دون العشر ، فقللت العدد ، ولو قلت : الجفان : لكان أكثر — وقلت : الغر ، والغرة : البياض في الجبهة ، ولو قلت : البيض لكان أكثر اتساعا ، وقلت : يلمعن ، واللمع : شيء يأتى بعد الشيء ، ولو قلت : يشرقن لكان أكثر ، لأن الاشراق أدوم من اللمعان ، وقلت : بالضحى ، ولو قلت : بالعشـــية لكان ابلغ في المديح ، لأن الضيف بالليل اكثر طروقا ، وقلت : أسيافنا ، والأسياف : دون العشر ، ولو قلت : سيوفنا كان اكثر — وقلت : يقطرن : فدللت على قلة القتل ، ولو قلت يجرين لكن أكثر لانصباب الدم — وقلت : دما،والدماء أكثر من الدم — وفخرت بمن ولدت ولم تفتخر بمن ولدك(١) .

ولعلنا نلاحظ أن كلام الرافعى السابق ليس فيه جديد ، فهو مستوفى في كتب البلاغة والنقد ، وذلك من الوضوح بحيث لا يحتاج الى اشـــارة أو تنبيـــه .

اصـــالة الكـــلم القرآنى :

ومن وجوه انسجام الكلم في القرآن عند الرافعى : أصالتها ، وعـــدم الاستغناء عن واحدة منها ، اذ لا توجد في القرآن كلمة واحدة يتوهم زيادتها

(١) أنظر : اعجاز القرآن للرافعى ص٢٥٤ وما بعدها .

أو يظن عدم الاحتياج اليها ، وأن ما يراه بعض النحويين واللغويين من وجود بعض الأحرف الزائدة فى القرآن فانه غير صحيح ، لأنه يؤدى الى أن يوجد فى القرآن ما ليس منه ، وما يتوهم زيادته من ذلك فان بلاغته تدرك بالتأمل وطول النظر ، ومما يقوله الرافعى فى ذلك : « ثم الكلمات التى يظن أنها زائدة فى القرآن كما يقول النحاة ، فان فيه من ذلك أحرفا : كقوله تعالى : « فبما رحمة من الله لنت لهم » وقوله : « فلما أن جاء البشـــير القــاه على وجهه فارتد بصــــيرا » فان النحاة يقولون : ان ما فى الآية الأولى — وأن — فى الثانية زائدتان ، أى فى الاعراب ، فيظن من لا بصر له أنهما كذلك فى النظم ويقيس عليه ، مع أن فى هـــذه الآية لونا من التصوير لو هو حذف من الكلام لذهب بكثير من حسنه وروعته ، فان المراد بالآية الأولى : تصوير لين النبى صلى الله عليه وسلم لقومه وان ذلك رحمة من الله — فجاء هـــذا المد فى (ما) وصفا لفظيا يؤكد معنى اللين ويفخمه ، وفوق ذلك فان لهجة النطق به تشـــعر بانعطاف وعناية لا يبتدأ هـــذا المعنى بأحسن منهما فى بلاغة السياق ، ثم كان الفصل بين الباء الجارة ومجرورها — وهو لفظ : رحمة — مما يلفت النفس الى تدبر المعنى وينبه الفكر على قيمة الرحمة فيه — وذلك كله طبعى فى بلاغة الآية — والمراد بالثانية : تصـــوير الفصل الذى كان بين قيام البشير بقميص يوسف وبين مجيئه ، لبعد ما كان بين يوسف وأبيه عليهما الســـلام ، وأن ذلك كأنه كان منتظرا بقلق واضطراب تؤكدهما وتصف الطرب لمقدمه واستقراره ، غنة هـــذه النون فى الكلمة الفاصلة وهى : أن فى توله — أن جاء وعلى هـــذا يجرى كل ما ظن أنه فى القرآن مزيد ، فان اعتبار الزيادة فيه واقرارها بمعناها انما هو نقص يجل القرآن عنه ، وليس يقول بذلك الا رجل يعتسف الكلام ويقضى فيه بغير علمه أو بعـــلم غيره ، فما فى القرآن حرف واحد الا ومعه رأى يسنح فى البلاغة من جهة نظمه ، أو دلالته ، أو وجه اختيـــاره ، بحيث يســـتحيل البتـــة أن يكون فيه موضع قلق أو حرف نافر ، أو جهة غير محكمة ، أو شىء مما تنفذ فى نقـــده الصـــناعة الانسانية من أى أبواب الكلام ان وسمها منه باب[1] .

---

(١) اعجاز القرآن للرافعى ص٢٦٢ وما بعدها .

ولقد تبين لنا أنه ليس للرافعى من جديد فى كلامه السابق سوى تحليلاته الصوتية لبعض الأحرف ، وفيما عدا ذلك فهو ينقل نقلا كاملا وبدون أدنى اشارة ما ذكره السابقون حول هذا الموطن ، فلقد تكلم غير واحد من البلاغيين عن الحكمة من هذه الأحرف التى قيل بزيادتها فى القرآن الكريم ، وبينوا وجه الحاجة اليها ، واستلزام المقام لها ، وقرر ابن سنان الخفاجى والرازى عدم صحة القول بزيادتها ، لأن حقيقة الزيادة فى الكلمة أن يكون سقوطها وثبوتها سواء(١) .

كما أطال — ضياء الدين بن الأثير — الوقوف عند هذه الظاهرة ، ولقد اشتمل كلام الرافعى على كثير مما ذكره بن الأثير دون أن يشير اليه ، كما كانت الآيات التى مثل بها ابن الأثير هى تلك التى مثل بها الرافعى .

ولما كانت الآيات التى مثل بها الرافعى لتأكيد كلامه حول الظاهرة السابقة هى تلك التى مثل بها — ابن الأثير — وأنه ليس للرافعى جديد فيها الا تفسيراته الصوتية لبعض الحروف — فقد حاولنا العثور على مثال خاص بالرافعى حتى وقعنا من ذلك على مثال فى رسالة من الرافعى لصديقه أبى رية يفسر فيه حذف بعض الحروف فى القرآن الكريم ، ويبين أن البلاغة فى هذا الحذف ، وان هذا الحرف لو لم يحذف لكان عبثا يجل القرآن عنه ، وذلك مما يؤكد القول بعدم وجود حرف زائد فى القرآن الكريم . فيقول الرافعى : « أما — أن — فى قوله تعالى : « انا نطمع أن يغفر لنا ربنا خطايانا أن كنا أول المؤمنين » وفى قوله : « ان الانسان ليطغى ان رآه استغنى » فهى أن المصدرية حذف منها حرف الجر ، والتقدير : (لأن كنا) وحرف الجر يحذف باطراد مع « أن وأن ، وحكمة حذفه هنا أنهم طمعوا فى كرم الله وبالغوا فى الطمع حتى تجاوز ذلك منهم الى اليقين بغفران الله خطاياهم لأنهم كانوا أول المؤمنين ، فكونهم أول المؤمنين هو نفسه على ما أملوا فى كرم الله غفران الخطايا — فمجىء أن فى الآية بدون حرف الجر

---

(١) أنظر : سر الفصاحة لابن سنان الخفاجى ص١٤٧ وما بعدها ونهاية الايجاز فى دراية الاعجاز للرازى ص٦٠ .

يبعث الأمل فى نفوس من يفهمون حكمــة ذلك ، ولو ذكر الحــرف لصــار المعنى : انا نطمع فى الغفران لأن كنــا — وذكر العلة هنا يشــبه ســوء الأدب منهم كأنهم يعاملون الله بالثمن ، وفى الآية الثانية تصــور الآية أن الاستغناء أى الثروة هو نفســه الطغيان فى طبيعــة النفس الانســانية وهــذا صحيح ، فان المــال الكثير هو طغيان حقيقى ، ولكن قد يعترض على ذلك بأن مثل ركفلر(١) لم يطغه الغنى ، بل كان الغنى عنده وســيلة الخير والاحسان والعمل الطيب الذى لا ينقطع ، وهنا يظهر اعجاز الآية وهو اعجاز مدهش حقا ولم يخطر لى الا هــذه اللحظة ، وانا اكتب مع أنى فكرت فيه أمس طويلا ، الآية قالت : « أن رآه استغنى » فتقييد العبــارة برآه اعجاز فوق كل فكر ، لأن المعنى حينئذ أن الانسان الذى يطغيه الغنى هو الذى يرى نفســه غنيا ، بل يرى نفســه وكيلا على المــال الذى آتاه الله ، وقد قرر لنفســه أن يتخلص منه ويخرج من الدنيا فقيرا كما ولد فقيرا ، فكلمة رآه فى الآية شىء لا ينقضى العجب منه ومن سموه »(٢) .

وهكــذا يؤكد الرافعى بحسه المرهف وذوقه الأصــيل بلاغة الآية الكريمة ، ويقرر أن البلاغة فيما وردت عليه ، وأن حــذف هــذا الحرف لملحظ بلاغى دقيق ، وانه لو لم يحــذف لنقصت درجة البلاغة الأمر الذى يجل القرآن عنــه .

والرافعى على صــواب فيما قرره وردد فيه كلام البلاغيين من : عدم صحة القول بوجود كلمات أو حروف زائدة فى القرآن الكريم ، فان ما يمكن عده زائدا انما هو حروف نادرة ، جىء بها لأغراض بلاغية ، وفت بها هــذه الحروف الزائدة ويظهر أن تسميتها زائدة معناه : أنها لا يرتبط بها حــكم اعرابى ، لا أنها لم تؤد فى الجملة معنى ، ولقد ورد فى القرآن ما يبدو وللنظرة السريعة انه يمكن الاستغناء عنه ، ولكن التأمل يبين عن دقة بارعة فى اختيار هــذا التعبير ، وبلاغة مؤثرة فى المجىء به ، فقوله تعالى : « قد مكر الذين من قبلهم فأتى الله بنيانهم من القواعد فخر عليهم السقف من فوقهم وأتاهم العــذاب من حيث لا يشــعرون » فمن فوقهم — صــورت هــذه الكارثة

---

(١) من كبــار اغنيــاء أمريكا .

(٢) محمود أبو ريه : من رسائل الرافعى ص٢٦٣ وما بعدها .

التى نزلت بهم اكمل تصـــوير ، وقوله تعالى : « اذ تلقونه بألســـنتكم وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم وتحسبونه هينا وهو عند الله عظيم » وقوله تعالى : « وما جعل أدعياءكم أبنـــاءكم ، ذلكم قولكم بأفواهكم والله يقول الحق وهو يهدى الســـبيل » فأفواهكم تدل فى الآية الأولى على أن الحديث الذى يجرى على ألسنتهم حديث لم يشترك فيه العقل ولم يصـــدر عنه ، وفى الآية الثانية ، تدل على أن النطق اللســـانى لا يغير من الحقيقة شـــيئا ، فهو لا يتعدى اللسان الى ما فى الأفئدة من حقائق(١) .

لا ترادف فى القـــرآن :

كذلك من وجوه انسجام الكلم فى القرآن عند الرافعى : عدم استقامة تبديلها بغيرها مما يتفق معها فى المعنى ، وظهور الخلل ووضـــوح الاضطراب عند حدوث ذلك ، فالمعنى الواحد يعبر عنه بألفاظ لا يجزىء واحد منها فى موضعه عن الآخر ان أريد شرط الفصاحة ، لأن لكل لفظ صوتا ربما أشـــبه موقعـــه من الكلام ومن طبيعة المعنى الذى هو فيـــه والذى تســـاق له الجملة ، وربما اختلف وكان غيره بذلك اشبه ، فلابد فى مثل نظم القرآن من اخطار معـــانى الجمل ، وانتزاع جملة ما يلائمها من الفاظ اللغة ، بحيث لا تند لفظة ، ولا تتخلف كلمة ، ثم استعمال أمسها رحما بالمعنى ، وأفصحها فى الدلالة عليه ، وأبلغها فى التصوير وأحسنها فى النسق ، وأبدعها سناء ، وأكثرها غناء ، وأصـــفاها رونقا وماء ، ثم اطراد ذلك فى جملة القرآن على اتســـاعه ، وما تضمن من أنواع الدلالة ووجوه التأويل ، ثم احكامه على الا مراجعة فيه ولا تســـامح ، وعلى العصـــمة من السهو والخطأ فى الكلمة ، وفى الحرف من الكلمة ، حتى يجىء ما هو كأنه صيغ جملة واحـــدة فى نفس واحد ، وقد أديرت معانيها على ألفاظ فى لغات العرب المختلفة فلبســـتها مرة واحدة ، وذلك ولا ريب مما يفوت كل فوت فى الصناعة ولا يدعيه من الخلق فرد ولا جماعة(٢) .

---

(١) انظر : من بلاغة القرآن د . احمد بدوى ص٩٥ وما بعـــدها والاعجاز البيانى للقرآن د . عائشة عبد الرحمن ص٦٨ والتفسير البيانى للقرآن د . عائشة عبد الرحمن ج٢ ص٤٦ وما بعدها .

(٢) انظر : اعجاز القرآن للرافعى ص٢٥٦ .

وهـــذا الذى تحدث عنه الرافعى قد ذكره الخطابى فى عمود البلاغة الذى حده بأنه : وضع كل نوع من الألفاظ التى تشتمل عليها فصول الكلام موضعه الأخص الأشكل به ، الذى اذا أبدل مكانه غيره جاء منه : اما تبدل المعنى الذى يكون منه فســـاد الكلام ، واما ذهاب الرونق الذى يكون معه ســـقوط البلاغة(١) .

فكلام الرافعى منقول من الخطابى بدون اشـــارة اليه أو ذكر له ، ولم يكتف بعدم الاشارة اليه ، بل نراه يهمل التمثيل ومعلوم ان الخطـــابى قد أفاض فى ذكر الأمثلة التى تتعلق بهـــذا الموضوع كبيان الفرق بين : العلم والمعرفة ـــو الحمد والشكر ـــ والبخل والشح ـــ والنعت والصفة ـــ والقعود والجلوس ـــ وبلى ونعم(٢) .

وواضح أن القرآن يتأنق فى اختيار الفاظه ، ولمـــا بين الألفاظ من فروق دقيقة فى دلالتها يستخدم كلا حيث يؤدى معناه فى دقة فائقة ، نكاد بها نؤمن بأن هـــذا المكان كأنمـــا خلقت له تلك الكمة بعينها ، وأن كلمة أخرى لا تستطيع توفية المعنى الذى وفت به أختها ، فكل لفظة وضعت لتؤدى نصـــيبها من المعنى أقوى اداء ، ولذلك لا نجد فى القرآن ترادفا ، بل فيـــه كل كلمة تحمل الينا معنى جديدا ، فلقد استخدم القرآن كلمة ـــ التراب ـــ ولكنه حين أراد هـــذا التراب الدقيق الذى لا يقوى على عصف الريح استخدم الكلمة الدقيقة وهى : الرماد ، فقال : « والذين كفروا أعمالهم كرماد اشتدت به الريح فى يوم عاصف » . كما أنه آثر عليها كلمة الثرى عندما قال : « تنزيلا ممن خلق الأرض والسموات العلى . الرحمن على العرش استوى ، له ما فى الســـموات وما فى الأرض وما بينهما وما تحت الثرى « لأنه يريد على ما يبـــدو من ســـياق الآيات الكريمة ، الأرض المكونة من التراب ، وهى من معانى الثرى ،فضلاعما فى اختيار الكلمة من المحافظة على الموسيقى اللفظية فى فواصل الآيات ـــ كما عبر القرآن عن القوة العـــاقلة فى الانسان بألفاظ ، منها : الفؤاد واللب والقلب ، واستخدم كلا فى مكانه

---

(١) أنظر : بيان اعجاز القرآن للخطابى ص٢٩ .
(٢) المرجع الســـابق .

المقســـوم له ، فالفؤاد فى الاستخدام القرآنى ، يراد به تلك الآلة التى منحها الله الانســـان ليفكر بها ولذا كانت مما ســـوف يسأل المرء عن مدى انتفاعه بها يوم القيامة ، كالسمع والبصر ، قال تعالى : « ان السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا » ، أما اللب : فلم يستخدم فى القرآن الا مجموعا ، فيراد به التفكير الذى هو من عمل تلك الآلة ، أما القلب ، وهو أكثر هـــذه الكلمات دورانافى الاستخدام القرآنى ، فهو بمعنى التفكير فى قوله تعالى : « لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها » وهو أداة الارادة ، كما يبدو ذلك فى قوله تعالى : « ان كادت لتبدى به لولا أن ربطنا على قلبها لتكون من المؤمنين « فالقرآن يستخدم القلب فيما نطلق عليه اليوم كلمة العقل .

الألفـــاظ الغريبة فى القرآن الكريم :

ويرى الرافعى من وجوه انسجام الكلم فى القرآن : ما يوجد فيه من كلمات عربية غريبة ومن الفاظ غير عربية .

أما الكلمات العربية الغريبـــة فى القرآن ، فالرافعى يفسر غرابتها بلطفها وحسنها وعدم استواء الناس فى العلم بها ، وليس لكونها منكرة أو نافرة أو شـــاذة ، فان القرآن منـــزه عن هـــذا جميعه ، وانما اللفظة الغريبة ههنا هى التى تكون حســـنة مستغربة فى التأويل بحيث لا يتساوى فى العلم بها أهلها وســـائر الناس ، ومنشأ الغرابة فيما عدوه من الغريب أن يكون ذلك من لغات متفرقة ، أو تكون مســـتعملة على وجه من وجوه الوضع يخرجها مخرج الغريب : كالظلم والكفر ، والايمان ونحوها مما نقل محلولة فى لغة العرب الى المعانى الاســـلامية المحدثة ، أو يكون سيـــاق الألفاظ قد دل بالقرينة على معنى معين غير الذى يفهم من ذات الألفـــاظ كقوله تعالى : « فاذا قرأناه فاتبع قرآنه » أى : فاذا بيناه فاعمل به(١) .

ويذكر الرافعى من تلك الكلمات الغريبة التى وردت فى القرآن على أكمل وجوه البيـــان ، ولا يصـــلح غيرها ان يســـد مسدها كلمة (ضيزى)

---

(١) انظر : اعجاز القرآن للرافعى ص٧٤ وما بعدها .

من قوله تعالى : « تلك اذا قسمة ضيزى » — فانها من أغرب ما فى القرآن — ومع ذلك — فان حسنها فى نظم الكلام من أغرب الحسن واعجبه — ولو أردنا اللغة عليها ما صلح لهذا الموضع غيرها فان السورة التى هى منها سورة النجم مفصلة كلها على الياء ، فجاءت الكلمة فاصلة من الفواصل ، ثم هى فى معرض الانكار على العرب ، اذ وردت فى ذكر الأصنام وزعمهم فى قسمة الأولاد ، فانهم جعلوا الملائكة والأصنام بنات لله مع أولادهم البنات . فقال تعالى : « ألكم الذكر وله الأنثى ؟ تلك اذا قسمة ضيزى » فكانت غرابة اللفظ أشد الأشياء ملاءمة لغرابة هذه القسمة التى أنكرها — وكانت الجملة كلها كأنها تصور فى هيئة النطق بها الانكار فى الاولى والتهكم فى الاخرى ، وكان هذا التصوير أبلغ ما فى البلاغة ، وخاصة فى اللفظة الغريبة التى تمكنت فى موضعها من الفصل ، ووصفت حالة المتهكم فى انكاره من امالة اليد والرأس بهذين المدين فيها الى الأسفل والاعلى ، وجمعت الى كل ذلك غرابة الانكار بغرابتها اللفظية والعرب يعرفون هذا الضرب من الكلام ، وله نظائر فى لغتهم ، وكم من لفظة غريبة عندهم لا تحسن الا فى موضعها ، ولا يكون حسنها على غرابتها ، الا انها تؤكد المعنى الذى سيقت له بلفظها وهيئة منطقها ، فكان فى تأليف حروفها معنى حسيا ، وفى تأليف أصواتها معنى مثله فى النفس ، وان نعجب فعجب نظم هذه الكلمة الغريبة وائتلافه على ما قبلها ، اذ هى مقطعان : احدهما مد ثقيل ، والآخر : مد خفيف — وقد جاءت عقب غنتين فى : « اذن » و « قسمة » واحداهما خفيفة حادة والاخرى ثقيلة متفشية ، فكأنها بذلك ليست الا مجاورة صوتية لتقطيع موسيقى ، وهذا معنى رابع ، أما خامس هذه المعانى : فهو أن الكلمة التى جمعت المعانى الأربعة على غرابتها انما هى اربعة أحرف ايضا(١) .

ولقد لوحظ أن الرافعى لا جديد له فى كلامه السابق الا هذه التحليلات الصوتية وفيما عدا ذلك فهو ينقل نقلا يكاد يكون حرفيا من ابن الأثير حيث ناقش هذه الظاهرة فى كلامه على اللفظة المفردة(٢) .

---

(١) انظر : اعجاز القرآن للرافعى ص٢٦١ وما بعدها .
(٢) انظر : المثل السائر : ضياء الدين بن الأثير جا ص٢٢٨ وما بعدها .

أما النوع الثانى من غريب القرآن الذى يتمثل فى تلك الكلمات التى وردت فيه من غير لغات العرب ، فيذكر الرافعى أن العلماء قد عدوا فى القرآن من غير لغات العرب أكثر من مائة لفظة ترجع الى لغات الفرس والروم والنبط والحبشة والبربر والسريان والعبران والقبط ، وهى كلمات أخرجتها العرب على أوزان لغتها وأجرتها فى فصيحها فصارت بذلك عربية ، وانما وردتفى القرآن لأنه لا يسد مسدها الا أن توضع لمعانيها الفاظ جديدة على
وردت فى القرآن لانه لا يسد مسـدها الا أن توضع لمعانيها الفاظ جديدة على طريقة الوضـع الأول ، فيكون قد خاطب العـرب بما لم يوقفهم عليه ، وما لا يدركون بفطرتهم اللغوية وجه التصرف فيه ، وليس ذلك مما يستقيم به أمر ولا هو عند العرب من معانى الاعجاز فى شىء ، ولذا قال العلماء فى تلك الالفـاظ المعربة التى اختلطت بالقرآن : ان بلاغتها فى نفسـها أنه لا يوجد غيرها يغنى عنها فى مواقعها من نظم الآيات لا افرادا ولا تركيبا(١) .

وهـذا التفسير الذى ذكره الرافعى لورود الكلمات المعربة فى القرآن ليس من ابتكاره ، وانما وقع عليه عند السيوطى الذى اعتبر ورود هـذه الكلمات فى القرآن من وجوه اعجازه ، فردد الرافعى كلامه . ولقد اعترف الرافعى بافادته من السيوطى فى ذلك ، وهـذا مالا نجده عنده الا نادرا(٢) .

الوجـوه والنظـائر :

كما عد الرافعى من وجوه انسـجام الكلم فى القرآن الكريم : تلك الألفاظ التى وردت فيه بمعـان مختلفة وأطلق عليها أهل اللغة : الوجوه والنظـائر كلفظ الهدى ، فانه ورد فيه على سـبعة عشر وجها بمعنى : الثبات ، والدين ، والدعاء ، ونحوها ، وكذلك الألفاظ التى تجىء بمعنى مفرد غير المعنى الذى تستعمل فيه عادة وسـماها أهل اللغة الأفراد ، كلفظ : الأسف فكل ما ذكر منه فى القرآن فمعناه الحزن الا قوله : « فلما آسـفونا انتقمنا منهم » فمعناه : اغضبونا ، وكلفظ : البروج فى القرآن

---

(١) أنظر : اعجاز القرآن للرافعى ص٧٥ وما بعدها .

(٢) أنظر : معترك الاقران فى اعجـاز القرآن للسـيوطى ص١٩٧ وما بعـدها وتطـور الاسـاليب النثرية فى الادب : انيس المقـدسى ١ ص٤٢ — ٤٦ .

الكواكب الا قوله : « ولو كنتم فى بروج مشيدة » فهى : القصور الطوال الحصينة ، وكلفظتى : البرد والبحر ، فجميع ما ذكر منهما فى القرآن قصد به : الماء والتراب ، الا قوله : « ظهر الفساد فى البر والبحر » فالمراد به : البرية والعمران[١] . وهذا الكلام قد أفاض السيوطى القول فيه ، وما ذكره الرافعى فهو قدر يسير[٢] .

موسيقى الكلمات القرآنية :

ومن أخص وجوه انسجام فى القرآن عند الرافعى هذه الموسيقى التى تنشأ عن وضع الكلمات فى أماكنها المناسبة بعد اختيار حروفها وتناسب حركاتها ولقد سبق أن تحدث الرافعى عن تلك الموسيقى عند كلامه على انسجام الحروف واصواتها ، وقرر أن الدقة فى اختيار الحروف واحكام تركيبها قد ترتب عليه هذه الموسيقى التى حفظت القرآن ولغته وجعلته غضا طريا ، كما جعلته معجزا للعرب والعجم .

فيذكر الرافعى من ذلك : عدم استعمال القرآن لبعض الألفاظ التى استعملتها العرب واقرت بفصاحتها ، وذلك لضآلة قيمتها فى تهيئة الانسجام وتوفير الموسيقى للنظم القرآنى — كلفظة : (الآجر) فحينما احتاج القرآن الى استعمالها لم يستعملها ولم يستعمل مرادفها وهو (القرمد) لعدم انسجام حروفهما ، وعبر عنهما باشعال النار على الطين ليتجنب استعمالهما وذلك أعلى مراتب الفصاحة واسمى منازل البلاغة فيقول الرافعى : « ومن الألفاظ لفظة (الآجر) وليس فيها من خفة التركيب الا الهزة وسائرها نافر متقلقل لا يصلح مع هذا المد فى صوت ولا تركيب على قاعدة نظم القرآن فلما احتاج اليها لفظها ولفظ مرادفها وهو (القرمد) وكلاهما استعمله فصحاء العرب ولم يعرفوا غيرهما ، ثم أخرج معناها بألطف عبارة وأرقها وأعذبها ، وساقها فى بيان مكشوف يفضح الصبح ، وذلك فى قوله تعالى : « وقال فرعون يأيها الملأ ما علمت لكم من اله غيرى فأوقد لى ياهامان على

---

(١) انظر : اعجاز القرآن للرافعى هامش ص٧٤ .

(٢) انظر : المختار من : الاتقان فى علوم القرآن ص٨٥ وما بعدها مراجعة : عبد الوهاب حمودة .

الطين فاجعل لى صرحا » فانظر هل تجد فى سر الفصاحة وفى روعة الاعجاز أبرع وأبدع من هــذا ؟ وأى عربى فصيح يسمع مثل هــذا النظم وهــذا التركيب ولا يملكه ، ولا يسـوغه حقيقـة نفسـه ولا يجن به جنـونا ، ولا يقول : آمنت بالله ربا وبمحمد نبيا وبالقرآن معجزة ، وتأمل كيف عبر عن الآجر بقوله : « فأوقد لى ياهامان على الطين » وانظر موقع هــذه القلقة التى هى فى الدال من قوله : « فأوقــد » وما يتلوها من رقة اللام ، فانها فى أثناء التلاوة مما لا يطاق أن يعبر عن حسـنه ، وكأنما تنتزع النفس انتزاعا ، وليس الاعجاز فى اختراع تلك العبارة فحسب ، ولكن ما ترمى اليه اعجاز آخر ، فانها تحقر شأن فرعون وتصف ضـلاله ، وتسـفه رأيه ، اذ طمع أن يبلغ الأسباب أسباب السموات فيطلع الى اله موسى ، وهو لا يجد وسيلة الى ذلك المستحيل ولو نصب الأرض سلما الا شـيئا يصـنعه هامان من الطين ، وفى التعبير حكمة أخرى جليلة — وتلك أن فرعون يريد أن يبنى صرحا يبلغ به السماء فعبر بالايقاد على الطين تهكما على فرعون لأن البناء فى مثل هــذا لا يزال يرتفع بلا نهاية ، واعداد الآجر يجب أن يكون كذلك مستمرا باستمرار الايقـاد على الطين ، ثم تشـعر العبـارة أن النتيجة لا شىء ، فكأنه لم يخرج لأبناء ولا مبينا به ، وما هو الا البدء والاسـتمرار فى البدء »(١) .

كما رد الرافعى السر فى تقديم بعـد الكلمات على غيرها فى القرآن الكريم الى توفير الموسيقى والانسـجام لنظمه ، وأنه ما من كلمة قد أصابت موضعها الا كان تحقيق هــذا الانسجام أبرز الأهداف من قرارها فى المكان الذى اطمأنت فيه ، حتى الأسماء الجامدة التى لا يتوقع أن يظهر فيها شىء من الاعجاز نجدها قد جاءت فى القرآن على أحـكم نظام وأسمى بيـان ، فيقول الرافعى : « وما يشــذ فى القرآن حرف واحد عن قاعدة نظمـه المعجز ، حتى انك لو تدبرت الآيات التى لا تقرأ فيهـا الا ما يسرده من الأسماء الجامدة وهى بالطبع مظنة الا يكون فيها شىء من دلائل الاعجاز ،

---

(١) اعجاز القرآن للرافعى ص٢٦٥ وما بعـدها .

فانك ترى اعجازها أبلغ ما يكون فى نظمها وجهات سردها ، ومن تقديم اسم على غيره أو تأخيره عنه لنظم حروفه ومكانه من النطق فى الجملة ، أو لنكتة أخرى من نكت المعانى التى وردت فيها الآية بحيث يوجد شيئا فيما ليس فيه شىء ، تأمل قوله تعالى : « فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات » فانها خمسة أسماء ، أخفها فى اللفظ (الطوفان والجراد والدم) وأثقلها (القمل والضفادع) فقدم (الطوفان) لمكان المدين فيها ، حتى يأنس اللسان بخفتها ، ثم الجراد وفيها كذلك مد ، ثم جاء باللفظين الشديدين مبتدئا بأخفهما فى اللسان ، وأبعدهما فى الصوت ، لمكان تلك الغنة فيه ، ثم جىء بلفظة الدم آخرا — وهى أخف الخمسة ، وأقلها حروفا ، ليسرع اللسان فيها ، ويستقيم لها ذوق النظم ، ويتم بها هذا الاعجاز فى التركيب ، وأنت مهما قلبت هذه الأسماء الخمسة فانك لا ترى لها فصاحة الا فى هذا الموضع ، لو قدمت أو أخرت لبادرك التهافت والتعثر ولأعنتك أن تجىء منها بنظم فصيح ثم لاريب أحالك ذلك عن قصد الفصاحة وقطعك دون غايتها ، ثم لخرجت الأسماء فى اضطراب النطق على ذلك بالسواء ليس يظهر أخفها من أثقلها ، فانظر كيف يكون الاعجاز فيها ليس فيه اعجاز بطبيعته »(١) .

ولقد تبين أن هذا الذى ذكره الرافعى مفصلا قد ذكره — ابن الأثير مجملا — ولم يزد الرافعى الا هذه التحليلات الصوتية التى برع فيها(٢) .

روعة الألفاظ الطوال فى القرآن الكريم :

ويرى الرافعى كذلك أن هذا الانسجام الناتج عن التناسب بين الحروف وحركاتها وبين الكلمات وحروفها كان أيضا السبب فى خفة الألفاظ الطوال فى القرآن الكريم ، فيذكر الرافعى أنه قد وردت فى القرآن ألفاظ هى أطول الكلام عدد حروف ومقاطع مما يكون مستثقلا بطبيعة وضعه أو تركيبه ، ولكنها بتلك الطريقة قد خرجت فى نظمه مخرجا سريا فكانت من

---

(١) اعجاز القرآن للرافعى ص٢٦٦ وما بعدها .
(٢) أنظر : المثل السائر لابن الأثير : جا ص٢١٧ وما بعدها .

أخصر الألفاظ حلاوة وأعذبها منطقا وأخفها تركيبا ، اذ نراه قد هيأ لها أسبابا عجيبة من تكرار الحروف وتنوع الحركات ، فلم يجرها فى نظمه الا وقد وجد ذلك فيها ، كقوله تعالى : « ليستخلفنهم فى الأرض » فهى كلمة واحدة من عشرة أحرف جاءت عذوبتها من تنوع مخـارج الحروف ، ومن نظم حركاتها ، فانهـا بذلك صـارت فى النطق كأنها أربع كلمات ، اذ تنطق على أربعة مقاطع ، وقوله : « فسيكفيكهم الله » فانها كلمة من تسعة أحرف ، وهى ثلاثة مقاطع ، وقد تكررت فيها الياء والكاف ، وتوسـط بين الكافين هـذا المد الذى هو سر الفصاحة فى الكلمة كلها ، وهـذا فى الألفاظ المركبة التى ترجع عند تجريدها من المزيدات الى الأصول الثلاثية او الرباعية ، أما أن تكون اللفظة خماسية الأصل فهـذا لم يرد منه فى القرآن شىء ، لأنه مما لا وجه للعذوبة فيه الا ما كان من اسم عربى ولم يكن فى الأصل عربيا : كابراهيم ، واسـماعيل ، وطالوت ، وجالوت ونحوها ، ولا يجىء به مع ذلك الا أن يتخلله المد ، فتخرج الكلمة وكأنها كلمتان(١) .

وهـذا الذى ذكره الرافعى من موسيقى الكلمات القرآنية الناشئة عن الدقة فى اختيار الحروف وتوزيع الحركات عليها والاحكام فى تركيب الكلم قد أشار اليه ضـياء الدين بن الأثير ، كما أن الشواهد التى ذكرها الرافعى هى تلك التى قدمها ابن الأثير ، وفضل الرافعى يتمثل فى تحليلاته الصـوتية البعيـدة ، وتعمقه فى كشـف أسرار الحروف ، بينما كان ضياء الدين لا يطيل الوقوف ، ولا يستقصى فى التأمل ، بل يكتفى بالتنبيه على الاستحسان أو الاستهجان على سبيل العموم ، دون أن يتعمق فى تجلية أسباب كل من الاستحسان والاستهجان(٢) .

ولقد عرفنـا أن الرافعى قد مكنه من هـذا التعمق فى تجلية أسرار الحروف وتوضيح فلسـفتها الصـوتية : احاطته بعلوم اللغة ، والمـامه بأصـولها ، وتجويده للقرآن الكريم ، والتجويد هو علم الموسـيى عند العـرب .

---

(١) اعجاز القرآن للرافعى ص٢٦٠ .
(٢) ضياء الدين بن الأثير : المثل السائر : ١/٢٦٤ — ٢٦٦ .

الألفــاظ المفردة والمجموعة فى القرآن :

وتحــدث الرافعى فى كلامه على : انســـجام الكلم فى القرآن عن : هـــذه الألفاظ التى وردت فيه مجموعة ولم ترد مفردة — والأخرى التى وردت مفردة وم تأت مجموعة — ورد ذلك الى تهيئة الانســـجام لتركيبه ، وتوفير الموسيقى لنظمه وذكر ما دل على أن نظم القرآن مادة فوق الصـــنعة ومن وراء الفكر اننا نرى بعض الألفاظ لم يأت فيه الا مجموعا ولم يستعمل منه صـــيغة المفرد فاذا احتاج الى هـــذه الصـــيغة استعمل مرادفها : كلفظة (اللب) انها لم ترد الا مجموعة ، كقوله تعالى : « ان فى ذلك لذكرى لأولى الألباب » وقوله : « وليذكر أولوا الألباب » ونحوهما ، ولم تجىء مفردة ، بل جاء فى مكانها (القلب) وذلك لأن لفظ الباء شديد مجتمع ، ولا يفضى الى هـــذه الشـــدة الا من اللام الشديدة المسترخية ، فلما لم يكن ثم فصـــل بين الحرفين يتهيأ معه هـــذا الانتقال على نســـبة بين الرخاوة والشـــدة تحسن اللفظة معها كانت حركة الاعراب فيها نصـــبا أو رفعا أو جرا ، فأسقطها من نظمه بتة ، على ســـعة ما بين أوله وآخره ، ولو حسنت على وجه من تلك الوجوه لجاء بها حســـنة رائعة وهـــذا على أن فيـــه لفظـــة (الجب) وهى فى وزنها ونطقها ، لولا حسن الائتلاف بين الجيم والباء من هـــذه الشـــدة فى الجيم المضمومة ، وكذلك لفظة (الكوب) استعملت فيه مجمـــوعة ولم يأت بها مفردة ، لأنه لا يتهيأ فيهـــا ما يجعلها فى النطق من الظهور والرقة والانكشـــاف وحسن التناسب كلفظ (أكواب) الذى هو الجمع — والارجاء — لم يستعمل القرآن لفظها الا مجموعا وترك المفرد ، وهو الرجا : أى الجانب — لعلة لفظه — وأنه لا يسوغ فى نظمه ، وعكس ذلك لفظة الأرض — فانها لم ترد فيه الا مفـــردة ، فاذا ذكرت الســـماء مجموعة جىء بها مفردة فى كل موضع منه ، ولمـــا احتاج الى جمعها أخرجها على هـــذه الصـــورة التى ذهبت بسر الفصاحة وذهب بها ، حتى خرجت من الروعة بحيث يسجد لها كل فكر سجدة طويلة ، وهى فى قوله تعالى : « الله الذى خلق سبع ســـموات ومن الأرض مثلهن » ولم يقل : ســـبع أرضين ، لهـــذه الجسأة التى تدخل النظم ، ويختل بها النظم اختلالا[١] .

---

(١) اعجاز القرآن للرافعى ص٢٦٣ وما بعـــدها .

وهـــذا الذى ذكره الرافعى من ورود بعض الالفاظ فى القرآن مجموعة وبعضها مفردة لتوفير الانســـجام لها قد أشـــار اليه الجاحظ فى البيـــان والتبيين[١] كما فصـــل الســـيوطى القول فيه مســـتقصيا ما ورد فى القرآن من الفـــاظ مجموعة ومفـــردة . وفضـــل الرافعى يتمثل فى تلك التحليلات الصـــوتية التى وضح بها السر فى ايثار لفظ على آخر .

هـــذا هو مجمل ما ذكره الرافعى عن : انسجام الكلم فى القرآن الكريم التى يعتبرها أحد وجوه نظمه ولقد رأينا أنه اعتمـــد فى ذلك على ما ذكره اللغويون والبلاغيون من قبله ولعلنا ندرك أن الرافعى قد حالفه التوفيق فيما كتبه عن : انسجام الكلم فى القرآن الكريم ، اذ استطاع أن يوقفنا على روعة الحسن فى الفاظ القرآن وسر جمـــالها وعوامل تفوقها على الفاظ البشر ، بينما لم يتمكن البلاغيون فى كل ما ذكروه عن أحوال الكلم من تحقيق هـــذا الهـــدف .

وان كنا نأخذ عليه اغماطه فضل الســـابقين وعدم اعترافه بأثرهم ، فلقد رأينـــا أن معظم ما ذكره عن : انســـجام الكلم منقول من : ابن الاثير والســـيوطى ، وانه لم يشر الى ابن الأثير بكلمة واحـــدة . واشـــار الى الســـيوطى فى مرة واحدة وأهمل ذكره فى مرات عديدة .

كما نأخذ عليه كذلك المـــأخذ الذى أخذناه عليه فى كلامه على الحروف . وهو مبالغته فى رفع شأن الكلم وتجاوزه الحد فى نســـبة الحسن اليها وجعل الاعجاز فيها ، وكان أولى به أن يفعل كما فعل البلاغيون فيجعل حسنها شرطا فى البلاغة التى ترد الى النظم وتنسب الى التراكيب ، ولقد صـــنع ذلك عن غير قصـــد حينما كنا نراه وهو يتحدث عن أثر الحروف والكلم ينسب الحسن فى النهـــاية الى التركيب — ومن هنـــا فقـــد كان انتقـــاد الدارســـين له .

---

(١) أنظر : أثر القرآن فى أدب الرافعى : حسن عبد القادر عبد الدايم ـ رسالة ماجستير بكلية اللغة العربية .

الفصل الثالث

« انســـجام التراكيب في القرآن الكريم »

بعد أن تحدث الرافعى عن : انسجام الحروف وأصواتها والكلمات وحروفها ، أخذ فى الحديث عن الركن الثالث من الأركان التى تكون النظم عنده ، وهو ما يتعلق بالجمل والتراكيب .

ولم يســـتقصى الرافعى فيما ذكره عن هـــذه العناصر كل ما ذكره البلاغيون عنها ، وانما كان يســـوق نمـــاذج من أحكامهم وشـــواهد من نظرياتهم متوســـعا فى تحليلها وبسط القول فيها ، وعلى وجه التحديد من الجانب الموسيقى والناحية الصـــوتية التى تعد لب النظم وثمرته .

فالأسس الثلاثة التى شاركت فى بناء النظم القرآنى عند الرافعى هى : الحروف وأصـــواتها والكلمات وحروفها والجمل وكلماتها ، فثلاثتها تكون النظم عنه ، وكل عنصر منها له قيمته ومنزلته فى بنائه .

واذا كان الرافعى قد اهتم فى كلامه على : انسجام الحروف والكلم ببيـــان الأسرار والوقوف على الثمرة والنتيجة وغلب على كلامه الطابع الفلســـفى فانه قد ســـلك هـــذا أيضا فى كلامه على : انسجام الجمل والتراكيب .

اذ بدأ حديثه عنها بتعريف الجملة تعريفا فلســـفيا ، اهتم فيه بالتركيز على أهميـــة وجود العلاقة وتوافر المناسبة بين التركيب وبين المعـــانى المقصـــودة كما سبق ان نص على ضرورة توافر تلك المناسبة فيما يتعلق بالحروف والكلم ، وبين أن التناسب بينهما وبين المعانى المقصودة على أكمل وجوه التناسب فى القرآن الكريم من خصائص نظمه واصول بلاغته .

فيعرف الرافعى الجملة بأنها : مظهر الكلام ، وهى الصورة النفســـية للتاليف الطبعى ، اذ يحيل بها الانسان هـــذه المـــادة المخلوقة فى الطبيعة

الى معان تصـــورها فى نفســـه أو تصـــفها — ترى النفس هـــذه المـــادة المصـــورة وتحســـها على حين قد لا يراها المتكلم الذى اهـــدفها لكلامه غرضا ولكنه بالكلام كأنه يراها(١) .

الرافعى والتراكيب :

لقد اهتم الرافعى بالتراكيب اهتمـــاما ملحوظا ، فرد اليها البلاغة واعتبرها مناط الحسن وموطن الاعجاز — كما رأيناه فى معظم ما كتبه عن : الحروف والكلم يرد حســـنهما الى اصابة موقعهما من التركيب ، وأنهما لم يتميزا عن كلمات العرب وحروفهم الا بهـــذا الموقع المنـــاسب ، وذلك التركيب الملائم .

كمـــا يرى أن دقة التركيب من أخص صـــفات اللغة العربيـــة — وأن فصاحة هـــذه اللغة ليست فى ألفاظها ، ولكن فى تركيب ألفاظها ، كما أن الهزة والطرب ليست فى النغمـــات ، ولكن فى وجوه تأليفها ، وهـــذا هو الفن كل الفن فى الأسلوب ، لأنه يرجع الى الذوق الموسيقى فى حروف هـــذه اللغة وأجراس حروفها .

لهـــذا يذكر الرافعى فى كتابه : (تحت راية القرآن) أن عظم شأن اللغات بدقة تراكيبها ، وأن أهم ما تمتاز به اللغة العربية روعة تراكيبها ووفرتها فيقول : « وليس عندنا فى وجوه الخطأ اللغوى أكبر ولا أعظم من أن يظن امرؤ أن اللغة بالمفردات لا بالأوضاع والتراكيب ، فان اللغات المرتقية هى تلك التى تمتاز بوجوه تركيبهـــا ونسق هـــذه الوجوه فيها ، ولا يمكن البتة أن تكون لغة من اللغات ذات وفر وثروة من الألفاظ الا أن تدعو الى ذلك وجوه أوضاعها وتراكيبها »(٢) .

انســـجام التراكيب بين القرآن وكلام العرب :

ويوازن الرافعى بين التراكيب فى القرآن وبينهـــا فى كلام العرب ، فيرى أن الأولى قد لزمت درجة واحدة من القوة فى كل المواطن بخلاف الثانية

---

(١) اعجاز القرآن للرافعى ص٢٦٨ .
(٢) تحت راية القرآن للرافعى ص١٧ .

التى تتلون قوة وضعفا من معنى لآخر ، ويرى الرافعى ذلك من أظهر وجوه البلاغة القرآنيــة ومن قوله فى ذلك : « وهــذه الروح التى أومأنا فيها (روح التركيب) لم تعرف قط فى كلام عربى غير القرآن ، وبها انفرد نظمه وخرج مما يطيقه الناس ، ولولاها لم يكن بحيث هو كأنما وضع جملة واحدة ليس بين أجزائها تفــاوت أو تباين ، اذ تراه ينظر فى التركيب الى نظم الكلمة وتأليفها ، ثم الى تأليف هــذا النظم ، فمن ههنا تعلق بعضــه على بعض ، ، وخرج فى معنى تلك الروح صــفة واحدة هى صفة اعجازه فى جملة التركيب ، وعلى اننا لم نعرف بليغا من البلغاء تعاطى الكلام فى باب الشرع وتقرير النظر وتبيين الاحكام ونصب الادلة واقامة الأصــول ، والاحتجاج لها والرد على خلافها ، الا جاء بكلام نازل عن طبقة كلامه فى غير هــذه الأبواب ، وانت قد تصيب له فى غيرها اللفظ الحر والأسلوب الرائع ... فاذا صرت الى ضروب من تلك المعانى وقعت ثمة على شىء كثير من اللفظ المســتكره والمعنى المستغلق .. وانما وقع للبلغاء هــذا النقص من جهة التركيب ، اذ ليس فى كلامهم روح كروح النظم فى القرآن .. وانك لتحار اذا تأملت تركيب القرآن ونظم كلماته فى الوجوه المختلفة التى يتصرف فيها ، وتقعد بك العبارة اذا أنت حاولت أن تمضى فى وصــفه حتى لا ترى فى اللغة كلها ادل على غرضك واجمع لمــا فى نفســك وأبين لهــذه الحقيقة غير كلمة الاعجاز »(١) .

كما يرى الرافعى أن أسلوب القرآن قد تميز عن أساليب العرب بهــذه الروح التركيبية اذ أنه أسلوب مباين بنفســه لكل ما عرف من أساليب البلغاء فى ترتيب خطابهم وتنزيل كلامهم ، على أنه يؤاتى بعضه بعضا ، وتناسب كل آية منه كل آية أخرى فى النظم والطريقة على اختلاف المعــانى وتباين الاغراض سواء فى ذلك ما كان مبتدأ به من معانيه وأخباره وما كان متكررا فيه ، فكأنه قطعة واحدة ، على خلاف ما نجده فى كلام كل بليغ من التفاوت باختلاف الوجوه التى يصرفه اليها ، والعلو فى موضع والنزول فى موضــع ثم ما يكون من فترة الطبع ومســحة النفس فى جهة بعث عليها الملل ، أو جهة استؤنف لها النشــاط ، ثم ما لابد منه من الاجادة فى بعض

---

(١) اعجاز القرآن للرافعى ص١٧٩ وما بعدها .

الأغراض والتقصـــير فى بعضها مما يختلف البلغاء فى علمه والاحاطة به ، أو التأتى له والانطبـــاع عليه ، وهـــذا كله معروف متظـــاهر فى الناس لا يمترى فيه أحـــد(١) .

ويقرر الرافعى كذلك ، أن مثار دهشـــة العرب وموطن استغرابهم ، والذى حير ألبابهم هو : تركب الأسلوب القرآنى من كلماتهم وألفاظهم التى كانوا بها يتحدثون لكنها صـــارت بطريقة استعمالها ووجه تركيبها كأنها فوق اللغة فان أحدا من البلغاء لا تمتنع عليه فصـــيح هـــذه العربية متى ارادها ، وهى بعد فى الدواوين والكتب ، ولكن لا تتسع له مثل ألفاظ القرآن فى كلامه ، وان اتفقت له نفس هـــذه الألفاظ بحروفها ومعانيها لأنها فى القرآن تظهر فى تركيب ممتنع فترف به — ولهـــذا ترتفع الى أنواع اســـمى من الدلالة اللغوية أو البيانية التى هى طبيعية فيها — فتخرج من لغة الاستعمال الى لغة الفهم ، وتكون بتركيبها المعجز طبقة عقلية فى اللغة(٢) .

أما هـــذه الروح التركيبية التى تجلت فيها بلاغة القرآن وتميز بها على أســـاليب العرب فيراها الرافعى ناشـــئة عن : الدقة فى وضع الحروف والكلمات فى أماكنها المناســـبة مع التلاؤم والتناسب فيما بينهما من جهة الهيئة التركيبية ومع التناسب أيضا بينها وبين المعانى المقصـــودة — وبهـــذا كان الحرف فى القرآن معجزا فى مكانه ، وكانت الكلمة معجزة فى موضعها ، وكان التركيب كله معجزا فيقول الرافعى : « وانما اطرد ذلك للقرآن من جهـــة تركيبه الذى انتظم أســـباب الاعجاز — من الصوت فى الحرف الى الحرف فى الكلمة الى الكلمة فى الجملة حتى يكون الأمر مقدرا على تركيب الحواس النفســـية فى الانسان تقديرا يطـــابق وضـــعها وقواها وتصرفها ، وذلك ايجاد خلقى لا قبل للنـــاس به ، ولم يتهيأ الا فى هـــذه العربية عن طريق المعجزة التى لا تكون معجزة حتى تخرق العادة وتفوت المـــألوف ، وتعجز الطوق ، وانما امتنع أن يكون فى مقدور الخلق ، لأنه تفصيل للحروف على النحو الذى يأخذه فيـــه تركيب الحيـــاة ، من تناسب الأجزاء فى الدقيق

---

(١) المرجع الســـابق ص٢٢٩ .
(٢) أنظر : اعجاز القرآن للرافعى ص٢٥٧ .

والجليل ، وقيام بعضـــها ببعض لا يغنى منها شيء عن شيء فى أصل التركيب وحكمته ولا يرد غيرها مردها ، ولا يأتلف ائتلافها ، ولا يجرى فيها الى نحو ذلك مما أجرى الله عليه نشأ الخلق وبعث الحياة ، ثم اشتمالها على سر التركيب المكنون الذى جعل البلغاء منها بمنزلة الأطباء فى سعة العلم بتركيب الأجســـام الحية من الخلية فما فوقها ، دون العلم بالوجه الذى يمكن به التركيب ، على أنهم لا يفوتهم شيء من دقائقه ، ولا يعزب عنهم مثقـــال ذرة من مادته ، وهى بعد مبذولة لهم يقلبونها ويستوضحونها ويزدادون بها على الدهر خبرة ، ثم ينصرفون عنها وهم فى العلم غير من كانوا وهى لا تزال عندهم ما كانت ، ولمنرشيئا كان أمره مع العلم ذلك الأمر الا أن يكون الهيا فقد فرغ الناس من كل ما وضع الناس ، وعارض بعضهم بعضا ، وابر بعضهم على بعض ، ولم يسلم للمتقدم من الفضل على المتأخر الا فضـــيلة احترام الموتى ، واستحياء التاريخ ، وقد بدلت الارض غير الارض وليس فيها من أثر واحد لم يتناوله ناموس النشوء بالنقض من احدى جهاته على حرم الدهر وتقـــادمه غير القرآن فانه طبقة وحـــده فى اعجاز تركيبه وســـلامة معانيه ، لم تنقض منه آية ولا كلمة ولا مادون الكلمة ، ولا ذكر معه شيء من كلام البلغاء ، ولاعورض ولا أزيل عن موضعه ولا وزنه عقل الا كان مرجوحا أبدا ، وما أراده أحـــد الا أراده بغير طريقتـــه ، ولا بحث عن طريقتـــه الا عى بادراكها وبعل بها ولم يدر ما هى ولا كيف هى ولا من أين يأتى لها ، وصـــار نثرا لا نظام له وعاد علمه جهلا لا بصيرة معه : ولعمرى أنه ليس فى العجائب كلها شيء أعجب من امكان أن يكون القرآن مع هـــذا الاعجاز كله غير معجز ، ولقد كانت هـــذه الطريقة المعجزة التى نزل بها القرآن هى السبب فى حفظ العربية واستخراج علومها »[1] .

آثار انســـجام التراكيب :

ويتناول الرافعى فى حـــديثه عن بلاغة التراكيب فى القرآن الكريم تفصـــيل الآثار التى تترتب على احكامها ودقتها وتناســـبها وذلك فى هـــذا الانســـجام الرائع وتلك الموسيقى التى كانت سببا واضحا فى حفظ الصبية

---

(١) أنظر : اعجاز القرآن للرافعى ص٢٧٠ ، ٢٧١ .

للقرآن الكريم على خلاف غيره من المواد والعلوم المختلفة حيث يجدون مشقة فى حفظها ويواجهون صعوبة فى استظهارها ، كما أعانتهم هذه الموسيقى وساعدهم ذلك الانسجام على تذكر ما نسوه من آيات الكتاب الكريم ، فيقول الرافعى : « ان طريقة نظم القرآن تجرى على استواء واحد فى تركيب الحروف باعتبار من أصواتها ومخارجها ، وفى التمكين للمعنى بحس الكلمة وصفتها ، ثم الافتنان فيه بوضعها من الكلام ، وباستقصاء أجزاء البيان وترتيب طبقاته على حسب مواقع الكلمات ، لا يتفاوت ذلك ولا يختل ، فمن أين يدخل على قارئه ما يكد لسانه ، أو ينبو بسمعه ، أو يفسد عليه اصغاءه ، أو يرده عما هو منه بسبيله ، أو يتقسم احساسه ، ويتوزع فكره ، أو يورده الموارد من ذلك كله أو بعضه ، الا ان يكون هذا القارىء ريضا لم تفلح فيه رياضة البلاغة ، ولا أجدى عليه التمرين والدربة ، فخرج ألف اللسان بليد الحس ، متراجع الطبع ، لم يبلغ مبلغ الصبيان فى احساس الغريزة ، وصفاء هذه الحاسة واطراد هذا الصفاء ، فاننا لنعرف صبيان المكاتب ، وقد كنا منهم ، وما يسهل علهم القرآن واظهاره ، ولا يمكنه فى أنفسهم حتى يثبتوه الا نظمه ، واتساق هذا النظم ، ولو هم أخذوا فى غيره من فنون المعارف أو متون العلوم أو مختار الكلام أو نحوه مما يرادون على حفظه اى ذلك كان ، لأعياهم وبلغ منهم الى حد الانقطاع والتخاذل حتى لا يجمعوا منه قدرا فى حجم القرآن ان جمعوه الا وقد استنفدوا من العمر أضعاف ما يقطعونه فى حفظ القرآن : على أنهم يبلغون من هذا بالعفو والأناة ، ولا يبلغون مثله من ذلك الا بالعنت والجهد وقد ينسى أحدهم الآية من القرآن فينقطع الى الصمت من قراءته ، أو تتدخل فى لفظه بعض الآيات المتشابهة فى السور — أو يسقط بعض اللفظ فى تلاوته — فيضل فى ذلك — ثم لا ييسره لذكر ولا يذكره بالآية المنسية اكثر ما يتذكر نسق الحروف فى بعض كلماتها ، ولا يبين له مواقع الكلم المتشابهات ، الا نظام كل كلمة من آيتها ، ولا يهديه الى ما أسقطه من اللفظ غير احساسه باضطراب النظم وتخلخل الكلام ، ولقد كان ذلك اكبر ما كنا نستعين به أيام الحداثة على اتقاء الغلط والمداخلة والسهو وكنا نفزع اليه اذا جلسنا بين

يدى فقيهنا رحمه الله مجلس القراءة والتسميع وقد عرفنا أن تأذى سمعه مقرون بأذى عصاه »(١) .

انسجام التراكيب والترجمة الحرفية للقرآن :

وحفاظا على هذا الانسجام وتلك الموسيقى التى تترتب على جمال التراكيب وروعة النظم — فان الرافعى يمنع الترجمة الحرفية للقرآن . لأنها تذهب بهذه الموسيقى وذلك الانسجام فيقول : « ثم ماذا يبلغ القول من صفة هذا التركيب العجيب — وأنت ترى أن أعجب منه مجيئه على هذا الوجه الذى يستنفد كل ما فى العقول البيانية من الفكر — وكل ما فى القوى من أسباب البحث — كأنما ركب على مقادير العقول والقوى وآلات العلوم وأحوال العصور المغيبة — فتراه يتخير من الألفاظ على درجات ليس معنى العجب فيها أن يقع التخير عليها — ولكن العجب أن تستجيب ألفاظه على هذا الوجه المعجز الذى لا يكون فى اللغة الا عن قدرة هى عين القدرة التى ألهمت أهلها الوضع والتعبير وتشقيق الكلام ، حتى حصلت لغتهم كاملة فى كل ذلك النظم — ثم لأنه مع ذلك الأوسع فى المعنى ، ومع ذلك الأقوى فى الدلالة ، ومع ذلك الأحكم فى الابانة ، ومع ذلك الأبدع فى وجوه البلاغة — ومع ذلك الأكثر مناسبة لمفردات الآية مما يتقدمه أو يترادف عليه — حتى خرج بذلك كله فى تركيب قصر معارضته أن تنتهى اليه بعينه ولا مثل له الا ما يتردد منه على لسان قارئه ، وحتى خرج التعبير عن معانيه بألفاظ أخرى من نفس اللغة العربية مخرج الترجمة الى غيرها من اللغات اذ لم تحمل لغة من لغات الارض حقيقة ما تعنيه ألفاظه على تركيبها المعجز ، بل هو فى ذلك يعجزها جميعا ويخرج عن طوق أهلها وان تساندوا فيه وانما جهد ما تبلغه تلك اللغات أن تجىء بشبه معانيه ، قصدا فى بعضها ومقاربة فى بعضها — مع الاستعانة بالشرح المبسوط والعبارة الملونة ، وعلى أنه ليس ضربا من ضروب الصناعات اللفظية التى لا يتفق فيها أن تنقل من لغة الى لغة — لذلك حرموا ترجمة القرآن الى اللغات ،

---

(١) انظر : اعجاز القرآن للرافعى ص٢٧٥ ، ٢٧٦ .

فان الترجمة لا تؤديه البتة ، ولو هى ادت معانيه كما يفهم أهل عصر بقى منها ما ستفهمه العصور الاخرى »(١) .

ومما لا ريب فيه أن الترجمة الحرفية لا يمكن أن يتحقق فيها هذا الاعجاز الذى تميز به القرآن الكريم ، اذ يفقد جماله وبلاغته المعجزة ويصبح اثناء التجويد والصقل فى الترجمة عرضة للتبديل الذى يضيع به دقيق ما يهدف اليه .

ولذلك اتفقت الائمة على عدم جواز ترجمة القرآن وكتابته وقراءته بغير العربية ، لأن ذلك يؤدى الى التحريف والتبديل بلاشك — اذ لا يعقل ترجمته ترجمة حرفية بالمثل — اما الترجمة التفسيرية فلا بأس بها ، لأنها تشرح معانيه وتبين غوامضه ، وكيف يمكن كتابته أو ترجمته حرفيا باللغات الأجنبية ومخارج حروفها ليست كمخارج الحروف العربية ، وعدد حروف هجائها قد يزيد عنها وقد ينقص — ومن هنا يعلم استحالة ترجمته حرفيا بغير اللغة العربية(٢) .

من اعجاز التراكيب :

ولما كان كلام الرافعى كما سبق ان ذكرنا يتسم فى معظمه بالطابع النظرى ، فقد حاولت العثور على آية يوضح فيها الرافعى ما ذكره عن اعجاز التركيب القرآنى ، حتى وقعت فى كتابه : « المساكين » على كلام له حول قول الله عز وجل فى وصف طعام أهل الجحيم : « لا يسمن ولا يغنى من جوع » والفيته يسلك فى تحليل الآية مسلكه الأدبى الذوقى الذى يهتم باللب ويعنى بالثمرة على خلاف ما يفعله البلاغيون من : تحديد الألوان البلاغية التى يشتمل عليها النص فيقول الرافعى : « انظر اعجاز هذا التركيب كيف بدأ حين اراد وصف طعام أهل الجحيم ، وما هى بدار طعام بل دار عذاب ،

---

(١) انظر : اعجاز القرآن للرافعى ص٢٨١ وما بعدها .

(٢) انظر فى ذلك : تاريخ القرآن وغرائب رسمه وحكمه : محمد طاهر المكى ص١٦٦ وما بعدها . ومتنوعات د . محمد كامل حسين ص١ ، ٢ وأثر القرآن الكريم فى اللغة العربية : محمد عبد الواحد حجازى ص٧٥ وما بعدها . وجريدة البلاغ الاسبوعى عدد : ٣١ مارس سنة ١٩٣٢م .

فقال : (لا يسمن) فينخدع الحس بالكلمة فنظن أن هذا الطعام ان لم يسمن فربما ذهب بالجوع وان لم يذهب به فربما أغنى عنه ولو شيئا فقال : (ولا يغنى من جوع) فيصدم الحس هذه الصدمة ، وينعكس عليه التأثير الذى توهمه قبل ، ثم يشتد هذا التأثير ويبلغ مبلغه حين يتأمل الحس البليغ هذا التركيب الدقيق ، فلا يخرج له الا أن طعام هؤلاء اذا كان لا يحدث نتيجة البتة مما هو من خصائص الاطعمة لا فى سمن ولا شبع ولا الغناء من جوع ، فما هو الا طعام منعكس لايجاد الجوع واستمراره ، ثم وتسميته على ذلك طعاما ، مع أن لهذه الكلمة فى النفس عكس ذلك العمل يكون اشد على النفس فى العذاب وفى التهكم ، فتأمل كيف يكون الاعجاز ؟ »(١) .

انسجام التراكيب بين الرافعى والبلاغيين :

والرافعى حين يهتم بالتراكيب اهتماما بالغا كما رأينا ، ويرى أن « الانسجام التركيبى » فى القرآن الكريم هو مناط الحسن وموطن الاعجاز فانه لم يأت فى ذلك بجديد ، بل انه يقرر ما أكده جميع البلاغيين ، فأبو هلال العسكرى يجعل النظم الوجه الأساسى فى اعجاز القرآن وأنه يتمثل فى : ائتلاف الكلم ، والتئام الجمل ، وانسجام التراكيب ، وأفرد العسكرى من كتابه « الصناعتين » بابا للكلام على : « حسن النظم وجودة الرصف والسبك وخلاف ذلك »(٢) .

كما يهتم « الخطابى » بالنظم ويجعله الوجه الاساسى فى اعجاز القرآن(٣) ، وأفاد الرافعى كثيرا من كلامه فى : عمود البلاغة .

كما جعل الباقلانى النظم أحد وجوه ثلاثة للاعجاز عنده ، ومعظم ما ذكره الرافعى عن : انسجام التراكيب القرآنية — والموازنة بينها وبين التراكيب العربية فمعظمه منقول من كلام الباقلانى حول النظم(٤) .

---

(١) المساكين للرافعى ص٢٣٩ ط . ثامنة .
(٢) أنظر : الصناعتين : أبو هلال العسكرى ت : ٢ ط. أولى .
(٣) أنظر : بيان اعجاز القرآن للخطابى ص٢٧ وما بعدها .
(٤) أنظر : اعجاز القرآن للباقلانى ص٦٣ وما بعدها ت : محمد عبد المنعم خفاجى .

كما يظهر اهتمام القاضى عبد الجبار بالتراكيب فى قوله فى (الوجه الذى له يقع بالتفاضل فى فصاحة الكلام) : « اعلم أن الفصاحة لا تظهر فى أفراد الكلام ، وانما تظهر فى الكلام بالضم على طريقة مخصوصة »(١) .

كما اهتم — ابن سنان الخفاجى — الذى كان الرافعى شديد التأثر به ، وتكاد الأسس التى اعتمد عليها الرافعى فى بناء النظم تكون صورة مماثلة لما ذكره فى الكلام على الفصاحة بالتراكيب ، ووضح الآثار الطيبة التى تترتب على مراعاة الدقة والاحكام فى وضع كل لفظ فى موطنه الملائم ، وكل كلمة فى مكانها المناسب كما وضح الأمور التى ينبغى ضرورة توافرها ليتم للتركيب روعته وللتأليف انسجامه(٢) .

كذلك ركز — عبد القاهر — على التراكيب — وجعلها مناط الحسن وموطن المزية ، وأن الألفاظ لا قيمة لها بعيدة عن التركيب ، وانما تظهر قيمتها ، ويبرز جمالها فى مصادفتها الموقع الحسن من التركيب المتلائم ، كقوله فى نفى الحسن عن الألفاظ فى الشعر لذاتها ، وانما لموقعها من التركيب : « اعلم انا اذا أضفنا الشعر أو غير الشعر من ضروب الكلام الى قائله لم تكن اضافتنا له من حيث هو كلم وأوضاع لغة ، ولكن من حيث توخى فيها النظم الذى بينا انه عبارة عن توخى النحو فى معانى الكلم .. واذا كان الأمر كذلك فينبغى لنا أن ننظر فى الجهة التى يختص منها الشعر بقائله ، واذا نظرنا وجدناه يختص به من جهة توخيه فى معانى الكلم التى ألفه منهنا ما توخاه من معانى النحو ، ورأينا أنفس الكلم بمعزل عن الاختصاص »(٣) .

كما يهتم كذلك بالتراكيب : ابن الأثير ويحيى العلوى الذى يقول : « واعلم أن البلاغة مختصة بوقوعها فى الكلم المركبة دون المفردة »(٤) .

---

(١) أنظر : المغنى : القاضى عبد الجبار ١٨٧/١٦ ت : أمين الخولى .
(٢) أنظر : سر الفصاحة : ابن سنان ص٨٢ وما بعدها .
(٣) دلائل الاعجاز : عبد القاهر ص٢٤٢ .
(٤) أنظر : المثل السائر : ابن الأثير جـ١ ص٢١٠ وما بعدها والطراز للعلوى : ١٢٥/١ ، ٢٢٤/٣ .

هكـذا نرى البلاغيين جميعا يتفقون على اهمية التراكيب كما قرر الرافعى وانها مناط الحسن وموطن الاعجـاز .

ويتفق الرافعى كـذلك مع البلاغين حول الأسس التى تكون النظم وتؤلف التركيب ، وهى : الحروف وأصواتها والكلم وحروفها .

لكنه يختلف معهم حول قيمة هـذه الأسس فالرافعى يعتبر الحروف وأصواتها والكلمات وحروفها شريكين للنظم فى تكوين الحسن وصنوين له فى احـداث الاعجاز ، بينما لا يرى البلاغيون ذلك ويعتبرون العناية باختيار الحروف وانتقاء الكلم شرطا فى جمال النظم وسـبيلا لحسـنه ، أما البلاغة والاعجاز فمردها الى التركيب .

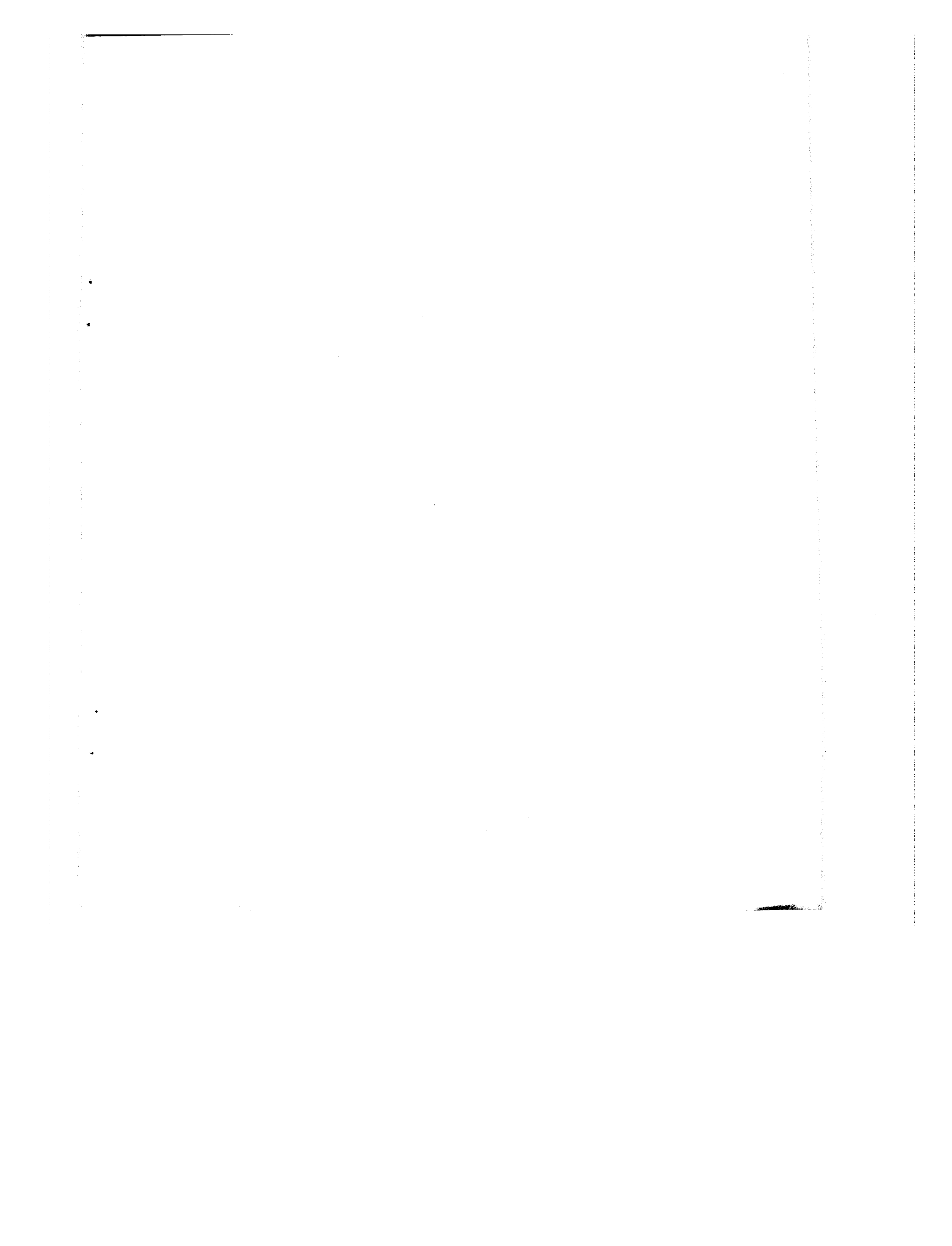
وندرك كما سبق أن أشرنا الى ذلك أن الرافعى لم يحالفه التوفيق فى ذلك وانه قد جاوز بالحروف قدرها وبالكلم منزلتها حين مضى يرد الاعجـاز اليهما ويجعل البلاغة فيهما ، وان كان الرافعى قد سـاير البلاغيين عن غير قصـد حينما كان يرد الحسن الى التراكيب حيث كان يتحدث عن : الحروف والكلم .

هـذا ولـما كنا قد عرفنا أن الرافعى قد استقى معظم كلامه على النظم الذى يعده الوجه الاساسى فى اعجاز القرآن مما ذكره المتقـدمون ولا سيما الخطابى والرمانى والباقلانى وابن سنان الخفاجى وعبد القاهر الجرجانى وضـياء الدين بن الأثير ويحيى بن حمزة العلوى وانه لم يكن يشـير اليهم الا نادرا ، وعرفنا كذلك أن عناصر النظم عند الرافعى تتألف من : الحروف واصـواتها والكلم وحروفها والجمل وكلماتها ، وانه لم يذكر كل ما ذكره البلاغيون عنها ، وانما كان يسـوق نماذج من احكامهم ، ويقـدم شـواهد من كلامهم متوسـعا فى تحليلها من الجوانب النفسية والصوتية واللغوية . واذا كان كل عمل يحكم على نجاحه بمقدار ما يتولد من ثمار ، فان الرافعى قد حقق بما كتبه عن النظم ما لم تحققه امهات كتب البلاغة واصول مصـنفات الاعجـاز .

وحسـبه أنه استطاع أن يوقفنا على جلال البلاغة القرآنية وجمالها وجعلنا ندرك أسرار النظم القرآنى وروعته . وان أخذنا عليه قلة التطبيق على نظرياته وأحكامه ، وعدم الاكثار من الاستشهاد بآيات من القرآن الكريم اذ كان رحمه الله يفرد لذلك كتابا برأسـه . واختاره القدر قبل اكمـاله واتمـامه .

الباب الخامس

الرافعي بين علماء البلاغة والاعجاز



الفصل الأول

الرافعى بين دارسى الإعجاز

لقد كان اعجاز القرآن للرافعى عملا فريدا فى نوعه ، وبقرائتنا ما كتبه الرافعى عن بلاغة القرآن استطعنا أن ندرك أن الرافعى كان يبذل قصارى جهده كى يكون عمله جديدا ولا يخرج صـــورة مكررة لمــا ســبقه .

من هنا رأينا الرافعى لا يوافق الباحثين فى اعجاز القرآن على مناهجهم التى درجوا عليها فى تفهم الأسرار القرآنية لسيطرة الفلسفة وغلبة الجدل عليها ، الأمر الذى يجعلها لا تصلح لهــذا العصر ، ولا تناسب أذواق أهله .

لذلك تكلم الرافعى فى أكثر من موطن من كتابه : (اعجاز القرآن) عن عدم اقتناعه بهــذه المناهج التى درج عليها دارسو الاعجاز ، الأمر الذى دعاه الى اخراج كتابه ، والتأليف فى اعجاز القرآن . ومما يقوله فى ذلك : « على أن القوم من علمائنا — رحمهم الله قد أكثروا من الكلام فى اعجاز القرآن — وجاءوا بقبائل من الرأى لونوا فيها مذاهبهم الوانا مختلفات وغير مختلفات ، بيد أنهم يمرون فى ذلك عرضــا على غير طريق ، ويشتقون فى الكلام ههنا وههنــا من كل ما تمترس به الألســنة فى اللدد والخصــومة وما يأخــذ بعضــه على بعض من مذاهبهم ونحلهم وليس وراء ذلك كله الا ما تحصره هــذه المقاييس من صناعة الحق ، والا أشــكال من هــذه التراكيب الكلامية ، ثم فتنة متماحلة لا تقف عند غاية فى اللجاج والعسر ، وقــد كان هــذا كله من أمرهم وعلمهم ، وكان له زمن وموضع ، وكانت تبعثهم عليه طبيعة ورغبــة ، والمرء بروح زمانه أشــبه ، وبحالة موضعه أشــد مناســبة ولابد من طبقة فى الموافقة بين الأشــياء وأسبابها ، فان تكن هــذه الحــوادث هى تاريخ النــاس ، فان الناس أنفسهم تاريخ الحوادث »(١) .

---

(١) اعجاز القرآن للرافعى ص٢٢ .

فهو يرى أن جهود السابقين فى اعجاز القرآن لم تحقق أهدافها لكثرة الجدل والفلسفة فيها ، وسيطرة روح المنطق عليها وتعدد الآراء والمذاهب التى يناقض بعضها بعضا .

وهذه الآراء الكثيرة والمذاهب المتضاربة قد حطت من غير شك من قيمة الجهود التى قدمها السابقون فى اعجاز القرآن وقللت من روعتها وحالت بينها وبين بلوغ أهدافها ، ولذلك نرى الرافعى يقول : « وعلى هذه الجهة رأينا كل أقوالهم فى اعجاز القرآن : لا يصنعون شيئا دون أن ينكر ويدفع من ينكر من يدفع ، فأما أن تتعارض الحجج الكلامية فيسقط بعضها بعضا ، واما أن تقوى واحدة منهن وتسقط الباقيات ، وتبقى هى كلاما من الكلام لا تصلح لنفى ولا اثبات »(١) .

فلما تقدم من : غلبة الجدل وسيطرة المنطق وتشعب الخلافات وتعدد المذاهب وتناقض الآراء رأى الرافعى أن تصانيف السابقين وتآليفهم فى اعجاز القرآن جاءت دون ما يراد منها ، ولم تبلغ أهدافها .

والرافعى على حق فيما رآه من ذلك ، فلا ينكر أحد ما فى كتب السابقين من معارف قيمة ، لكن هذه المعارف قد غطى على بهائها وحرمنا من التمتع بثمارها هذا الطابع الجدلى الذى نراه فى مؤلفات المتقدمين بلا استثناء .

ومن هنا كان توفيق الرافعى اذ تحاشى الوقوع فيما وقع فيه السابقون وجاءت كتابته بعيدة عن ذلك ، وان كنا نراه أحيانا يغرق فى التفلسف ويمعن فى التعمق ويبالغ فى التعليل والاستنتاج لدرجة تكد الذكن وتضنى الفكر وتحتاج الى صبر زائد من القارىء وتثبت طويل حتى يفهم مراده .

واخذ الرافعى كذلك على دارسى الاعجاز البلاغى للقرآن الكريم أن كلامهم لم يختص بالقرآن وانما تعداه الى أنواع الكلام الاخرى من منظوم ومنثور ، ما جعله يقصر كلامه على القرآن ، ومن قوله فى ذلك : « ولا يذهبن عنك أن هذه المذاهب الكلامية التى بنيت عليها علوم البلاغة — ووضعت

---

(١) المرجع السابق ص١٥٩ وما بعدها .

لها أمثلة هـــذه العلوم انمـــا هى من وراء ما نعترضـــه فى هـــذا الباب فليسبت من غرضنا فى جملة ولا تفصيل ، وحســـبك فيها كتاب : (دلائل الاعجاز) لعبد القاهر الجرجانى ، ونحن انما نبحث فى القرآن من جهـــة ما انفرد به فى نفســـه على وجه الاعجاز ، لا من جهة ما يشركه فيه غيره على أى وجه من الوجوه ، وأنواع البلاغة مســـتفيضة فى كل نظام سوى ، وكل تأليف مونق وكل سبك جيد ، وما كان من الكلام بليغا فانه بها صـــار بليغا ، وان كانت هى بعد فىأكثر الكلام الى تفاوت واختلاف »(١) .

فالرافعى يرى أنه قد خالف السابقين : اذ أن كلامه على النظم والبلاغة القرآنية كان ميدانه القرآن نفســـه بخلاف كلام المتقدمين والمتأخرين من البلاغيين والباحثين فى اعجـــاز القرآن فانه لم يختص بالقرآن ، بل تناول غيره من كلام العرب المنثور منه والمنظوم .

كما يرى الرافعى كذلك أن منهجه فى تناول البلاغة القرآنية قد خالف منهج البلاغيين ودارسى الاعجاز من جهة أنهم كانوا يعنون بحصر الألوان البلاغية والتمثيل لها والاستشهاد عليها من القرآن ، أما هو فلم يصـــنع ذلك ، وانما كان معنيا ببيان ثمرة هـــذه البلاغة فى كلام الله ، وجاء حديثه فلسفة فى البلاغة ولم يكن حصرا لأنواعها ولا عدا لألوانها .

فلم يكن حصر أنواع البلاغة فى القرآن ، ولا عد ألوانها فيه هـــدف الرافعى ، بل كان هدفه تجلية الأسرار البلاغية فى كلام الله عز وجل من خلال نمـــاذج محدودة وآيات معدودة ركز عنايته فيها الى التعمق فى فهم أسرارها والتغلغل فى بيان اعجازها ، وتلك هى : فلســـفة البلاغة التى جاءت دراسات البلاغيين مجردة منها كما يقول الرافعى : « لم يقصر علماؤنا رحمهم الله فى شىء من هـــذا الذى وضـــعوه ، الا ما يكون من فلســـفة البلاغة وأسرارها النفســـية ، فليس لهم فى هـــذا الباب الا ما يعد ، على أن طبائع أزمانهم تسوغ لهم أكبر العذر فى اغفاله ، وما هو بأول شىء مكن لهم الاهمال فيـــه »(٢) .

---

(١) المرجع الســـابق ص٢٣٩ .

(٢) اعجاز القرآن للرافعى ص٢٩٢ .

فالمــآخذ التى أخذها الرافعى على دارسى الاعجاز ، والظواهر التى وقفت ببلاغتهم دون تحقيق هدفها ، وجاءت كتابته خالية منها هى : سيطرة المنطق والفلسفة على كتاباتهم ، وعدم اختصــاصهم القرآن بأبحاثهم ، واغراقهم فى حصر الأنواع وعد الألوان والتمثيل لها مما ترتب عليــه خلو أبحاثهم من الفلسفة البلاغية القائمة على التعمق فى فهم الأسرار .

وعن تلك المــآخذ كان نقد الرافعى للباقلانى ، فقد أخذ عليه الاسراف فى حشد الكلام العربى من منظوم ومنثور ، وعدم الاقتصار على آيات القرآن الكريم ، والاغراق فى الموازنات التى غطت على بهائه وذهبت بقيمته(١) .

ولا يخفى أن الرافعى يشتط فى حكمه السابق على الباقلانى ، وما عابه على الباقلانى فهو من حســناته ، اذ فى هــذه الموازنات التى عقــدها الباقلانى بين آى الذكر الحكيم وبين المختار من كلام العرب تتجلى البلاغة ويتمكن الدارسون من ادراك سمو التعبير القرآنى وتذوق بلاغته وعلوه على المختار من بلاغة القرآن الكريم وأشــعار العرب وكلامهم المنثور ، وبذلك تجلت روح النقــد والذوق الســليم فى هــذا الكتاب كما تجلت الناحية التطبيقية بأوضح معانيها .

كما كانت تلك الموازنات التى عقدها الباقلانى بين القرآن وفصيح الكلام العربى من أبرز الأسباب فى ذيوع صيت كتابه وعلو مكانته ، ولم ينقد الباقلانى معلقة امرىء القيس الا ليبين للقارىء أن تلك القصيــدة ونظائرها تتفاوت فى أبياتها تفــاوتا بينا فى الجودة والرداءة والســلاسة والانعقــاد والسلامة والانحلال والتمكن والتسهل والاسترســال والتوحش والاستكراه ، ونتيجة هــذا أن الباقلانى رأى أنه فى الامكان أن يوازن بين قصــيدة من الشعر وســورة من القرآن وان لم يتحد الموضوع ، وسبيل ذلك أن تبين محاسن القصــيدة ومســاويها ويشرح فيهــا المبتذل والطريف والمقبول والمرذول ثم يقابل ما ســلم فيها بالســورة التى توازيها فى الكمية ليظهر ما فى الســورة من المحاسن التى لم يشنها ضعف ولا تهافت ولا فضول(٢) .

---

(١) انظر : المرجع الســابق ص١٧٢ .

(٢) انظر : البلاغة عند الســكاكى : د . احمــد مطلوب ص٩٣ ط . اولى ، والنثر الفنى د . زكى مبارك : ٦١/٢ ط . أولى .

وعلى الرغم من جور الرافعى على الباقلانى فى نقده السابق فان الرافعى كما رأينا قد أفاد من الباقلانى كثيرا من كلامه عن النظم ، وخاصة الوجوه التى عنى فيها الباقلانى ببيان روعة النظم القرآنى ولزومه درجة واحدة من القوة مع كل المعانى وجميع الأغراض على خلاف كلام العرب الذى يتفاوت تفاوتا بينا عند الانتقال من معنى الى معنى ومن غرض لآخر .

كما عاد الرافعى فأثنى على كتاب الباقلانى واعترف بقيمته وذكر انه أوفى كتاب الف فى عصره ، واخذ يلتمس العذر له فيما عابه عليه من الاغراق فى التمثيل وحشد الكثير من منثور كلام العرب ومنظومه مبينا أن ذلك كان تمثيلا لروح العصر(١) .

هذا وأفاد الرافعى كذلك فى كلامه عن البلاغة القرآنية بما ذكره الجاحظ عن النظم اذ تحدث عن الجاحظ وذكر أنه أول من كتب فى اعجاز القرآن كتابا سماه (نظم القرآن) الذى لم يصل الينا ، كما ذكر أن الواسطى المتوفى سنة ٣٠٦ قد بنى على هذا الكتاب كتابه : « اعجاز القرآن » الذى شرحه عبد القاهر شرحا كبيرا سماه « المعتضد » وشرحا آخر أصغر منه ، وكتاب الواسطى هو الآخر لم يصل الينا(٢) — وهذا الكلام نقله الرافعى عن : صاحب كشف الظنون(٣) .

وأفاد الرافعى فى كلامه عن بلاغة القرآن بما كتبه الخطابى عن النظم ، ونقل كثيرا من كلامه على عمود البلاغة — ويتفق الرافعى مع الخطابى فى أن كلا منهما يجعل النظم الوجه الأساسى فى اعجاز القرآن . ولقد ذكر الرافعى الخطابى واشار الى كتابه .

كما افاد الرافعى بالرمانى فى كلامه على « التلاؤم » واشار كذلك الى الرمانى وكتابه .

واخذ الرافعى الخطوط الأساسية التى بنى عليها النظم من :

---

(١) أنظر : اعجاز القرآن للرافعى ص١٧٣ .
(٢) أنظر : المرجع السابق ص١٧٠ ، ١٧١ .
(٣) أنظر : كشف الظنون : حاجى خليفة : ١٢٠/١ .

ابن سنان الخفاجي وهى الحـــروف وأصـــواتها والكلم وحروفها والجمل وكلماتها ، وأن كانا يختلفان فى أن النظم الوجه الأساسى فى الاعجاز عنـــد الرافعى ، أما ابن سنان فيرى أن العرب كانت تقدر على مثل نظم القرآن لولا أن الله صرفهم عن ذلك(١) .

وأفاد الرافعى من عبد القاهر اهتمـــامه بالتراكيب والتركيز عليها واعتبرها مناط الحسن وموطن الاعجـــاز .

كمـــا ردد كثيرا من كلامه عن : الألوان البلاغية التى وجدت فى كلام الله كالاستعارة والمجاز وغـــيرها ما بنى عليه كلام الله عز وجل ولا يستغنى عن شىء منها لاســـتلزام المقام لها ، بخلاف ما يوجد فى كلام البشر منها مما يمكن الاســـتغناء عنه أو ابداله بغيره ، ويقول الرافعى فى ذلك مرددا كلام عبد القاهر عن : بلاغة الاستعارة وأنها من مقتضيات النظم وعنها يحدث وبها يكون « ومن أظهر الفروق بين أنواع البلاغة فى القرآن وبين هـــذه الأنواع فى كلام البلغاء ، أن نظم القرآن يقتضى كل ما فيـــه منها اقتضـــاء طبيعيا ، بحيث يبنى هو عليها لأنها فى أصل تركيبه ، ولا تبنى هى عليه ، فليست فيها اســـتعارة ولا مجاز ولا كناية ولا شىء من مثل هـــذا يصـــح فى الجواز أو فيما يســـعه الامكان أن يصلح غيره فى موضـــعه اذا تبدلته منه فضـــلا عن أن يفى به ، وفضلا عن أن يربى عليه ، ولو أدرت اللغة كلها على هـــذا الموضع ، فكأن البلاغة فيـــه انما هى وجه من نظم حروفه ، بخلاف ما أنت واجد من كلام البلغاء ، فان بلاغته انما تصنع لموضعها وتبنى عليه ، فربما وفت ، وربما أخلفت ، ولو هى رفعت من نظم الكلام ثم نزل غيرها فى مكانها لرأيت النظم نفسه غير مختلف »(٢) .

فالرافعى يرى أن الألوان البلاغية تختلف فى كلام الله عز وجل عنها فى كلام العرب ، اذ أنها فى كلام الله أصل فى بنائه ، لا يتأتى حذفها أو وضع غيرها مكانها بخلاف الموجود منها فى كلام العرب ، حيث يجوز أن يصنع به ذلك لأنه ليس أصلا فى البناء ولا ركنا من التركيب ، يقول الرافعى : « ولسنا

---

(١) أنظر : سر الفصاحة : ابن سنان الخفاجى ص٨٩ ت : عبد المتعال الصـــعيدى .

(٢) أنظر : اعجاز القرآن للرافعى ص٢٣٩ .

نقول : ان القرآن جاء بالاستعارة لأنها استعارة ، أو بالمجاز لأنه مجاز ، أو بالكناية لأنها كناية ، أو ما يطرد مع هـــذه الأسماء والمصطلحات — انما أريد به وضع معجز فى نسق ألفاظه وارتباط معانيه على وجوه السياستين من البيان والمنطق ، فجرى على أصولهما فى أرقى ما تبلغ الفطرة اللغوية على اطلاقها فى هـــذه العربية ، فهو يستعير حيث يستعير ، ويتجوز حيث يتجوز ، ويطنب ويوجز ويؤكد ويعترض ويكرر الى آخر ما أحصى فى البلاغة ومذاهبها ، لأنه لو خرج عن ذلك لخرج من أن يكون معجزا فى جهة من جهاته ولاستبان فيه ثمة نقص يمكن أن يكون فى موضعه ما هو أكمل منه ، وأبلغ فى القصـــد والاســـتيفاء ، فالعلماء يقولون : ان كل ذلك فنون من البلاغة وقع بها الاعجاز ، لأنهم اصطلحوا على هـــذه التسمية التى حدثت بعـــد العرب ، ولو قالوا : ان القرآن معجز فى العربيـــة لأن الفطرة والعقل لا يبلغان مبلغه فى سياستى البيان والمنطق بهـــذه اللغة لكان ذلك أصـــوب فى الحقيقة وأبلغ فى حقيقة الصـــواب ، وأمكن فى معنى الاعجاز ، وأتم فى هـــذا الباب كله مادام فى لســـان الدهر حرف من العربية »(١) .

فلعلنا ندرك أن كلام الرافعى الســـابق عن الفنون البلاغية بين كلام الله وكلام العرب انما هو مأخوذ من كلام « عبد القاهر » فى « دلائل الاعجاز » عن تقريره الاعجاز فى النظم وأن الاســـتعارة والكنـــاية وســـائر ضروب المجاز من مقتضـــيات النظم وعنها يحدث وبها يكون(٢) .

كما أفاد الرافعى فى حديثه عن : البلاغة القرآنية بما ذكره : الرازى والزمخشرى وابن أبى الاصـــبع وابن الزملكانى وابن القيم والزركشى والسيوطى وغيرهم من أعلام اللغة والأدب والبلاغة ولم يكن يشير اليهم الا نادرا .

وبعد : فالرافعى كان صادقا فيما رآه من عدم بلوغ دارسى الاعجاز السابقين الهدف المنشـــود من مؤلفاتهم وهو : تذوق أسرار الاعجاز وادراك

---

(١) اعجاز القرآن للرافعى ص٢٩٣ .
(٢) أنظر : دلائل الاعجاز : عبد القاهرة ص٢٥٩ .

بلاغتـه لمـا فاضت به تلك المؤلفات من المباحث الكلامية والمناقشـات الجدلية ، وحشـد الأمثلة من كل صـوب وحدب ، والاهتمام بحصر الألوان البلاغية والتمثيل لها .

ولمـا كان « اعجاز القرآن للرافعى قـد جاء خاليا من ذلك ، فانه قد حقق مالم يحققه السـابقون وبلغ ما لم يبلغوه ، اذ يشـعر قارئه بروعة البلاغة القرآنية ، ويحس البون البعيد بين كلام الله وكلام البشر . هـذا مع اعتراف الرافعى بتقصيره فى كثير من الجوانب ، واعتماده على ما كتب السـابقون ، واعترافه كذلك بأن تجـديده واضـافته يتمثلان فى : احكام التخطيط ودقة البناء مما جعل كلامه عن البلاغة القرآنية يبدو جديدا كأن لم يناقش ولم يدرس من قبله .

هـذا ولقد ترك الرافعى بما كتبه عن الاعجاز أثرا عظيما فيمن جاء بعده ، فما من مؤلف كتب بعده فى الاعجاز الا أفاد منه وتأثر به وحكاه فى خطته واعتمد عليه فى منهجه ، ولا يزال الكتاب وبعد مرور أكثر من نصف قرن عليه مرجع معظم الدارسين ، ومصـدر الباحثين فى اعجاز القرآن وبلاغته ، وفى مقدمة كتب الاعجاز فى العصر الحديث .

الفصـــل الثـــانى

منهج الرافعى فى بحث البلاغة القرآنية

من أهم ما وجه الى الرافعى من انتقاد على منهجه فى بحث البلاغة القرآنية ، اغفاله الجانب التطبيقى ، وعدم اهتمامه بدعم نظرياته وآرائه بالنصوص القرآنية التى تفسر تلك النظريات وتجلو هـــذه الآراء .

والرافعى نفسه قد أدرك هـــذا ، وأحس بالقصور من تلك الزاوية ، لذلك فانا نراه فى مقدمة الطبعة الثالثة لكتابه هـــذا يذكر أنه كان ينوى أن يمد الكتاب بآيات يشرح فيها أسرار الاعجاز لولا خوفه من مضاعفة حجم الكتـــاب ، وأنه ســـيفرد لذلك كتابا برأســـه(١) .

وممن أخذ على الرافعى التقصير فى هـــذا الجانب الاستاذ : عباس محمود العقاد ، فقد أخذ عليه أنه أغفل جانب التمثيل والاستشهاد على ما يقول بالآيات القرآنيـــة(٢) .

كما أخذ عليه ذلك المرحوم (السيد محمد رشيد رضا) وحكى الرافعى انتقاده له وذكره مع تقريظه فى مقدمة : اعجاز القرآن — ويقول : السيد رشيد رضا فى هـــذا النقد : « وانى على شـــهادتى للرافعى بأنه جاء فى هـــذا المقام بما تجلت به مباين الاعجاز ومواضعه ، واضـــاءت لوائح الحق فيه وملامحه وددت لو مد هـــذا البحث مد الأديم ، بل أمد بحيرات نيله بجداول الغيث العميم ، فعم فيضـــانه الفروق بين نظم الآيات فى طولها وقصرها ، وقوافيها وفواصلها ، ومناسبة كل منها لمواضع الكلام — واختلاف تأثيره فى القلوب والأحلام »(٣) .

والرافعى وقد شعر بالنقص الذى يعترى عمله من هـــذا الجانب تراه يهتم اهتماما زائدا بتكميل ذلك النقص وسد هـــذه الثغرة ، ونتبين ذلك

---

(١) أنظر : اعجاز القرآن للرافعى ص١٣ .
(٢) أنظر : ساعات بين الكتب للعقاد : ٩/١ ط . ثالثة .
(٣) أعجاز القرآن للرافعى : ١٨ .

من خلال رسائله الى صديقه : أبى رية — اذ أشار الى ذلك العمل كثيرا — وتمنى طويلا أن يوفقه الله لاخراج كتاب فى أسرار الاعجاز — كما كتب الرافعى فعلا بعض فصول هـذا الكتاب — ولكن الله عز وجل قد اختاره الى جواره قبل أن يكمله .

ولقد حاولت طويلا العثور على نماذج من هـذا الكتاب نستوضح فيها منهج الرافعى وأسلوبه فى تحليل البلاغة القرآنية ، ووقفت على طرف منها فى الدوريات التى كان ينشر الرافعى فيها مقالاته ، وفى : « وحى القلم » الذى ضم كثيرا من مقالاته السابقة — ومن بين رسائله الى صديقه أبى رية — وكذلك وقفت فى الجزء الذى أفرده الرافعى عن البلاغة النبوية على طرف منها توضح منهجه وطريقة تحليله للبلاغة فى كلام الرسول صلى الله عليه وسلم .

ولقد تبين أن منهج الرافعى فى الجانب التطبيقى كان عين مسلكه فى الجانب النظرى من ترك الأخذ بقواعد البلاغيين — وعدم الاهتمام بتعريفاتهم والقابهم — والعناية بلب المعنى وثمرته والغاية منه وما يحويه من أسرار غير عابىء بما درج عليه البلاغيون من ذكر الأسباب والعلل كقولهم : هـذا حسن لأن فيه استعارة أو كناية أو طباقا أو سجعا .. الخ ، فلم يفعل الرافعى شيئا من هـذا لعدم اقتناعه بتلك الطريقة فى تذوق النصوص والاحساس بروعتها والوقوف على جمالها — فى الوقت الذى لو حللنا شرحه واستقصينا كلامه لوجدناه تفصيلا لهـذه الألقاب وتحليلا لها دون أن يرد لها ذكر فى كلامه وتلك هى : فلسفة البلاغة أو البلاغة العصرية التى نريد من أساتذة البلاغة أن يدرجوا عليها ، فيقللوا ما وسعهم من الاهتمام بالقواعد والأحكام النظرية ويفيضوا فى ابراز ما تشتمل عليه النصوص من حكم وأسرار ، بمعنى أن تكون القواعد تابعة وفى المرحلة الثانية .

فالرافعى لم ينهج نهج البلاغيين فى أى من دراستيه : النظرية والتطبيقية للبلاغة القرآنية لعدم اقتناعه بها فى فهم النصوص وتذوق جمالها والوقوف على محاسنها . ومن ثم كان كتابه « أسرار الاعجاز » الذى توفى ولم يكمله ثورة فى ميدان البلاغة .

وقبل أن نقوم بعرض نماذج منه ندع الاستاذ : محمد ســعيد العريان ليحدثنا عن هــذا الكتاب وعن منهج الرافعى فيه ، يقول العريان : ان فى هــذا الكتاب فصولا تامة التأليف ، وفصولا اخرى أجمل فكرتها فى كلمات على ورق ، أو اشار الى مصادرها ، كما يذكر أن الرافعى كان يعتد بهــذا الكتاب اعتدادا كبيرا وأنه قد أطلعه على فصــول منه وتحــدث اليه عن نهجه وتأليفه — كما يذكر العريان أن منهج الرافعى فى الكتاب تمثل فيما يلى :

١ — يتحدث فى صــدر الكتاب عن البلاغة العربية — فيردها الى أصول غير الأصول التى اصطلح عليها علماؤها منذ كانت — ويضع لها قواعد جديدة وأصــولا أخرى .

٢ — ويتحدث فى الفصل الثانى عن : بلاغة القرآن وأسرار اعجازه مسترشدا فى ذلك بما قدم فى الفصل السابق من قواعد .

٣ — ويتناول فى الفصــل الأخير من الكتاب آيات من القرآن على أسلوب من التفسير يبين سر اعجازها فى اللفظ والمعنى والفكرة العامة — ويعتبر هــذا الفصل الأخير هو صلب الكتاب وأساسه(١) .

هــذا ولمــا كانت النماذج التى بين أيدينا والتى تصــور منهج الرافعى فى تحليل البلاغة القرآنية تتوزع الى ناحيتين : النــاحية الاولى : ومعظم النماذج تدور عليها — وهى نماذج يسلك الرافعى فى تحليلها الخط السابق من الاهتمام باللب والعناية بالثمرة — وصرف النظر عما يفعله البلاغيون من ذكر الأسباب والبواعث وحصر الألقاب والمصطلحات .

والناحية الثانية : نماذج يدرج الرافعى فى تحليلها على ما درج عليه البلاغيون ، وهى نادرة ومحدودة — حيث عرفنا موقف الرافعى من مسلك البلاغيين .

لذلك فانا سنعرض نموذجا واحدا لكل من الناحيتين السابقتين .

---

(١) أنظر : حياة الرافعى : محمد سعيد العريان ص٢٨٩ وما بعدها ط . أولى .

بلاغة المجـــاز والتقـــديم :

لقد وجه الرافعى كما عرفنا كل اهتمامه عند شرح الآيات الى الوقوف على أسرار بلاغتها دون ان يلقى بالا الى تحديد هـــذه المصـــطلحات التى حظيت باهتمام البلاغيين ، فمثلا كان يهتم فى الآيات التى اشتملت على مجاز بالافاضـــة فى توضيح النتائج التى نشأت عن هـــذا المجاز والأسرار البلاغية التى تولدت عنـــه ، وذلك دون أن يذكر كلمة « مجاز » أو يبين نوع هـــذا المجاز وغير ذلك مما هو معروف لدى البلاغيين .

كما نرى ذلك فى حديثه عن السر البلاغى فى اســـناد لفظة : « حب » الى الشهوات فى قول الله عز وجل : (زين الناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضـــة والخيل المسومة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المـــآب) ومعلوم أن الحب لا يتعلق بالشهوة ، فلا يحب الانسان الشهوة لأن الشهوة غريزة فـــيه ، وانما الذى يحب هو الأشياء المشتهاة ، لكن لمـــا كانت الشهوة سببا فى حب هـــذه الأشـــياء فقد أسند الحب اليها ، وذلك ما يسميه البلاغيون بالمجاز العقلى — ويكتفى الرافعى بتوضيح الأسرار التى ترتبت على هـــذا الاسناد دون أن يلفظ بكلمة مجاز — ولنستمع لمـــا يذكره فى تفسير الآية لندرك ذلك فيقول الرافعى : « راجعت عن آية (زين للناس) تفسير الشيخ محمد عبده وتفسير الألوسى فلم أر فيهما ما يهدى الى السر فى هـــذه الآية — والمفسرون جميعا يتفقون على أن « حب الشهوات » يراد به المشتهيات ، فالمعنى : زين للناس المشـــتهيات من النســـاء .. الخ وهـــذا يجعل الآية موضـــع نقـــد ، ويذهب بسر التعبير (بحب الشـــهوات) — واعجاز هـــذه الآية هو فى لفظة (حب الشهوات) فلو قال : المشتهيات أو الشـــهوات أو حب النساء لمـــا كان ذلك شيئا ، والشهوات وظائف طبيعية فى الناس فكونها زينت للناس أمر لا معنى له وليس فيه جديد — ولكن (تزيين حبها) هو السر كل السر ، لأن حبها هو سبيل الحرص عليها ، والاكثار منها ، كالذى يجد مالا ينتفع به ، فالمـــال فى نفســـه منفعة وليس فى ذلك شيء عجيب ، ولكن الذى يبتلى « بحب » المـــال تنقلب فيه هـــذه المنفعة ضررا فيبخل

ويبتلى بالحرص ثم يبتليه الحرص على المـــال بمحق حياته كلها فالشأن اذن ليس فى المشتهيات ولا فى الشهوات ، ولكن فى (حب الشهوات) ، ثم ان حب الشهوات متى كان سببافى الحرص عليها والاكثار منها فهو خطأ وضرر ، فاذا (زين) ذلك للانسان كان أشد ضررا وأمعن فى باب الخطأ — وهـــذه هى حكمة استعمال (زين) فكأن هناك ثلاث درجات : الشهوة وهى عمل طبيعى ، ثم حب الشهوة وهـــذه اضافة جديدة من العقل تزيد فيها ، ثم تزيين هـــذا الحب ، وهى اضافة ثانية تزيد فى الزيادة وتضاعف الخطأ ، وعلى هـــذا تلحق الشهوات فى هـــذا الترتيب بالحد الخارج عند « تزيين شـــهوة محبوبة » بحيث لا يبقى للعقل حـــكم ولا حكمة مع هـــذا التزيين ، وجعلت (زين) مبينة للمجهول ، لأن بعض هـــذا محبوب محمود فهو من زينة الله ويدخل فى قوله تعالى : « قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده » وبعضه مذموم مكروه فهو من تزيين الغرائز الفاسدة — وبعضه حمق وجنون فهو من تزيين الشيطان — والغرض من الآية تجاوز الحـــد المعقول من شهوات الدنيا ، فان تجاوزه يجعل الدنيا هى الغاية ، مع أنها وســـيلة فقط — ولهـــذا قال : (ذلك متاع الحيـــاة الدنيا) ثم أنه قال : « حب الشـــهوات » بالجمع ولم يقل : الشـــهوة فتكون (الشـــهوات) مختلفة متباينة ، تقدر كل واحدة باعتبارها الخاص فى الأصناف التى وردت فى الآية ، فالشـــهوة للنساء غيرها من البنين ، وهـــذه غيرها من المـــال ، وهـــذه غيرها من الخيل المسومة ... الخ ، فكل واحدة ذات شأن خاص فى النفس كمـــا هو مشـــاهد ، ولكن الجنون بها كلها متى (زين حبها فى النفس) شىء واحـــد »(١) .

فندرك مما سبق عمق الرافعى ومدى تغلغله فى التنقيب والتحليل ، وهـــذا التعمق نلمسه كذلك عند تفسيره لترتيب تلك المشـــتهيات فى الآية حيث يقول : « وانظر الحكمة العجيبة فى الترتيب ، فالنساء شـــهوات من الغريزة والعاطفة ، والبنين شهوات من العاطفة والنفس ، والمـــال الكثير

---

(١) من رسائل الرافعى : محمود أبو رية ص٢٧٥ وما بعدها .

من النفس فقط ، والخيل المسومة والأنعام والحرث ، هذه الثلاثة تارة أجزاء من المال ، وتارة أجزاء من عاطفة النفس ، كما يغرم بالخيل بعض الناس أو بالأنعام أو بالزراعة ، ولذلك جاءت فى الأية بعد النساء والبنين لأنها لاحقة بالغريزة والعاطفة والنفس ، ويدخل فى الخيل المسومة كل ما يقتنى للمباهاة والزينة ، أو لأغراض القوة على اطلاقها . ومنه السيارات والطيارات .. الخ ، ويدخل فى الانعام كل ما يقتنى للتجارة والكسب وفى الحرث كل ما يقتنى للاعتمال والايجاد ، ومنه المصانع والمعامل .. الخ ، فاذا حققنا هذا وجدنا هذه الأبواب جامعة لكل الشهوات الناشئة من جميع قوى الجسم الانسانى والنفس الانسانية ، اما ما كان خاصا بشهوات العقل فلم يدخل فى الآية وهذا من أعجب اعجازها لأن أمور العلوم والفنون « لا تزين » الا لفريق محدود من الناس — أى لا يزين حب الشهوات منها ، وهذا الفريق عادة هم النوابغ العبقريون ، وهؤلاء العبقريون فى الحقيقة لا يجدون من العلوم والفنون « متاع الحياة الدنيا » ولكن مصائب الحياة الدنيا »[1] .

فالرافعى كما رأينا فضلا عن ربطه القرآن بالحياة فى تفسيره فانه كان مهتما ببيان الآثار التى أحدثها وجود المجاز فى الآية دون أن تسمع منه ذكر كلمة « مجاز » .

ولقد عرفنا فيما سبق أن هذا كان نهج الرافعى فى معظم الآيات التى تناولها بالشرح والتفسير ، وأنه لم يكن يسلك مسلك البلاغيين الا نادرا وفى النموذج التالى سندرك ذلك .

أسرار الاعجاز على طريقة البلاغيين :

ان الذى أخذناه على البلاغيين انما هو الاسراف فى التقعيد مما كدر الأذواق وجعلها لا تدرك جمال النصوص ولا تحس روعتها وبهاءها ، كما لا ينكر ما فى صنع البلاغيين المتأخرين من علم واجتهاد ولكن اسهابهم فى التعقيد واطالتهم فى اخراج المحترزات ودفع الاعتراضات ورد الشبه هو الذى عكر من صفو بلاغتهم وقلل من حسنها .

---

(١) المرجع السابق ص٢٦٧ وما بعدها .

وكنا نود فى الوقت نفسه لو زود الرافعى تحليلاته الأريبة وفلسفته الرائعة بالاشارة فى النهاية الى ذكر اللقب الذى نشأ عنه الجمال ونتج بسببه الحسن والبهاء .

ولم يفعل الرافعى ذلك الا نادرا كالذى نراه فى موازنته بين قول الله تعالى : « ولكم فى القصاص حياة » وقول العرب : « القتل انفى للقتل » بعد أن نشر الاستاذ (حسن القاياتى) مقالا فى جريدة (كوكب الشرق) يفضل فيه القول المأثور على قول الله عز وجل ، فثارت ثائرة الرافعى ، ولم يكد يقرأ المقالة حتى أربد وجهه وبدا عليه الغيظ والانفعال ، وكتب فى جريدة البلاغ مقالا للرد على (القاياتى) تحت عنوان : كلمة مؤمنة فى رد كلمة كافرة(١) .

ولقد ذكر القاياتى أنه يرى تقديم الكلمة العربية على الآية على عكس ما يقوله البيانيون . كما رأى أن الآية الكريمة مأخوذة من القول العربى الذى يفضلها بعدة ميزات منها : هذا الايجاز الساحر فيها ، اذ ان « القتل انفى للقتل » ثلاث كلمات لا أكثر ، اما الآية فانها سبع كلمات — ومن هذه الميزات : الاستقلال الكتابى وفقد التعاقد بينها وبين شىء آخر سابق عليها — ومن تلك الميزات التى ذكرها القاياتى فى تفضيل القول المأثور على القول الكريم : أن الكلمة ليست متصلة فى آخرتها بفضل من القول تغنى عنه على حين تتصل الآية بما تغنى عنه من القول ويعد كالفضول وهو : كلمتا « يا أولى الألباب » و « لعلكم تتقون » وان كان لا زيادة فى القرآن ولا فضول(٢) .

وبدأ الرافعى مقاله بابطال هذه البراهين المفتراة التى فضل بها الكاتب المذكور القول المأثور على قول الله عز وجل ، فذكر أن هذه الكلمة مولدة وليست جاهلية ، ووضعت بعد نزول القرآن واخذت من الآية ، والتوليد بين فيها وأثر الصنعة ظاهر عليها — وأن المقابلة فى المعانى المتماثلة انما تكون بالألفاظ التى تؤدى هذه المعانى دون ما تعلقت به أو

---

(١) أنظر : جريدة البلاغ عدد : نوفمبر سنة ١٩١٢م .
(٢) أنظر : وحى القلم للرافعى ٤٦٦/٣ ط . التجارية .

تعلق بها مما يصل المعنى بغيره أو يصل غيره به ، اذ الموازنة بين معنيين لا تكون الا فى صناعة تركيبهما — كما ذكر الرافعى ان الايجاز الكائن بالكلمة ليس من « الايجاز الساحر » كما يصفه الكاتب — بل انه من الايجاز الساقط وليس هو من قبيل الايجاز فى الآية الكريمة ولا يتعلق به فضلا عن أن يشبهه ، اذ لابد فى فهم صيغة التفضيل من تقدير المفضل عليه فيكون المعنى : « القتل اكثر نفيا للقتل من كذا » وأما قوله تعالى : يا أولى الألباب لعلكم تتقون » فان اعجاز الآية لا يتم الا بها اذ أريد أن تكون معجزة زمنية(١) .

ويقرر الرافعى أنه على فرض صحة اسناد الكلمة الى عرب الجاهلية فان الضعف ظاهر فيها والفتور باد عليها ، اذ أنها تشبه أن تكون لغة قاطع طريق عارم يتوثب على الحلال والحرام ، لا يخرج لشأنه الا مقررا فى نفسه انه اما قاتل أو مقتول ولذلك تكرر فيها القتل على طرفيها ، فهو من اشنع التكرار وافظعه ، كما أن فيها الجهل والظلم والهمجية(٢) .

بهذه الفلسفة العميقة والفكر الثاقب بين الرافعى ما فى القول المأثور من قصور وما به من فتور وانه دون قول الله عز وجل بمراحل .

ثم يعود الرافعى مرة ثانية ليبين أسرار البلاغة ووجوه الاعجاز فى القول الكريم مستضيئا بما ذكره البلاغيون الذين يتفقون جميعا على أبلغية القول الكريم ، ولم يخل كتاب من كتبهم من التعرض للموازنة بين القول الكريم وقول العرب المأثور . فيقول الرافعى : محصيا وجوه الاعجاز فى القول الكريم سالكا مسلك البلاغيين فى ذلك :

١ — بدأ الآية بقوله : (ولكم) وهذا قيد يجعل هذه الآية خاصة بالانسانية المؤمنة التى تطلب كمالها فى الايمان — فالآية بدلالة كلمتها الاولى موجهة الى الانسانية العالية ، لتوجه هذه الانسانية فى بعض معانيها الى حقيقة من حقائق الحياة .

---

(١) انظر : المرجع السابق ص٤٦٨ وما بعدها .

(٢) انظر : المرجع السابق ص٤٧٠ .

٢ — قال : « فى القصـــاص » ولم يقل : فى القتل ، فقيـــده بهـــذه الصيغة التى تدل على أنه جزاء ومؤاخذة ، فلا يمكن أن يكون منه المبـــاداة بالعدوان ، ولا أن يكون منه ما يخرج عن قدر المجازاة قل أو اكثر .

٣ — تفيد هـــذه الكلمة « القصـــاص » بصيغتها (صيغة المفاضلة) ما يشـــعر بوجوب التحقيق وتمكين القاتل من المنازعة والدفاع ، والا يكون قصاص الا باستحقاق وعدل — ولذا لم يأت بالكلمة من — اقتص — مع أنها اكثر استعمالا لأن الاقتصاص شريعة الفرد والقصاص شريعة المجتمع .

٤ — من اعجاز لفظة « القصاص » هـــذه أن الله تعالى سمى بها قتل القاتل فلم يسمه : قتلا كما فعلت الكلمة العربية ، لأن احد القتلين هو جريمة واعتداء فنزه سبحانه العدل الشرعى حتى شبهه بلفظ « الجريمة » وهـــذا منتهى السمو الأدبى فى التعبير .

٥ — ومن اعجاز هـــذه اللفظة : أنها باختيـــارها دون كلمة القتل تشير الى أنه سيأتى فى عصـــور الانسانية العالمية المتحضرة عصر لا يرى فيه قتل القاتل بجنايته الا شرا من قتل المقتول ، لأن المقتول يهلك بأسباب كثيرة مختلفة ، على حين ان أخذ القاتل لقتله ليس فيه الا نية قتله ، فعبرت الآية باللغة التى تلائم هـــذا العصر القـــانونى الفلسفى — وجاءت بالكلمة التى لن تجد فى هـــذه اللغة ما يجزىء عنها فى الاتســاع لكل ما يراد بها من فلســـفة العقـــوبة .

٦ — ومن اعجاز اللفظة انها كذلك تحمل كل ضروب القصاص من القتل فما دونه وعجيب أن تكون بهـــذا الاطلاق مع تقييدها بالقيود التى مرت فهى بذلك لغة شريعة الهية على الحقيقة ، فى حين أن كلمة « القتل » فى المثل العربى تنطق فى صراحة أنها لغة الغريزه البشرية بأقبح معانيها ، ولذلك كان تكرارها فى المثل كتكرار الفلطة ، فالآية بلفظة (القصاص) تضـــعك أمام الألوهية بعدلها وكمالها ، والمثل بلفظة القتل يضعك أمام البشرية بنقصـــها وظلمهـــا .

٧ — ولا تنس أن التعبير بالقصاص تعبير يدع الانسانية محلها اذا هى تخلصت من وحشيتها الأولى وجاهليتها القديمة ، فيشمل القصاص اخـــذ

الدية والعفو وغيرهما اما المثل فليس فيه الا حالة واحدة بعينها كأنه وحش ليس من طبعه الا أن يفترس .

٨ — جاءت لفظة القصاص معرفة بأداة التعريف ، لتدل على أنه مقيد بقيوده الكثيرة اذ هو فى الحقيقة قوة من قوى التدبير الانســانية ، فلا تصلح الانســانية بغير تقييدها .

٩ — جاءت كلمة (حياة) منونة لتدل على أنها هنا ليست حياة بعينها مقيدة باصــلاح معين ، فقد يكون فى القصاص حياة اجتماعية ، وقد يكون فيه حياة ســياسية ، وقد تكون الحياة أدبية ، وقد تعظم فى بعض الاحوال من أن تكون حيــاة .

١٠ — ان لفظ (حياة) هو فى حقيقته الفلســفية أعم من التعبير (بنفى القتل) لأن نفى القتل انما هو حياة واحدة ، أى ترك الروح فى الجسم ، فلا يحتمل شيئامن المعانى السامية ، وليس فيه غير هــذا المعنى الطبيعى الســاذج ، وتعبير الكلمة العربية عن الحياة (بنفى القتل) تعبير غليظ عامى يدل على جهل مطبق لا محل فيــه لعــلم ولا تفكير ، كالذى يقول لك : ان الحرارة هى نفى البرودة .

١١ — جعل نتيجة القتل حياة تعبير من اعجب ما فى الشعر يسمو الى الغاية من الخيال ، ولكن أعجب ما فيه أنه ليس خيالا ، بل يتحول الى تعبير علمى يسمو الى الغاية من الدقة ، كأنه قول بلسان العلم : فى نوع من ســلب الحيــاة نوع من الحيــاة .

١٢ — فاذا تأملت ما تقدم وانعمت فيه تحققت أن الآية الكريمة لا يتم اعجازها الا بما تمت به من قوله : « يا أولى الألباب » فهــذا نداء عجيب يســجد له من يفهمه .

١٣ — وانتهت الآية بقوله تعالى : « لعلكم تتقون » وهى كلمة من لغة كل ومن ، ومعناها فى زمننا نحن : أولى الألباب : انه برهان الحياة فى حكمة القصــاص نســوقه لكم ، لعلكم تتقون على الحياة الاجتماعية عاقبة خلافه ، فاجعلوا وجهتكم الى وقاية المجتمع لا الى وقاية الفرد .

ثم يختم الرافعى كلامه عن بلاغة الآية ووجوه اعجــازها بقــوله : « فاذا كان فى الآية الكريمة ما رأيت ، ثلاثة عشر وجها من وجوه البيــان

المعجز ، فمعنى ذلك من ناحيــة أخرى : أنها أســقطت الكلمة العربية ثلاث عشرة مرة »(١) .

بهــذا البيان الرائع والفكر الثاقب أكد الرافعى بلاغة القول الكريم على قول العرب مضــيفا الى فلســفته خلاصة ما ذكره البلاغيون .

واذا كنا نقدر الرافعى على ســلوك هــذا النهج القويم الذى يعيد للبلاغة روحها وينتهى بها الى أهدافها فانا نأخذ عليه الامعــان الزائد فى التفسيرات والتعليلات الى درجة تكد ذهن القارىء وتضــنيه .

كما كنا نود لو نبه الرافعى فى ختام كل تفسير على اللون البلاغى الذى تولد عنه الحسن حتى يكون قد جمع فى دراســته بين : النظرية والتطبيق اذ أنها الطريقة المثمرة فى البحث البلاغى .

وودنا كذلك لو أن الله عز وجل مد فى عمر الرافعى ففسر لنا القرآن على هــذا النسق البيانى وعلى هــذه الروح العصرية ، اذ كان رحمه الله يعمل لذلك فعلا فى كتابه « أسرار الاعجاز » الذى تركه قصاصات على مكتبه .

---

(١) وحى القلم : ٣ ص٤٧١ وما بعــدها .

الفصــل الثــالث

« اعجاز القرآن للرافعى بين التقريظ والنقد »

لقد كان اعجاز القرآن للرافعى وما يزال موضع تقدير الدارسين ، ومحل اعجاب المثقفين ، المسـلم منهم ومن لم يعمر قلبه بالاسـلام — كما تحقق هـدف الرافعى من تأليفه تحققا منقطع النظير وهو لفت انظار أهل العصر الى بلاغة القرآن وما يحويه القرآن من منافع غاليـة وفوائد كثيرة وعلوم ومعارف ترفع قدرهم وتعلى شـأنهم وتطور مجتمعهم ان هم اقبلوا على تحصيل تلك المعـارف وجنى هـذه الفوائد .

واذا كان حديثه عن النظم القرآنى الذى يعده الوجه الأسـاسى فى اعجازه لم يخرج كمـا شـاهدنا عما ذكره البلاغيون الا انه جاء فلسـفة لأحكامهم وشرحا لمقاييسهم وبسـطا لها بأسلوب يناسب روح العصر .

لذلك راج اعجـاز القرآن للرافعى رواجا هائلا وطبع مرات عديدة وتنافس الدارسون فى مشـارق الارض ومغـاربها على قراءته وتزويد مكتبـاتهم به .

كما نال الرافعى بهـذا الكتاب شـهرة فائقة وذاع صـيته ، واخـذ كثير من الأعلام والنابهين يسـجلون انبهارهم بهـذا الكتاب واعجابهم به ، كالذى كتبه المرحوم الزعيم (سـعد زغلول) الى الرافعى قائلا : « تحدى القرآن أهل البيان فى عبارات قارعة محرجة ولهجة واجزة مرغمة — أن يأتوا بمثله او سـورة منه فما فعلوا ولو قدروا ما تأخروا — لشـدة حرصهم على تكذيبه ومعارضـته بكل ما ملكت أيمانهم واتسع له امكانهم — هـذا العجز الوضيع بعد ذاك التحدى الصـارخ هو أثر تلك القدرة الفائقة ، وهـذا السـكوت الذليل بعد ذلك الاستفزاز الشـامخ هو أثر ذلك الكلام العزيز ، ولكن أقواما أنكروا هـذه البداهة وحاولوا سترها ، فجاء كتابكم (اعجاز القرآن) مصـدقا لآياتها ، مكذبا لانكارهم ، وأيد بلاغة القرآن واعجازها بأدلة مشتقة من أسرارها ، فى بيان مسـتمد من روحها ، كأنه تنزيل من التنزيل ، أو قبس من نور الذكر الحكيم ، فلكم على الاجتهاد فى وضـعه والعنـاية بطبعـه شـكر المؤمنين ، وأجر العاملين ، والاحترام الفـائق »(١) .

---

(١) اعجاز القرآن للرافعى ص٥ .

وكتب كذلك — السيد محمد رشيد رضا — يقرظ الرافعى على كتابه هــذا ويذكر أن ظهور الكتاب كان أقوى رد وأحكم صد لدعاوى الملاحــدة والمفترين الذين يشــككون فى اللغة العربية ويبغون صرف الناس عن القرآن الكريم(١) .

كما ذكر الســيد محمد رشيد رضا أنه على الرغم من كثرة المؤلفات فى اعجاز القرآن ، فلم يكن بد من اعجاز القرآن للرافعى ، وما كانت لتغنى تلك المؤلفات عما كتبه الرافعى ، اذ انها كتبت فى أزمان تختلف عن هــذا الزمن ، ووضعت لأهل عصور تخالف طبائعهم طبيعة أهل هــذا العصر(٢) .

وكتب مثل ذلك الاستاذ/شكيب أرســلان(٣) .

واذا كانت التقاريظ الســابقة قد نشرها الرافعى فى مقدمة (اعجاز القرآن) فانه كانت هناك التقاريظ المتعددة التى نشرت فى الصحف والمجلات كالذى كتبه الاستاذ (صادق عنبر) وما كتبه الاستاذ (عبد العزيز البشرى) فى جريدة « كوكب الشرق »(٤) .

والذى كتبه الاستاذ : (أحمد خيرى ســعيد) فى جريدة الاخبار تحت عنوان : (ظهور كتاب اعجاز القرآن فى وقت يســاء فيه الى القرآن هو احــدى معجزات القرآن)(٥) .

وما كتبه كذلك الاستاذ : (محمود أبو رية) فى الجريدة السابقة(٦) .

هــذا بخلاف التقــاريظ الوفيرة التى نشرت فى الأهــرام وكوكب الشرق(٧) .

---

(١) انظر : المرجع السابق ص١٥ .
(٢) انظر : المرجع الســابق ص١٧ وما بعدها .
(٣) انظر : من رسائل الرافعى : محمود أبو رية ص١٧ وما بعدها .
(٤) انظر : المرجع الســابق ص١٥٢ .
(٥) عدد ١٨ أبريل ســنة ١٩٢٨م .
(٦) عدد ١٧ أبريل ســنة ١٩٢٨م .
(٦) انظر : عدد ١٤ أبريل ســنة ١٩٢٨ م .
(٧) انظر : من رسائل الرافعى ص١٥٢ .

ولم يقف الأمر باعجاب الخاصة والعامة بالكتاب عند حد ، حتى ان صحافيا كبيرا غير مسلم هو الدكتور « يعقوب صروف » منشىء « المقتطف » يقول فى تقريظـــه : « يجلب على كل مسلم عنده نسخة من القرآن أن تكون عنده نسخة من هـــذا الكتـــاب »(١) .

ومما لاشـــك فيه أن المجهود الذى بذله الرافعى فى اعجاز القرآن جعله ســـيد أعماله فقد وهبـــه كل طاقاته ، ومنحه كل امانيه وسكب فيه كل قدراته ، لأن الرافعى كاتب اسلامى قبل أن يكون كاتبا عربيا ، وقدســـية القرآن عنده لا تســـمو عليها منزلة الا قداسة من هـــذا كلامه ، والقرآن محارب منذ أنزله الله على رسوله الى اليوم وان اختلفت أســـباب الحرب وأساليبها ، ومن هنا كانت قداسة الفكرة التى أملت على الرافعى كتابة بحثه ، لقد كتبه ولسان حاله يقول متجردا من كل عصـــبية الا انتمائه الى هـــذا الدين :

ابى الاسلام لا أب لى ســـواه اذا افتخـــروا بقيس أو تميم

مع النـــاقدين — حول أســـلوب الكتـــاب :

وكانت الى جانب التقـــاريظ الســـابقة مجموعة من الانتقـــادات التى وجهت الى الرافعى حول اعجاز القرآن ومنها : انتقاد خاص بأسلوبه فى الكتاب وأنه قد جاء على درجة بالغة من الصـــعوبة ، كما كان بعيدا الى حد الاستعصاء على الفهم(٢) .

كما أخذ الاستاذ العقاد عليه فيما يتعلق كذلك بالأسلوب أنه كان الى روح الانشـــاء أقرب منه الى روح البحث العلمى(٣) .

وأرى أن اسلوب الرافعى لم يكن غامضا ، وانما توهم الغموض من ناحية عمق الرافعى وغوصه الى الأعماق وتقليبه الفكرة من جميع جوانبها ، وكاتب مثل الرافعى يبعد هـــذا البعد فى كتابته ويتفلسف ما وسعه التفلسف

---

(١) أنظر : اعجاز القرآن للرافعى ص٢١ .
(٢) أنظر : اعجاز القرآن : عبد الكريم الخطيب ص٣٠١ .
(٣) أنظر : جريدة المؤيد — عدد : ٢٥ أبريل ســـنة ١٩١٤م .

يحتاج من غير شك الى التروى والتثبت فى متابعته ، والرافعى نفســـه فى مقدمة الطبعة الأولى من الكتاب ينصـــح قراءه بذلك قائلا : « انه لابد لمن ينظر فى كتابنا من اطالة الفكر والتأمل ، فان ذلك يحدث له روية ، وتنشىء له الروية أسبابا الى الخواطر — وتفتح عليه الخواطر أبوابا من النظر ، ويهديه النظر الى الاستنباط والاستخراج ، فان وقع دون هـــذه الغـــاية فحظه من القراء حيث يقع ، وان بلغها فهناك مداخل الحجج ومخارجها ، وتصـــاريف الأدلة ومدارجها ، ثم الافضـــاء به الى مذاهب الحكمة على ما اشتهى ، ثم الانتهاء حيث ترى كل حكيم انتهى »(١) .

كما لا أوافق الأستاذ العقاد على ما يراه من أن أسلوب الكتاب كان أقرب الى الانشـــاء منه الى روح البحث العلمى ، وأرى أن الرافعى أديب وكاتب وشـــاعر ولابد أن يظهر أثر أدبه فى كتابته ، وما أحسن الأبحـــاث العلمية لو صـــيغت بأسلوب رائق دقيق ، وكذلك فعل الرافعى فقد كتب فى اعجاز القرآن بهـــذا الاسلوب القوى المتين ، فى الوقت الذى لم يصرفه الاهتمام بتجويد الأســـلوب وحسن ســـبكه عن الفكر الأساسية كما يرى ذلك الأســـتاذ العقـــاد .

النـــاحية التطبيقيـــة :

ومن المـــآخذ التى اخذت على الرافعى حول اعجاز القرآن كما سبق قلة اهتمـــامه بالناحية التطبيقية التى تؤكد نظرياته وتدعم أحكـــامه ، ولقد أخذ الرافعى على نفســـه التقصير فى ذلك — واخذ فعلا فى ســـد هـــذا النقص بالعمل فى (أسرار الاعجاز) الذى توفى قبل اكماله .

موضـــوعية البحث :

كما اخذ عليه انه لم يوف البحث حقه من جميع جوانبه ، والرافعى نفسه نراه فى تواضع العلماء يقر ذلك ويعتذر بأن توفيقه بالطريقة التى سار عليها يحوج الى وقت طويل — ومؤلفات تطول — وأرى أن ما صـــنعه فهو

---

(١) اعجـــاز القرآن للرافعى ص٢٤ .

اشارات تومىء الى غيرها وعلامات تهـدى الى ما سـواها ، ولنستمع لمـا يقوله من ذلك فى مقدمة الطبعة الاولى للكتاب : « ولسنا نزعم حفظك الله ان كتابنا هـذا على ضعفه وقلة الحشـد فيه قد أحاط بوجوه الاعجاز من كتاب الله تعالى لا يغادر صـغيرة ولا كبيرة الا احصـاها ، وانا لم ندع من ذلك لغيرنا ما يرفعه أو يضـعه وما ينقصـه او يتمه ، فان من ادعى ذلك زعم باطلا ، واكبر القول فيمـا زعم .. فان مكـاره هـذا البحث مما لا يسـعه طوق انسان وان أسرف على نفسـه من القهر ، ولا يصلب عليه قلم كاتب ، وان كان هـذا القلم فى يد الدهر ولابد للباحث فى أوله من فلتات الضجر وان اعتـد ، وفى اثنائه من سقطات العزم وان اشـتد ، وفى آخره من العجز والانقطـاع دون الحـد »(١) .

اثر الحـروف فى بلاغة القـرآن :

كما ينتقد الأسـتاذ العقـاد الرافعى فى كلامه عن : أثر الحروف فى البلاغة القرآنيـة ويرى أن ما رآه الرافعى من ذلك غير مطرد فى القرآن الكريم ، وأن القرآن اكبر من أن تفسر بلاغته بمثل ذلك(٢) .

وانى اتفق مع الأستاذ العقاد مبدئيا فيما قرره من أن كلام الرافعى عن الحروف فيه مبالغة واسراف ، وانه قد جاوز بها قدرها حين مضى يرد الاعجاز اليها ويجعل البلاغة فيها ، وبعد هـذا أنبه على أن الرافعى كان يردد كلام ابن الأثير حول ذلك ، والآية التى دار حولها كلام الرافعى من جهة انسـجام حروفها واثر ذلك فى الاعجاز وهى قوله تعالى : « ولقـد أنذرهم بطشتنا فتماروا بالنـذر » هـذه الآية بعينها قد استشـهد بها ضياء الدين بن الأثير على توالى حركة الضـمة وعدم حدوث الثقل بسبب ذلك مع انه من اسباب الثقل ودواعيه ، وعلى الرغم من توافر سبب الثقل فيها فانها جاءت حسنة وخفيفة فى القرآن الكريم ، وذلك لا ينقض القاعدة الأسـاسية وهى أن توالى حركة الضم من أسبا بالثقل ، فنقل الرافعى هـذا الكلام لابن الأثير بعد أن أضاف اليه بعض تحليلاته الصوتية التى برع

---

(١) اعجاز القرآن للرافعى ص٢٤ .

(٢) انظر : جريدة المؤيد : عدد ٢٥ ابريل سنة ١٩١٤م .

فيها والتى أظهر بها الفرق بين مجىء هـذه الكلمة حسنة فى القرآن الكريم ، بينما ورد مثلها فى كلام العرب مستكرها ونافرا .

فالكلام اذن أصلا لابن الاثير والرافعى قد أضـاف بعض التحليلات الصـوتية ووضع بعض الأسباب التى استحسنت الكلمة فى القرآن لأجلها .

هـذا على أن فى كلام — ابن الاثير — نفسـه ما يبطل نقـد العقاد ويهدمه ، فهو يرى أن مجىء هـذه الألفاظ التى وجد بها سبب الثقل خفيفا فى القرآن الكريم انما هو شـاذ لا ينقض الأصل المقيس عليه(١) ، وان كان الرافعى قد أطلق القول فى ذلك .

ولكن على الرغم من هـذه الانتقـادات فانها لم تقلل من قيمة هـذا المؤلف العظيم ، الذى قـد سـد ثغرة واسـعة فى الدراسات القرآنية ، ولا يزل حتى الآن وبعد مضى ما يزيد على نصف قرن من الزمان على تأليفه يقف على رأس كتب الدراسـات القرآنيـة ، حتى بين تلك التى كتبهـا متخصصون متفرغون .

واذا كانت هـذه أول دراسة تقدم عن هـذا العمل القيم للرافعى الذى خـدم لغة الاسـلام وقرآنه اجل خـدمة فلا أزعم أننى احطت فيها بكل جوانب هـذا المفكر العظيم والفيلسوف الاسلامى النجيب .

فلم يركز البحث على زاوية واحدة من زواياه المتعددة : تلك التى تتصل بما كتبه عن اعجاز القرآن فى بلاغته وبيانه .

لكن تبقى بعد ذلك زوايا متعددة للرافعى لم تدرس ولم تبحث على نحو يستحق الذكر ، اذ لم ينل الرافعى حظه من الدارسين واذكر منها : الرافعى وجهوده فى الصـوتيات — والرافعى وجهوده فى اللغة — والرافعى وجهوده فى النحو — وذلك على سبيل المثال لا الحصر .

فآمل أن يتبع هـذا البحث بأبحاث حول جوانب الرافعى السـابقة وغيرها لنكون قد أدينا للرافعى بعضا من حقه علينا وشيئا من واجبنا نحوه وقدرنا رجلا قضى عمره دفاعا عن القرآن وذيادا عن حمى الاسلام . وصدق الله اذ يقول : « انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحـافظون » .

---

(١) أنظر : المثل السـائر : لابن الاثير : ٢٦٩/١ .

موجـــــز

البحث ونتائجه

((الخــاتمة والنتـــائج))

وســـأحاول باذن الله ان اقدم فى هـــذه الخطوة التـــالية موجـــزا وافيا لأهم النقـــاط التى تضـــمنها هـــذا البحث ثم أتبعه بتقديم ابرز النتائج التى تمكنت من الوصـــول اليها .

لقد جاء هـــذا البحث كما رأينا فى مقدمة وخمسة أبواب وخاتمة .

فذكرت فى المقدمة : اهتمام العلماء بقضـــية الاعجاز القرآنى قديما وحـــديثا ، وكثرة الكتب والمؤلفات التى تنـــاولت بلاغة القـــرآن بالشرح والتفســـير ، اذ انها الوجه الأســـاسى فى اعجاز القرآن .

كما بينت أن المسلك الجدلى والطابع المنطقى الذى اتســـمت به تلك الكتب قد حجب كثيرا من جمالها وغطى على ما اشتملت عليه من نفائس وكنوز ، ولذلك فلم تكن تلك المؤلفات على تعددها بمغنية عن صنيع الرافعى الذى جاء خالصا من هـــذا الجدل ومصفى من تلك الشـــوائب التى كدرت جهود الســـابقين كما ورد مناسبا ذوق العصر وملائما طبائع أهله .

وذكرت أيضا فى المقدمة أن الرافعى قد درس علوم البلاغة ، وقرأ ما كتبه المتقدمون والمتأخرون عن البلاغة القرآنية قراءة جيدة ، غير أن عمله قـــد ورد مجردا من العناية بذكر الألقاب ومن الاهتمـــام بتحـــديد المصطلحات ، وجاء خاليا من ذكر القواعد التى حفلت بها كتب البلاغة ، ولذا كان صـــنيعه أقرب الى الأذواق ، والصق بالقلوب ، وأدعى الى التأثير فى النفوس من كل ما كتبـــه البلاغيون والمتخصـــصون فى دراسة الاعجاز القرآنى .

كما ذكرت أن هـــذا البحث قد جاء ليكمل نقصـــا ملحوظا ، ويســـد فراغا ملموسا فى مكتبة الاعجاز والبلاغة لعلم من أعلام الدراسات القرآنية جاد به العصر الحديث ، ولم يلق من الدارسين الاهتمام اللائق به ، والعناية

التى تلائم جهوده الجبارة فى الدفاع عن القرآن والدين واللغة العربية ولذلك فقد حاز قبول العلماء ولقى اعجاب الدارسين فى ميدان البحث البلاغى منذ اللحظة الاولى . ونوهت ايضا فى المقدمة بالمصـــادر والمراجع التى جمعت منها مادة هــذا البحث وانها كانت على الترتيب : كتب الرافعى — ومقالاته فى الدوريات التى كان يكتب فيها ، ورســـائله الخاصة ، وما كتبه المعاصرون عنه — والرسائل العلمية التى تناولته بالدراسة والبحث ، ثم كتب الاعجاز والبلاغة والنقد ، كما نوهت ايضا بالمكتبات التى طوفت بها ، وبذا انتهت المقـــدمة .

وذكرت فى مقدمة الباب الأول الذى خصصته للحديث عن « حيـــاة الرافعى » أننى لم أسلك فيه مســـلك المؤرخين الذين لا يدعون شـــاردة ولا واردة الا ســـجلوها ، وانما قصـــدت أن اكشف للقـــارىء بعض جوانب حياة الرافعى التى تعينه ، على تفهم منهجه ، ومن أجل ذلك صرفت النظر عن بعض النقاط ، وجزت الطريق بسرعة مع البعض الآخر ، كما ذكرت أيضا أننى لم أهتم فيما عرضت له من هـــذا الجانب التاريخى الا بما يوضح غامضا ، أو يدفع نقـــدا وجه اليه .

وجاء هـــذا الباب فى فصول ســـتة : تحدثت فى الأول منها عن : الرافعى وعصره ، فذكرت أن ادب الرافعى يعد تعبيرا واضحا وتصويرا ناطقا لـــا كان يعانيه الشعب المصرى ، وما يدور بالمجتمع العربى فى هـــذه الآونة ، كما بينت ان هـــذا الأدب المنثور منه والمنظوم ما طبع منه وما لم يطبع يدور فى اطارين : الاطار الاول : تصـــوير الحالة السيئة التى انتهت اليها أحوال هـــذا الشعب من النواحى : الســـياسية والاجتماعية والثقـــافية والاقتصـــادية بفعل الاستعمار ، فذكرت أنه ما من حادثة المت بهـــذا الشعب بتأثير من صنع الاســـتعمار الا لمحنا صـــداها على وجه السرعة فى ادب الرافعى ، ونوهت فى ذلك بمقالاته العديدة فى نقد طبقة الأغنيـــاء والفئة الحـــاكمة الباغية ، وما كتبه عن : حادث دنشـــواى وثورة ١٩١٩ وزعيمها ســـعد زغلول ، وما كتبـــه كـــذلك عن الأحزاب الســـياسية ولجنة ملنر والامتيازات الأجنبية والالقاب وكلامه عن محنة فلسطين .

وانتقلت الى الطائفة الثـــانية من مقالاته فبينت أنه قذف بها فى وجه هؤلاء المستغربين الذين أرادوا أن تكون مصر امتدادا لأوربا فى لغتها وعاداتها

وافكارها ، وبالتشكيك فى حضارتنا ومبادئنا ، والاشـــادة بحضارة الغرب والثناء على المدنية الأوربية ، وبينت انه من تلك الزاوية كان صدام الرافعى مع كثير من رجالات عصره : كالدكتور محمد حسين هيكل ومنصور فهمى وسلامة موسى واحمد لطفى السـيد والدكتور طه حسين ، وقدمت طرفا من كلام الرافعى عن اللغة العربية والمدنية الأوربية ، وختمت الفصل منوها بجهود الرافعى فى الدفاع عن حمى الدين واللغة العربية والاشـادة بثمرات هـذه الجهود التى تمثلت اصـدق ما تكون فى هؤلاء المستغربين انفسهم . الذين عادوا فى اخريات حياتهم اصـدق ايمـانا واكثر انصـافا وصـدق الله اذ يقول : « انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحـافظون » .

وخصصت الفصل الثانى من هـذا الباب للحديث عن : نشأة الرافعى وثقافته فذكرت فيه أن لأسرة الرافعى اثرا كبيرا فى صبغ أدبه وكتابته بالصبغة الدينية فهو سليل أسرة أخذ أفرادها من الدين بحظ وافر وتزودوا منه بزاد طيب ووضحت أن الرافعى ولد فى « بهتيم » احدى قرى محافظة القليوبية حيث كان يقيم بها جده والد أمه وذلك فى يناير سـنة ١٨٨٠ م ، أما اقامته حتى وفاته فكانت فى طنطا حيث دفن والده .

وبينت أن (مصطفى صادق) هو الاسم المعروف الذى سمى به الرافعى واشتهر به ونادرا ما كان يقتصر فى ندائه بمصطفى فقط .

كما أثبت حب الرافعى لمصر واخلاصه لها على عكس ما تذهب اليه الدكتورة « نعمت‌ا أحمد فؤاد » من نفى ذلك الحب .

ثم عرضت لثقافته ، فذكرت انا نظلمه ان خصصناه بطائفة محددة من الثقافة ، مبينا أن هـذه الرحلة الى هـذا العالم الزاخر بأصناف الثقافة بدأها الرافعى بحفظ القرآن وتعـلم مبـادىء الدين كبقية أفراد أسرته ثم بحصـوله على الشـهادة الابتدائية وانقطاعه عن الدراسة بعد ذلك عقب صممه وعكوفه فى مكتبة والده يستوعب ما فيها ويأتى على ما ضمت من علم وما حوت من ثقافة وفكر .

وذكرت أن الرافعى لم يذهب الى الازهر ، فقـد كان فى ازهر من قومه وأنه قد عملت فيه عوامل الوراثة والبيئة والدراسة والعاهة ، واتفق.

له من كل أولئك ما لم يتفق لغيره ، فكان أفقه العلماء فى دينه ، وأعلم الأدباء بلغته ، وواحد الآحاد فى فنه ، والدين واللغة والأدب هى عناصر شخصيته وروافد عقليته وطوابع وجوده .

كما وضحت أن الرافعى كان يقرأ على طريقة الجاحظ ، فقرأ كل كتب الأدب التى تشحذ القرائح وتربى ملكة النقد والتذوق : كالأغانى ورسائل الجاحظ والحيوان والبيان والتبيين ، والمثل السائر ، ويتيمة الدهر والعقد الفريد وزهر الآداب وشرح ديوان الحماسة ونهج البلاغة ، وبينت أن للرافعى مكانته اللغوية ، وأن له فى اللغة وعلومها آراء ومواقف يجب أن تفرد لها أبحاث ، وتخصص لها دراسات ، وأنه وقف من كتب اللغة على : القاموس المحيط وشرحه المسمى بتاج العروس وأساس البلاغة ، ولم تسد تلك الكتب حاجته على وفرة موادها فكان يتمنى لو يتفرغ أديب من الأدباء المسلمين لاخراج قاموس يحوى جميع كتب اللغة المطبوعة والمخطوطة مرتبا على شكل سهل التناول ، كما أنه قرأ أمهات وأصول كتب النحو والصرف ، فقرأ « شرح الكافية للرضى فى النحو ، كما قرأ للرضى أيضا فى الصرف شرحه على الشافيه ، وقرأ متن التوضيح وشرحه لابن هشام ، وذكرت أن للرافعى آراء ومواقف نحوية وصرفية تحتاج الى أبحاث متخصصة لتقويمها وموازنتها بآراء النحاة والصرفيين ، وبينت أنه قرأ كثيرا من كتب التفسير والحديث ، وحينما طلب منه أن يكتب مقالا فى البلاغة النبوية قرأ تجريد البخارى كله كما قرأ فى التصوف كتاب « لطائف المنن للشيخ الشعرانى » ، وقرأ كثيرا من علوم النفس والفلسفة والاجتماع والتاريخ . وذكرت أنه على الرغم من عدم اجادته اللغة الفرنسية التى وقف على أولياتها فى المدرسة ولا غيرها من اللغات الأجنبية فلم يمنعه ذلك من الوقوف على طرق الغربيين فى كتاباتهم وتفكيرهم ولذلك كان يقرأ كل ما يترجم الى اللغة العربية وعلى الأخص الكتب التى تتصل بالفلسفة وعلم النفس والاجتماع وختمت هذا الفصل ببيان أن الرافعى لم ينهل ثقافته من مورد محدد ، ولم يجمعها من مصدر معين ، وانما كثرت موارده وتعددت مصادره ، وكانت نتيجة ذلك هذا المجهود العلمى الفائق وتلك الطاقة الفكرية الجبارة التى أودعها كتبه ومؤلفاته ومقالاته وجاءت خدمة للقرآن وعلومه وبعثا وتجديدا للغة وفروعها .

وناقشت فى الفصـــل الثالث من هـــذا الباب : « أدب الرافعى الدينى والاجتماعى ودفاعه عن القرآن واللغة العربية فذكرت أن الرافعى كان هبة الله الى الأمة العربية المسلمة فى هـــذا الزمان لينبهها الى حقائق وجودها ، وليردها الى مقوماتها ، وأنه قد استخدم أدبه وملكاته التى زوده بها الله عز وجل فى الذود عن حياض القرآن الكريم ولغتـــه وفى تجلية مبـــادىء الاســـلام ، ومن هنا كتب لأدبه البقاء والخلود ، كما نوهت بمعارك الرافعى التى خاضها دفاعا عن القرآن والدين واللغة ، وذكرت أنها كانت خيرا وبركة على اللغة والأدب ، اذ أنها أنتجت لنا هـــذه الآثار النفيسة : كتاريخ آدا بالعرب الذى يراه أكثر الأدباء كتاب الرافعى الذى لا يعرفونه الا به — والذى يعـــد نقطة تحول فى حياة الرافعى من الشعر الى الكتابة وحاز اعجاب العلماء والباحثين — وكاعجـــاز القرآن الذى يعد ســـيد أعمال الرافعى ، وتحدث فيه عن اعجاز القرآن بأسلوب يلائم روح العصر ، ورد الاعجاز فيه الى جوانب متعـــددة من النواحى البلاغية واللغوية والأدبية والعلمية والنفســـية والأســـلوبية مع التركيز على الجهة البلاغية التى يعدها الجمهور الوجه الأســـاسى فى اعجاز القرآن — وكأسرار الاعجاز الذى حاول أن يكمل به كتابه الســـابق وتوفى قبل اكماله ، ولقد وفقنا الله فى العثور على نماذج منه من خلال الدوريات التى كان يكتب فيها الرافعى — وكتاب : « تحت راية القرآن » الذى ألفـــه فى نقض كلام الدكتور « طه حسين » فى كتابه : « فى الشـــعر الجاهلى » والذى غير اسمه بعد ذلك الى : « فى الأدب الجاهلى » وفتح به الطريق لمجموعة من الكتب ألفها أصحابها فى نقض كلام الدكتور — ككتاب : نقد كتاب الشعر الجاهلى للأستاذ محمد فريد وجدى — وكتاب : الشهاب الراصد للأستاذ/محمد لطفى جمعه — وكتاب : نقض كتاب فى الشعر الجاهلى للســـيد محمد الخضر حسين — وكتاب : محاضرات فى بيان الأخطاء العلمية التاريخية التى اشـــتمل عليها كتاب فى الشعر الجاهلى للأستاذ الشيخ محمد الخضرى — وكتاب : النقد التحليلى لكتاب فى الأدب الجاهلى للأستاذ محمد أحمد الغمراوى . وذكرت أن كتـــاب الرافعى : « تحت راية القرآن » كتـــاب فى النقد والأدب فيه من الحقائق

الدامغة ، والادلة المقنعة والحجج القوية ، والرد المفحم ما يجعله فى مقدمة الكتب النقدية التى وضعت للرد على الدكتور ، وانه يمتاز عن تلك الكتب بميزتين واضحتين : أولاهما : أنه أصدق هذه الكتب وأدقها فى تصور المعركة التى تلت ظهور الكتاب وما مرت به من أطوار وما تخللها من أحداث ، وثانيتهما : أنه أكثر هذه الكتب حدة وأعنفها فى مهاجمة الدكتور « طه حسين » لأنه كتب فى خلال المعركة ولم يكتب بعدها كما هو الشأن فى بقية الكتب الاخرى . وذكرت أنه قد كانت الى جوار تلك الكتب التى حملت دفاع الرافعى عن القرآن واللغة والدين مقالاته العديدة التى كان ينشرها فى الصحف وجمع جانبا كبيرا منها فى كتابه : (وحى القلم) .

كما نوهت بفلسفة الرافعى الدينية فذكرت أنه واحد من الكتاب المعاصرين القلائل الذين فهموا الاسلام فهما صحيحا وغاصوا فى أعماق الشريعة مستكشفين كنه نورانيتها وروعة قدسيتها وبسطة سماحتها وأسرار أركانها وجلال احكامها ، وأن جهاده الدينى لم يقف عند صد هجمات الملحدين والمشككين فى القرآن ولغته ، وانما تعدى ذلك الى تجلية كثير من مبادىء الاسلام وابراز محاسن اركانه بما أوتى من بيان وقدرة على التحليل والتعمق فى فهم الأسرار .

وناقشت أدب الرافعى الاجتماعى فبينت أن الرافعى قد وجه شطرا من أدبه الى خدمة المجتمع المصرى والعربى والاسلامى ، وعالج فى كثير من مقالاته قضايا اجتماعية متعددة ،و كانت تتوافد عليه كثير من الرسائل يستفتيه أصحابها الرأى ويطلبون منه النصيحة فيما جد عليهم من مشكلات وما طرأ من أحداث ، كما انتقد فى عديد من تلك المقالات كثيرا من العادات السيئة والمظاهر المستهجنة التى أوقفت ركب الحضارة العربية والاسلامية وكان يعتمد فى علاجه على مبادىء الدين ويستند الى روح الشريعة الاسلامية ، ونوهت فى هذا الشأن بكتابه « المساكين » الذى قرظه عليه المرحوم « أحمد زكى باشا » قائلا : « لقد جعلت لنا شكسبير كما للانجليز شكسبير ، وهيجو كما للفرنسيين هيجو وجوته كما للألمان جوته » ثم ختمت الفصل ببيان أن فلسفة الرافعى الأدبية والاجتماعية كانت تدور على القرآن والدين .

أما الفصل الرابع من هذا الباب : فقد خصصته للحديث عن « الجوانب الوجدانية فى حياة الرافعى وأثرها فى الأدب العربى » ، فذكرت أن الرافعى رحمه الله كان موفقا فى بيته ، وكان يشعر بين أهله بالسعادة الغامرة ولم يحل ذلك بينه وبين الحب الطاهر الشريف الذى أضاف الى لغة العرب وأدبها زادا قيما من فلسفة الجمال والحب ، وذكرت أن أول عهد الرافعى بالحب كان على جسر « كفر الزيات » حينما تعلق قلبه بفتاة تسمى (عصفورة) وسنه احدى وعشرون سنة ، وأن ثمرة هذا الحب كانت فى مجموعة القصائد الغزلية التى حفل بها الجزء الأول من ديوانه — وناقشت حبه الشهير للآنسة (مى) ، وذكرت أن ما كان يحدث من « مى » للرافعى مما يوحى بالحب هو الذى كان يحدث منها لكل رواد نديها ، وأن الرافعى واحد من العشاق الكثيرين الذين هاموا صبابة بالأديبة « مى » مثله فى حبها مثل العقاد وصبرى ومطران وجبران ومنصور فهمى وطه حسين ، فلقد كان يظن كل واحد من هؤلاء أنه الوحيد المستأثر بحبها ، كما ذكرت أن هذا الحب كان أحد الروافد الثرة التى استمد منها الرافعى كثيرا من كتابته وأشعاره — وعرضت لكتب الرافعى التى أودعها كلامه فى فلسفة الجمال والحب « كحديث القمر » الذى أنشأه بعد رحلة الى لبنان سنة ١٩١٢ ، ويعد نموذجا فى تعليم الانشاء « ورسائل الأحزان » « الذى ألفه عقب غضبه وثورته حين ذهب الى ندى « مى » فوجدها مشغولة عنه بغيره — و « السحاب الاحمر » الذى قام على فلسفة البغض وطيش الحب ولؤم المرأة — و « أوراق الورد » الذى يمثل الجزء الأخير من قصة حبه ، وبداه بمقدمة بليغة فى الأدب تحدث فيها عن تاريخ رسائل الحب فى العربية وذكر أن الهدف من تأليفه هو سد المكان الخالى فى الأدب العربى بما جاء فيه من فلسفة الحب والجمال — ولقد ذكرت أن كتبه الأربعة السابقة : حديث القمر ورسائل الأحزان والسحاب الاحمر وأوراق الورد تعد وحدة متكاملة يتم بعضها بعضا : لأنها تنبع من معين واحد وترمى الى هدف واحد وإن اختلفت أساليبها ومذاهبها .

كما ذكرت ان الرافعى قد دفعه اعجابه بكتبه السابقة الى اطلاق القول بتجديد الأدب العربى من فلســفة الجمال والحب — وبينت أن الأدب العربى عامر بالمؤلفات فى فلسـفة الجمال والحب ، كطوق الحمـامة لابن حزم الاندلسى ، وروضة المحبين لابن قيم الجوزية ، ومصارع العشاق لأبى محمد ابن السراج ، وامتـزاج الأرواح للتميمى ، ومحنـة الظـرفاء للقـاضى ابن سليمان الفوقانى ، وديوان الصـبابة لشـهاب الدين بن أبى حجلة وكثير غيرها .

وذكرت فى نهاية الفصل أن حب الرافعى كان حبا طاهرا فيه عفة وعزة وشرف وكبرياء ، وأن هـذا الحب الطاهر قد أنتج : أدبا وحكمة وفلسفة شـعرا ونثرا فى الجزء الأول من ديوانه وفى كتبـه الأربعة السابقة التى تدور حول فلسـفة الجمال والحب ، وكانت ثروة طائلة لأدبنا العربى .

وخصصت الفصل الخامس من هـذا الباب : للحديث عن « الرافعى : الشاعر والكاتب » . فذكرت انه قد كلف بالشعر من أول نشأته ، فما كان له هوى الا أن يكون شاعرا كبعض من يعرف من شعراء العربية أو خيرا ممن يعرف من شـعراء العربية — وان ثمرة هـذا الشعر تمثلت فى ديوانه ذى الأجزاء الثلاثة وديوان النظرات — كما ذكرت أنه قد تأثر فى شـعره بكثير من شعراء العصر ، وخاصة بالبارودى ، وحافظ وشـاعر العراق عبد المحسن الكاظمى — وأكدت موضوع حصوله على لقب « شاعر الملك » فى الفترة من سنة ١٩٢٦ الى سنة ١٩٣٠ ، وضعفت نفى الأستاذ « العوضى الوكيل » لهـذا ، وبينت أن حصول الرافعى على لقب « شاعر الملك » أمر مشـهور وواضح يدعمه هـذه المنح التى أعطيت للرافعى : كالجواز المجانى الذى كان يسـافر به فى الدرجة الأولى على خطوط سـكة الحديد — وارسال ابنه (محمد) فى بعثة علمية لدراسـة الطب فى فرنسـا — وطبع كتاب « اعجاز القرآن على نفقة الملك — كما يؤكد حصول الرافعى على هـذا اللقب تلك الخصـومة المعروفة التى قامت بينه وبين الأستاذ « عبد الله عفيفى » فى « على السفود » الا بسبب التنافس فى الحصـول على هـذا اللقب .

وتحدثت عن سر توفيق الرافعى فى أناشـيده التى كتبت له الشهرة وذيوع الصيت فرددته الى : بلاغته فى وضـع تلك الأناشـيد — اذ كان يختار لها الأوزان المناسبة والألفاظ الملائمة كما كان يضع لكل جماعة النشيد الذى يوافق ميولها ، ويضـاف الى ذلك حاسته الموسيقية وذوقه المصفى .

وتحدث أيضا عن تحوله من الشـــعر الى الكتابة بسبب غيرته على القرآن والدين واللغة العربية ، وما تصـــنعه القيود الشـــعرية من تقييد حرية الفكر ، كما ذكرت أنه على الرغم من تحوله الى الكتابة فلم تنقطع علاقته بالشعر كلية ، بل ينشـــده بين الحين والآخر .

وناقشت أسلوبه : فذكرت أن الرافعى كان فى الكتابة طريقة وحـــده وأن أسلوبه يمتاز بالسلامة والسلاسة والايجاز والعمق — وهـــذه المزايا نتائج حتمية لاكتمال عدته وغزارة مادته وصـــفاء ذوقه وذكاء فهمه ، وأن من يريد أن يقرأ ما كتب الرافعى ليتذوق أدبه فيأخذ عنه أو يحـــكم عليه فليستوثق من نفســـه قبل أن يســـتكمل وســـائله .

وتحدثت فى الفصل السادس عن : « الرافعى الناقد » — فذكرت أنه كان ناقدا له منهجه المســـتقل فى نقـــده وأنه لم يخرج فى نقـــده عن المحور الذى دار فى اطاره أدبه وهو : الذود عن حمى الدين واللغة العربية ورأيت أن ما يراه من ضرورة كون النـــاقد شـــاعرا ليس لازما ، اذ هنـــاك كثير من النقاد ومؤرخى الشـــعر من يتذوقون الأدب تذوقا صحيحا ســـليما ونظراتهم فيه صائبة مســـددة ، وهم مع ذلك ليسوا شعراء ولكنهم يتميزون بما لديهم من حاســـة فنيـــة .

ووضحت المنهج الذى صدر عنه نقد الرافعى ، فذكرت أنه منهج متكامل من الجوانب الفقهية والتاريخية والنفسية ، ولم يقتصر على المنهج الفقهى كما يرى ذلك بعض النقاد المعاصرين وفقط يغلب وضـــوح المنهج الفقهى نظرا لتمكن الرافعى من اللغة وفقهه بأصولها واحاطته بأسرارها .

كمـــا ذكرت أن هـــذا المنهج الفقهى الذى ســـار عليه أغلب النقاد القدامى وتميز تميزا واضحا فى نقد الرافعى هو اهم مناهج النقد وليس منهجا سلبيا شـــكليا كما يرى ذلك بعض المعاصرين ، وذكرت أيضا أن الرافعى لم يقف عند المنهج العربى القديم فى النقد ، بل انه كثيرا ما كان يخرج عن اطار قواعد هـــذا النقد ويعلن عدم رضائه عن كثير من مقاييسه ، كما كان يبدى اعجابه ويظهر ارتياحه عن كثير من أسس النقد الحديث .

ونوهت فى هـــذا الفصل بكتاب « على الســـفود » الذى ضم مقـــالات الرافعى فى نقـــد العقـــاد ونشرها بمجلة العصـــور فى منتصف ســـنة

١٩٢٩ ، وذكرت أن تلك المقالات قد أحدثت نهضة أدبية ولغوية بين الأدباء والنقـــاد ســـجلتها الدوريات التى كانت تصـــدر فى تلك الفترة وبالذات « مجلة الرســـالة » .

وختمت الفصل بتقرير أن الرافعى قد حرك نقـــده فى الدائرة التى دار فيها أدبه وهى : الدفاع عن القرآن واللغة العربية ، وأنه قد مضى فى نقده على منهج متكامل قد ظهر فيه الجانب اللغوى واضـــحا متميزا لبراعته فى اللغة واحاطته بأصولها ، كما قام المنهج وتأسس على أصـــول من النقـــد العربى القديم والحديث ولم يكن صورة من النقد العربى القديم كما يقرر ذلك بعض المعـــاصرين .

ثم ذكرت أن ثمرة ذلك النقد قد تمثلت فى كتابه : « تحت راية القرآن » و « على السفود » وغيرهما من المقالات العـــديدة التى جاءت فى كثير من الدوريات التى كان يكتب فيها — الى جانب البحوث القيمـــة التى سبقت كتابيه الســـابقين فى القرآن والأدب والنقد واللغة وكان هو سببا فيها ومحركا لها ، وختمت هذا الفصل بالحديث عن لحاقه بربه فى ظهر يوم الاثنين العاشر من مايو ١٩٣٧ عن سبعة وخمسين عاما ، ورأيت أن خير ما نقوم به وفاء للرافعى هو أن نعيد النظر فى آثاره لنفيد مما حوت من معـــارف فى اللغة والدين والأدب وغير ذلك من صنوف الثقـــافة .

أما الباب الثانى فقد خصصته للحديث عن « اعجاز القرآن » فى ستة فصـــول : ناقشت فى الأول منها : «معنى الاعجاز ودليله » ، فذكرت ما قاله الرافعى عن « التحدى » الدليل الأول على اعجاز القرآن — ورأيت أن اختلاف القدر المتحدى به ليس لاختلاف أوجه الاعجاز كما ذهب الى ذلك : الســـيد محمد رشـــيد رضا وانما هى طريقة فى الحجاج وســـبيل من سبل الاقناع العقلى حتى تكون الحجة أقهر والبرهان أظهر ، كما رأى ذلك الرافعى . وبينت أن كلام الرافعى عن المعارضـــة الدليل الثانى للاعجاز كان ترداداً لـــا ذكره الخطابى والقاضى عبد الجبار والباقلانى وعبد القاهر دون أن يذكرهم أو يشير اليهم ، وأن حديث الخطابى عن « المعارضـــة » كان دســـتورا اقتفاه كل من أتى بعده ، وعرضت لرأى الرافعى فى انزال القرآن مفرقا لقطع أعذار القوم عن المعارضة وللتدرج فى الهداة والارشـــاد ، وبينت أنه

كذلك يحكى كلام الرمانى والقاضى عبد الجبار والباقلانى وعبد القاهر فى امتداد التحدى الى جميع العصور دون ذكر لهم أو اشارة اليهم . ونفيت عدم وقوع الفصل بين التحدى والاعجاز عند دارسى الاعجاز ، كما ذهبت الى ذلك الدكتورة « عائشة عبد الرحمن » . وختمت الفصل بالتنويه بتوفيق الرافعى فى حديثه عن : حكمة التحدى وان توزع كلامه عنها فى غير موطن وفى أكثر من كتاب .

وتناولت فى الفصل الثانى وجه الاعجاز عند الرافعى فذكرت أنه مع الاجماع على أن القرآن هو معجزة الرسول صلى الله عليه وسلم ، فان الوقوف على الجهة التى كان منها الاعجاز القرآنى أمر لم تلتق عنده الآراء ولم يكن محل اتفاق بين الباحثين والناظرين فى وجوه الاعجاز فى كل زمان ومكان ، وبينت أن تلك وجهة الخطابى والرمانى والباقلانى والقاضى عياض والزركشى والألوسى والقرطبى حيث يعد كل منهم للاعجاز وجوها كثيرا عدا النظم الذى يتفقون على أنه الوجه الأساسى فى اعجاز القرآن ، كما بينت أن الرافعى لم يقرر جديدا حينما رأى أن حقيقة الاعجاز أمر يصعب تحديده وأكبر من أن تحيط به العقول ، اذ قرر ذلك من قبله : الخطابى والسكاكى والزركشى والسيوطى ، كما تابعه فى ذلك من المعاصرين الدكتور (دراز) فى النبأ العظيم ، وختمت الفصل باستصواب تلك الوجهة ، مبينا أن ادراك الاعجاز من الاعجاز ، وأن هذا سر سيظل خالدا ما بقيت السموات والأرض .

وتناولت فى الفصل الثالث ما ذكره الرافعى عن الصرفة : حيث فسرها وحدد القائلين بها وأبطل كلامهم ، وبينت أنه قد تنبه الى التفسيرين المعروفين لها عند النظام والشريف المرتضى وميز بينهما ولم يفعل ما فعله كثير من الباحثين من الخلط بينهما ، كما نوهت بفطنته الى نشأة الكلام على الصرفة حيث يعود الى عيسى بن صبيح الملقب بالمزدار ، ونسب الى النظام لمبالغته فى القول بذلك . كما عرضت لموقفه من حديث الجاحظ عن الصرفة وتابعته فيما قرره من اضطراب الجاحظ وتتبع أثر أستاذه وانه يقصد الصرفة المعهودة فى تفسير الشريف المرتضى أو النظام ، وبينت أن ما يصنعه بعض الباحثين من نفى القول بها عن الجاحظ فهو تكلف وتمحل ، وليس عجيبا أن يقول الجاحظ بالاعجاز البيانى ثم يعود ليقول بالصرفة . فقد شاركه

الرمانى فى القول بذلك حيث جعلها مع ســـتة وجوه غيرها منها النظم أوجه الاعجاز ، كما رد « ابن ســـنان الخفاجى » الاعجـــاز اليها . كما عرضت لنقضــــه ادلة القائلين بالصرفة وبينت انه اعتمد فى ذلك على ما ذكره الخطابى والقاضى عبد الجبار وعبد القاهر ، وبينت أنه كان ممعنا فى التحمس حينما قرر أن « النظام » بمذهبـــه هـــذا حرم القرآن والبلاغة من دراســـات ممتعة وابحاث مجدية موضـــحا أن هـــذا المذهب قد أثر فى الدراســـات القرآنية ابعد الآثار وأقواها حيث أثار العلماء وجعلهم يكتبون فى اثبـــات الاعجـــاز للأســـلوب .

وتحدثت فى الفصل الرابع عن : « المذهب الغيبى فى الاعجاز » فذكرت انه وردت فى القرآن آيات كثيرة تحكى ما ســـيقع فى الغيب ، وما يحـــدث فى المســـتقبل ، وأن ذلك تحقق ووقع ، وبينت أن الباحثين لم يتفقوا فى موقفهم من تلك الآيات . فمنهم من عدها من وجوه الاعجاز القرآنى ، ومنهم من نفى أن يكون لها مدخل فى تحقيق الاعجاز ، وذكرت أن الرافعى لم يذكر شيئا عن هـــذا الوجه وختمت الفصل بتقرير انه لا يمنع أن نعد الاخبار بالمغيبات وجها من أوجه الاعجاز ، اذ أن ذلك أوفق بالرأى المناســب فى اعجاز القرآن ، وهو عدم قصره على وجه بعينه .

وتناولت فى الفصـــل الخامس هـــذا الباب الحديث عن : « الاعجاز الروحى « فذكرت أننا لم نصـــادف ضمن الأوجه المتعددة التى يجعل الرافعى الاعجاز فيها هـــذا الذى سمى « بالاعجاز الروحى » ولم نجد له كلاما فى ذلك الا ما ذكره عن الرهبة والخوف الذى يغشى أفئدتنا عند سماع القرآن مما هو أثر لبلاغته الفائقة ونظمه البديع ، وبينت أن انصار القول بهـــذا الوجه كثير فى القديم والحديث ، فمنهم من يعده الوجه الأساسى فى الاعجاز ، ومن يراه احد الأوجه التى تحقق بها الاعجاز ، وبينت أن الخطابى كان أول من ذهب الى هـــذا الوجه من القـــدماء وتابعه القـــاضى عياض والســـيوطى ، أما المعاصرون فكان فى مقدمة من قال منهم بهـــذا الوجه المرحوم « محمد فريد وجدى » والدكتور « زكى مبارك » وتبعهما فى القول به كثير ، وبينت أنا لا ننكر تلك التأثيرات الهائلة التى يخلعها القرآن على النفوس غير أنا نراها ناشئة عن نظمه البديع ومشولدة عن نسجه المحـــكم الأمر الذى كان الرافعى بســـببه فى نظرنا اكثر انصافا من الخطابى على الرغم من افادته منه فى

كلامه الموجز عن هـــذا الوجه من الاعجـــاز اذ جعل تلك الآثار الروحية ناشئة عن النظم ،و لم يجعلها وجها منفردا من وجوه الاعجـــاز كما فعل الخطابى أو الوجه فى الاعجاز كما صنع « وجدى » ومن لف لفه .

وناقشت فى الفصل السادس من هـــذا الكتاب : « الاعجاز فى القصص القرآنى » فذكرت أنه على كثرة الذين قالوا به فى القديم والحديث فانا لم نجده ضمن الأوجه التى عدها الرافعى فى اعجاز القرآن ، وعرضت لموقف الرافعى منا لتكرار فى قصص القرآن وآياته وموافقتـــه البلاغيين فى أنه من أبرز محاســـنه ومن أخص وجوه البلاغة فيه كما عرضت لموقفه من تفسير الجاحظ للتكرار فى القرآن الكريم وبينت أنه لا يخـــالف الجاحظ فى كثرة التكرار فى الآيات التى خوطب بها بنو اسرائيل ، وانما يخالفه فى التعليل لذلك ، اذ يرده الجاحظ لقلة أفهامهم ، بينما يرى الرافعى أن القرآن خاطبهم بما يعرفون ، والتكرار ضرب من ضروب بلاغتهم ولم يكونوا من الغفلة والسذاجة كمـــا يظن ، وان فيهم لمتكلمين ، وان منهم لشـــعراء ، كما أوضحت عدم توفيق المرحوم (أمين الخولى) فيما رآه من أن الرافعى قد اختص الأدب العبرانى بظاهرة التكرار ونفـــاه عن العرب . كما رأيت كذلك عدم توفيق الدكتور (عبد الغنى الراجحى) فيما حـــكم به على الرافعى بأنه يرى وجود غير العربى فى القرآن ، وبينت كذلك أن مناقشـــة الرافعى للجاحظ حول ظاهرة التكرار جاءت فى غاية الوضوح ولم يكن بها غموض ولا اضطراب كما ذهب الى ذلك الدكتور (صلاح الدين محمد عبد التواب) وبينت أن كلام الرافعى عن بلاغة التكرار فى القرآن الكريم كاد يكون نظريا صرفا لولا ما عثرنا له من ذلك على آية واحدة يفسر فيها سر التكرار فى احدى رسائله الى صديقه أبى رية . وانهيت الفصـــل بتقرير أن الرافعى اذا لم يكن قد عد الوجه القصصى ضمن أوجه الاعجاز عنده ، فانه تحدث عن بلاغة التكرار فى قصص القرآن وآياته ، ورد طعن الطاعنين من هـــذه الجهة ، وبين أن التكرار فى القرآن من محاسنه ومن أخص وجوه بلاغته . كما ذكرت أن الرافعى لم يأت بجديد فى تأكيده بلاغة التكرار ، اذ اتفق علماء البلاغة قديما على قيمة التكرار ومكانته فى القرآن الكريم ، وجاء المعاصرون فأكدوا ما أثبته السابقون من أن التكرار فى قصص القرآن وآياته من أبرز وجوه البلاغة فيـــه وليس ميدانا للطعن كما يزعم الحاقدون . وبذا ينتهى الباب الثانى .

ولقد ذكرت فى مقدمة الباب الثالث الذى ناقشت فيه « الاعجــاز عند الرافعى » أن الرافعى يجعل الاعجاز فى عدة وجوه هى : الوجه البلاغى والوجه العلمى والوجه اللغوى والأدبى والوجه النفسى والوجه الأسلوبى ، والوجه الأساسى من هــذه الأوجه هو الوجه البلاغى الذى اختصه الرافعى بمزيد من العنــاية .

ولقــد ورد هــذا الباب فى اربعة فصــول : خصصت الأول منها للحديث عن « المذهب العلمى فى الاعجاز » وذكرت تناول الرافعى له من ناحيتين : الناحية الأولى : من جهة كون القرآن أصل العلوم وأســاس النهضــة الاســلامية ، وبينت أن الرافعى قد ردد فى ذلك ما ذكره القاضى عياض والســيوطى وابن النــديم وحاجى خليفة ، واكدت ما قرره الرافعى من تأثير القرآن والحضــارة الاســلامية فى النهضة الأوربية ونقضت رد الأســتاذ العقاد لذلك . والناحية الثانية : من جهة الآيات الكونية فى القرآن ومطابقة الكشــوف والأبحاث العلمية لها ، ولقد بينت أن الحديث عن هــذه القضــية قديم ، وأنه قد أخذ صــورة أوسع فى العصر الحــديث بسبب تقــدم وتطور حركة البحث العلمى ، كما ذكرت ان العلماء فى القديم والحديث لم يتفقوا حول هــذا الموضوع ، فمنهم من أيد الوقل بالاعجــاز العلمى ونادى بتفسير القرآن علميا لأنه سبيل لتقرير الايمان وتثبيته فى النفوس ومنهم من وقف من ذلك بحذر وتحفظ بحجة أن القرآن ليس كتابا علميا ، وأنه نزل ليثبت على وجه الدهر ، والنظريات العلمية من شــأنها التغير والتطور .

وختمت الفصل بتصويب وجهة الرافعى فى عد الجانب العلمى من اعجاز القرآن ، وبينت أن القول به يناسب روح هــذا العصر الذى نهضت فيه الأبحاث العلمية ، كما بينت انه لا حرج من تفسير القرآن علميا بعد اعداد العــدة لذلك ، من ثبات العقيدة ورسوخ الايمان ، والاحاطة بعلوم اللغة والبصر بأسرارها .

وخصصت الفصل الثانى من هــذا الكتاب للحديث عن : « الاعجاز اللغوى والأدبى » فذكرت ان البلاغة من علوم اللغة ، وأن الرافعى لم يفرد هــذا الوجه للاعجاز الا لتمكنه منا للغة وبصره بأســاليبها ، ولحرصــه على الكشف عن أسرار النظم الموسيقى فى القرآن ، وناقشت الجوانب التى

ذكرها الرافعى فى هــذا الوجه وبينت انها تدور حول : نشأة العرب اللغوية وأنها كانت تمهيــدا لاســتقبال القرآن ، وفى تمثيل القرآن للغات العرب جميعها لتتمكن كل قبيلة من قراءته بســهولة .. وفى اختلاف القــراءات وتعددها ، وأن هدف هــذا التعــدد والاختلاف هو : توفير الموسيقى والانسجام لنظم القرآن وتراكيبه ، ثم ما أحــدثه القرآن فى اللغة بحفظها من الضــياع والتبدد ووحدتها والمحافظة على الأداء الســليم لها ، وبينت أن تســمية هــذا الوجه بالاعجاز اللغوى توســع فى التعبير ، فقد دار كلام الرافعى عنه حول « الانسجام التركيبى » الذ ىهو ثمرة البلاغة القرآنية وذكرت أن كلام الرافعى كان ترديدا لمــا ذكره الســابقون ، وانه قــد استفاد فى حديثه عن « الاعجاز اللغوى » بما ذكره فى الجزء الأول من « تاريخ آداب العرب » . وانتقلت الى الركن الثانى من هــذا الوجه وهو الاعجاز الأدبى ، فذكرت أنه يقصــد بالاعجــاز الأدبى آداب القرآن وقوانينــه وتشريعاته التى غيرت حياة العرب وبدلت نظامهم ، وبينت أن الخطــابى والباقلانى قد ســبقاه الى عد هــذا الوجه من الاعجاز ، لكنهما جعلاه ناشئا عن النظم ومترتبا عليه ، وختمت الفصل بتقرير أن الرافعى قد تأثر به كثيرون ممن كتبوا حديثا عن اعجاز القرآن فى هــذا الوجه من الاعجاز .

وخصصت الفصل الثالث للحديث عن « الاعجاز النفسى » فبينت أن الوجهة النفســية فى دراسة الأدب والبلاغة ليست وليدة العصر الحديث ولا متصــورة على دراسات الغرب ، ولكن هناك نماذج منها فى الدراسات العربية القديمة وفى الدراســات المصرية المعاصرة ، وأن ملاحظة أحوال النفس كانت أصلا بارزا فى كل مبحث من مباحث البلاغة ، واستشــهدت على ذلك بما ذكره القاضى الجرجانى فى مقدمة وســاطته وما ذكره الرمانى وأبو هلال العســكرى وعبــد القاهر الجرجانى وجار الله الزمخشرى ، وما ذكره السيوطى من العلاقة بين الفاظ اللغة وأصواتها وبين المعانى التى استعملت فيها وصــلة ذلك بالأحوال النفســية للمخاطبين ، وبينت أن « الاعجاز النفسى » أحد وجوه الاعجاز عند الرافعى وانه قد جعل لحديثه عن الاعجاز سمتا فريدا ، كما وضحت انه قد اعتمد فى تقرير هــذا الجانب النفسى من الاعجاز على الطريقة التى استند اليها « ابن أبى الحديد » فى شرح نهج البلاغة » واثباته للامام على كرم الله وجهه ، وذكرت أن كثيرا من المعاصرين الذين كتبوا عن اعجاز القرآن قــد رددوا ما ذكره الرافعى

فى هـــذا الوجه من الاعجاز . وناقشت آراء المعـــاصرين فى العلاقة بين البلاغة وعلم النفس ورأيت أنها يجب أن تتم بالقدر المســـموح به الذى لا يجعل العلوم تذوب فى بعضها ويفقدها صـــفاتها الأســـاسية . وختمت الفصل بتقرير أثر الطريقة النفســـية التى اعتمد عليها الرافعى فى هـــذا الوجه وحسم بها القول فى عدد من القضـــايا كثر حولها وطال فيها النقاش كظاهرة : التكرار فى القرآن الكريم ، ونزول القرآن باللفظ أم بالمعنى ؟

وتناولت فى الفصل الرابع والأخير من هـــذا الباب حديث الرافعى عن : الاعجاز فى أسلوب القرآن — فذكرت تعريفه الأسلوب وموازنته بين الأسلوب القرآنى وبين أساليب البشر مبينا أنه يحكى فى ذلك صراحة كلام الباقلانى وابن أبى الحديد دون أن يشير اليهما . كما بينت أنه يعد هـــذه المباينة وجها من وجوه الاعجاز القرآنى كما عدها كذلك الرمانى والباقلانى والقاضى عياض موضحا أنه كان هناك من القدماء من لم يعدها من أوجه الاعجاز كالقـــاضى عبد الجبار ويحيى العلوى والرازى . ونوهت بموقف المعاصرين من هـــذه الظاهرة وبينت أن الدكتور دراز كان أكثر المعاصرين توفيقا فى كشف أسرار الاعجاز من هـــذا الجانب ، وختمت الفصل بموافقة الرافعى على ما رآه من مباينة أسلوب القرآن لأساليب البشر آخذا عليه عدم توفيقه فى فصل الأسلوب عن البلاغة ومبينا أنه لو كانت هناك وحدة موضوعية تدور فى اطارها مناقشـــاته لمـــا وجدناه يفرد وجها مســـتقلا من الاعجاز للأسلوب ووجها آخر للبلاغة ، وبذا ينتهى الباب الثالث .

أما الباب الرابع : وهو صلب البحث وأهم أبوابه فقد خصصته للحديث عن بلاغة القرآن عند الرافعى ، فبينت أن البلاغة عنده تســـاوى النظم ، وأنها الوجه الأســـاسى عنده فى الاعجاز وذكرت بناء النظم عنده من الحروف والكلم والجمل ، وأن سر الاعجاز فى نظم القرآن يتناولها كلها بحيث خرجت من جميعها تلك الطريقة المعجزة التى قامت به .

وجاء هـــذا الباب فى فصول ثلاثة : خصصت الأول منها للحديث عن : انســـجام الحروف فى القرآن الكريم ، فذكرت أن الرافعى يحـــدد هـــذا الانسجام فى دقة وضعها وحسن اختيارها وأحكام تركيبها ، والتناسب بينها وبين المعنى المقصود على أكمل وجوه التنـــاسب الذى تولدت عنه هـــذه الموســـيقى القرآنية التى جعلت الأعاجم يدركون روعة القرآن ، ومكنت

الصبية والعوام من سرعة حفظه ، وجعلته غضا طريا لا يسأم من سماعه ولا يمل من ترداده . كمـــا بينت أن توفيق الرافعى فى الموازنة بين القرآن وكلام العرب من جهة الموسيقى الناشئة عن توالى حروفه وتماثلها كان من ابرز الأسباب فى ذيوع صيت كتابه : اعجاز القرآن وأرجعت توفيقه فى ذلك الى تمكنه من علوم اللغة واحاطته بأسرارها ، وافادته مما كتبه فى الجزء الأول من تاريخ آداب العرب عن فلســـفة اللغة وأسرارها ، وفى ربطه بين البلاغة واللغة . وذكرت أنه لكى ينهض البحث البلاغى بمهمته الأساسية فى تذوق الأسرار القرآنية ، فانه يجب أن تتوافر له الأسس الراســـخة ، وأقوى هـــذه الأسس : الحروف وحركاتها — وهى مســـتوفاة ومســـتوعبة فى كتب اللغة ، فعلى دارسى البلاغة أن يبدأوا دراستهم بالوقوف عليها ، وبينت أن توفيق الرافعى يأتى من هـــذه الناحية اذ بدأ كلامه على نظم القرآن وبلاغته بالحديث عن : الحروف وأصواتها ، كما بينت أن الرافعى فى جعله انســـجام الحروف فى القرآن الكريم منو جوه نظمه وأركان بلاغته يحكى صراحة ما ذهب اليه « الرمانى » دون ذكر له ، كما بينت أنه يتفق مع عبد القاهر من جهة الاهتمام بالنظم حيث يراه كل منهما الوجه الأساسى فى اعجاز القرآن ، بينما يختلف معه بشأن الحروف وأصواتها ، اذ لا ينكر عبد القاهر أن للاهتمام بها أثرا فى جمال الأساليب دون أن تنسب البلاغة اليها أو يجعل النظم فيها ، بينما يقرر الرافعى أن تحقيق الحروف من وجوه النظم وأنها صـــنو للنظم فى احداث الحسن . وبينت أن الرافعى قد جانب الصواب فى ذلك ، حيث جاوز بالحروف قدرها ، ولقد كنت فى بادىء الأمر أكاد أجزم بجور عبد القاهر على الحروف واهماله شـــأنها واغفاله مكانتها من البلاغة متابعا فى ذلك بعض النقـــاد المعاصرين لولا ما لفت نظرى اليه أستاذى الدكتور/أحمد موسى من ضرورة معاودة عبد القاهر فى كل ما ذكره حتى يجىء الحـــكم صـــادقا ، وعنـــد ذاك اقتنعت بعدالة عبد القـــاهر بوضعه الحروف فى مكانها الصحيح بعد أن وقفت له فى نهاية أسرار البلاغة على نص يذكر فيه انه لا ينفى منزلة الحروف وأثر العناية بها فى روعة النظم بل الذى ينفيه أن يرد اليها الحسن ويجعل فيها الاعجاز ، وتيقن لدى آنذاك

أن عبد القاهر اشـــمل نظرا من الرافعى . كما بينت كذلك تأثر الرافعى فى كلامه عن الحروف بما ذكره ابن ســـنان الخفاجى وان اختلفت طريقة التناول بينهما فابن سنان يجعل الاهتمام بها شرطا فى فصـــاحة الكلمة ، بينما يراه الرافعى أحد أركان النظم القرآنى ، ولا يرى ابن سنان فرقا بين القرآن الكريم وبين كلام العرب من جهة التلاؤم ، بينما يقرر الرافعى أن مكـــانة الحروف فى القرآن الكريم تتمثل فى تلاؤمها ، واحكام تركيبها .

كما وضحت افادته كذلك فى مجال الحديث عن الحروف بما ذكره الرازى وضـــياء الدين بن الأثير ويحيى العلوى وابن الزملكانى .

وختمت الفصـــل بتقرير أن الرافعى كان موفقا فيما ذكره عن : أثر الحروف فى البلاغة القرآنية وان كنت أخذت عليه أنه قد جاوز بها قدرها حين مضى يجعل الاعجاز فيها وينسب المزية اليها .

كما أخذت عليه كذلك أنه لم يقدم قدرا كافيا من الآيات القرآنية ليبين خصـــائص ما بهـــا من حروف ، وأن هـــذا المـــآخذ ينســـاق الى معظم ما كتبه ، فكان فى حاجة الى مزيد من التطبيق للتقرير والتأكيد .

كما بينت أن البحث البلاغى فى حاجة ماســـة الى الافادة من صـــنع الرافعى فى دراسة المقاييس البلاغية بعد حذف ما بها من غموض ، وتقديمها فى عبارات ســـهلة من خلال التطبيق على كلام الله والمختار من كلام العرب مع التفقه فى معرفة أسرار الحروف وأصواتها قبل التوغل فى البحث البلاغى ، والافادة فى ذلك بجهود المحـــدثين فى الصـــوتيات وبهـــذا نعيـــد للبلاغة شـــبابها ونضـــارتها ، ونقضى على عزلتها وانكماشها ، ونصلها بالنص الأدبى حقلها الخصب وميدانها الفســـيح .

وتناولت فى الفصـــل الثانى من هـــذا الباب ما ذكره الرافعى عن : انسجام الكلم فى القرآن الكريم فبينت أنه قرأ كل ما كتبه البلاغيون ، لكنه رأى أن مناهجهم التى ســـاروا عليها لم تحقق للبلاغة هدفها من : ادراك اعجاز القرآن الكريم ، وتذوق أسرار بلاغته ، على خلاف ما يراه بعض الباحثين من تقصيره فى الاحاطة بما كتبه البلاغيون ، كما ذكرت أن البلاغى العصرى الناجح هو الذى يصنع بما صنعه الرافعى ، فيقدم البلاغة لأهل

عصره بأسلوب يناسب روح العصر ، لا يحوى من القواعد الا لبابها وثمرتها ، ورأيت أن ذلك كان السر فى تألق نجم الرافعى وذيوع صـيته وتقـدير الدارسين والباحثين لمـا كتبه عن : اعجاز القرآن وبعد ذلك بينت أن الطابع الذى تميز به حديث الرافعى عن : انسجام الكلم فى القرآن الكريم — هو الذى لمسناه فى كلامه عن : الحروف وأصواتها أعنى الطابع اللغوى البلاغى الذى يجمع بين اللغة والبلاغة فى تذوق النصوص وتفهم أسرارها . وبينت افادة الرافعى فيما ذكره عن التناسب بين ألفاظ القرآن الكريم وبين معانيها على أكمل وجه بما قرره كثير من اللغويين والبلاغيين كابن جنى والسيوطى والزمخشرى وابن الأثير ويحيى العلوى ، كذلك بينت افادته فيما ذكره عن صوت الحس الذى هو روح الاعجاز فى القرآن الكريم بما كتبه البلاغيون فى علم المعانى عن : بلاغة الايجاز والاطناب ، وأخذت عليه ما شاب كلامه من غموض ، واغفاله جانب التطبيق الأمر الذى جعل الدكتور : دراز يبدو أكثر توفيقا منه فى حديثه حول هـذه الظاهرة . ووضحت أنه لم يقدم جديدا فيما ذكره عن أصالة الكلم القرآنى وعدم وجود شىء زائد فيه ، اذ أن كثيرا من البلاغيين : كابن سنان الخفاجى والرازى وابن الأثير والزركشى قد قرروا ما قرره الرافعى من عـدم صـحة القول بوجود كلمات زائدة فى القرآن — كذلك بينت افادته من الخطابى فيما ذكره فى : عمود البلاغة — من اضطراب النظم عند وضـع كلمة أخرى تتفق معهـا فى المعنى ، وبينت أيضا تأثره فيما ذكره عن : الألفاظ الغريبة فى القرآن بما ذكره ابن الأثير والسيوطى ، ورددت كذلك كلامه عن موسيقى الكلم القرآنى التى كانت سـببا فى روعة الألفاظ الطوال فيه والألفاظ المفردة والمجموعة الى ما ذكره الجاحظ وابن الأثير والسيوطى . وأن فضله يتمثل فقط فى تحليلاته الصوتية التى برع فيها .

وختمت الفصل بتقرير أن ما ذكره الرافعى عن : انسـجام الكلم فى القرآن الكريم كان توضيحا لمـا أجمله اللغويون والبلاغيون من قبله ، وأنه استطاع أن يوقفنا على روعة الاعجاز فى ألفاظ القرآن وسر بلاغتها وعوامل تفوقها على ألفاظ البشر بينما لم يتمكن البلاغيون فيما ذكروه عن أحوال الكلم من تحقيق ذلك ، وأخذت عليه اغماطه فضل السـابقين اذ لم يشر

اليهم الا نادرا ، كما أخذت عليه كذلك مبالغته فى رفع شأن الكلم ومجاوزته الحد فى جعل الاعجاز فيها ورد البلاغة اليها .

وتناولت فى الفصل الثالث والأخير من هـــذا الباب ما ذكره الرافعى عن : الجمل والتراكيب التى يعدها من وجوه النظم القرآنى ، فبينت أنه يهتم بالتراكيب اهتماما ملحوظا ويرى أنها السبب الأظهر فى تميز الأسلوب القرآنى عن الأسلوب العربى ، اذ ينهج التركيب القرآنى نمطا معينـــا من القوة وسبيلا واحدا من الاحكام مع كل المعـــانى بخلاف التركيب العربى الذى يختلف قوة وضـــعفا من معنى لغيره ومن غرض لآخر ، ونوهت بما ذكره الرافعى عن الآثار التى تولدت عن الانســـجام التركيبى فى القرآن الكريم فى تلك الموسيقى التى تعين الصـــبية والعوام على حفظ القرآن الكريم ، كما وافقته على ما رآه من منع الترجمة الحرفيـــة للقرآن حيث تذهب بهـــذه الموسيقى وتضيع ذلك الانســـجام .

وبينت أن الرافعى اذ يهتم بالتراكيب اهتماما بالغا ، ويجعل « الانسجام التركيبى » فى القرآن مناط الحسن وموطن الاعجاز فانه لم يأت بجديد فى ذلك ، بل انه يقرر ما أكده جميع البلاغيين الذى يتفقون على أهمية التراكيب ، وان اختلف معهم بشأن الأسس التى تؤلف التركيب وهى : الحروف وأصواتها والكلم وحروفها حيث يراهما الرافعى صنوين للنظم فى تحقيق الاعجـــاز بينما لا يرى البلاغيون الا أن للاهتمام بهما أثرا فى روعة النظم وجماله .

وختمت هـــذا الفصل بتقرير أن الرافعى وان استقى معظم ما كتبه عن النظم الذى يعده الوجه الأساسى فى اعجاز القرآن مما ذكره المتقدمون الا أنه استطاع أن يحقق ما لم تحققه أمهات كتب البلاغة وأصول مصـــنفات الاعجاز . وحســـبه أنه اســـتطاع أن يوقفنا على جلال البلاغة القرآنية وجمالها ، وجعلنا ندرك أسرار النظم القرآنى وروعته وان لم يوف الناحية التطبيقيـــة حقهـــا .

أما الباب الخـــامس والأخير فتحدثت فيه عن : الرافعى بين علماء البلاغة فى ثلاثة فصـــول خصصت الأول منها عن : الرافعى بين دارسى الاعجاز — فذكرت الهدف الذى ألف من أجله كتـــابه : اعجاز القرآن —

وموافقته فيما اخذه على السـابقين من غلبة الجدل وسـيطرة روح الخلاف على مؤلفـاتهم مما غطى على بهائها وافقدها رونقها وبهاءها . كما سردت بقية المـآخذ التى أخذها الرافعى على دارسى الاعجاز وكان منها نقـده للباقلانى : فى عدم افراد القرآن بالبحث ، والاغراق فى حصر الأنواع وعد الألوان والتمثيل لها مما ترتب عليه خلو أبحاثهم من الفلسفة البلاغية القائمة على التعمق فى فهم الأسرار ، وبينت أن الرافعى قد جانب الصـواب فى نقده الباقلانى ، وأن ما عابه على الباقلانى فهو من حسـناته ، وأن الطريف فى كتاب الباقلانى انه طبق موضوعات البلاغة على القرآن الكريم واشـعار العرب وكلامهم المنثور ، وبذلك تجلت روح النقـد والذوق السـليم فى هـذا الكتاب ، كما تجلت الناحية التطبيقية بأوضح معانيها — وبينت أنه على الرغم من جور الرافعى على الباقلانى فانه قد أفاد منه كثيرا فى كلامه عن النظم .

كما بينت افادته فى تجلية البلاغة القرآنية بما كتبه الخطابى عن النظم ونقله كثيرا من كلامه على عمود البلاغة ، وافادته كذلك من الرمانى فى كلامه على التلاؤم ، واسـتعانته فى الخطوط الأسـاسية التى بنى عليها النظم بما صـنعه ابن سنان الخفاجى ، واقتفائه أثر عبد القاهر فى الاهتمـام بالتراكيب واعتبارها منـاط الحسن وموطن الاعجاز وترديد ما ذكره عن الفرق بين الألوان البلاغية فى كلام الله وبينها فى كلام البشر ، كذلك ذكرت افادته فى كلامه عن : البلاغة القرآنيـة بما ذكره : الرازى والزمخشرى وابن أبى الاصبع وابن الزملكانى وابن القيم والزركشى والسيوطى وغيرهم من اعلام اللغة والأدب والبلاغة .

وبينت انه كان على حق فيما رآه من عدم بلوغ دارسى الاعجاز السابقين الهـدف المنشـود وهو : تذوق أسرار الاعجاز لمـا فاضت به مؤلفاتهم من المباحث الكلامية والمناقشـات الجدلية ، وحشـد الأمثلة من كل صوب وحدب ، والاهتمام بحصر الألوان البلاغية والتمثيل لها ، وأنه اذ تحاشى ذلك فيما كتبه فقد حقق ما لم يتمكنوا من تحقيقه وبلغ ما لم يستطيعوا البلوغ اليـه .

وختمت الفصل بتقرير أن الرافعى قد ترك بما كتبه عن : اعجـاز القرآن أثرا عظيما فى من عاصره وجاء بعده ، وأنه ما من مؤلف كتب بعده فى الاعجاز الا أفاد منه وتأثر به وحاكاه فى خطته ، واعتمد عليه فى منهجه ، وان كتابه هـذا لا يزال وبعد مرور أكثر من نصف قرن عليه مرجع معظم الدارسين ، ومصـدرا للباحثين فى اعجاز القرآن وبلاغته ، وعلى رأس كتب الاعجاز فى العصر الحديث .

وناقشت فى الفصل الثانى من هـذا الباب : « منهج الرافعى فى بحث البلاغة القرآنية » — فذكرت أنه قد شعر بالنقص الذى يعترى كتابه : اعجاز القرآن من جهة عدم وضوح الجانب التطبيقى فيه ، وتوالى الانتقادات التى وجهت اليه بسبب ذلك ، وما كان من اكماله هـذا الجانب بكتابه : أسرار الاعجـاز الذى توفى وتركه أوراقا متناثرة ، وذكرت أنه لمـا كانت حاجتنا ماسـة الى بعض النماذج لنستوضح فيها منهجه فى بحث البلاغة القرآنية فقد وفقت فى العثور على طرف منها فى الدوريات التى كان يكتب فيها الرافعى ، وفى : وحى القلم الذى ضم كثيرا من مقالاته السـابقة ، ومن بين رسـائله الى صـديقه « أبى رية » وكذلك فى الجزء الذى أفرده الرافعى عن البلاغة النبوية .

ولقـد وضح لى من خلال النظر فى هـذه النماذج أن منهج الرافعى فى الجانب التطبيقى كان عين مسـلكه فى الجانب النظرى من : ترك الأخذ بقواعد البلاغيين ، وعدم الاهتمام بتعريفاتهم وألقابهم والعناية بلب المعنى وثمرته والغاية منه غير عابىء بما درج عليه البلاغيون من ذكر الأسباب والعلل كقـولهم : هـذا حسن لأن فيه اسـتعارة أو كناية أو طباقا أو سـجعا .. الخ فلم يفعل شيئا من هـذا لعدم اقتناعه بتلك الطريقة فى تذوق النصوص والاحساس بروعتها والوقوف على جمالها ، وبينت من خلال نموذجين قمت بعرضهما أن ذلك كان نهج الرافعى فى تحليله للبلاغة فى كلام الله ، وأنه لم يسـلك مسـلك البلاغيين الا فى القليل النـادر .

وختمت الفصل بتقرير أنه اذا كنا نقدر الرافعى على سلوك هـذا النهج القويم الذى يعيد للبلاغة روحها ويصـل بها الى غاياتها ، فانا نأخذ عليه البعد الشـديد والامعان الزائد فى التفسير والتعليل لدرجة تكد الذهن

وتضنيه . وكنا نود لو نبه الرافعى فى ختام كل تفسير على اللون البلاغى الذى تولد عنه الحسن ليكون قد جمع فى دراسته بين :ا لنظرية والتطبيق ، وهى الطريقة المجـدية فى البحث البلاغى .

وتناولت فى الفصل الثالث والاخير من هـذا الباب : ما ذكره المقرظون والناقدون عن اعجاز القرآن للرافعى ، فذكرت أن هـذا الكتـاب كان ولا يزال موضع تقدير الدارسين ، ومحل اعجاب المثقفين : المسـلم منهم ومن لم يعمر قلبه بالاسلام ، وأن الرافعى قد تمكن بسببه من لفت أنظـار أهل العصر الى بلاغة القرآن ، وما يحويه القرآن من فوائد كثيرة وعلوم ومعارف ترفع قدرهم وتعلى شـأنهم وتطور مجتمعهم ان هم أقبلوا على تحصـيل تلك المعارف وجنى هـذه الفوائد . لذلك راج هـذا الكتـاب رواجا هائلا وطبع مرات عديدة ، ونال به الرافعى شـهرة فائقة ، وكتب كثير من الأعلام والنابهين يسجلون انبهارهم بهـذا الكتاب واعجابهم به ، كما ذكرت أنه كانت الى جوار التقاريظ التى نالها الرافعى بهـذا الكتـاب مجموعة من الانتقادات ومنها : انتقاد خاص بأسلوب الكتاب وأنه جاء بالغا فى الصعوبة ، وما رآه الأسـتاذ العقاد من أنه كان الى الانشاء أقرب منه الى روح البحث العلمى ، فرأيت أن الأسلوب لم يكن غامضا وانما هو عمق الأفكار وبعد النظر الذى يحتاج الى التروى والتثبت للوصول الى كنهه ، كذلك رأيت أن الرافعى أديب وشاعر ولابد أن يظهر أثر أدبه فى كتابته ، فى الوقت الذى لم يصرفه الاهتمـام بتجويد الأسـلوب عن اغفـال الفكر الأسـاسية . كما أخـذ على الرافعى عدم وضـوح الجانب التطبيقى فى كتابه وهو نفسه قد أدرك هـذا حيث كان يسـتكمله فى « أسرار الاعجاز » الذى توفى قبل اتمامه وأخذ عليه كذلك عدم : توفية البحث حقه — وقـد استدرك هو أيضا ذلك فنراه يعتذر بأن توفيته بالطريقة التى سـار عليها يحتاج الى وقت طويل ، ومؤلفات تطول .

ووافقت الأستاذ العقاد مبدئيا فيما أخذه على الرافعى من عدم الاطراد فى كلامه عن : أثر الحروف فى البلاغة القرآنية وتطبيقه على ذلك بقول الله عز وجل : (ولقد أنذرهم بطشـتنا فتماروا بالنـذر) اذ ما من شك فى أن

الرافعى قد جاوز بالحروف قدرها ، وبعد ذلك رايت أن نقـد الأسـتاذ العقـاد لا محل له اذ الرافعى يحكى فى كلامه عن : انسـجام الحروف فى الآية كلام ابن الأثير الذى رأى أن ذلك من خواص القرآن الكريم وأنه لا ينقض الأصل المقيس عليه : وهى : حدوث الثقل بسبب توالى حركة الضم .

وذكرت انه على الرغم من هـذه الانتقادات فانها لم تقلل من قيمة هـذا المؤلف العظيم الذى سـد ثغرة واسـعة فى الدراسات القرآنية فى العصر الحديث ، ولا يزال حتى الآن وبعد مضى ما يربو على نصف قرن من الزمان على تأليفه ، يقف على رأس كتب الدراسا تالقرآنية ، حتى بين تلك التى كتبها متخصصون متفرغون .

وبينت انه اذا كانت تلك أول دراسـة تقدم عن هـذا العمل القيم للرافعى الذى خدم لغة الاسلام والقرآن أجل خدمة ، فلا أزعم أننى أحطت فيها بكل جوانب هـذا المفكر العظيم ، والفيلسـوف الاسلامى النجيب . اذ لم يركز البحث الا على زاوية واحدة من زواياه المتعددة تلك التى تتصـل بما كتبه عن : اعجاز القرآن فى بلاغته وبيانه .

لكن تبقى بعد ذلك زوايا متعددة للرافعى لم تدرس ولم تبحث على نحو يسـتحق الذكر وأذكر منها على سبيل المثال : الرافعى وجهوده فى الصـوتيات — والرافعى وجهوده فى اللغة والرافعى وجهوده فى النحو .

وختمت الفصـل باعلان بغيتى فى أن يتبع هـذا البحث بأبحـاث تجلى الجوانب السـابقة للرافعى لنكون قد أدينا له بعض حقه ، وقدرنا رجلا قضى نحبه دفاعا عن القرآن وذيادا عن حمى الاسـلام .

نتـــائج البحث :

ولقد استطعنا أن نخرج من هـــذا البحث بالنتائج التالية :

١ — ادراك اعجاز القرآن عند الرافعى والوقوف عليه أمر بعيد المنال ، ويتمثل الاعجاز عنده فى عدة وجوه هى : الوجه البلاغى والوجه العلمى ، والوجه اللغوى والأدبى والوجه الأسلوبى ، والوجه الأســـاسى والأصيل من تلك الأوجه هو الوجه البلاغى .

٢ — الى جانب كون الرافعى أديبا وكاتبا وشـــاعرا فهو أيضا عالم من علماء البلاغة ، ومنهجه فى دراسة البلاغة منهج أدبى نفسى يعتمد على الذوق ، وينأى عن الجدل والمنطق .

٣ — على الرغم من هـــذه الصـــور الجديدة التى خرجت عليها جهود الرافعى فى شرح البلاغة القرآنية وابراز أسرارها ، فانها لم تخرج عن بلاغة الســـابقين ، بل اســـتمدت منها وقامت عليها .

٤ — ولقـــد درس الرافعى عـــلوم البلاغة وهضـــمها ، ولم يرى ما ملئت به كتب البلاغة من غلبة الجدل وسيطرة الكلام والمنطق مما حجب الذهن عن ادراك أسرار الاعجاز وحال بين البلاغة وبين بلوغ الأهـــداف المقصـــودة منها ، لذلك فقد حاول الرافعى جاهدا أن تجىء جهـــوده فى تجلية البلاغة القرآنية خالية من هـــذا اللون الجدلى والصـــبغ المنطقى الذى غطى على مباحث الســـابقين وأوقفها دون بلوغ غاياتها .

٥ — لقد خـــدم الرافعى الدين واللغة والقرآن خدمة جليلة بجهوده فى « اعجاز القرآن » الذى جاء كما قال المرحوم الزعيم « ســـعد زغلول » « فى بيان كأنه تنزيل من التنزيل ، أو قبس من نور الذكر الحكيم » .

٦ — ولقد حققت جهود الرافعى فى البلاغة القرآنية ما لم يحققه الذين ألفوا فى البلاغة وتخصصوا فى دراســـة الاعجاز على تبـــاين مناهجهم وتعدد مشـــاربهم واتجاهاتهم ، اذ اســـتطاع أن يقيم الفوارق المتينة بين بلاغة القرآن الكريم وبين بلاغة الكلام العربى ، وكشـــف أسرار البلاغة القرآنية ، ووضح ما بها من بيـــان وروعة .

٧ — وأسلوب الرافعى فى « اعجاز القرآن » هو أسلوبه فى معظم كتابته وهو اسلوب عربى متين ، محكم النسج ، رصين العبارات ، يفيض بالقوة والجزالة ، ليس فيه كلمات نافرة ، ولا الفاظ قلقة أو شاذة أو مستكرهة ، كما أنه واضح ومشرق ، وليس فيه غموض ولا تعمية ، وما يتوهم من غموضه فهو ضعف نظر ، وسوء تقدير ، وانما هى أفكار الرافعى المتعمقة ، ونظراته البعيدة ، وعلى القارىء أن يطيل النظر ويمعن الفكر ويستعين بالصبر والتثبت فى الوصول الى كنهها بعد أن يزود نفسه ويجهزها بالعدة اللازمة لذلك .

٨ — وارى أن نستعين بالمنهج الذى نجح به الرافعى فى تجلية البلاغة القرآنية فى دراستنا للبلاغة ، فلا نهتم الا باللب والثمرة ونصرف النظر عن كل مالا يقره الذوق ولا يسيغه الأدب من الجدل العقيم ، كما لا نوجه الى القواعد اهتماما زائدا ، وتكون عنايتنا بها محدودة ، وأن نستنبط تلك القواعد ونقف على أسرارها من خلال النصوص التى يجب أن نركز فيها على النصوص القرآنية .

٩ — كما أرى وأدعو أن يدرس « اعجاز القرآن » للرافعى فى كليات الأزهر ومعاهده ، فهو سبيل ميسور لادراك البلاغة القرآنية وبذل الجهد فى تفهم ما فيه ، وتذوق ما جاء به أجدى وأنفع بكثير من هذه الجهود التى تبذل عبثا وتضيع هباء فى ذلك الجدل الذى لا يكون ملكة ولا ينشىء ذوقا .

ولا ازعم اننى بلغت فى هذا البحث الغاية ، فالكمال لله وحده . وحسبى اننى قدمت فى هذا البحث جانبا من جوانب الرافعى المتعددة التى لم تطرق من قبل ، كما أضفت الى قائمة أعلام البلاغة علما لم يحظ من دارسى البلاغة بالعناية الكاملة ، ولم يلق التقدير الذى يليق به .

والرافعى مدرسة متعددة الجوانب ، ويحتاج كل جانب منها الى أن تفرد له الأبحاث المتخصصة ، وتعقد فيه الدراسات المتعمقة .

فنأمل أن يتبع هذا البحث عن الرافعى البلاغى بأبحاث فى بقية الجوانب التى تجلت فيها براعته ، وتألق نجمه ، كالرافعى اللغوى ، والرافعى النحوى والصرفى ، والرافعى الناقد ، والرافعى الشاعر ، لنؤدى بذلك بعضا من حقه علينا وشيئا من واجبنا نحوه .

« ثبت المراجع »

١ — كتب ومؤلفات الرافعى

١ — اعجــاز القرآن والبلاغة النبوية :
مصطفى صادق الرافعى — ط . ثامنة : ١٩٦٩ — المكتبة التجارية .

٢ — السـحاب الاحمر :
مصطفى صــادق الرافعى — القاهرة : ١٩٢٤ — المطبعة السلفية .

٣ — النشـيد المصرى الوطنى :
مصطفى صــادق الرافعى — ط . ثانية : نوفمبر ١٩٢٠ .

٤ — المســاكين :
مصطفى صادق الرافعى — ط . ثامنة : ١٩٦٧ ت : محمد سعيد العريان .

٥ — أوراق الورد :
مصطفى صــادق الرافعى —

٦ — تاريخ آداب العــرب :
مصطفى صــادق الرافعى — ط . ثانية — تحقيق : محمد ســعيد العــريان .

٧ — تحت راية القــرآن :
مصطفى صادق الرافعى — ط . سادسة : ١٩٦٦ .

٨ — حــديث القمــر :
مصطفى صــادق الرافعى —

٩ — ديوان الرافعى :
مصطفى صادق الرافعى — ثلاثة اجزاء فى مجلد واحــد — شرح : محمد كامل الرافعى .

١٠ — رســائل الأحــزان :
مصطفى صــادق الرافعى — ط . ثانية : ١٩٤٠ .

١١ — وحى القــلم :
مصطفى صــادق الرافعى — ثلاثة أجزاء — المكتبة التجارية .

٢ — مصادر البحث ومراجعه

١ — **التبيان فى علم البيان المطلع على أعجاز القرآن :**
ابن الزملكانى — تحقيق الدكتورين : أحمد مطلوب وخديجة الحديثى — ط . أولى .

٢ — **اتجاهات وآراء فى النقد الحديث :**
د . محمد نايل — القاهرة : ١٩٦٥ .

٣ — **التجديد فى الأدب المصرى الحديث :**
عبد الوهاب حمودة — دار الفكر العربى — القاهرة .

٤ — **التراث النقدى قبل مدرسة الجيل الجديد :**
د . عبد الحى دياب — القاهرة : ١٩٦٨ .

٥ — **التصوير الفنى فى القرآن :**
سيد قطب — ط . ثالثة : القاهرة .

٦ — **التفسير البيانى للقرآن :**
د . عائشة عبد الرحمن — القاهرة : ١٩٧١ — دار المعارف .

٧ — **التفسير الصوفى للقرآن :**
عبد القادر أحمد عطا — القاهرة : ١٩٦٩ .

٨ — **التفسير العلمى للآيات الكونية فى القرآن :**
حنفى أحمد — دار المعارف — القاهرة .

٩ — **التفسير النفسى للأدب .**
د . عز الدين اسماعيل — القاهرة : ١٩٦٣ — دار المعارف .

١٠ — **اثر القرآن فى تطور البلاغة العربية حتى نهاية القرآن الخامس الهجرى :**
د . كامل الخولى — ط . أولى — القاهرة : ١٩٦٢ .

١١ — **اثر القرآن الكريم فى اللغة العربية :**
محمد عبد الواحد حجازى — القاهرة — ط . مجمع البحوث الاسلامية سنة ١٩٧١ .

١٢— الرافعى ومى :
عبد السلام هاشم حافظ — القاهرة — وزارة الثقافة .
١٣— الرسالة الشافية :
عبد القاهر الجرجانى — ضمن رسائل فى اعجاز القرآن .
١٤— أسرار البلاغة :
عبد القاهر الجرجانى — ط . سادسة — تحقيق : السيد محمد رشيد رضا ١٩٥٩ .
١٥— الشعر المعاصر على ضوء النقد الحديث :
مصطفى عبد اللطيف السحرتى — القاهرة : ١٩٤٨ .
١٦— الشفاء :
القاضى عياض — جزآن — ط . الحلبى ١٩٥٠ .
١٧— الصاحبى فى فقه اللغة :
أحمد بن فارس — القاهرة ١٩١٠ .
١٨— الصبغ البديعى فى اللغة العربية :
د . أحمد موسى — القاهرة : ١٩٦٩ .
١٩— الصناعتين :
أبو هلال العسكرى — ط . أولى — ١٣٢٠هـ .
٢٠— الطراز :
يحيى العلوى — ثلاثة أجزاء — القاهرة ١٩١٤ مطبعة المقتطف .
٢١— اعجاز القرآن :
الباقلانى — ط . أولى : ١٩٥١ تعليق : محمد عبد المنعم خفاجى .
٢٢— اعجاز القرآن :
عبد الكريم الخطيب — ط . أولى : ١٩٦٤ .
٢٣— الأدب العربى بين الجاهلية والاسلام :
د . عبد الحميد المسلوت — القاهرة — ١٩٧١ .
٢٤— الأدب العربى المعاصر فى مصر :
د . شوقى ضيف — ط . ثانية — القاهرة : ١٩٦١ .
٢٥— الأديان فى القرآن :
د . محمود بن الشريف — القاهرة ١٩٧٠ — دار المعارف .

٢٦ــ الاســـلام والايمـــان :
د . عبد الحليم محمود ــ ط . ثانية ــ القاهرة .

٢٧ــ الأمــــالى :
الشريف المرتضى ــ جزآن ــ تحقيق : محمد أبو الفضـــل ابراهيم
ط . أولى : ١٩٥٤ .

٢٨ــ البرهان فى علوم القــرآن :
الزركشى ــ ط . أولى ــ الحلبى : ١٩٥٧ ت : محمد أبو الفضـــل
ابراهيم .

٢٩ــ البلاغة تطــور وتاريخ :
د . شوقى ضـــيف ــ ط . ثانية ــ القاهرة : ١٩٦٥ .

٣٠ــ البلاغة عند الســـكاكى :
د . أحمد مطلوب ــ ط . أولى ــ بغداد : ١٩٦٤ .

٣١ــ البلاغة العربيـــة فى دور نشـــأتها :
د . ســـيد نوفل ــ القـــاهرة : ١٩٤٨ .

٣٢ــ البلاغة وعـــلم النفس :
أمين الخولى ــ بحث مستخرج من كلية الآداب ــ المجلد الراجع ج٢ .

٣٣ــ البيـــان فى مباحث من علوم القرآن :
عبد الوهاب غـــزلان ــ

٣٤ــ الاتجـــاهات الوطنية فى الأدب المعـــاصر :
د . محمد محمد حسين ــ جزآن ــ القاهرة ــ المطبعـــة النموذجية
ط . ثانية .

٣٥ــ الجـــامع لأحكام القرآن :
القـــرطبى ــ ج١ .

٣٦ــ الحيـــوان :
الجاحظ ــ ج٤ ط . أولى : ١٩٤٠ ت : عبد السلام هارون .

٣٧ــ الخصـــائص :
ابن جنى ــ ج٣ ــ القاهرة : ١٩٥٦ ت : محمد على النجار .

٣٨ــ العقاد والتجديد فى الشـــعر :
العوضى الوكيل ــ القاهرة ــ دار الكاتب العربى .

٣٩— الفصل فى الملل والأهواء والنحل .
ابن حـــزم — ط بغـــداد .

٤٠— الفلســـفة القرآنيـــة :
عباس محمود العقاد — القاهرة : دار الهلال .

٤١— الفن القصصى فى القرآن الكريم :
د . محمد أحمد خلف الله — ط . ثانية — القاهرة : ١٩٥٧ .

٤٢— الفهـــرست .
ابن النـــديم — ط . بيروت .

٤٣— الفوائد المشـــوق الى علوم القرآن :
ابن قيم الجوزية — ط . أولى — القاهرة : ١٣٢٧ هـ .

٤٤— القرآن الكريم عرض وشرح بعض ما تضمنه من كبريات الحقائق لمعانى القـــرآن :
محمد كمال حسين — القـــاهرة — ١٩٧١ .

٤٥— القرآن الكريم ومعه صـــفوة البيان لمعـــانى القرآن :
حسنين محمد مخلوف — ط . أولى : ١٩٥٦ .

٤٦— القرآن المجيـــد :
محمد عزة دروزه — بيروت : المكتبة العصرية .

٤٧— القرآن : محاولة لفهم عصرى :
د . مصطفى محمود — القاهرة — مطبعة روز اليوسف .

٤٨— القرآن والعـــلم الحـــديث :
عبد الرازق نوفل — ط . ثانية — القـــاهرة .

٤٩— الكشـــــاف :
الزمخشرى — ط . الحلبى : ١٩٦٦ .

٥٠— المثل الســـائر فى أدب الكاتب والشـــاعر :
ضـــياء الدين بن الأثير — ط . أولى : ١٩٥٩ ت الدكتورين : الحوفى وطبـــانه .

٥١— المحـــافظة والتجديد فى النثر العربى المعـــاصر :
أنور الجنـــدى — القـــاهرة : ١٩٤٠ .

٥٢— **المختـــار من أدب الرافعى :**
صـــدر الدين شرف الدين — القاهرة : دار الكاتب العربى .

٥٣— **المختـــار من الاتقان فى علوم القرآن :**
السـيوطى — مراجعة عبد الوهاب حمودة — ط . وزارة الثقافة .

٥٤— **المدخل الى النقد الأدبى الحـديث :**
د . محمد غنيمى هلال — القــاهرة : ١٩٦٢ .

٥٥— **المذاهب النقـدية :**
د . ماهر حسن فهمى — القاهرة : مكتبة النهضـــة المصرية .

٥٦— **المزهر فى علوم اللغة وأنواعها :**
السـيوطى — جزآن : تحقيق : محمد أحمد جاد المولى وآخرون .

٥٧— **المعـــارك الأدبيـــة :**
أنور الجنـدى القــاهرة — مطبعة الرســالة .

٥٨— **المغنى فى أبواب التوحيـد والعـدل :**
القاضى عبد الجبار — ج١٦ ت : أمين الخولى — ١٩٦٠ .

٥٩— **النبـأ العظيم :**
د . محمد عبد الله دراز — القاهرة : ١٩٦٠ — مطبعة السـعادة .

٦٠— **النثر الفنى فى القرن الرابع :**
د . زكى مبـارك — ط . أولى — القــاهرة : ١٩٣٤ .

٦١— **النظم القرآنى فى كشـاف الزمخشرى :**
د . درويش الجنـدى — القــاهرة : ١٩٦٩ .

٦٢— **النقـد الأدبى من خلال تجـاربى :**
مصطفى عبد اللطيف السـحرتى — القاهرة : ١٩٦٢ .

٦٣— **النقـد الأدبى : أصـوله ومناهجه :**
سـيد قطب — ط . ثانية : القــاهرة : ١٩٥٤ .

٦٤— **النقـد الأدبى :**
أحمـد أمين — القــاهرة : ١٩٥٢ .

٦٥— **النقـد العربى الحـديث :**
د . محمد زغلول سـلام — القــاهرة : ١٩٦٤ .

٦٦— النقــد والنقــاد المعــاصرون :
د . محمد منــدور — القاهرة : مكتبة نهضــة مصر .

٦٧— النكت فى اعجــاز القــرآن :
الرمانى — ضمن ثلاث رســائل فى اعجاز القرآن . دار المعارف .

٦٨— الوحــدة الموضــوعية فى القرآن :
د . محمد محمود حجــازى — القاهرة ١٩٧٠ — دار الكتب الحديثة .

٦٩ الوســاطة بين المتنبى وخصــومه :
على بن عبد العــزيز الجرجانى — ط . رابعة : ١٩٦٦ ت : محمد أبو الفضــل وعلى البجــاوى .

٧٠— بغيــة الايضــاح :
الخطيب القزوينى — جا ط . ســادسة ت : عبد المتعال الصعيدى .

٧١— بيــان اعجــاز القرآن :
الخطــابى — ضمن ثلاث رســائل فى اعجاز القرآن .

٧٢— تاريخ آداب اللغة العربيــة :
جرجى زيدان — تحقيق : د . شــوقى ضيف .

٧٣— تحرير التحبير فى صــناعة الشعر والنثر وبيان اعجاز القرآن :
ابن أبى الاصبع المصرى — تحقيق : د . حفنى شرف .

٧٤— تفســير المنــار :
الســيد محمد رشــيد رضــا — جا ط . أولى .

٧٥— تطور الأســاليب النثرية فى الأدب العربى :
أنيس المقدسى — ط . أولى : بيروت : ١٩٦٠ .

٧٦— تطور الأدب الحــديث فى مصر :
د . أحمد هيكل — القــاهرة ١٩٦٨ .

٧٧— تطور النقد والتفكير الأدبى الحديث فى مصر .
د . حلمى مرزوق — ط . أولى — القــاهرة : ١٩٦٦ .

٧٨— حــديث الأربعــاء :
د . طه حسين — القــاهرة — دار المعــارف .

٧٩— حقــائق التأويل فى متشــابه التنزيل :
الشريف الرضى — جه شرح : محمد الرضا آل كاشف الغطاء .

٨٠ــ حيــاة الرافعى :
محمد ســعيد العريان ــ ط . أولى : ١٩٣٩ .

٨١ــ حياة محمد (صلى الله عليه وســلم) :
د . محمد حسين هيكل ــ ط . ثامنة القاهرة : ١٩٦٣ .

٨٢ــ حيــاة مى :
محمد عبد الغنى حسن ــ القاهرة ــ مطبعة المقتطف والمقطم : ١٩٤٢ .

٨٣ــ دراســات فى علم النفس الأدبى :
د . حامد عبد القــادر ــ لجنــة البيــان العربى .

٨٤ــ دراسة فى أدب الرافعى :
د . نعمات أحمد فؤاد ــ ط . ثانية ــ القــاهرة .

٨٥ــ دفاع عن البلاغة :
أحمد حسن الزيات ــ ط . ثانية : ١٩٦٧ .

٨٦ــ دلائل الاعجــاز :
عبد القاهر الجرجانى ــ ط . ثانية . تعليق : أحمد مصطفى المراغى .

٨٧ــ روح المعــانى :
الألوسى .

٨٨ــ ســاعات بين الكتب :
عباس محمود العقــاد ــ بيروت : دار الكتاب العربى .

٨٩ــ سر الفصــاحة :
ابن ســنان الخفاجى ــ شرح : عبد المتعــال الصعيدى : ١٩٦٩ .

٩٠ــ شرح نهج البلاغة :
ابن أبى الحــديد ــ ثلاثة أجزاء ــ بيروت : ١٩٦٣ .

٩١ــ عبــاس العقــاد ناقــدا :
د . عبد الحى دياب القــاهرة : ١٩٦٥ .

٩٢ــ فصــول فى الشــعر ونقــده :
د . شوقى ضيف ــ القاهرة .

٩٣ــ فصــول من النقــد عند العقــاد :
محمد خليفة التونسى ــ القاهرة ــ مكتبة الخانجى .

٩٤— **في الميزان الجـديد :**
د . محمد منـدور — ط . ثانية — القاهرة .

٩٥— **قدامة بن جعفر والنقـد الأدبي :**
د . بدوى طبانه — القاهرة : ١٩٥٨ .

٩٦— **قضـية الايمان بين الفلسـفة والعلم والقرآن :**
نديم الجسر — ط . ثانية : بيروت : ١٩٦٣ .

٩٧— **قضـية السـفود بين العقـاد وخصـومه :**
العوضي الوكيل — ط . أولى — القاهرة : ١٩٧١ .

٩٨— **قواعـد النقـد الأدبي :**
لاسـل آبر كرمبي — ط . ثالثة — ترجمة : د . محمد عوض : ١٩٥٤ .

٩٩— **كشـف الظنون :**
حـاجي خليفة — القـاهرة : ١٩٤١ .

١٠٠— **مباحث في علوم القـرآن :**
د . صبحي الصـالح — ط . سـادسة — بيروت : ١٩٦٩ .

١٠١— **متنـوعات :**
د . محمد كامل حسين — ط . ثانية .

١٠٢— **مصـادر الشـعر الجاهلي وقيمتها التـاريخية :**
د . ناصر الدين الاسـد — القـاهرة : ١٩٦٥ .

١٠٣— **مصطفى صادق الرافعي أديبا عربيا ومفكرا اسـلاميا :**
د . مصطفى الشـكعة — بيروت : ١٩٧٠ .

١٠٤— **مصطفى صـادق الرافعي :**
مصطفى نعمان البـدرى — بغـداد .

١٠٥— **معترك الأقران في اعجاز القرآن :**
السـيوطي — تحقيق : على البجـاوى .

١٠٦— **مقـالات في النقـد الأدبي :**
د . محمود السـمرة — بيروت .

١٠٧— **منـاهج تجديد في النحو والبلاغة والتفسـير والأدب :**
امين الخولي — ط . أولى — القـاهرة : ١٩٦١ .

١٠٨— من بلاغة القــرآن :
د . أحمد بدوى — ط . ثالثة — القاهرة .

١٠٩— من رســائل الرافعى :
محمود ابو رية — ط ثانية — دار المعــارف : ١٩٦٩ .

١١٠— من النقــد والأدب :
د . أحمد بدوى — القــاهرة : ١٩٦٥ .

١١١— من الوجهــة النفســية :
د . محمد خلف الله أحمد — القاهرة : ١٩٢٧ .

١١٢— منهج الزمخشرى فى تفسير القرآن وبيان اعجازه :
د . مصطفى الصــاوى الجوينى — القاهرة — دار المعارف .

١١٣— منهج القرآن فى التربيــة :
محمد شــديد — القاهرة — المطبعة النموذجية .

١١٤— موجــز البلاغة :
الطــاهر بن عاشــور — ط . أولى — تونس .

١١٥— موســيقى الشــعر العربى :
د . شــكرى محمد عياد — القاهرة — ط . أولى : ١٩٦٨ .

١١٦— نشــأة النقد الأدبى الحــديث فى مصر :
د . عز الدين الامين — ط . أولى — القاهرة : ١٩٦٢ .

١١٧— نهاية الايجاز فى دراية الاعجاز :
الرازى — مطبعة الآداب والمؤيد — القاهرة : ١٣١٧ هـ

٣ — المخطــوطات والرســائل العلمية

١ — ابن سنان الخفاجى وجهوده فى النقد والبلاغة :
د . عبد الحميد العبيسى — رســالة دكتوراه بكلية اللغة العربيــة بالقــاهرة .

٢ — اثر القرآن فى ادب الرافعى :
د . حسن عبد القادر عبد الدايم — رسالة ماجستير بكلية اللغة العربية بالقــاهرة .

٣— اسرار الاعجــاز فى النســق القرآنى :
د . ابراهيم اسماعيل عوضين — رسالة دكتوراه بكلية اللغة العربية بالقــاهرة .

٤ — **الدراســـات الأدبية حول الاعجـــاز القرآنى قديما وحديثـــا :**
د . صلاح الدين عبد التواب — رسالة دكتوراه بكلية اللغة العربية بالقـــاهرة .

٥ — **الرعاية فى تجويد القرآن وتحقيق التلاوة :**
ابن حموش القيسى — مخطوط بمكتبة الازهر تحت رقم ٧٧ قراءات .

٦ — **النقـــد الأدبى فى الربع الأول من القرن العشرين :**
د . أحمد حفنى — رسالة دكتوراه بكلية اللغة العربية بالقاهرة .

٧ — **الأثر القرآنى فى الصـــورة الأدبية :**
د . صلاح الدين عبد التواب — رسالة ماجستير بكلية اللغة العربية بالقـــاهرة .

٨ — **البحث البلاغى فى تفسير الكشـــاف وأثره فى الدراسات البلاغية .**
د . محمد أبو موسى — رسالة دكتوراه بكلية اللغة العربية بالقاهرة .

٩ — **المجيـــد فى اعجاز القرآن المجيـــد :**
ابن الزملكانى — مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم ٢٦٤ بلاغة .

١٠— **تحقيق اعجـــاز القـــرآن :**
ابن كمال باشا — مخطوط بمكتبة الازهر تحت رقم ٧٧ قراءات .

١١— **رســـالة فى المعجـــزة :**
محمد عبد الجواد الشـــاذلى — مخطوط بمكتبة اصـــول الدين تحت رقم٨٢ توحيـــد ومنطق .

١٢— **عبد الواحـــد بن عبد الكريم الأنصـــارى :**
د . محمد عبد الرحمن الكردى — رسالة دكتوراه بكلية اللغة العربية بالقـــاهرة .

١٣— **قضـــية اللفظ والمعنى وأثرها فى تدوين البلاغة :**
د . على محمد حسن — رسالة دكتوراه بكلية اللغة العربية بالقاهرة .

١٤— **متشـــابه النظم فى قصص القرآن الكريم :**
د . عبد الغنى الراجحى — رســـالة دكتوراه بكلية أصـــول الدين تحت رقم : ٧٦ تفســـير .

٢٥— **مصطفى صـــادق الرافعى — النـــاقد الأديب :**
د . طه عبد الرحيم عبد البر — رسالة ماجستير بكلية اللغة العربية بالقـــاهرة .

١٦— **مقالات أهل الفرق وجمهرة المسلمين فى اعجاز القرآن :**
د . أحمد محمد الحجار — مخطوط بكلية اللغة العربية تحت رقم ٨٢٣٧ رســـائل .

٤ — الدوريـــــات

١ — اعجـــاز القـــرآن :
عباس محمود العقـــاد — جريدة البلاغ الاسبوعى ١٠ ديسمبر ١٩٢٦ .

٢ — اعجـــاز القـــرآن للرافعى :
محمود أبو رية — جريدة الاخبار السبت ١٤ أبريل ١٩٢٨ .

٣ — الشـــعر العربى فى خمسين ســـنة :
مصطفى صـــادق الرافعى — المقتطف يناير ســـنة ١٩٢٦ .

٤ — الرافعى فى ذكراه الأولى :
محمد ســـعيد العريان — مجلة الرسالة عدد ٢٥٤ السنة السادسة مايو ســـنة ١٩٣٨ .

٥ — العرب والاســـلام والقرآن :
محمد فريد وجـــدى — جريدة البلاغ ٢٠ أكتوبر سنة١٩٣١ .

٦ — بين الرافعى والعقـــاد :
محمود شـــاكر — مجلة الرسالة مايو ســـنة ١٩٣٨ .

٧ — بين الرافعى والعقـــاد :
عبد المتعال الصعيدى — مجلة الرسالة عدد : ٢٥٥ مايو سنة ١٩٣٨ .

٨ — بين العقـــاد والرافعى :
سيد قطب — مجلة الرســـالة عدد : ٢٥٤ مايو سنة ١٩٣٨ .

٩ — تحيـــة للرافعى :
منصـــور فهمى — مجلة الرســـالة عدد : ٢٠٢ مايو سنة١٩٣٨ .

١٠— رســـائل الحب فى اللغة العربيـــة :
د . زكى مبارك — جريدة البلاغ الجديد ٢٨ يوليو سنة١٩٣١ .

١١— شـــاعر الملك :
يوســـف أحمد طيره — مجلة أبو لو ديسمبر سنة١٩٣٣ .

١٢— ظهور كتاب اعجاز القرآن احدى معجزات القرآن :
أحمد خيرى ســـعيد — جريدة الاخبار ١٨ أبريل سنة١٩٢٨ .

١٣— عصـــا موسى والبحر وبلاغة القرآن وبلاغة البشر :
عبد المتعال الصـــعيدى — جريدة البلاغ ٢٨ أغسطس سنة ١٩٣١ .

١٤— فلســـفة الحب عند العرب :
طاهر الطنـــاحى — مجـــلة الهلال — الجزء الخـــامس — السنة الحـــادية والاربعون .

١٥— فن رســـائل الحب فى الأدب العربى :
مصطفى صـــادق الرافعى — المقتطف — مارس ســـنة ١٩٣١ .

١٦— كلمة فى المعجـــزة :
عباس محمود العقـــاد — جريدة المؤيد — ٢٠ أبريل سنة ١٩١٤ .

١٧— مصطفى صـــادق الرافعى :
أحمد حسن الزيات — مجلة الرسالة عدد : ٢٠٢ السنة الســـادسة مايو ســـنة ١٩٣٧ .

١٨— مصطفى صـــادق فى ذكراه الأولى :
أحمد حسن الزيات — مجلة الرسالة عدد : ٢٥٢ السنة الســـادسة مايو سنة ١٩٣٨ .

١٩— مصطفى صـــادق فى ذكراه الأولى :
أحمد حسن الزيات — مجلة الرسالة عدد : ٢٥٤ السنة الســـادسة مايو سنة ١٩٣٨ .

٢٠— من النثر الجاهلى الى رســـالة محمد عليه الســـلام :
محمد لطفى جمعة — جريدة البلاغ الجديد ٦ سبتمبر سنة١٩٣١ .

٢١— نقـــد الشـــعر وفلســـفته :
مصطفى صـــادق الرافعى — مجلة أبولو — مايو سنة ١٩٣٢ .

ملاحظـــــة :

لقد وقفت على مئات من المقالات فى كثير من الصحف والدوريات عدا التى ســـبق ذكرها ، وأن كنت أفدت منها فى تأكيد معلوماتى عن الموضوع الذى أتناول بحثـــه ، فاننى لم أذكرها حيث لم تستخدم استخداما مباشرا ، ولم أنتفع بها بطريقة علمية .

٥ — دوائر المعـــارف والمحـــاضرات

١ — امين الخـــولى :

دائرة المعـــارف الاســـلامية — المجلد الرابع — مادة بلاغة .

٢ — ســـيد ابو المجـــد :

المحـــاضرات العامة للموسم الثاقف الثانى — مطبعة الازهر : ١٩٦٠م

٣ — محمد فريد وجـــدى :

دائرة معـــارف القرن العشرين — ط . ثانية ١٩٢٤ .

الفهرس

رقم الايداع بدار الكتب ٨٥/٤٤١٠
مطبعة الفجر الجديد